كريم كطافة

حصار العنكبوت

رواية | دار نون للنشر

رزمة أوراق قديمة، كتبتها حين كانت الأحداث لم تزل طازجة يتصاعد بخارها من أجسادنا، من تنظيراتنا، من احتفالات عدونا بنصره علينا، من هذيان مذيعين ومذيعات وصحف لم تنصفنا يوماً. لاحقت فصولها حين كان كل شيء لم يزل ينبض بدمه وبحرارة مراراته وملابساته الكثيرة. حكاية تصاعدت لولبياً مع صعودنا وهبوطنا على تجاعيد وأخاديد تلك الوديان الناظر إليها من فوق لا يجد فيها غير هاوية الجحيم.

حكاية تلك الكهوف التي كانت قبل أن نسكنها للوحوش. تلك الغرف التي نحتناها بنضيح عرقنا وهواجس جنوننا بموقد النار في حصارات الثلج التي لم تكن تمزح مع إهمالنا المديني... حكاية الحرب التي كانت فيها زوجاتنا وأطفالنا وأمهاتنا وأخواتنا وآباءنا هم الأسرى والأسلاب وهم الثمن الذي لم تختلف حول خمسه أو سدسه قبائل الأمن والمخابرات.. تقاسمت رفاتنا خارطة الدفن الجماعي التي افترشت البلد والتهمت المنافي القريبة والبعيدة ومن قاوم عوامل فنائه وفاض على حفلات الدفن.

... كريم كطافة



حصار العنكبوت

اسم الكاتب: كريم كطافة / عنوان الكتاب: حصار العنكبوت

صورة الغلاف: من أرشيف الكاتب / الغلاف والإخراج الفني: الناصري

الطبعة الأولى 2014 / 1000 نسخة / المطبعة الوطنية: عمان - الأردن



ISBN: 978-91-87373-51-0 / ©دار نون للنشر

ص.ب ٤٤٠٠٤ رأس الخيمة / دولة الإمارات العربية المتحدة

www.dar-noon.com

كريم كطافة

حصار العنكبوت

رواية | دار نون للنشر

فؤاد يلدا...

ما زلت الجرح الناتئ في روحي

قبل أن أتلبّس بقناع الوسيط

عشرون سنة وأنا كالشاة المشدوهة أمام رزمة أوراق قديمة، كتبتها حين كانت الأحداث لم تزل طازجة يتصاعد بخارها من أجسادنا، من تنظيراتنا، من احتفالات عدونا بنصره علينا، من هذيان مذيعين ومذيعات وصحف لم تنصفنا يوماً. لاحقت فصولها حين كان كل شيء لم يزل ينبض بدمه وبحرارة مراراته وملابساته الكثيرة. حكاية تصاعدت لولبياً مع صعودنا وهبوطنا على تجاعيد وأخاديد تلك الوديان الناظر إليها من فوق لا يجد فيها غير هاوية الجحيم، حكاية تلك الكهوف التي كانت قبل أن نسكنها للوحوش. تلك الغرف التي نحتناها بنضيح عرقنا وهواجس جنوننا، بموقد النار في حصارات الثلج التي لم تكن تمزح مع إهمالنا المديني. لقد أكل الثلج منا أصابعاً وسيقاناً تغنغرت في وحوله. حكاية الحرب التي كانت فيها زوجاتنا وأطفالنا وأمهاتنا وأخواتنا وآباؤنا هم الأسرى والأسلاب الذين لم تختلف حول خمسهم أو سدسهم قبائل الأمن والمخابرات. تقاسمت رفاتنا خارطة الدفن الجماعي التي افترشت البلد والتهمت المنافي القريبة والبعيدة، من قاوم عوامل فنائه وفاض على حفلات الدفن. لم نكن مرتزقة هبوا للقتال طمعاً في مال، كما لم نكن جنوداً غُلبوا على أمرهم وتم سوقهم عنوة. كنا شباناً مهووسين بحلم يلوح لنا في آخر النفق الطويل كأنه الحقيقة، حلم مراوغ يبتعد كلما اقتربنا. منا من كان يؤمن حتى وهو في لجة التجربة، أن الكتب قادرة على تغيير العالم، واللوحة تهزم القبح، والموسيقى تجترح المعجزات. ومنا من آمن أن مصير العالم مربوط على بندقيته بين الفرضة والشعيرة. كان بيننا حالمون مقنعون بأقنعة فلاسفة ومنظّرين لمدن

فاضلة. مثلما التحق بنا جنود هربوا من حروب ليست حروبهم، وفلاحون امتزج إخلاصهم للرفقة بشرف العشيرة وقيمها. وأمهات وزوجات وأخوات وآباء وأطفال جرى تهجيرهم إلى معاقلنا الجبلية بجريرة ذوي القربى...

إلى كل أولئك الرجال والنساء والأطفال الذين قاسمتهم تضاريس تلك الأيام، أهدي هذا الذي لا أدري ما سيكون.

(١)
توقفت الحرب

ليست حربهم التي توقفت، بل الحرب الأخرى؛ الحرب التي تمردت على تنبؤات العرّافين بكل ألوانهم، عجز الجميع عن تحديد نهاية لها. بدت حرباً مستدامة يزداد وهجها على مر السنين مثل تنور يشعل نفسه بنفسه، حرب بين رأسين اعتمرا الدين واليقين والتاريخ، تارة بقلبِ ذلك الخزين على ظهره، وأخرى على صدره. على مدى ثمان سنين ظلت الكائنات من بشر وحيوان ونبات تتقلب على ذلك السعير بين ظاهر النص وباطنه. !! الاثنان استلفا وقود حربهما من التاريخ، وبفرعيه المقدس والمدنس، الأمر الذي جعل العرّافين يعتمدون منطقاً آخر لا ينتمي لصنوف المنطق المعروفة في تحديد البدايات والنهايات المحتملة للحروب. منطق الغيب ذاته. أركن مروجو السلاح وصنّاعه إلى خرافة التعب؛ سيتعب الاثنان معاً وتتكسر قرونهما. إنها حرب عقيمة بلا نصر ولا هزيمة، ومن الآن إلى ذلك اليوم الذي ستُكتشف فيه بِذور عقمها وانسدادها، هي سوق جارية. لِمَ العجلة؟ والرابضون على بحيرات النفط المجاورة للحرب، ركنوا ليقين؛ أنها حربهم إنما يخوضها غيرهم. لِمَ العجلة؟ والممسكون بسوق المال كذلك ليسوا على عجلة من أمرهم ما دام شريان النفط جارياً من منبعه إلى مصبه في بنوكهم، أما الكائنات المسحوقة بتروس آلات الحرب ومن جانبي المتراس، فلم تجد أمامها غير أسطورة الظهور إياها بلسماً لمداواة الجراح وكسر الملل، سيظهر ((المنتظر)) لأن علامات الساعة قد أُزفت. ها هي الدماء يصل نضيحها إلى الرُكِبْ، وها هي الأنهار المذكورة في علامات الساعة قد تلونت بالأحمر القاني،

وها هي الجموع تتبع الدجال السائر بها إلى حتفها كأتباع العبيد ناثراً عليهم النقود، وقطع الأراضي مع أكداس الدجاج والسيارات البرازيلية، رغم أن البرازيل بسياراتها وبدجاجها المذبوح ذبحاً حلالاً لم تكن ضمن علامات الساعة. !! داوموا على العد والانتظار. لم يتبق من العلامات العشر سوى القليل، سينبثق النجم الثاقب من علياه السماوي، وستظهر الدابة التي تكلم البشر، وسيسمعها ويفهمها كل من على الأرض من مشرقها إلى مغربها، وستشرق الشمس من مغربها، بعد الرعدة التي ستجعل القائم جالساً والجالس قائماً. كل شيء قد أُعد لظهور المنتظر الذي سيملأ الأرض عدلاً بسيفه البتار كما ملئت جوراً.

لكنها توقفت. توقفت قبل اكتمال علامات الظهور، ظلت الشمس تشرق وتغرب من وإلى مستقرها العتيد، وظل شريان النفط يجري من منبعه إلى مصبه بتدفق واندفاع كبيرين. !! فجأة أعلن الرجل الكبير عمراً وفقهاً عن قبوله بجرع (كأس السم). !! هكذا وصف قبوله قرار وقف الحرب، أراد لطريق حربه أن ينتهي بكربلاء حيث قبر جده وها هو يقف عند الحدود بلا نصر ولا هزيمة. !! ليخرج الرأس الآخر مساء ذات اليوم يقود سيارة (مرسيدس) عجيبة الطراز واللون، يشق طريقه بصعوبة وسط أطواق الحماية والجموع المحتفلة ببقائها على قيد الحياة، معتمراً عقال وشماغ القبيلة، ومعلناً أنه المنتصر. ارتدى وجهه ملامح الفاتحين الداخلين إلى مدنٍ انتهت تواً جحافل جيوشهم من تنظيفها من كائناتها، تاركة له هذه الحشود لمتطلبات الاستقبال، كلّت يداه وهو يلوِّح بها للحشود؛ أن افتحوا لي طريقاً. كانت سعادته تطفح من لمعان عينيه الصقريتين، ومن ابتسامات صامتة، تارة يمن بها على من حوله وتارة يهديها للجمهور، حتى إن إحداها كانت ضحكاً صريحاً وهو يشاهد أحد المحتفلين في وسط الجمهور يشق دشداشته طولياً ثم يأخذ باللطم على رأسه وصراخه يتصاعد، إنما الصراخ الضائع وسط لجة صراخ الحشد، لعله رغب حينها أن يسمع، بماذا كان يصرخ ذلك الرجل المأخوذ بجنون الفرح الجماهيري، اكتفى بالضحكة الصريحة ولجم رغبته تلك بوقار وهيبة شيخ القبيلة. لم يقل شيئاً لتلك الجموع الهاتفة بفدائه

بالروح والدم، ظلت يداه تحيّي صراخهم وتطلب منهم أن يفسحوا لعجلته طريق المرور. توقفت الحرب وتقاسم الرأسان نوعاً من عدالة الأقدار، كلٌّ في مكانه على قيد السلطة كما كانا قبل اشتعالها.

في غرفة جبلية تشبه كهفاً يعلمك ببكارة الطبيعة الغفلة، نُحِتَ جوفها من صخور وأشجار الجبل، متخفية في تلافيف سفوح (گارا) المهيب، برشاشها ذي القوائم الثلاث الرابض قرب مدخلها مثل كائن قادم من زمن الأساطير، كانوا ستة وسابعهم تلفاز صغير يعمل على بطارية تشحن عبر الألواح الشمسية، تابعوا احتفال القائد بنصره بمشاعر حيرى من فرح على غيظ مجهول المصدر. انبجس فرحهم من منابع بعيدة، لكنه لم يصل إلا ذاوياً ملوثاً بهواجس الغيظ المجهول. شيء ما أعلمهم أن رتابة وانسداد الأيام قدِ ولى، شيء قد حصل للتو، نقطة بحجم الجحيم القادم قد وُضعت بنهاية سطور أيامهم المتشابهة، كل ما بعدها سيكون آخر مختلف، لا عهد لهم به وما عليهم سوى تصديقه ومواصلته، وبتدرج ممل تحول ذلك الشعور الملتبس مع فحيح التلفاز الناقل لفحيح الجمهور إلى احتصار في الصدور، بدا كلٌّ منهم وبفعل لا إرادي يبحث عن ما يفك به مغاليق احتصار، منهم من تسللت يده لتمسك بخناقه في منطقة البلعوم، وكأن ذلك الشيء لاصق هناك لا يريد الخروج، منهم من ترك أصابعه تعبث في شعر لحيته الكث باحثاً هناك، منهم من وجد يده تمتد لترتد بـ(زمزمية) الماء الكائنة على خصره، ولأن الزمزمية وصلت إلى فمه، كان عليه أن يشرب، ومنهم المرأة الوحيدة في ذلك الجمع الذكوري، أخذت يدها تبحث عن يد زوجها الجالس جنبها، لتشد عليها بتوتر وإلحاف حتى التصق جسدها بجسده. بعد حين وجد المدخنون ملاذهم بالسيجارة، يسحب الواحد منهم نفساً من سيجارته، وكأنه يريد ابتلاع السيجارة، لا الدخان الخارج من أنفه وفمه، بسحب تتوالى بأشكال إهليلجية متباطئة. ظلت مشاريع القول متواشجة مع خيوط الصمت الراشحة من ضوء الفانوس الوحيد، مختلطة بدخان السكائر وروائح تنثرها أجسادهم الناضحة بعرق صيف آب الخانق. نهض فؤاد من جلسته كنابض كان مضغوطاً،

انتشل بندقيته القصيرة التي كانت موضوعة أمامه، ومعها رفاقه من صمتهم المغلف بالغيظ. بدا غاضباً ونافذ الصبر على غير سجيته الصبورة المرحة في كل الأوقات والظروف، انتفخت أوداجه بالاحمرار القاني حتى غطت على لون شعر لحيته الشهباء، وتدورت عينا القط الزرقاوتين بلمعان صار يلصف تحت جبينه الذي تجعد ببعض خصلات شعره الأشقر، أعلن النية على الخروج وكأنه يودعهم إلى الأبد: إني نازل. !!

لعله أراد الهروب من احتصار، لكنه وقبل الخروج وقف قبالة بوستر سياسي معلق على الجدار كتب عليه: (من أجل وقف الحرب فوراً وإسقاط النظام الدكتاتوري). تأمل البوستر وكأنه يراه للمرة الأولى، تذكر نبوءات درج على ترديدها مسؤولون حزبيون عن انتفاضات قادمة بعد توقف الحرب، أبطالها جنود عائدون من الجبهات، سيواجهون النظام بسؤال لا جواب عليه: ما الذي جنيناه من الحرب...؟ انفرجت أساريره عن ابتسامة لا تشبه الفرح، وقبل خروجه، ترك لرفاقه ما يبددون به غلالة الصمت، ترك أحجيته أو معلقته:

- حمار الملك لم يتعلم القراءة والكتابة. والجنود جنود. انتهت المهلة يا رفاق.

قال لغزه المنذر بهدوء من انتهى تواً من تقليب صفحات المجهول الكامن فيه مصيره وخرج، رماه فوق رؤوس جلساء الغرفة، وتخفف من ذلك الوزر العالق في جسده، لم يعلق أيّ منهم على ما قاله، واكتفى الجميع بابتسامات لم تجدِ نفعاً مع سيماء الوجوه المجعدة ما زالت بالغيظ، إنما الأجساد المسترخية في ظلال الفانوس الوحيد بدأت بالتململ، بدا لهم ما قالته واحدة من معلقاته، هكذا كانوا يصفون وسيلة فؤاد في التعامل مع الأفكار والأحداث مهما تعقدت وكبرت، باختصارها وضغطها إلى حجوم غالباً ما تكون غير مفهومة لمن لا يعرفه. يختزل التعقيد الكامن في الأشياء والأحداث، ثم يغلفه بنكتة أو مفارقة حصلت معه أو مع غيرهن. هو سريع الملل من الشارحين والمنظرين والمحاضرين، اعتادوا عليه في المحاضرات لاهياً بقلم الرسم ذي النبلة الدقيقة، ودفتره

الصغير اللصيق به، محققاً هروبه بخطوط يؤالفها على أنساق يستلها من صفحة خياله المأخوذ بعوالم بعيدة عن عوالم أشباهه، ليأخذ ذلك الهروب لاحقاً شكل لوحات مكتملة أو مشاريع للوحات ستكتمل، وإن لم يجد ضالته في خطوطه، يهرب بعيونه الزرقاء البرية إلى حيث متعلقات الجدار المقابل، يبحث هناك عن أشكال وأفكار ورؤى تجسدها خارطة الأشياء المعلقة بإهمال من حقائب ظهر، بنادق، أحزمة عتاد، شراويل عتيقة، يشاميغ، بشاتين، وغيرها الكثير.! قال مرة مازحاً وهو يرد على المحاضر الذي سأله:

- رفيق فؤاد. !! أنت معنا؟

- بصراحة، أفكر شلون توصلنا هنا في هذه العزلة إلى فن الانستليشن.!!

سيتحول السؤال وجوابه الغامض إلى مناسبة ضحك ينتاب جميع الحاضرين مثل فاصل استراحة. ليجيب على سؤالهَ:

- بشرفي آني ما دا اتشاقى، بس ركزوا شوية على الحائط.

تدار الرؤوس إلى حيث الجدار الذي أشار إليه، الجدار المزدحم بأشيائهم:

- قليل من الخيال، راح تشوفون لوحة مكتملة معمولة بطريقة التركيب، هذا هو فن الانستليشن. !!

وهذا هو فؤاد؛ لا يرى في موجودات عالمه الجبلي سوى لوحات يؤثثها بخياله المأخوذ بعوالم لا يصلها الرائي الآخر، هو ليس هنا في كل الأحوال، لكن، وعلى الرغم من غيابه الواضح، وبعد انتهاء المحاضرة سيفاجئ الجميع باختزال مناسب لما قيل على لسان المحاضر أو أحد المعلقين، اختزال يقدمه على شكل نكتة، يكون ضحيته القائل. اختزالات فؤاد في الغالب غير بعيدة عن مقاصد القول للمحاضر، أو للمعلقين، ويتقبلها حتى من يكون هو الضحية، لتتحول فيما بعد إلى نكات يتندر بها البعض في مناسبات عديدة ويتناساها البعض الآخر. منهم من تعود عليه وصار يفهم ألغازه الطائرة، وهؤلاء حلقته الضيقة من الأصدقاء، ومنهم من ظل على قناعة بأن هذا الشاب الملتحي بهالة تشبه هالة وجوه القديسين في الأيقونات المسيحية، في رأسه (وشيش) الجنون.

مع بدء ذبذبات الشاشة الصغيرة بالتغبيش منذرة بدنو أجل بطارية الشحن، بدت معلقة فؤاد كأنها قد سهلت لجلساء الغرفة الكهفية أمر خروج أشيائهم الباحثين عنها.

قالت وضحة وأصابع يدها ما تزال تشد بذات التوتر على أصابع زوجها:

- صار الموقف صعباً، ماذا أعددنا لنهاية الحرب؟

رد زوجها أبو طيف:

- لنرى خطة طوارئ الحزب.

علق كمال الزيباري ساخراً:

- يمعود! هل صدقت أنت الآخر أن للحزب خطة طوارئ؟

رد حاتم:

- أعتقد جولة أبو طاروق قبل شهرين لها علاقة بخطة الطوارئ.

ضحكت وضحة بصوت عالٍ، واكتفى كمال برزم شفتيه، كما اعتاد حين يريد الضحك، كأنه يبتلع ضحكته، تذكروا كنية أبي طاروق والذي هو تركيب معقد اقترحه المسؤول السياسي للسرية الرابعة أبو حمدة، المشهور عنه دمج ما لا يُدمَج من صفات وأسماء في لجة لهفته لقول أخبار يعتقد أنها لم تزل طازجة، لم تصل غيره بعد، يقولها بلهجة تبعثر الأسماء والحروف، هكذا دمج على طريقته اسمين لقياديين من المكتب السياسي للحزب بمسمىً واحد، كان أحدهما يدعى أبو فاروق والثاني أبو طارق. ومن حينه تحول أبو طاروق إلى ما يشبه الكودة السرية ما أن تُطلق في مكان حتى يضج المكان ضاحكاً.

حصل أن نزل القياديان أبو طاروق من مقرهما الكائن في المثلث الحدودي العاصي على ثلاث جيوش، بجولة ميدانية شملت أفواجاً وسرايا، وعلى غير العادة لا ليلقيا محاضرات أو يوصلا توجيهات، بل ليستمعا إلى ما يقوله رفاقهما العاملون في الميدان. كان مشروعهما مكوناً من سؤالين بحثا لهما عن إجابات:

١. ماذا تعتقد سيحدث فيما لو توقفت الحرب فجأة؟

وكانا يقصدان الحرب المشتعلة على الحدود.

٢. ما هي إمكانياتك الفعلية للعمل في مدينتك أو في مدينة أخرى فيما لو طُلبَ منك ذلك؟

وتم اختيار المقاتلين المرشحين للإجابة بالتشاور مع قيادات الأفواج والسرايا، منهم كوادر ومنهم أنصار، منهم حزبيون قدامى ومنهم ملتحقون جدد، لكن، الغريب في أمر تلك الجولة أنها وبعد حين قصير، نُسيت تماماً بمشروعها وأسئلتها والإجابات المقترحة، ولم يتبق منها غير لقب أبي طاروق المتحول إلى نكتة طازجة انتشرت بسرعة مذهلة، وعلى مساحة تواجد السرايا والفصائل والأفواج، حتى تلك التي تبعد عن مكان الحدث مسيرة عشرة أيام من السير الجبلي. !!

تشعب جدل المجادلين في ذلك الكهف الجبلي عن وجود أو عدم وجود، عن أهمية أو عدم أهمية خطة الطوارئ، ليعود ويتكور أخيراً حول سؤال النصيرة وضحة: ماذا أعددنا لنهاية الحرب؟ اكتشف كلٌّ منهم أنه كان محتصراً بذات السؤال، هو تلك الكتلة العمياء الرابضة في صدورهم، إنه سؤالهم القديم، السؤال الناغز مثل شوكة عالقة في الخاصرة، ما أن تحركها حتى تلسعك، اعتادوا في أحيان كثيرة على تقليبه، ولما لم يصلوا معه إلى شيء، يعيدونه ثانية إلى حقائبهم الظهرية. لعل السبب؛ ألا أحد كان مصدقاً أن تلك الحرب يمكن أن تنتهي، مثلما هو غير مصدق أن حربهم الجبلية المشتعلة على هامش المدن والبلدات الكردية قادرة على إسقاط النظام في العاصمة. !! وها هو السؤال ينبعث من رماده.

منذ الانسحاب الكبير الذي أقدم عليه الجيش الحكومي في بدايات الحرب الخارجية، بفعل التداعيات الحاصلة على الجبهات الطويلة مع إيران، ترك خلفه مساحات شاسعة من الريف الكردي الجبلي تؤول إلى سيطرة المسلحين الكرد بفصائلهم المتنافسة، وكان هؤلاء قد بدأوا تمردهم المسلح بحرب عصابات تُمارس خلف وبين خطوط تواجد قطعات الجيش قبل اندلاع الحرب الخارجية

بسنوات، بذلك الانسحاب غدا أغلب الريف الكردي بحورتهم، لكنه الريف الخالي من الفلاحين، أطلق الجيش المنسحب على تلك المناطق المتروكة مسمى (المناطق المحرّمة)، تُرك أمرها للطائرات الحربية بأنواعها، لتضرب كل مصدر حركة يُشاهد فيها، وأطلقوا هم عليها مسمى (الأراضي المحررة). مع مرور السنين، نجح في التسلل إلى هذه المناطق المحررة- المحرمة الكثير من الفلاحين، سواء من الذين كانوا نازحين إلى المدن القريبة، أو أولئك الذين سبق لهم أن أُجلوا عن قراهم بعد هزيمة ثورتهم الأولى، الثورة التي كانوا فيها جيشاً لجباً من مقاتلين جبليين تنظمهم تشكيلات قبلية، استعصى أمر تمردهم لعقود من السنين على جميع الحكومات بجحافل جيوشها المختلفة، لكنهم انهزموا أخيراً، ليس بفعل تلك الجحافل المدججة بالسلاح ونوايا التدمير الشامل، بل بفعل التوقيع على بضعة أوراق لتنازلات متبادلة حصلت بين رأسي الدولتين المتقاسمتين لأرض الكرد، تخلى بموجبها أحدهما عن نصف نهر حيوي كائن في أقصى الجنوب مع بضعة أميال من أرض خالية، لتتخلى الدولة الأخرى عن كونها القاعدة الخلفية للثورة الكردية المسلحة. خلال أسابيع قليلة تُرجمت بنود الاتفاقية سريعاً على أرض الكرد، تشرذم الجيش الفلاحي الكبير بين قتيل وأسير ولاجئ ،وهربت القيادات العليا إلى مناف بعيدة. لم يعد للثورة من ظهير إسناد، جمع الجيش المنتصر الأسرى والمستسلمين من المقاتلين والعوائل، وشحنوهم بالقطارات والشاحنات إلى مدن وأرياف تقع كلها جنوباً وغرباً، نفوهم إلى جهات لا يصلها نسيم الجبل، وكأن الجبل في حسابات الحكومة وجيشها كان هو سبب بلاء تلك الكائنات وانشغالها الدائم بالتمرد. خلفوا وراءهم جبالهم، وقراهم، ببساتينها وحقولها نهباً للنيران ولأصابع الديناميت، أرضاً محروقة. احتضنتهم هناك في الغرب والجنوب العشائر العربية بما يلائم خصلة إكرام الضيف، كانوا ضيوفاً واستمروا ضيوفاً، لم يفكر أحد منهم بالاندماج مع محيطه الجديد مثلما لم يستوعب المحيط ذاته تلك الإمكانية. ظلوا يقتاتون أيامهم على حلم كثيراً ما راود مخيلتهم الجبلية؛ حلم العودة، وها هي الفرصة

تحين مع انتشار مجاميع صغيرة لشبان مقاتلين مفعمين بالإصرار على إعادة إنتاج الثورة من جديد، إنما الثورة المحرومة من دعم وإسناد زعماء القبائل (الأغوات) هذه المرة، (الأغوات) الذين كانوا هم القادة في الثورة الأولى. لقد تحقق حلم الفلاحين المنفيين بالعودة إلى قراهم وجبالهم لإعادة إحياء ما دُمر وحُرق، على مدى سنين الحرب الخارجية المشتعلة على جبهات بعيدة عن جبالهم، نهضت القرى من رمادها المدفون تحت الأعشاب وأكوام حجارة السيول المجروفة من الوديان وأُعيدت الحياة للبساتين والحقول المهجورة، لكن انكسار (الثورة الأولى) ظل ملازماً لتعامل الفلاحين العائدين مع مقاتلي الثورة الجديدة. وجدوهم خليطاً غير متجانس من فصائل وأحزاب بينها من الخصومة أكثر مما بينها من الود، شبان ليسوا بزعماء عشائر ولا حتى ما دونهم، يلهجون بأفكار وحكايات عن ثورة جديدة تختلف عن تلك القديمة، ثورة الفقراء لا ثورة الأغوات. ظهرت معهم بعد حين مجاميع لمقاتلين من نوع آخر، خليط من عرب وكورد وكلدان وآشوريين وتركمان وصابئة ويزيدين، وكان مع هؤلاء نساء مصنرات بأشرطة الرصاص وبنادق أطول من أجسادهن النحيفة والقصيرة. !! إنهم الشيوعيون القادمون من مدن وأرياف الوسط والجنوب والغرب من ذات الأصقاع التي لم يصلها نسيم الجبل، مقاتلون بدوا غير منسجمين بعد مع لباسها الكردي، يلهجون أكثر من غيرهم بطلاسم عن عمال وفلاحين وفقراء وأغوات، عن أسماء وصفات وأحداث وأمكنة وقصص كلها تقع خارج نطاق الجبال التي يعتبرها الفلاح الكردي هي العالم ولا شيء بعده. كل ذلك الزخم من الكلام غير المردف بأعمال عسكرية واضحة، إذ لا أهداف عسكرية في منطقة متروكة أصلاً، جعل الفلاحين يستمعون إلى أحاديث هؤلاء المقاتلين بهزات الرؤوس وبعيون غير مستقرة باحثة عن شيء، غير متيقنة من وجوده في المكان، عيون كأنها تريد إخفاء الشك الكامن تحت جليد ذلك الانكسار الذي يُشاهد متلجلجاً في المآقي وفي عبارات الترحيب وفي الحذر المتوجس من تقديم العون الذي يطلبه المقاتلون.

كان باروميتر السؤال (ماذا أعددنا لنهاية الحرب) يصعد ويهبط تبعاً للأخبار

التي تنقلها راديوهات الترانسيستور الصغيرة المحمولة في الحقائب الظهرية مع الخبز والشاي، والسكر وجبنة الكشك الصلبة، واحتياط العتاد، أخبار لجان المساعي الحميدة الساعية لوضع نهاية للحرب التي بدت متطاولة وخارجة عن حدود احتمالات مراكز البحوث والاستطلاع، والتي لم تبق دولة إلا ودخلت على خطها من الأمم المتحدة إلى سلطنة بروناي. كذلك يعمل البارومیتر مع كل هجوم إيراني تنبئ ملامحه للوهلة الأولى، وبموجاته البشرية المخيفة، أنه سيكون حاسماً كاسحاً هذه المرة، لكنه ككل مرة يفشل في كونه كذلك، يرتد المهاجمون على أعقابهم مخلفين وراءهم جثث الضحايا من العراقيين والإيرانيين تنهشها جوارح الأرض والسماء، لم يخرج السؤال في كل الحالات عن ملامح السؤال الافتراضي، وهل لك أن تجيب على سؤال افتراضي دون أن تقترح له واقعاً افتراضياً كذلك. !؟

(٢)
حمار الحرب

قطع رنين الهاتف العسكري الكائن في الزاوية البعيدة من الغرفة، جدل المجادلين حول خطة الطوارئ. نهض وافي إلى حيث الجهاز وبعد تعرفه على الصوت القادم، صار يختصر إجاباته بـ(نعم) وهو يرنو إلى حاتم آمر السرية الثانية، أنهى المكالمة القصيرة بـ: طيب سأخبره.

عاد من زاوية التلفون، وانتشل قماش بشتينه[١] الطويل من على الفرشة، وصار يلفه على خصره، وهو مستغرق في لفات القماش يدورها على خصره، قال لحاتم:

- رفيق حاتم! الرفيق أبو منيب يريدك.

كان حاتم مستلقياً على جنبه على حشية من الصوف واضعاً كف يده أسفل وجهه، ما زال ينظر إلى شاشة التلفاز المطفأة، لم يشترك بجدل الطوارئ باستثناء تذكير المتجادلين بنكتة أبي طاروق، ردد بتململ وكأنه يكلم نفسه:

- يعني ما توگف الحرب الگشرة إلاّ بهذا اليوم. !؟

علّق كمال الزيباري:

- يعني، طارت الإجازة. !!

رد بذات التململ:

- إذا كان بس على الإجازة تهون.

١- بشتين: قطعة طويلة من قماش خفيف، يلف حول البطن فوق الصديري والشروال وهو زي كوردي تقليدي.

خرج من تململه وجلس، لكنه وبدلاً من أن يستعد للنزول إلى مقر القاعدة، إلى حيث أبو منيب الذي طلبه، وجد نفسه يضحك، بدأ ضحكة بنوتات متدرجة من الواطئ إلى العالي، سأله وافي المنشغل بلفات بشتينه الطويل وباندهاش:

- وأنت عليمن تضحك. !؟

- تذكرت معلقة فؤاد. !!

ضحك كمال مجارياً حاتم، وظل وافي متكدراً بملامح ما تزال تشي بالغضب، أنهى آخر لفة من لفات بشتينه الطويل، وتحزم بصف رصاصه، رد على حاتم وكأنه يؤنبه:

- الله يخليك حاتم إعفينا من فؤاد ومعلقاته. الوضع فعلاً صار صعب.

رد حاتم سريعاً:

- بس فؤاد عنده حق. !!

انتشل وافي بندقيته الكلاشنكوف القصيرة المعلقة على الجدار، وخرج إلى حيث حراسته الليلية بلا تعليق.

سأل كمال:

- يعني أنت شايف أكو رباط بين الحمار والملك والحرب. !!؟

استعاد حاتم جديته وهو يفرغ فمه من بقايا الضحك، قائلاً:

- الرباط في عقل فؤاد، أنت تتذكر حكاية الفقير الذي رضي تعليم حمار الملك القراءة والكتابة مقابل كمية من الذهب.

حين سألته زوجته: لماذا ورطت نفسك فيما لو انقضت المهلة والحمار حمار...؟

أجابها:

- لا ورطة ولا هم يحزنون. خلال الثلاث سنين التي طلبتها مهلة لتعليم الحمار، مؤكدٌ سيموت أحدنا، إما الملك، أو الحمار ،أو أنا.

يعتقد فؤاد أننا راهنا على نهاية الحرب وعلى أسئلة الجنود العائدين.

قاطعه كمال كمن وجد شيئاً كان يبحث عنه:

- بشرفي فؤاد يفتهم. مراهنتنا على نهاية الحرب وأسئلة الجنود تشبه تلك المراهنة، شتقول حاتم؟

نهض حاتم يجمع أغراضه المبعثرة حوله، وهو يستعد للنزول:

- أروح أشوف أبو منيب شريد.

أراد حاتم من مقر فصيل الإسناد منتجعاً لقضاء إجازة يراجع بها قرار لا حدود لاستثنائيته على صعيده الشخصي، قرر ترك العمل العسكري والعودة إلى مدينته البعيدة في أقصى الجنوب لمعرفة مدى القدرة على دخول كواليس العمل السري هناك، نوع من حركة تشبه عملية تبديل الجبهات في حرب لا تريد أن تنتهي. طلب من المسؤول الجديد للفوج إعفاءه من أمرة السرية وتكليف معاونه حاجي، غير أن المسؤول لم يوافق، طلب منه أن يأخذ إجازة في فصيل الإسناد لمراجعة الأمر.

العزلة شبه كاملة، المكان متخف في طيات سن صخري، مشرف على مساحة واسعة من فضاء تنفتح معه الرؤية على مساحات وجبال، وتلال كلها تقع جنوباً، يتوفر على أخاديد وانبعاجات في سفح الجبل، تعطي إحساساً بمحاريب المتصوفة والكهان، أما في الليل فيستطيع من عليائه هذا أن يرى الخارطة الضوئية لبلدات وقرى كأنها جزر من الضوء في بحر الليل المهيمن. إنها المرة الأولى منذ التحاقه بتشكيلات الأنصار[٢] بل خمس سنين، يشعر بحاجة التفرغ مع نفسه ولنفسه، تبين له بعد جردة حساب سريعة أنه لم يفكر بنفسه طيلة السنين التي قضاها في الجبل، كان هو آخر شيء يفكر به، منذ أكثر من سنة لم يخطف في رأسه أي وجه من وجوه أهله، وجه أمه، أبيه، أخوته، أخواته، أو أي وجه لصديق من أولئك الذين تركهم هناك، منذ أن جعلوا منه مسؤولاً عن حياة وممات أكثر من عشرين نصيراً ونصيرة، وهو يحمل دماء هؤلاء على راحتيه،

٢- الأنصار: تشكيلات مسلحة خاضت حرب عصابات إبان الثمانينات ضد نظام صدام حسين، تابعة للحزب الشيوعي العراقي.

رأسه مزدحم على الدوام بمهام وعقد، ومصائب عليه فك طلاسمها والنفاذ منها سالماً هو ومن معه، سنين طويلة كاد فيها أن ينسى جسد المرأة، ورائحة المرأة، رغم معايشته النساء من عوائل الفلاحين الذين يزور قراهم، أو عوائل رفاقه، أو النصيرات المقاتلات؛ سواء في سريته أو في سرايا أخرى. ينظر للنساء كما ينظر للرجال، متجسدات خارجية ليس فيها شيء استثنائي متفرد، لا رائحة، لا توق، زمن مر لم يشعر خلاله بذلك الانجذاب الذكوري الغريزي لجسد الأنثى، حتى الانتصاب لم يشعر به، تذكر أنه حتى لم يتذكر المرأة الوحيدة التي أخرجته من عذريته وجهله بجسد المرأة. جونجي الفتاة المجرية التي كانت تكبره بأربع سنين، بعد سنين من هروبه منها، وصلته رسالة لا يدري كيف تدبرت وسائل إيصالها إلى عزلته الجبلية، كتبت رسالتها بلغته المجرية هو لا باللغة المجرية، تعودت عليه يتكلم لغة مجرية هجينة، أسمعته مرة قصيدة، قالت له إنها لك، هو ما زال قادراً على استعادة أبيات تلك القصيدة باللغة المجرية التي نسي بعد هذه السنوات الكثير من مفرداتها وتراكيبها. كانت القصيدة إبحار تلك الفتاة في فراق كانت تتوقع حدوثه، وفي مستقبل بعيد ستلتقيه ثانية، كما التقته في المرة الأولى، وستحتضنه وتقبله وستقول له كم هي تحبه. !! لماذا لم يتذكر صاحبة تلك القصيدة، لماذا كان معها مثل بحار يعرف أن سفينته ستبحر، ولن تعود ثانية إلى نفس الميناء. كان معها وعينه على البحر، حاولت بوسائل كثيرة ثنيه عن العودة إلى الحرب التي هرب منها، أخذته مرة إلى المقبرة، وسألته هناك: ماذا يعني لك هذا القبر أو ذاك؟

ولما لم يجب لغرابة السؤال كما بدا له، أخذت وردة ذابلة من قبر وقدمتها له، قائلة: ستموت في أرض الحروب، ولن تجد من يضع حتى هذه الوردة الذابلة على قبرك. تلك المرأة بعلاقته الاستثنائية بها، لم تخطر في أحلامه حتى، المرات القليلة التي زار حلمه طيف امرأة كانت مع أطياف نساء لم يعرفهن، وجد نفسه ذات ليلة هارباً من سطح إلى آخر في مدينة مكتظة بالسطوح، ليصطدم بجسد أبيض لامرأة بلا ملامح، فقط جسد، نسي هروبه، وظل يحتك بذلك الجسد

حتى فز من نومه، وهو مبلل، كأن أحدهم سكب على وسطه سطلاً من ذلك السائل اللزج ذو الرائحة الحريفة. !!

كذلك تنبه إلى أن البعض من رفاقه ما تزال لهم طقوسهم الخاصة، تلك البقايا الراسبة من حياة المدنية: فرشة أسنان، مشط صغير، كسرة مرآة، بعض العطور التي لا يدري كيف يحصلون عليها، أوقات ووضعيات خاصة بالنوم، أكلات خاصة، شكل ونوع كأسة الشاي، إلا هو ظل يخوض الحياة بلا طقوس، يلبس وينام ويأكل ويشرب كيفما اتفق، لا شيء خاص، لا شيء استثنائي في حياته، يعرف كذلك؛ أن بعض رفاقه لم ينقطعوا تماماً عن الخمر الذي انقطع هو عنه، كانت ثمة جلسات خاصة تُعقد إما في الكهوف أو البساتين، لم يذق الخمر إلا مرة واحدة طيلة وجوده في الجبل.

حصل في اليوم الأول لوصوله إلى أول قاعدة للأنصار قادماً من الخارج، أن كان طريق الالتحاق طويلاً وقاسياً، استغرق أكثر من أسبوعين من آخر نقطة على الحدود الدولية حتى مقر الفوج الثالث في (گلي هصبة).

وصلوا حين كانت القاعدة مزدحمة بمفارز، وصلت من أماكن مختلفة ومنها مفرزة كانت خارجة للتو من معارك (بشت ئاشان) والثانية ضد قوات اليكتي[٢] (الاتحاد الوطني الكردستاني)، التي كانت حليفة لهم لكنها انضمت للنظام.

لاحظ من الوهلة الأولى أن أنصار هذه المفرزة على شيء من التمرد والتحلل من الالتزامات المفروضة في القاعدة، لمح من بينهم صديقاً قديماً من أيام التنظيمات الطلابية، تعانقا وتساءلا عن أخبارهما وأخبار الآخرين من الأصدقاء، ثم ومن غير شروحات طلب منه ذاك الصديق:

- بعد العشا أشوفك. بس لا تأكل الشوربة.

كان العشاء شوربة عدس، بدا الطلب غير مفهوم، يعني ما علاقة أشوفك بعد العشا بأكل الشوربة.

مع تكاثف خيوط الظلام الهابطة على الشق الجبلي، وومض أنوار الفوانيس

٢- اليكتي: حزب الاتحاد الوطني الكوردستاني بزعامة السيد جلال الطالباني.

في الكبرات الصيفية، الكائنة فوق وتحت صخور السفح، توضح له الأمر، جاءه الصديق وسحبه من يده:

- بس لا أكلت شوربة. !؟
- يعني إذا ما أكلت شراح آكل؟
- اكو عندنا كعدة، وصلت اليوم شحنة العرق.
- عرق. !!. معقولة. !! يعني مو ممنوع؟
- إذا كان على الممنوع هو ممنوع، بس جفاف الحياة يحتاج شوية ترطيب.

انقاد له دون كلام، غير أن صدى (جفاف الحياة الباحثة عن الترطيب) صار يتردد في داخله، وهو الذي لم يمض على وجوده في القاعدة سوى ساعات قليلة، تسلقوا صخوراً والتفوا على قطوع صخرية ليصلوا إلى (كبره)[٤] مربعة الشكل مضفورة من أغصان أشجار البلوط، ومن بين ظلال عتمة الفانوس ميّز دائرة من الأنصار لم يتبين ملامحهم، قدمه الصديق إلى الحضور:

- الرفيق حاتم، ملتحق جديد من الخارج.

علق أحدهم:

- يعني الرفيق بعده بدهنه. !!

ضحك الجميع إلا هو، لم يأخذ بعد على أجواءهم. قدم له أحدهم كأساً صغيراً أخرجه من جعبته، صب له الذي بجانبه عرقاً. وسأله:

- تريد ماي. !!؟

أجاب:

- لا رفيق. شكراً. تعودت اشربه ساده.

صاروا يتبادلون النظرات، بدوا له متشابهين بشراويلهم الكردية واليشاميغ الملفوفة بطريقة حلزونية، إضافة إلى ملامح الوجوه غير الواضحة والتي بدت كلها إما ملتحية، أو بلحية عمرها أسبوعين على الأقل، تلك اللحى مع تجاعيد الوجوه المتخفية في ظلال الفانوس، أضفت على الجمع الملتئم ملامح القسوة،

٤- كبره (الجمع كبرات): بناء من أغصان الأشجار والجذوع لا يدخل فيه الحجر والطين، يستخدم بشكل مؤقت في المراعي الصيفية للقرى.

علق صوت من الزاوية البعيدة للجمع:

- على راسي رفيق. هذوله رفاق الخارج. !!

قالها بتورية. سأل آخر:

- رفيق شلون انطاك گلبك وعفت نسوان أوروبا وراك، أحوو يا ضيم گلبي.

وعض إصبعه، ضحك حاتم، إنما شعر بنفسه غريباً على جو الجلسة، تدارك صديقه الموقف ورفع نخب:

- بصحة رفيقنا حاتم، وصحة رفاقنا في الخارج.

تذكر أن هذه هي لازمة رفاق الخارج، حين تجمعهم جلسات الكأس في البارات عادة ما يبادر أحدهم، ويرفع نخب رفاق الداخل (بصحة رفاقنا في الداخل).

لعل صديقه أراد تبادل الأدوار أو هي ببساطة تورية أخرى، تفاقم شعوره أنه زائد على الجلسة وألجأه إلى الصمت، لم يشارك في الحديث لا تعليقاً ولا مبادرة، قيلت نكات وقفشات ومفارقات كلها عن حياتهم الأنصارية.

ظل خارج الجلسة ولم يدخلها إلاّ مع غناء طور (المحمداوي) الذي أجاده أحدهم بصوت شجي، وجد نفسه رويداً يدندن ويدخل إلى الجو.

عرف أنهم جميعاً عائدون للتو من معارك (بشت ئاشان) في سهول وجبال أربيل، كانوا فيها محاصرين مع (بيشمركة البارتي[٥]) قوات الحزب الديمقراطي الكردستاني بين مفارز استخبارات النظام وجيشه قوات (اليكتي)، والفرسان[٦] أو تشكيلات الأفواج الخفيفة كما تسميها الحكومة، تركوا خلفهم عدداً غير قليل من الشهداء، بل كل واحد منهم كان مشروعاً لشهيد، الأمر الذي جعله يندهش من قدرتهم على التجاوز والنسيان، وكأن الحياة لديهم بوجوه كثيرة، كل وجه يمارس حياته باستقلالية عن الوجه الآخر. كان ممكناً لتلك السهرة أن تمتد

٥- البارتي: الحزب الديمقراطي الكوردستاني بزعامة السيد مسعود البارزاني.

٦- الفرسان: اسم قديم لتشكيلات عسكرية كوردية استخدمتها الحكومات العراقية المتعاقبة بوجه الثورات الكوردية المسلحة.

حتى مطلع الفجر بأثيرتها وحميمية أجوائها، لولا وصول أحدهم وكأنه انبثق من الظلام:

- السلام عليكم. !!

بدا التململ والحيرة على الجالسين، أبعد أحدهم زجاجة العرق خلف ظهره، الآخرون كلٌّ سحب كأسه إلى زاوية ما، ظلت في الساحة صحون السلاطة واللحم المعلب المقلي مع البصل، الوحيد الذي ظل محتفظاً بكأسه أمامه هو حاتم، ولما رأى الوافد الجديد لم يزل واقفاً، تزحزح قليلاً من مكانه ليفسح له مجالاً للجلوس وهو لم يعرفه بعد، بعد جلوسه، قدم له كأسه:

- رفيق اشرب لك مجعة. هذا خوش عرگ!!

ضحكوا جميعاً بشكل صاخب هذه المرة بما فيهم الوافد الجديد، حاتم لم يفهم بعد لماذا الضحك، بل من هو هذا الوافد. شكره هذا بأدب:

- شكراً رفيق.

وبعد أن تنحنح ونظف حنجرته، بدأ بحديث حاول جاهداً ألا يكون جارحاً ومختصره: أنه يقدِّر ظروفهم وفقدانهم لكثير من الرفاق استشهدوا في المعارك وحاجتهم لشيء من الاسترخاء أو جر الأنفاس، لكن يبقى أن ما تفعلونه هو ممنوع يا رفاق، والاستمرار عليه يشكل خطورة على حياتنا جميعاً. !!

عرف لاحقاً أن الوافد هو المسؤول السياسي للقاعدة.

هذا اليوم، وهو يستعد لقضاء إجازته مع صديقه وافي في فصيل الإسناد، كانت بحوزته قنينة عرق جلبها له أحد الفلاحين من مدينة الشيخان، نوع فاخر ومشهور من العرق، قرر أن ينادم به وافي المحروم هو الآخر من هذه الرفاهية كما يعرف، كذلك تدبر أمر قوطية لحم معلب، وفي ذهنه ستكون ليلة مميزة بعيداً عن شؤون وشجون سريته وأنصارها.

(٣)
إنهم يخشِّبون النشيد الأممي

خرج (حاتم) إلى عراء الجبل، وهو لم يزل متململاً من اللقاء المرتقب مع أبي منيب، يعرف أنه وصل حد الملل من حياته ولا بد له من تبديلها، سيسمع ما كان قد رفضه قبل يومين، سحب سيكاره من علبته وتذكر أن لا جدّاحة معه، لمح وافياً جالساً على سطح صخرة مدورة وبيده الناظور الليلي، قصده لإشعال سيجارته:

- وافي. تركت العليجة في الغرفة بيها بطل عرگ، سأرجع.

بدا هذا منشغلاً بناظوره، وهو يراقب سلسلة جبل أتروش، حيث ربايا الجيش والفرسان، أجابه ويده تدوّر عتلة الناظور يقرّب ويبعّد، قال وكأن حاتم كان يراقب معه:

- ماذا تتوقع؟

قال هذا بعد أن ورّث سيجارته:

- كل شيء متوقع.

بدأ حاتم رحلة النزول الوعر، متلمساً الطريق بقدميه، كغيره من الطرق الجبلية لا يزيد عرضه عن سنتمترات المسطرة الواحدة، وغير متهاون مع غفلة وأخطاء البشر.

في النهار يكون النزول والصعود أسهل، أما في الليل فما عليك إلا تدريب أقدامك على الرؤية وحواسك الأخرى على الحدس، أن تحيد عن الطريق الذي تركه لك الجبل يعني تورطك بالمتاهة، تظل تدور وأنت محاصر بالقطوع الصخرية، ومهدد في كل لحظة بالانجراف في وهدة من الوهاد.

في منتصف المسافة سمع صوت همهمة حيوان، عرف أنه البغل (زيكو)، درج الأنصار على تعليم بغالهم وعموم حيواناتهم من حمير وكلاب بأسماء شخصيات عامة، تجد بغالاً وكلاباً وحميراً بأسماء رياضيين، أو مذيعين ومذيعات حسب جنس الحيوان، الأمر يتوقف على من يطلق الاسم في المرة الأولى ليسري بقانونه الخاص، يختارون الأسماء لا تندراً أو نكاية بل تحبباً سواء بالحيوان أو بصاحب الاسم الأصلي. تصادف حصولهم على هذا البغل الشاب القوي مع صعود نجم (زيكو) في كأس العالم، لكن (زيكو) الآن مسلوخ الظهر متروكاً لنفسه، يطبب نفسه بنفسه. شعر حاتم بالتعاطف معه، إنه بغل سريته، وكانت له مواقف وأدوار مشهودة في عملهم، أوقف سيره واقترب منه، ربت على رقبته وهو يرى آثار انسلاخ ظهر البغل، وقد جفت ربما بفعل الشمس والتراب، لقد فعلها أحد الغشم من الأنصار، لم يحم ظهر البغل من الكرتان القديم ببطانية كما جرت العادة، ثم حمّله بأكثر من طاقته لمسافات طويلة وفي دروب وعرة، سمع نفسه يسأل البغل:

- زيكو.. أنت شنو رأيك؟

سؤال مبهم، هو نفسه لا يدري رأيه بأي شيء. بمحنة سلخ ظهره، أم بالحرب التي توقفت منذ قليل، أم بحربهم التي سيبدأ استعارها من جديد، أم بقراره هو بتبديل جبهات حربه، رد (زيكو) بذات الهمهمة إنما بنوتة أوطأ مع تكشيرة أبانت بياض أسنانه في سواد الليل، ضحك حاتم وقال:

لقد فهمتك يا صديقي؛ تريد القول طز عليكم. ناركم تأكل حطبكم. ما علاقتي أنا بحروبكم إن بدأت أو توقفت. ألا يكفي ما أعانيه بسببكم.

اتكأ على صخرة مشرفة على وهدة ظلماء، أشعل سيجارة أخرى من الأولى، وقرر الاستراحة، لا شيء في العالي غير لهاث ضوء النجوم، ولا شيء على الأرض سوى بقع ضوء لفوانيس متناثرة في المساحات الضيقة بين غرفة وأخرى من غرف (قرية العوائل)، يصل وميضها بالكاد من خلال أغصان وأوراق أشجار الجوز العملاقة؛ التي تشكل مظلة خضراء للشق الجبلي الكائنة فيه قاعدتهم.

ثمة علاقة حميمة بين مقاتلي الجبال وضوء الفانوس، إلفة داخلة في نسيج .يال المقاتل، ترويه في ظمأه، وتسد رمقه في جوعه، وتريح جسده في تعبه.

ضوء الفانوس هو نقطة الوصول في مارثون الصعود والهبوط، تلك الشارة الصفراء اللاهثة مع لهاث المسيرات الطويلة.

واصل سيره المتعرج في أوعر مرحلة من مراحل الطريق، إذ لا تنفع معها دربة الأقدام على الرؤية دون الاستعانة بالأيدي للتشبث بهذا الغصن، أو تلك الحافة الصخرية.

إنها منطقة صخور متراكبة بنظام هندسي غريب، إذ لا يندر أن تجد الصخرة الكبيرة تتكئ على الصغيرة بميلان مرعب يعطي الإحساس بانهيار وشيك، إضافة إلى أحراش متشابكة تجعل الطريق غير مرئي حتى في النهار.

وصل أخيراً إلى حيث النيسم الموازي لخط سير جدول (مه راني) الخارج تواً من رأس العين، من هناك تتفرع الطرق والنياسم إلى كل الأمكنة في هذا الوادي؛ الذي كان يوماً موطناً للأفاعي بكل فصائلها وأجناسها المعروفة، وغير المعروفة، إنه (گلي مه راني)، أو (وادي الأفاعي)، الذي يحتضن عين الماء العجيبة في برودتها الثلجية صيفاً ودفئها شتاءً، العين القادرة لوحدها على صنع نهر، ينحدر نهرها مع انحدار الوادي ليصب في نهر (گلي آفوكي) حيث تتضافر حزمة أنهار منها الموسمي ومنها الدائم لتشكل نهراً آخر أكبر، هكذا هي متوالية الأنهار الجبلية التي تصب لاحقاً في نهر دجلة العظيم.

قصد تلك المساحة الكائنة قرب المطبخ، حيث الجمرات الكبيرة ما زالت تتوهج بقوة دفع النار التي كانت قبل قليل. اعتاد بعض الأنصار على التجمع هناك ليلاً، الأمر يشبه الحياة العادية، إذ بعد العشاء لا يبقى أحدٌ في المكان الذي سينام به آخر الليل، يجد دافعاً ما يدفعه للخروج ولو إلى الغرفة المجاورة، مثلما سكان الغرفة المجاورة يحثون الخطى إلى غرفته هو، لكن تبقى تلك المساحة الصغيرة المقابلة للمطبخ عند الجسر الخشبي الواصل بين ضفتي الوادي المبني فوق الجدول الهادر، الجسر الذي شبهه أحدهم يوماً بجسور

بغداد القائمة على نهر دجلة، الواصلة بين كرخها ورصافتها، تبقى تلك الفسحة الصغيرة هي الأثيرة لمن لا يجد ما يبحث عنه في الغرف المجاورة، هي المطبخ في النهار، والمقهى في الليل.

تُمارس هنا فعاليات كثيرة؛ منها رقصة الدبكة الكردية التي يبدأها عادة اثنان يتكاثران إلى عشرين وثلاثين وأكثر أحياناً، ومنها جلسات الغناء الجماعي على وقع أنغام الخشّابة البصراوية، إذ تتحول صحون المطبخ وقدوره إلى آلات للعزف، عزف يمارسه شبان جنوبيون قادمون من تلك الأصقاع التي لم ولن يصلها نسيم الجبل. كان هؤلاء قادرين بمهاراتهم الفردية على تحويل أعقد الألحان إلى ألحان جنوبية. لقد نجحوا بليٍّ عنق ألحان القصبجي وعبد الوهاب ورياض السنباطي العشقية، ورومانسيات فيروز الملائكية وتحويلها إلى لحن الخشابة البصري، يبقون على بعض مفردات تلك الأغاني والطقاطيق لكنهم يقلبون اللحن رأساً على عقب، لينساب اللحن الجديد من حناجرهم وعلى وقع صحونهم وقدورهم انسياباً مريحاً، خشّبوا كل الألحان حتى النشيد الأممي، ذلك اللحن الثوري الحماسي، الذي يؤدى بكل اللغات بذات النوتة، لم يسلم منهم، لقد فعلوا به المفاعيل، فرغوه من حماسته الثورية، ووضعوه في قالب رقصة الهيوا البصراوية. !! حتى ليخيل للسامع أن كارل ماركس بجلال لحيته المهيبة ماسكاً غليونه وهو يبزخ وسط الساحة على النشيد الأممي، حاثاً عمال العالم ومضطهديه أن يهبوا للثورة بوجه مستغليهم مصاصي دم الشعوب...

هبوا هبوا... هبوا. ضحايا الاضطهاد. ضحايا الاضطهاد.

بركانك يا خالي... بركانك في اتقاد.

هبوا هبوا... هبوا.

وبين مقطع وآخر يردد الفتى الأسمر القادم من أقاصي جنوب القصب والبردي حيدر كاميرا لازمته، اسمع. شوف، هنا تخشيب ما لا يتخشب، اسمع. شوف.

في واقع الحال يعمل هؤلاء الفتية بقصد أو بدونه على ترطيب جفاف الأيام والليالي في هذا القفر الجبلي، جاعلين حياتهم وحياة أشباههم مستساغة قدر الإمكان.

وصل حاتم، والمجموعة منهمكة بتخشيب رائعة أم كلثوم (يا مسهرني)، لمح فؤاد يدور حول الجالسين وهو ما يزال يردد معلقته (انتهت المهلة يا رفاق... المهلة انتهت)، مثل درويش صوفي يخبر النيام بما تخبؤه قوادم الأيام.

شعر حاتم بتخشب بلعومه من العطش والتدخين، وكأن تلك النصف ساعة من رول بخرت من جسمه كل الماء، اقتحم دائرة المتحلقين حول بقعة الجمر إلى حيث قوطية الشاي الأثيرة، لم يجد فيها غير البتل، ظنه الجالسون المنهمكون بالغناء يريد الرقص، وهو يبحث بعيونه عن قدح شاي، ناوله حيدر كاميرا قدحه، وهو منهمك مع الآخرين بترديد مقطع (لا عنيا بيغشاها النوم. ولا بخطر على بالك يوم. يا. يا. يا. يا مسهرني). وجد في القدح بقايا شاي بارد، كرعه دفعة واحدة وكأنه يكرع كأس خمر، أراد الخروج من الحلقة، قبل أن يمسك به حمدان الأسمر من طرف كمه:

- هاي.. وين رفيق، قابل أنطناك شاي بلاش، خذلك ردحة وبعدين اطلع.!!

(حاتم) حين يرقص لا يبزغ إنما يردح، وكثيراً ما يفلسف الفروق بين الردح والبزخ رابطاً إياها بالفروق بين عادات المدينتين الجنوبيتين (العمارة والبصرة)، ردح قليلاً على نغم (يا مسهرني البصراوية)، رافعاً بندقيته القصيرة فوق رأسه وكأنه يهوس على الطريقة العمارتلية، سدد ثمن (مجعة) الشاي البارد ثم خرج.

كان أبو منيب ورغم الحر الواضح جالساً في غرفة التنظيم المدني، مقره القديم قبل أن يصبح آمراً للفوج، بدا وكأنه يرفض أن يغادر غرفته القديمة إلى غرفة مكتب الفوج حيث يفترض به أن يكون. لكن أين الفرق؟ كلها غرف، والأرشيف يكون في رأس المسؤول، لا في الغرف، بدا منشغلاً بأمر برقية وصلت من المركز القيادي في (خواكورك)، تقول: تدبروا أمر عوائلكم.

جلس حاتم على إحدى فرشات الإسفنج المتعامدة في الغرفة على يمين أبي منيب، واضعاً بندقيته أمامه، لم ينطق بشيء بعد إلقائه التحية، أخذ هذا يروزه ويبتسم، حتى تمدد الصمت ضيفاً يتقاسم الفرشات والغرفة، أبو منيب يداور مع نفسه الانطباع الذي كوّنه حول مواقف الكوادر العسكرية والحزبية في

الفوج وشبه إجماعهم على رفض العمل معه وكلٌ يدّعي أنه يشعر بالتعب، بدا الأمر محيراً له، كأن ثمة اتفاق على إفشال مهمته.

وصله طرف من أقوالهم، إنهم يشككون بقدراته العسكرية، لأنه ومنذ التحاقه بتشكيلات الأنصار من الخارج إلى اليوم، وهو يعمل في التنظيم المدني، لم يخض العمل العسكري بشكل مباشر، لم يقاتل، لم يجرب الخطر المباشر، لم يجرب الجوع، العطش، الضياع في تضاريس الجبال، يحمل البندقية للزينة لا غير، على الدوام ثمة من يرافقه للحماية والدلالة، حتى أنه لم ينزل يوماً للداخل، إلى حيث تنظيمات وخطوط المدن والأقضية والنواحي التي يدير عملها الحزبي، كان يدير عمله من المقرات، عبر التقارير الواردة والصادرة من وإلى تلك التنظيمات المحلية.

في البدء كان في (العالي). هكذا يسمون مقرهم القيادي الكائن في (خواكورك) في المثلث الحدودي العراقي التركي الإيراني العاصي، ثم أُرسل إلى مقر قيادة قاطع (بهدينان) في (گلي زيوه) ثم إلى الفوج الأول في (گلي مه راني).

«لكن هل كانوا كلهم عسكريين محنكين قبل تسلمهم المسؤولية، ألم يكونوا جميعاً طلبة وموظفين وفلاحين وعمال قبل التحاقهم، ماذا يسمون هذا التهرب الواضح من المسؤولية، لا أحد منهم يتحمل أدنى ضغط إضافي، من يدري ما الذي سيحدث بعد وقف الحرب، لا يريدون أن يفهموا أن عملنا القادم لن يكون عسكرياً بالكامل.»

خرج أبو منيب من تداعياته هامساً إلى حاتم، وبذات الابتسامة التي لا تفارقه حين يحاول إقناع أحدهم بوجهة نظره، وكأنه يتخذ من الابتسامة وسيلة إقناع إضافية:

- أخيراً وقفت الحرب. !؟

قالها بطريقة استفهامية، إنما لا ينتظر جواباً.

اكتفى حاتم بـ:

- نعم. وقفت.

لكن نبرة الحزن فيما قاله كانت واضحة، وكأنه يقر بوفاة عزيز عليه.

أردف أبو منيب مغيراً مجرى الحديث، لأنه لم يرسل في طلبه لمناقشة هذا الأمر:

- وين وصلت؟

أجابه بذات نبرة الحزن:

- مثل ما تشوف، بعدني يمك.

- ستستلم السرية. اتفقنا؟

- أخبرتك من قبل، لم يبق عندي حماس للعمل العسكري، أشعر بتعب.

لكن أبو منيب ما زال يعتقد أن سبب تمنع حاتم، هو الموقف شبه الجماعي لكوادر الفوج لإفشال مهمته هو.

في البدء كان سبب تمنع حاتم أن أبو منيب رفض ضم نجاتي إلى تشكيلة السرية، وحاتم أصر عليه لاعتقاده أنه سيساعدهم على دخول مدينة (الموصل)، وهو الآن يردد معزوفة التعب والإرهاق التي يرددها الجميع، عاد ينظر إليه بذات الابتسامة التي تخفي ردة فعله الحقيقية، ثم همس له وكأنه يهمس لنفسه:

- قلت لك. لدينا مؤشرات أمنية على عمل نجاتي.

- وهذا كان سبب خفوت حماسي للعمل العسكري، نجاتي يعرف كل تفاصيل عملنا، لا تنسى أنه كان في سريتي، يعرف كذلك ركائزنا المحلية، إذا صحت الشكوك حوله يعني أني كنت أعمل مكشوفاً دون أن تخبروني بذلك. أنا غير مستعد للتضحية برفاقي.

صمت وكأنه يبحث عن سبب آخر لتمنعه. ثم أردف:

- أنا انتظر متى تجهز وثيقتي، حتى أنزل للداخل.

طلب حاتم قبل أسابيع أن يعملوا له وثيقة يستطيع النزول بها والوصول إلى مدينته (العمارة)، لجس النبض، ومعرفة مدى قدرته على إيجاد قاعدة عسكرية في الأهوار، إن لم تكن لنقل التجربة إلى هناك فعلى الأقل للاختفاء

عند الضرورة، لكنه لم يجد الحماس الذي كان ينتظره لدى القياديين لمثل هذه النقلة التي ستكون نوعية في عملهم كما يراها هو.

منذ سنين، وهو يرى أن عملهم في جبال الكرد مهما يكن سيبقى معزولاً لا أثر له في بغداد، شعر أن هذا الهدف لم يزل مقتصراً على قلة يرددونه أحياناً في جلساتهم البينية، لم يتحول إلى مشروع يتبناه الحزب.

رد أبو منيب:

- عملية نزولك متروكة للحزب.

سحب ورقة من دفتر كان بجانبه، وسلمها لحاتم وأردف:

- علينا أن ننتهي من موضوع العوائل، بقاؤهم قرب الفوج خطر عليهم وعبء علينا.

كانت الورقة برقية وصلت في ذلك اليوم من المركز القيادي، تحثهم على تدبر أمر العوائل.

رد حاتم:

- كان علينا أن ننجز هذا من زمان.

- البركة بقيادة الفوج.

قصد أبو منيب قيادة الفوج القديمة، التي تم حلها منذ مدة قصيرة، ونقل مسؤولها لمهمة أخرى.

حاتم يعرف أن الخيار الوحيد المتوفر تحت اليد في موضوع العوائل هو إرسالهم إلى منطقة عمل الفوج الثالث خلف سلسلة جبال (متين)، سيكونون هناك أقرب إلى الحدود التركية، وبالتالي من السهل تسريبهم إلى خارج الحدود في حالة الاضطرار، لكنه، يعرف كذلك أن أصحاب العوائل يرفضون هذا الخيار، كل النساء تقريباً أجمعن على ذات الرأي:

حالنا من حالكم، نموت معكم ونعيش معكم، ثم من هذا الذي يرغب بنفي زوجته وأطفاله، وهو لا يعلم متى يمكن له رؤيتهم مرة أخرى، ومن تلك التي ستترك زوجها وابنها وهي لم تصدق أن شمل عائلتها قد التأم من جديد

بعد فراق طويل، كان مزروعاً خوفاً ورعباً من كبسات عناصر الأمن وتهديداتهم المستمرة، لا أحد يريد الابتعاد عن الآخر، مثلما لم يستشعروا بعد أن الخطر القادم سيكون مختلفاً هذه المرة، الأمر بحاجة إلى حسم.

- ماذا يقول الرفاق أصحاب العوائل؟

- لا أعرف، كل يوم يخرجون علي برأي جديد. !! منهم من يقول إنه سيتدبر أمر عائلته بإرسالها إلى الداخل، ليأتي بعد أيام معلناً أن هناك صعوبات وهم مكشوفون، كلنا نعرف أنهم مكشوفون هناك، ومنهم من لا يرى خطراً في حال الهجوم علينا، برأيه؛ سيكون حالهم من حالنا ولا يوضح كيف، هل بمقدور النساء والأطفال الانسحاب على الطرق التي نختارها. هكذا...

ترك يده تهوّم في الهواء، لتكمل ما أراد قوله.

يوجد إلى جوار مقر الفوج وقرب بوابته من جهة (گلي آفوكي)، ما يشبه قرية بنيت حديثاً لعوائل الأنصار، فيها أكثر من ٢٠٠ نسمة نساءً، وصبايا، وأطفال وشيوخ بأعمار مختلفة، وصل هؤلاء مطرودين من مدنهم ومن بيوتهم، إثر حملة استهدفت عوائل الأنصار في المدن والأقضية، والنواحي القريبة من المنطقة المحررة-المحرمة.

بدأت الحملة بمحاولات لتطليق الزوجات عن أزواجهن طلاقاً رسمياً في المحكمة، مع توقيعهن على صكوك تعهد بعدم التعرف مجدداً على ذلك الزوج المتمرد الهارب من وجه عدالة الحكومة، منهن من رضخن لهذا الخيار تخلصاً من مضايقات بدت فوق طاقتهن على التحمل، وفي دواخلهن أن الطلاق شكلي، وسيبقى كذلك، ومنهن من رفضن الخيار جملة وتفصيلاً: لا أتخلى عن زوجي أبو أولادي.

لتأتي المرحلة الأخيرة من الحملة بجمع اللواتي (لا أتخلى عن أبو أولادي) مع أولادها وبناتها، والعجائز أمهات المتمردين وأخواتهم والآباء، ليخرجوهم من بيوتهم، مجردين من كل أشكال الملكية، باستثناء ملكية ملابس الجسد، حرموهم حتى من النقود، جمعوهم في إسطبلات المقرات الحزبية ومقرات

الأمن العام؛ لشهور حتى يستكملوا جلب كل المسجلين على قوائمهم، وقبل أن يأتي يوم الحشر، عزلوا عنهم الشباب من الذكور نافين إياهم إلى سجون وجهات ظلت مجهولة للأخير، وحشروا النساء والأطفال والشيوخ في شاحنات كبيرة، مخصصة لمناقلة الخراف والدجاج بين المدن والمزارع، وأوصلوهم إلى أقرب نقطة من الحدود الفاصلة بين الأرض المحرمة وتلك غير المحرمة، وقبل أن يطلقوهم، جعلوهم يجلسون على الأرض ليلقي عليهم المسؤول الحزبي خطبة، وكأنه يبشرهم بمكرمة جديدة من مكارم قائده.

«دحجوا، دحجوا زين. هذا هو الجبل، خلف الجبل راح تشوفون الخونة العصاة ينتظرونكم، قررت القيادة أن تجمع شملكم، بعد أش تردون. !؟ لكن اسمعوني زين، لا رجعة لكم بعد اليوم، إلاّ في حالة واحدة، أن يسلم الخونة أنفسهم للدولة، أو تقوم المتزوجة منكم بتطليق زوجها أمام قاضي محكمة طلاق رسمي، أقنعوهم يجون يسلمون نفسهم أحسن لهم، بيوتكم وأملاككم صارت بعهدة الحكومة، من يعود منكم سنسلخ جلده وجلد من يقدم له المساعدة، وهسه الكل يتهيأ، الكل عليه أن يركض ويصعد هذا الجبل، اللي يلتفت للوراء راح نطلق عليه النار.

«وبدأ ماراثون الركض للنساء والأطفال، والشيوخ المرتعدين من الخوف والبرد، صعوداً على سفح صخري أملس، حتى تقطعت أنفاس النساء غير المتعودات على الركض، والشيوخ والعجائز، وهم يسحلون خلفهم أثقال وأمراض أعمارهم، وتسلخت ركب وسيقان الصغار ذوي الأعمار الحيرى بين الطفولة والصبا، لكنهم كانوا مع ذلك السباقين للوصول إلى تلك الصخرة الكبيرة، التي كانت بمثابة نهاية مرحلة ماراثون الركض، لأنها حجبت الجموع اللاهثة عن أعين المسلحين أسفل السفح، لقد صدق الراكضون أن المسلحين البعثيين سيفعلونها ويطلقون النار عليهم إن هم التفتوا أو لم يلتفتوا حتى. خلف تلك الصخرة، شعر الجميع بشيء من الاطمئنان؛ على الأقل باتوا محجوبين عن أعين المسلحين، لم تكن تلك الصخرة تشكل من الطريق غير أوله، كان الطريق واضحاً غير أن مجرد نظرة إلى الأعلى تجعل الناظر يدخل في جب اليأس من الوصول،

إذ بدت قمة الجبل معلقة في السماء، تنبه الجميع أنهم لم يجلبوا معهم ماءً أو لم يسمح لهم بذلك، تركوا أقدامهم تصعد على غير هدى في وهاد ومنعطفات الجبل، طبيعة هذا الجبل الصخرية الكلسية جعلت الطريق غير مموه بأكمات وأحراش تعمل في العادة على قطع انسيابية الطرق الجبلية، الأمر الذي جعل الطريق واضحاً، ويمكن العثور عليه مجدداً، كان هاجس الجميع بلوغ تلك القمة الملتصقة بالسماء.

وصلوا أخيراً، لكنهم لم يجدوا من ينتظرهم كما أخبروهم في الأسفل، شاهدوا من القمة التي وصلوها، في الأسفل البعيد من وجه الجبل الآخر بيوت قرية، جعلوها هدفهم للنزول، وتيقنوا بعد برهة أن الطريق نفسه سيأخذهم إلى هناك، وصلوا بحالات يرثى لها من العطش والجوع والخوف، استضافتهم في البدء قرى الجبل لحين تدبر المقاتلين أمر عوائلهم.

بتلك الفعلة أسقطت الحكومة من حساب الأنصار أكثر من نصف جهد مقاتليهم، ارتبك العمل بتحول الكثيرين من قادة وأنصار إلى باحثين عن كيس الطحين، وكيس الرز وحليب الأطفال لعوائلهم، وثمة من دفع حياته ثمناً في كمائن نصبت على الطرق المؤدية إلى المدن الصغيرة.

تحولت تلك العوائل إلى طوق ثقيل في أعناق المقاتلين، وحرمت المفارز والسرايا من أفضل مقاتليها؛ أولئك المتحدرين من ذات المناطق التي يدور فيها العمل العسكري.

استقرت أخيراً العوائل بعيداً عن مأساة الترحال والضيافة التي تناقلتهم بها قرى المنطقة، في هذه البقعة الكائنة قرب مدخل (گلي مه راني)، والتي اتخذت لها حالاً اسماً عفوياً كعفوية إطلاق أسماء قرى الجبل التي تعودها القرويون الكرد، سُميت بـ (قرية العوائل).

خرج حاتم إلى حندس الليل الذي تكاثف بفعل جدران الوادي المتقاربة، ليحول الوادي إلى ما يشبه ثقباً أسود، هابط من الفضاء المزدان بالنجوم، وجد نفسه قد خرج مشوشاً من اللقاء أكثر مما كان عليه قبله، هو لم يدر الآن هل ما زال آمراً للسرية؟

كذلك هو نفسه لم يقرر بعد، هل يترك المسؤولية ويتهيأ للنزول إلى الداخل، أم يوصلها بعد أن فقدت الكثير من طعم الحماس الذي كانت عليه، ترك قدميه تقودانه بمسجاتهما العليمة بإحداثيات الطريق، لحين الوصول إلى الجسر الخشبي الكائن أمام المطبخ.

واضح أن لقاءه مع أبي منيب امتد طويلاً، إذ غادر أعضاء فرقة (الخشّابة) إلى مهاجعهم على سطوح الغرف، ليبدأ هناك فاصل الليل الثاني، حين تتجاور الفرشات، فاصل الأحاديث الشجية بين صديقين، والنقاشات المفتوحة حول كل شيء، تبدأ الأصوات عالية مسموعة، ثم تخفت تدريجياً حتى تصل إلى ما يشبه الهمس، قبل أن يدهم النوم عيون المتحاورين وجمرات سكائرهم.

في ذهنه سيبحث له الليلة عن فرشة غير مشغولة في مقر القاعدة، وغداً من الصباح سيعاود الصعود إلى فصيل الإسناد، ليكمل إجارته.

حمل فرشةً من داخل غرفة فصيل المقر، وصار يبحث عن مكان بعيد عن فرشات الأنصار المتقاربة على سطح الغرفة، كان يريد الانفراد بنفسه.

قصد الزاوية البعيدة من سطح الغرفة، وضع الفرشة وتمدد عليها دون أن يخلع حذاءه، ما زال يداور في رأسه قراره غير الواضح بعد:

هل حقاً هو يريد النزول والعمل في الأهوار؟

أم أن الأمر لا يعدو رد فعل لفقدانه حماسه السابق للعمل العسكري.

خفت حماسته بعد أن أُحرقت جميع القرى الكائنة على مقربة من الجبل ،والتي كانت موالية وساندة لعملهم. هام سكانها على وجوههم إلى قرىً ونواح بعيدة، بتلك الحركة من النظام أُفرغت المنطقة من أي دعم فلاحي لهم، لم يتبق أمامهم سوى المدن بتحصيناتها العسكرية، وبالطرق الطويلة التي عليهم تجشم السير بها لغاية الوصول، وهي طرق في الغالب مقطوعة بكمائن مفارز الاستخبارات، والأفواج الخيفية (الفرسان) الكرد الموالين للحكومة.

لقد نجح عدوهم ليس فقط بتجنيد زعماء العشائر الكردية الكبيرة بتشكيلات (الفرسان)، التي سمح لهم فيها بضم الهاربين من الخدمة العسكرية

وهم جل الشباب الكردي؛ بل نجح كذلك بإسقاط الكثير من ركائزهم المحلية، ومن البيشمركة[7] والأنصار المستسلمين، وجندوهم تحت التهديد لصالحهم بتشكيل مفارز تابعة للاستخبارات، مفارز صغيرة بأسلحة خفيفة يعرفون كل شيء عن الجبل ومزاغله.

لقد تأكد لحاتم أن عدوهم قد نجح في تكتيكاته الجديدة، منتزعاً منهم زمام المبادرة التي كانت لهم قبل الآن، وها هو صار يطاردهم حتى في مناطق نفوذهم غير المتنازع عليها. لقد وصلوا إلى عيون الماء وإلى الكهوف التي كانت لهم بمثابة مقرات آمنة، حتى بدت له المقارنة مضحكة بين من يقاتل مستخدماً البغال والحمير، وقوة عضلات ساقيّة للحصول على لقمة الخبز، ومن يقاتل مستخدماً السيارات الحديثة وأجهزة الاتصال الحديثة والطائرات وهو شبعان.

يشعر حاتم أن عليهم أن يقلبوا أساليبهم رأساً على عقب، ويتخذوا وسائل أخرى.

لكن. ما هي هذه الوسائل؟ وكيف يحصلون عليها؟

لم يصل مع نفسه إلى إجابات مقنعة، ولم ير سبيلاً واضحاً لتطوير وتنمية إمكانياتهم. كذلك لم يجد قيادته قد استشعرت هذا التبدل الكبير في ظروف الصراع، لم تزل وسائلهم وتوجيهاتهم وأفكارهم كما هي. ما يزالون بلا خطة عسكرية واضحة.

تذكّر صراعه المرير الذي دار على مدار أشهر مع إحدى مفارز الاستخبارات للسيطرة ليس على قرية، بل على ولاء امرأة صاحبة بقالية في تلك القرية أُشيع حولها أنها مومس. !!

لقد استثمر خديدة أحد أنصار سريته علاقة قديمة له مع تلك المرأة، أبدت له حماساً غير متوقع بتأمين كل ما يطلبونه من تموين، وأن تحول بيتها أو دكانها الصغير إلى ما يشبه مخزناً لطلباتهم. لكنه البيت الذي سيتحول لاحقاً إلى فخ لاصطيادهم، فلقد سبق قائد مفرزة الاستخبارات خديدة بأشهر، لقد

٧- البيشمركة: تشكيلات مسلحة خاضت حرب عصابات ضد نظام صدام حسين تابعة للأحزاب القومية الكوردية.

نجح وبسهولة بتجنيد تلك المرأة، وهذا ما كان خشاه حاتم، وجعله متردداً في الموافقة على اقتراحات وإلحاح خديدة، إذ يبقى تردد تلك المرأة على (الموصل) وبشكل منتظم لتدبير أمور بقاليتها، عرضة لجلب انتباه عناصر الاستخبارات، عدا عن وصول معلومات تنظيمهم المحلي لتؤكد وبشكل قاطع؛ لقد جندوا بخشان، هذا اسم تلك المرأة.

قرر حاتم الاكتفاء بقطع علاقة خديدة بها، دون معاقبتها هي، لكن خديدة ظل يردد لنفسه ولآمر سريته: «هذه القحبة تبقى شريفة، وهي لا تخونني وإن جندوها. !!».

ثقة بدت عجيبة لمن يسمعه، حتى كاد مع اثنين من الأنصار أن يدفعوا حياتهم ثمناً لتلك الثقة، لولا شهامة البغل (مارادونا) الذي افتداهم بنفسه. !! مع أول رشقة رصاص صبت على رؤوسهم من فوق أحد السطوح، نط (مارادونا) راكضاً إلى الأعلى باتجاه النيران، مما أربك مطلقي النيران، وساعد الثلاث على تدبر أمر انسحابهم، لقد فقدوا بغل السرية الوحيد الذي لا يدرون هل هو قُتل أم جُرح أم أُسر، ليعود خديدة وهو يصب اللعنات على نفسه وعلى كل قحاب العالم، بلا بغل وبنوايا شريرة استوطنت رأسه؛ أن يقتل تلك الخائنة مهما حصل، الخائنة التي استضافته قبل ثلاث ليال على فراشها، وتركته يعود إلى الكهف، متورد الخدين من الشبع، وبطلبية من طحين وسكر وبقوليات.

- خديدة أرجوك، قطعنا علاقتنا مع بخشان، خلص.
- رفيق، بس آني عندي ثقة بها.

حاتم هو الآخر لم يكن لديه بديل، ولم يعد باستطاعته إبقاء أنصاره لفترة أطول يقتاتون على حشائش الجبل بلا خبز. رضخ أخيراً لإلحاح خديدة:

- زين خديدة، أوافق تروح، بس بشرط تستعمل رأسك اللي فوگ، بلا مجازفات، مع أول علامة شك، انسحب. اتفقنا؟

لا أحد يدري بأي رأس كان خديدة يسير، غير أن الحادثة تحولت إلى موضوع متجدد يلوكه الأنصار في كهفهم، بين ناقم وساخر على فعلة خديدة وعشقه المتأخر، كلما هدأ يشعله حيدر كاميرا من جديد بخبث واضح، وهو

يريد مناكدة خديدة:

- والله يا رفاق خسارة مارادونا خسارة بغل شهم.

ثم يلتفت إلى خديدة:

- ليش خديدة... ليش. !!

لتتحول لاحقاً (ليش خديدة. ليش) إلى ما يشبه الطماطم القابلة للاستعمال في كل الطبخات، صار كل من يريد أن يعبر عن عتبه لآخر يقول له (ليش خديدة. ليش. !!)

ما زال حاتم مشتتاً بتداعياته البعيدة والقريبة، غير أن لسعة تشبه لسعة برد الفجر أيقظته منها، جلس على الفرشة ونزع حذاءه، وقبل أن يقرر النوم، سحب سيجاره وأشعلها، صار يدخن ويضحك على خبائة حيدر كاميرا وعشق خديدة، وصله صوت حسام الصغير المستلقي غير بعيد عنه:

- هاي أول مرة أشوف واحد داخل بكابوس وهو يضحك.

- لا كابوس ولا بطيخ، آني گاعد.

ليجدها حسام الصغير مناسبة للقفز من فرشته إلى عند حاتم، للسؤال وبهمس عن الموضوع الذي شغله طيلة الأيام الأخيرة:

- رفيق. صحيح راح ينقلون العوائل للفوج الثالث؟

أجاب حاتم بحدة:

- وأنت شنو علاقتك بالموضوع؟

نكص الشاب ولم يجب، عاد إلى فرشته لا يريد التوسع في الموضوع الذي أراده محصوراً، بينما حاتم رفع صوته وكأنه يريد إسماع النيام، لكن حاتم يعرف علاقة هذا الأمرد الصغير بموضوع العوائل، صحيح هو ليس من أصحاب العوائل، لكنها روزا الجميلة، لذا أردف منعماً صوته، لعله أراد مواساة الشاب الصغير:

- حسومي اطمأن، ستكون أنت الدليل، لكن ستوصلهم وتعود.

- يعني.

- بلا يعني. ما كو شيء لحد الآن.

(٤)
كاكه أنور يشتغل كوردي

ظل وافي جالساً وحيداً على صخرته يراقب هلامية الجبال البعيدة بناظوره الليلي، ما يزال مشوشاً بالأسئلة والاحتمالات يداورها مع نفسه، أخذت سيناريوهات كثيرة تتوارد على خاطره، كلها وجدها قاتمة، ومن بين قتامة سيناريوهاته تنبه لجمرة سيكاره حاتم في الأسفل البعيد، تختفي وتظهر من بين الأشجار والأكمات والصخور، ومع اختفاء تلك الجمرة الحمراء اللاصفة في حندس الليل القاتم، وجد وافي نفسه يعود إلى حادثة بعيدة كاد أن ينساها كل تلك السنين، رغم أنها كانت الشرارة التي جعلت لمصيره هذا المسار الذي هو عليه. إنها حادثة هروبه مع صديقه القديم كاكه[٨] أنور من جبهات الحرب.

كانا جنديين في فوج قُتل وأُسر معظم جنوده وضباطه، لم ينج من تلك المذبحة إلا من كان في المواقع الخلفية وقت الهجوم على مواضع فوجهم، نجيا من تحت أظلاف قصف مدفعي لم يترك لهم فسحة تبديل الهواء الفاسد الجاثم على صدورهم، محولاً أجساد الجنود إلى مزق مبعثرة مرمية في حفرة تشبه القبر اسمها موضع عسكري.

ملأ وافي له ولصديقه نموذجين من نماذج إجازة كثيرة حصل عليها، ووضع عليهما ختم الوحدة وإمضاء آمر الفوج الذي يجيد تقليده، ثم بدءا سفراً طويلاً من أقصى موقع أمامي على جبهة (البسيتين) في الجنوب، إلى مدينة (أربيل) في الشمال، لم يتركا وسيلة نقل لم يستخدماها حتى نفذت آخر الدراهم في جيوبهما، لكنهما وصلا إلى بيت كاكه أنور في محلة آزادي الأربيلية، هناك وبعد

٨- كاكه: مفردة كوردية بمعنى: أخ.

ليلتين قضاها بضيافة عائلة صديقه، والتي لم تكن تخفي خوفها من وجود جندي عربي هارب في البيت، افترق مصير الصديقين. اكتشف أن صديقه داخل في مشروع على شيء من الجنون؛ سيوصله إلى الشيوعيين لكنه نفسه سيعود للجبهة من جديد:

- هذا هو سبب وجودي في الجبهة، أساعد الجنود على الهرب والالتحاق بالجبل، آني يريد يفلش الجيش. !!

رد وافي في البدء بضحكة طويلة حتى شرق بدخان سيجارته، ثم دخل بصفنة أطول تملى خلالها وجه صديقه وكأنه يراه للمرة الأولى، وجه صغير غير متناسب مع إطار الرأس الكبير، بياض محمر، عيون لاصفة بذكاء شديد، أنف مدبب طويل، ملامح خرج منها بانطباعين متناقضين؛ أن صديقه (إما ذكي جداً أو هو غبي جداً). لم يطلعه على ما فكر به، قال:

- كاكه أنور. أنت كلش ملعون. !!

- آني يعرف شغله زين، العرب أوصلهم للشيوعيين، والأكراد أوصلهم حسب رغبتهم إلى أي حزب يريدون.

- وأنت، مع من ستلتحق؟

- أنا قلت لك لا ألتحق، أنا اشتغل كوردي!

- كوردي. !!؟ آني أعرف أنت كوردي.

- كاكه وافي، عندنا مثل كرهته كما لم أكره شيء غيره، المثل يقول:

(شه ري جي تره له بي كاري يه) ومعناه أن الحرب أفضل من البطالة!!

فتحت عيني على شعبي وهو يقاتل.

أبي وأخي الأكبر استشهدا في الثورة الأولى، عرفت أن كثير من الأكراد يقاتلون، وهم حتى لا يعرفون ماذا يريدون بالضبط، لأنهم ليسوا سياسيين، يعرفون شيئاً واحداً؛ أن الجبل مكان الرجال، أنا لا أجد القتال هو السبيل الوحيد.

- يعني أنت تعرف شتريد؟

- بلى، آني يريد أفكك عدو شعبي من الداخل، أقصد الجيش. !!

يرد عليه وافي بذات الضحكة التي ما زالت حائرة بين السخرية والاندهاش:

- مع أن هذا تفكير مجانين، والجيش ليس هو عدو شعبك، بل الحكومة التي تستعمل الجيش، لكن، بعد تفكيك الجيش وين تريد توصل؟

- أنا لا أريد لشعبي أن يظل تحت رحمة العرب!!

- وآني شايف أن العرب والأكراد هم تحت رحمة. أو نقمة حزب البعث الآن.

- هذا أنت تشوفه، لأنك سياسي وشيوعي، تشعر باضطهاد الحكومة لك، لكن الواقع يقول أن العرب لا يسمحون للأكراد بالانفصال عنهم، والجيش هو وسيلتهم لحرماننا من حقنا هذا، حتى أنت ومع تفهمك للقضية الكردية، لا تستطيع النظر إلى أبعد من الحكم الذاتي، مو هيج؟ أما أنا فلا أقتنع بغير الاستقلال، الدولة الكردية، تعرف إن الأكراد أكثر من ثلاثين مليون نسمة موزعين على أربع دول...؟ لذلك أنا لا أميل إلى أي حزب كردي، لأن أقصى ما يسعون إليه هو الحكم الذاتي.

- هذا يعني أننا نحبكم كاكه أنور. لا نريد الاستغناء عنكم، لكن لا تنس أن هناك شيء اسمه (حق تقرير المصير)، وهذا لا يتحقق برأيك وحدك، يقرره شعبك بكامله حسب مصلحته وحين يكون حراً.

- وهذا شوكت راح يصير ومنو راح يسمح به؟

- في هذه الحالة النضال هو مفتاح تقرير المصير، خل نخلص بالأول من (البعث) وحروبه وبعدين يصير خير.

- وآني هسه في النضال.

- لكن احذر يا كاكه أنور ليس كل الجنود شيوعيين. !!

خرج من تداعياته مع ذلك الكردي الحالم بدولة كردية إلى شعلة نار بعيدة، تظهر وتختفي، راقب الشعلة بناظوره العسكري، خمّن أنها على سفوح جبل (أتروش)، لكن ليس في موضع الربايا المعروفة، بل أسفل منها بكثير كأنها على الشارع الرابط بين أتروش وقلعة كانيكا، في العادة لا يوجد شيء في ذلك المكان، أنه شارع مهجور خارج سيطرة الجيش يلتف مع التفاف السلسلة

الجبلية ليصل إلى قلعة (كانيكا) المهجورة، ومن هناك يتفرع إلى قرىً عديدة، منها ما هو قريب من قاعدتهم، شعر بقلق، صار يربط ما رآه وسمعه قبل قليل في التلفزيون وهذا الأمر الغريب، ظلت عيونه منشدة إلى هناك، وفكر أن يتلفن إلى القاعدة في الأسفل.

مع خروج حاتم، لم يبق في الغرفة الكهفية، سوى كمال، وأبو طيف، والنصيرة، ووضحة.

خيم على ظلام الغرفة الفانوسي صمتٌ، أشعر كمالاً أن وجوده مع الزوجين زائد، لقد التقى الزوجان اليوم بعد فراق طويل، هي استدعيت لمقر القاطع للدخول في دورة على جهاز المورس وهو في مفرزته الجوالة، لذلك قررا احتفالاً بلقائهما، ولعدم حصولهما على غرفة مستقلة في مقر القاعدة، أن يقضيا الليلة في فصيل الإسناد لمشاهدة التلفزيون.

هذا الجهاز الذي تحول إلى ترف لفصيل الإسناد سنين طويلة، والأنصار لم يشاهدوا هذه الشاشة الزرقاء اللامعة بالصور، كيف يشاهدون والمنطقة كلها بلا كهرباء، وحتى المرات القليلة التي دخلوا فيها إلى المدن أو القرى القريبة من المدن المتمتعة بنعمة الكهرباء، فإن أول شيء كان يفعله صاحب البيت هو إطفاء التلفزيون بتذمر واضح:

- ملينا من هذا اللغو، قال القائد وزار القائد، خل نسمع الرفاق أش عندهم. !!

قد يكون محقاً ذلك المتململ من (لغو) القائد، لأن التلفزيون لم يقدم للمشاهدين سواه، وهو حقاً يريد سماع صوت آخر مختلف، لكنه كذلك قد يكون مأخوذاً بقلقه وخوفه من هذه الزيارة، التي ستتحول في اليوم التالي إلى نقمة على رأسه، ما أن يصل خبرها إلى عناصر أمن القائد.

لقد حصل الأنصار على هذا التلفزيون الصغير مع ألواح الشحن الشمسية من إحدى ربايا الفرسان الكائنة على سن صخري مشرف على ناحية (زاويتة)، في عملية اقتحام ناجحة، ولأن تلك الألواح تبحث عن الشمس غير المتوفرة في

جوف الوادي الذي يشبه شقاً طويلاً في جسد الجبل، نُقلت مع تلفزيونها إلى فصيل الإسناد الكائن في أحد انبعاجات السنون الصخرية. ومنذ ذلك اليوم تحول هذا الموقع الذي كان مكروهاً لعزلته الشديدة من (عش النسر)، كما كانوا يطلقون عليه إلى (منتجع الإسناد)، صار موقعاً جاذباً يقصده الأنصار حتى من غير المكلفين بواجبات الحراسة، متجشمين عناء الصعود الوعر لأكثر من ثلاثة أرباع الساعة، فقط لمشاهدة التلفزيون.

أخذ (كمال الزيباري) يتململ مدوراً برأسه في أرجاء الغرفة، وهو يهرش في لحيته كمن يبحث عن شيء يعرف أنه غير موجود. ضحكت وضحة:

- هاي شبيك كمال، مو راح تنتف شعر لحيتك.

الزوجان ينتظران خروجه وهو يعرف هذا، لكنه كان يتداول مع نفسه أمراً آخر؛ فكر أن يقطع إجازته هو الآخر ويلتحق بمفرزته الزيبارية، دارت في رأسه فكرة أن يقصد رشمال[9] (دايكه عيشة) ليستريح هناك بضعة أيام، ومن ثم يقصد المقر السري في جبل (عقرة)، الذي اتخذوه موئلاً لعملهم سواء داخل (عقرة) أو في قرى (دشت نهلة).

اتفق مع نفسه أخيراً أن تكون مغادرته غداً صباحاً، أوقف تدوير رأسه وهرش لحيته، وكمن تنبه تواً لوجودهما قربه، بدأ يضحك ويبتلع ضحكه على طريقته:

- ملاعين، أعرف عندكم مؤامرة، راح أطلع، اخذوا راحتكم.

وقام من فوره لينتشل بندقيته المعلقة على الجدار المقابل فوق رأس الزوجين، رد عليه أبو طيف:

- هاي فعلاً أنت تلگفها وهي طايرة. !!

وقبل خروجه وهو ما زال يضحك، رد على أبو طيف:

- طايرة، كاعدة، هذا حقكم الشرعي، ولو آني ما مقتنع باسم وضحة، يعني أنتِ ما لگيتي اسم غير هذا. العالم وصلوا للمريخ، وأنت بعدك وضحة.

٩- رشمال: مجموعة كبرات لقرية من القرى.

لتجيبه وضحة وهي معتادة على مناكفته لها:

- كمال ألف مرة قلت لك هذا أعز اسم عندي، بعدين ما راح يصير أي شيء، اصعد أنت للمريخ بمكاني.

أخذ كمال ضحكته المبلوعة وخرج. وضحة هذا ليس اسمها، بل هو اسم أمها. حين وصلت مع مناف إلى (بيروت) بعد أن نجوا من فخاخ الحملة الشاملة التي استهدفت الشيوعيين، طلبوا منها هناك أن تختار لها اسماً غير اسمها، كانوا بضيافة المنظمات الفلسطينية، وعلى عكس الأسماء الحركية التي دأب الفلسطينيون تداولها من ماركة (أبو الليل)، و(أبو الغضب)، و(أبو النار)، و(أبو العواصف)، وما شابهها، ربما لإخافة أعدائهم. !! اتبع الشيوعيون العراقيون تقنية مختلفة في اختيار أسمائهم الحركية، لقد أبقى معظمهم على المقطع (أبو) لكنهم أضافوا إليه أسماءً لا علاقة لها بالغضب والليل والعواصف، اختاروا في الغالب أسماء حبيباتهم أو بناتهم أو أولادهم، أما النساء فاختارت الواحدة منهن الاسم الذي كانت تتمنى لو كان لها، وهي في الغالب أسماء حديثة أو لنقل (مدنية)، باستثناء طيف التي غادرت رومانسية اسمها إلى وضحة الاسم القادم من جذورها البدوية، لتجعله وشماً يعلِّم رحلة أيامها المتعرجة بين (بيروت)، و(عدن)، حيث أكمل مناف هناك دورة عسكرية ليحصل على رتبة ملازم، ثم (دمشق)، فالحدود العراقية، ليدخلا البلد مثلما خرجا منه تهريباً.

بخروج كمال الذي ما زال صوته يصلهم من الخارج وهو يبحث عن وافي، هدأ ضجيج الأصوات في تلك الغرفة المضاءة بفانوس كليل، ليحل محله ضجيج الرغبات الملجومة، ضجيج جوع زوجين لبعضهما بعد رحلة غياب طويلة، قام أبو طيف ليقفل الباب من الداخل، وإذ لا يوجد قفل لأي باب في هذه القاعدة، وضع بين خشب الباب والعمود الجانبي الذي يشكل إطاره، حذاءه العسكري، القادم من الخارج سيصدمه في الحال بوز الحذاء المستقر بمثابة قفل، عندها عليه أن يحترم نفسه وينسحب، ضحكت وضحة وقالت:

- مناف الله يخليك لا تستعجل، قالوا إنهم سيفرغون لنا غرفة في المقر.

- حبيبتي إحنا راح نتباوس وبس.

- وآني هواي راح أصدقك. !!

لم يكن اشتياقها له بأقل من اشتياقه، كان الاثنان يتلظيان في جب اللهفة لبعضهما، زوجان حُرما من حياتهما الزوجية منذ أيامها الأولى، دخلا في قبلة طويلة بطول الغياب الذي كان، ورويداً رويداً أخذتهم القُبَل من تلابيب حذرهم وأدخلتهم إلى فردوس الغياب، والضياع في تضاريس وروائح جسديهما المتعرقين، جسدان كلما ارتويا عادا إلى ظمأهما من جديد، كم مر من الوقت، سؤال لم يعد له أي معنى داخل الغرفة.

وضحة لم تكن شيوعية قبل زواجها من مناف الذي تلبس اسمها لاحقاً، لم تشغلها السياسة والأفكار إلا بقدر ما تصلها أطراف أحاديث في الكلية تتناول ابن عمها وعلاقته بالشيوعية، الأمر الذي كان يستفزها ويشعرها بالخوف عليه، مشاعر كانت بدايتها لم تتعد خوف أخت على أخيها المهدد، خصوصاً وأن نشأتهما كانت في نفس البيت قبل أن ينقسم إلى بيوت على عدد الإخوان، وحتى بعد انفصال البيوت وتباعدها، ظل ابن العم هو الأقرب لها من أخويها اللذين يكبرانها، يفرحها قربه مثلما يخيفها تمرده واستهتاره بالخوف، لم يكن يخفي ما يفكر به، مثلما هي معه لم تكن تخفي شيئاً، اعتادت أن تطلعه حتى على أدق خصوصياتها، مرة أخبرته بتقرب أحد شباب الكلية منها:

- مسك يدي.

ثم سكتت. ليجيبها هو بسؤال فيه من السخرية أكثر مما فيه من الخوف أو التأنيب:

- بس. !!؟

- لعد أش تتوقع؟

- يعني مثلاً. بوسة. !!

حينها كانا جالسين في طرف باحة حوش بيت مناف تحت ظل النخلة الوحيدة، شعرت بالحنق عليه، ضربته بالقلم الذي كان بيدها، وقلبت شفتيها علامة زعل:

- أنت واحد مو مؤدب.

وفقط بعد أن وصله القلم وتلك التهمة باللاأدب، ارتدى وجه الجد وكأنه مقبل على مشروع:

- شوفي طيف. أنت من حقك تحبين وتنحبين، بس حظك النحس، هذا اللي مسك إيدك أعرفه زين، عنده علاقات ببنات داخل وخارج الكلية، بس الأهم من كل هذا، أنت شنو مشاعرك تجاهه؟

لم تجبه، اكتفت بهز رأسها من اليمين إلى الشمال علامة أن لا شيء عندها تجاه ذلك الشاب، ظلت انسيابية الأحاديث بين الاثنين على حالها لحين اصطدامهما بذلك الخبر الذي أُعلن في العائلة الكبيرة؛ أن طيف ومناف سيتزوجان هذا الصيف بعد أن ينتهيا من الكلية، هكذا كان اتفاق الكبار، عندها فقط تنبه كل منهما إلى شريكه، هو انتشل نفسه من مشاغله ومواعيده الحزبية في جولة مراجعة مع نفسه اكتنفتها الكثير من علامات التعجب، كما انسحبت هي إلى داخل نفسها لمواجهة ذات الأسئلة وعلامات التعجب.

أن يتفق الكبار بمعزل عن الصغار، وإن كان الأمر يخص هؤلاء الصغار، هو أمر معتاد وممارس وطبيعي في تلك البيئة الخارجة تواً من رمال الصحاري وأعرافها، إنما غير الطبيعي كان ألا يتنبه شابان شبه متحرران إلى أن ما كان يربطهما طيلة الوقت هو الحب ولا شيء غير الحب، الحب هذا المخلوق الإنساني ذو الوجوه الكثيرة، سألها في اليوم التالي وكانا في نادي الكلية وبلا مقدمات:

- أنت شتگولين؟

لتجيبه وظل ابتسامة كأنه يشع من كل وجهها:

- أنت شتگول؟

ليدخلا في فاصل طويل من الضحك استجلب نظرات الآخرين المستطلعة، ربما كانا يضحكان على نفسيهما على غفلتهما من بعضهما، الغفلة التي جعلت الكبار يحسمون شأناً من شؤونهما هما، عندها قال مناف قبل أن يغادرها إلى قاعة المحاضرات:

- لقد ارتكب خلف وعناد -أبويهما -أعظم وأحلى أخطاء حياتهما.

بعد ذلك الخطأ (العظيم) لم تعد الأحاديث البينية على انسيابها القديم، بدأ يداخلها شيء من اللعثمة والتلكؤ وكأن الواحد منهما يكتشف الآخر من جديد، يبحث عن المفردة ولا يجدها، للتعبير عن مشاعر حيرى غير واضحة المعالم، كأنهما يمران في مرحلة مشاعر انتقالية ستأخذ بيديهما لاحقاً إلى عالم جديد ومستقر؛ عالم رجل وامرأة.

أخذ موشور العلاقة يتصاعد من صدمة الاندهاش الأول ليدخل الحذر والتوجس، ليرتفع رويداً إلى اللهفة والشوق والانتظار، كانا يحاولان التعود على تلك النقلة النوعية من علاقة أخوية إلى زوج وزوجة، أما تأثيث جذوة الحب التي وصلاها لاحقاً، فهذا ما ساهمت الحكومة وحزبها بمساعدتهما عليه، كأن حزب الحكومة تنبه الآن فقط إلى مناف وتمرده بعد زواجه مباشرة، لتبدأ أحلك أيام ذينك الزوجين الذين لم يعرفا طقوساً للحياة الزوجية، لقد هجرا بيتهما الصغير الذي أوجده لهما الأبوان وهما ما زالا في اليوم السابع بعد العرس.

لم يعد رأس مناف هو المطلوب فقط، بل رأس طيف كذلك، لقد حسبوها على الشيوعية، وهي لم تتعرف عليها بعد، مطاردات لا تريد أن تنتهي إلا بالخضوع والاستسلام لإرادة رجال كانت ترى وضحة كم هم أجلاف، وهم في الغالب من عشيرتها، مطاردات كلما تصاعدت وتيرتها كلما تصلبت مقاومتهما وعنادهما هما الاثنان.

تشردا في مدن وأرياف غريبة عليهما، احتضنتهما بيوت أصدقاء ورفاق في ريف الجنوب، وعلى جمر الخوف والقلق والجهل بما تخبؤه قوادم الأيام، ورويداً رويداً كانت ترسم لزوجها صورة البطل وفارس الأحلام، مثلما كان هو يرسم لزوجته صورة الزوجة التي لن تتخلى عن زوجها مهما كانت تحولات ظروفهما.

دخلت معه التجربة بل اعتنقت التجربة بكل جوارحها، بعد أن رأت والتقت بشباب وشابات مثلهما تماماً يؤمنون بقضيتهم حد الاستعداد للموت، ليأتي

اليوم الحاسم، اليوم الذي ودعا فيه كل ما له علاقة بحياتهما السابقة، اليوم الذي قررا فيه هجر البلد الذي تحول على وسعه وكبره إلى أصغر من قن دجاج في ساحة عامة تخترقه عيون العسس والحزبيين الحكوميين، تدبرا وثائق سفر مزورة بمساعدات كانت تصلهم من عائلتهما، وسافرا إلى سوريا، ومن هناك إلى لبنان ليلتقيا بالحزب، الحزب الذي أعادهما إلى الوطن من جديد، إنما عبر الجبل.

(٥)
أنا زيباري. !!

وافي وكمال الزيباري متواصلان بتجاذب احتمالات الأيام القادمة، كما هما متواصلان بمراقبة تلك النيران التي باتت تتكاثر في أماكن ما اعتادوا على رؤيتها فيها، سلسلة نيران بدأت من موقع السيطرة العسكرية الكائنة أسفل الربيئة الأخيرة للجيش بمواجهة منطقتهم (المحررة) ووصلت إلى منتصف المسافة الفاصلة بين تلك السيطرة، وقلعة (كانيكا) المتروكة.

ما زالت الطرق المزفتة تشكل مقتلاً لحركة المسلحين. طرق متمددة من المدن إلى داخل منطقتهم المحررة، كذيول أفاعٍ رؤوسها في المدن وذيولها في مناطقهم، ذيول قادرة على التواصل على الدوام مع رأسها، من السهل على الجيش التقدم على هذه الطرق بآلياته المختلفة، وإن كان من اليسر كذلك قطع هذه الطرق بالكمائن، أو حتى بفتح الجبهات على التلال والسلاسل التي تشرف عليها.

ممر (أتروش) هو المنفذ الوحيد الممهد لتقدم الجيش سواء صوب قاعدتهم، أو صوب قاعدة (سيدرة) الخاصة بـ(البارتي) والكائنة غير بعيد عنهم في تضاعيف سفح (گارا)، على عكس الطريق الآخر المتفرع من طريق دهوك-عمادية، والداخل عبر ممر (طاجيكة) إلى مناطقهم، هذا الطريق ما زال ترابياً تكتنفه المطبات والصخور، وهو محصور بين نهايات سلسلة (گارا) وتضاريس هضبة البرواري. مما يجعل المهاجم فريسة سهلة لنيران المقاومين.

سمع الاثنان جلبة أصوات قادمة من الأسفل، عرفا في الحال أنها لرفاق

الحراسات الليلية الذين في العادة يأتون في الليل، وينزلون في النهار إلى القاعدة، كانوا ثلاثة، الأمر الذي جعل وافي يتذمر ويرفع صوته بجزع:

- طلبت خمسة رفاق، يرسلون لي ثلاثة؟

وجه سؤاله المتذمر إلى كمال الجالس بقربه، وكأن هذا هو المسؤول، ليرد عليه هذا بخبث:

- هاي شبيك تصرخ، أكيد حسبوا المجازين عليك، يعني العدد كافي، أنا و أبو طيف و وضحة و حاتم.

أجابه (وافي) وكأنه وجدها:

- خلص، انحلت المشكلة، وضحة الحرس الأول، أبو طيف الثاني. أنت ورا أبو طيف.

رد كمال بضحكته المبلوعة:

- وافي صار لي ساعة أسولف وياك، يعني ما غزرت بعينك، وبعدين حتى قوانين الأمم المتحدة أعفت المجاز من الحراسة، وآني مجاز!!

استمر وافي بذات الجدية التي تصنعها:

- رفيق آني ما عندي فندق، هذا موقع عسكري، روح أضرب رأسك برأس دي كويلار سكرتير الأمم المتحدة.

مع وصول الحراس الثلاثة إلى قرب صخرة وافي، خرج كذلك أبو طيف ووضحة من خلوتهما الفردوسية. بدأ الاثنان بمزاج رائق، وصل صوت أبو طيف من بعيد وهو يحادث زوجته:

- من توصل الأمور إلى دي كويلار. أكيد أكو قضية خطرة.

دخل الجميع في فاصل من الضحك والتنكيت، ثم أعلن أبو طيف قبل معرفته بجدول الحراسة:

- أنا ووضحة مستعدين للحراسة.

ليرد عليه كمال:

- رفيق أنت مجاز ليشب تتدخل بالشؤون العسكرية. المجاز. مجاز.

أشار برأسه إلى وافي الجالس على صخرته يدوِّر عتلة الناظور فوق أنفه، وواصل:

- وأكيد راح يعفينا.

ليرد عليه (وافي) بحزم واضح ومن خلف ناظوره:

- كمال أنت الحرس قبل الأخير، يلا رفاق كل واحد يشوف فراشه.

اختار له أزعج وقت حراسة، لأن الحارس بعدها لا يستطيع العودة للنوم، إذ سيتكفل الحرس الأخير بعد انقضاء ساعته بإيقاظ الجميع، انسحبوا جميعاً عدا وافي إلى حيث الغرفة لإخراج فرشات النوم في العراء الصيفي، ظل كمال وهو ينقل فرشته ينزل اللعنات والتهديدات على رأس وافي بتمتمة استجلبت ضحك الجميع:

- بسيطة وافي، راح أعلمك، عندي قوطية لحم، ما راح تذوقها.

افترق كمال الزيباري واسمه الحركي كان كمال فقط وهو ليس (زيباري)، بل (كربلائي)، لا رابطة بين مدينته وعشيرة (الزيباريين)، افترق عن رفاقه بتلك الرابطة التي بدت ملتبسة وغامضة على الجميع بقرى الزيباريين.

كان معظم الأنصار يشعرون أن مجرد مرورهم على قرى الزيباريين يعد عقوبة بحد ذاتها، إذ لا يجدون هناك الود ولا الترحاب المعتاد في باقي قرى الجبل، يكون الاستقبال هناك مغلفاً بالخوف الذي يُشاهد في عيون الفلاحين المتوجسة الشكاكة، ويكون هذا الأمر واضحاً كلما اقتربت المفرزة من ناحية (دينارته)، المدينة الصغيرة أو القرية الكبيرة التي يسكنها الأغوات الزعماء التاريخيون لهذه العشيرة، وهم يعتبرونها عاصمة عشيرتهم.

كان لهذه (العاصمة) ميزة استراتيجية كونها تقع مباشرة على الطريق العسكري المتفرع من طريق الموصل – عقرة، والمتوغل في دهاليز (گلي زنته)، إذ بعد خروج الطريق من فم الگلي[١٠] السحيق والضيّق يتمدد على مساحة

١٠- الگلي: مفردة كوردية تعني الوادي.

سهلية تقع فيها قرية (دينارته) حيث يشقها الطريق من المنتصف ثم يأخذ بالتمدد بشكل أفعواني، وهو يتسلق سلسلة جبل (بيرس) عابراً السلسلة إلى صفحتها الأخرى المطلة مباشرة على نهر الزاب، حيث تنفتح من هناك سهول وجبال عشائر البرزانيين.

ميزة عشيرة الزيباريين أنها مع الحاكم في بغداد مهما يكن شكله ولونه، منذ السلطان العثماني (عبد الحميد) صاحب فكرة (فرسان الحميدية) إلى (صدام حسين)، صاحب فكرة (الأفواج) الخفيفة، وهي تسيطر على الطريق الرابط بين مدينة (الموصل) القاعدة الخلفية لكل الجيوش التي حاربت الكرد، ومناطق عشائر (برزان) العشائر التي شكلت وما زالت تشكل دينامو الثورات الكردية، والزيباريون مقاتلون جبليون أشداء، وعلى خلاف قرى العشائر المتمردة إذ تجدها على الدوام مدمرة أو مهددة بالتدمير والتهجير، تجد قرى الزيباريين عامرة بالحياة، لا خوف عليها ولا هم يحزنون.

ظلت العداوة ماثلة بين العشيرتين ولم تخفف من أوارها حتى تلك الزيجة التي انعقدت للملا مصطفى البارزاني على إحدى سيدات البيوت الزيبارية المعتبرة، إذ لم ينحز للثورة سوى الأوجاغ الذي تنتمي له تلك السيدة.

السؤال هنا: كيف استطاع هذا الشاب الكربلائي الأشقر، والذي كان يدرس الهندسة في (براغ) عروس المدن الأوروبية أن يدخل تضاريس هذه العشيرة الموغلة في عروق وتلافيف العادات والتقاليد القديمة، التي تجعل الفلاح كأنه ملك طابو للآغا، يتصرف بحياته ومماته كأي ملكية شخصية. !!؟

كان هاوار قائد مفرزة العقراويين الثمانية، فخوراً بوجود كمال في مفرزته، العربي الوحيد الذي أتقن اللغة الكردية وباللكنة الزيبارية، وهو النصير الوحيد الذي لا يمكن تمييزه على أنه عربي، ليس لبياض بشرته واعوجاج مستقيم أنفه الذي يشبه أنف كوردي فحسب، بل من قيافته العسكرية كذلك.

لقد اعتاد القرويون على التمييز وعن بعد بين مفارز البيشمركة التابعة للـ(بارتي) – الحزب الديمقراطي الكردستاني- ومفارز الأنصار الشيوعيين من

قيافتهم العسكرية، رغم أن الجميع في الجبل يرتدون ذات الشروال الخاكي العريض من فوق، والضيق من تحت مع الصديري القصير، وقماش البشتين الطويل الملفوف على الخصر، بموديلات مختلفة من اللف والتدوير، إلا إن الفروقات ظلت واضحة بين الاثنين، ظل هناك ثمة ما يلفت في مظهر النصير غير الكردي إن كان في تلك البقع الواضحة المتخلفة على الملابس، حتى بعد غسلها، أو في لفة (البشتين) حول الخصر، أو لفة عصابة الرأس (الجمداني)، والتي كثير من الأنصار لا يضعها على رأسه من الأصل.

إضافة إلى ما حفرته البيئة الواقعة جنوباً من تدرجات اللون الأسمر على ملامح الوجوه، لكن يبقى الملمح الأهم من كل تلك الفروق الفلكلورية هو مفاعيل البعد عن المرأة (الأم، الزوجة، الحبيبة)، وما يحفره في الملامح من ملامح يمكن التعرف عليها وبسهولة. ملامح الشبع ليست كملامح الجوع. كان من السهل على ابن الجبل وعشائره أن يعثر على كنف يأوي إليه في إجازاته، حضن يعيد التوازن لمزاجه الذكوري، إن كان متزوجاً أو غير متزوج. مأوى يغمره بالدفء والسكينة الباحث عنهما في تيه الدروب الجبلية وليالي العمليات العسكرية، وصقيع القلق والخوف من قوادم الأيام، ومفاجآت الصخور، وما وراءها، تظل المرأة هي الكائن الوحيد القادر على غسل روح الرجل وتخليصها من ملامح التصحر والشرود، وهذا ما ظل يفتقر له النصير العربي في حياته الجبلية، ظل يغسل ملابسه بنفسه على حافات الينابيع بما يتيسر أو لا يتيسر من الصابون، ويدعك روحه المتصحرة لغياب النساء بأخيلة الاستمناء، والأحلام السرية، وهذا ما نجح كمال الكربلائي الفتى الثلاثيني في الفرار منه إلى دايكه عيشة (الأم عائشة)، الأرملة الخمسينية صاحبة الرشمال الرعوي على حافة (دشت نهلة) الزيباري، كانت له الملجأ والتعويض.

حصل الأمر في ليلة ثلجية عاصفة، كانت فيها المفرزة قد أضاعت طريقها وسط تهاطل الثلوج، وعصف الريح على سفوح جبل (عقرة) المشرفة على (دشت نهلة)، طيلة الليل وهم يدورون في ذات المتاهة الثلجية بحثاً عن

الطريق الذي سيوصلهم إلى ضوء فانوس ظل يومض لهم من بعيد، والفانوس في ليالي الثلج الجبلي، هو كالفنار للبحار المأخوذ بلجج البحر وغضبه.

كان كمال هو عبء تلك المفرزة المبتلية بعاصفة الثلج وبضياع الطريق، إذ تقاسموا بندقيته وعتاده وحقيبته الظهرية، كان مريضاً قبل العاصفة، واشتد مرضه خلالها، الأمر الذي جعله يتوسلهم في مرحلة من اليأس، أن يرحموه برصاصة ويتركوه برعاية الثلج الذي سيتكفل بتدابير غسله وقبره، لم تعد ساقاه قادرتين على حمله، ليرد عليه هاوار قائد مفرزته غاضباً:

- لن أتركك حتى لو حملتك على ظهري.

وصل الثلج حد الحزام، وصار على من يفتح الطريق أن يشق الثلج بتحريك خصره ذات اليمين وذات الشمال، كمن يؤدي رقصة هز البطن والأرداف، لم تعد السيقان قادرة على ممارسة دورها في الخطو، صاروا يتدحرجون على الوهاد الخفيفة غير عابئين بالسنون الصخرية المندثرة ببساط الثلج، والتي تعترضهم بين الفينة والأخرى.

تدحرجوا وسقطوا من القطوع العالية، وتزحلقوا فوق المساحات البيضاء النظيفة الهابطة، وشقوا طريقهم أخيراً إلى حيث الفانوس العنيد الذي ظل يلوّح لهم طيلة الطريق.

قرية صغيرة من بضعة بيوت سكانها من الرعاة، كان بيت دايكة عيشة هو أول من وصلوه، استقبلتهم المرأة بفانوسها، وأدخلتهم إلى إحدى الغرف، وهي تكرر عبارات الترحيب، هذا الأمر يحصل كثيراً في حصارات الثلج، والفلاحون معتادون على استقبال وخدمة المحاصرين إن كانوا بيشمركة أو (كرونجية[١١])، حتى وإن كانوا من أعدائهم، لحصار الثلج طقوسه وعاداته، غير أن ما لفت انتباه الجميع، أن علاقة من نوع غريب وغير متوقع حصلت بين دايكة عيشة وكمال المريض. كان الأمر يشبه قدحة في فضاء مظلم، ومضت أمام الجميع واختفت قبل اللحاق على فهمها، لم تكتف تلك المرأة بالحدب عليه كغريب

١١- كرونجية: مهربون يعملون على تأمين المؤن والبضائع المختلفة عبر الحدود الدولية.

لجأ إليها، بل أخذت تدلك قدميه المتورمتين بيديها، وتحرص على إبقائه بعيداً عن المدفأة المجمّرة مثل تنور وسط الغرفة، ولما رأته لم يلزم نفسه من الاقتراب من تلك المدفأة، صارت تنهره بصوت متمرس على أوامر النهي والمنع وبتقطيب من حاجبيها؛ أن يظل في الزاوية البعيدة تماماً عن مصدر الدفء.

كان اقتراب كمال من المدفأة في تلك الحالة التي هو عليها من تورم الساقين وخدرهما يعني إصابته بالغرغرينا المؤكدة.

جلست قبالته لتحرسه من نفسه، وسط شخير رفاقه الذي تعالى ما أن وطئت أجسادهم فرشات النوم قرب تلك المدفأة، ومع طلوع الفجر طلبت من أحد أبنائها أن يحضر غيارات على عدد أفراد المفرزة، ويجهزوا لهم الماء الحار في المخزن ليتحمموا ما أن ينهضوا من النوم، وبعد أن أخذ الجميع حمامهم الساخن وعادوا، قادت هي كمال من يده إلى المخزن، والذي كان هو حماماً ومخزناً.

كان منقاداً لها، مستسلماً بين يديها، لا حول له ولا قوة، وضعته هناك في (طشت) البلاستيك الكبير بعد أن خلعت عنه ملابسه، وأبقته باللباس القصير فقط، وصارت تدعك جلده مثل أم تغسل صغيرها، الجميع وأولهم أبناؤها الأربعة وزوجاتهم صاروا يتساءلون بالعيون: ما الذي يحدث؟ لكن أحداً لم يجرؤ على سؤالها، بعد أربعة أيام ومع هدوء أوار العاصفة الثلجية، وتماثل كمال للشفاء، وفتح بعض الطرق بين القرى، قرر هاوار مغادرة القرية، لتواجهه دايكة عايشة على غير توقع:

- أنتم روحوا، بس كمال يبقى عندي.

قالتها بحزم شيخ قبيلة، وهي حقاً كما راقبوا، ورأوا كانت تمارس دور رئيس القرية، لا تفعل ما تفعله النساء عادة، بل هي تجالس الرجال وتتجاذب معهم الأخبار والأحداث كرجل تماماً، في صوتها نبرة آمرة.

هاوار يعرف معظم سكان قرى (دشت نهلة)، لكنه لم يتعرف على هذه

المرأة من قبل، أراد الرفض غير أن نبرة الحسم الواضحة قطعت عليه الطريق. قال:

- لكن.

أراد التذكير أن القرية قريبة من مقر العسكر في ناحية (دينارته)، لم تدعه يكمل:

- كمال ابني.

وكأنها أرادت أن تقطع عليه الاحتمالات التي يتداولها رأسه، وهو ما زال مندهشاً من سر هذه العلاقة التي حدثت أمام عينيه، هذا الحب العارم الذي تغدقه هذه المرأة على كمال وهي لم تكد تعرفه، غير أن ما قالته لم يبتعد كثيراً عن الحقيقة.

منذ لمحت كمال في تلك الليلة، استعاد قلبها صورة ابنها الشاب الذي مات منذ خمس سنين بمرض غريب لم يعرفه حتى أطباء المدينة، هاجس لا تدري من أين انبثق، أقنعها أن كمال هو سعدو ابنها، لعل ملامحه كانت قريبة من ملامح ابنها، أو هو مرضه الذي ذكرها بمرض ابنها، أو هي غربته المحفورة على ملامحه، خيوط كثيرة تواشجت لتعيد نسج خيط الأمومة المتنحي في لجة قيادتها لقرية من خمسة عشر بيتاً لأبنائها وعمومتهم وأبناء عمومتهم، كانت هي كبير القرية غير المتوج.

مع دايكه عايشة لجم هذا الشاب عواءه الداخلي، وأشبع جوعه لصدر الأم، مثلما لجمت هي الألسنة التي تطاولت من رجال قريتها:

(أغسل ملابسه. وأغسله بيدي. واللي ما يعجبه خل يواجهني. !!)

لتخفت حدة اللغط مع التكرار، ومع قدرة كمال على أن يكون فرداً من تلك العشيرة الرعوية الهائمة على وجهها في تلافيف الجبال العاصية، بعد سنين سيصدق بعض فلاحي القرى البعيدة وهم يسمعونه يتحدث بكردية صافية وبلكنة زيبارية؛ أنه هجين من أم كوردية وأب عربي:

- أمي كوردية من دشت نهلة، هربت مع جندي عربي.

ليرد عليه جليسه بتورية ممزوجة بامتعاض واضح:

- هاي شلون يصير، أنت أكيد غلطان، أنت أبوك كوردي وأمك عربية.

عندها ينفجر المجلس بضحك صاخب، ليعود كمال ويعفي الكرد من تلك (الوصمة):

- الحقيقة أمي وأبوي من العرب الأقحاح. مثلما يحبون هم أن يصفوا أنفسهم.

(٦)
حين تكون نتائج الحلول متشابهة .. يعني ماكو حل

بعد بضعة أيام على توقف الحرب الخارجية على الجبهات الطويلة، بدأ الجيش بالسيطرة على كافة الطرق الرابطة بين المدن والقصبات الصغيرة في جبال الكرد، الطرق التي تحرز جسد المناطق المحررة-المحرمة.

الأخبار تتوارد على مدار الساعة عن قوافل عسكرية يُشاهد مقدمها إنما لا أحد يرى نهاياتها، كانت نهاياتها في تلك الجبهات البعيدة التي كانت تصل منها أصوات المدفعية وراجمات الصواريخ قبل توقف الحرب، قوافل تلتظ الطرق العسكرية والمدنية على السواء، خيوط ملظومة تتشابك وتفترق وتتمدد لتنتهي إلى قرب مواقع المسلحين، وقراهم التي ما زالت صامدة ترفض الهجرة.

قيل أن الجنود وبعد أن اكتظت بهم المعسكرات والقواعد والربايا صاروا يفترشون الأرض ويلتحفون السماء في الفضاءات المفتوحة من ساحات المدن والنواحي، والقرى والشوارع الرئيسية والفرعية، كأن الجيش بفيالقه الستة قد عسكر قبالة هذه القمم والسفوح والوديان التي تضم مسلحين وقرويين، ما زالوا يرفضون تصديق تلك الأنباء التي تتحدث عن النية المتبيتة لاقتلاعهم مرة وإلى الأبد.

اتخذ السؤال (ماذا أعددنا لنهاية الحرب) ملمحه العملي، ليفترش أوقات فراغ المقاتلين في القاعدة موضوعاً وحيداً لليالي والنهاريات.

لم تعد المساحة الصغيرة الكائنة أمام المطبخ هي المساحة الوحيدة التي يتجمع فيها الأنصار، ظهرت هناك مساحات أخرى أصغر أمام الغرف وعلى سطوحها افترشتها الأحاديث والنقاشات البينية فيما بينهم. الكل يسأل والكل يجيب.

منهم من ظل على ذات الإجابات التي رافقت قرار قيادة حزبهم المطالبة بوقف الحرب كموقف سياسي، إبراءً لذمة الحزب أمام التاريخ وكانت تلك الإجابات مسلفنة بنبوءات القيادة التي كانت وكأنها متأكدة من أن نهاية الحرب تعني نهاية النظام الذي أشعلها.

سيسقط النظام بأسلحته هذه المرة، أسلحة الجنود العائدين، الجنود الذين كانوا وقوداً لحربٍ عبثية وهم معظم الشعب، سينتفض الجنود تحت لافتة السؤال الكبير والخطير:

(لماذا كانت الحرب. ولماذا توقفت؟).

غير أن من الأنصار من لم تشغله تلك النبوءات المستقبلية لدور ووظيفة الجنود، أكثر مما هو منشغل بالهجوم الوشيك لأولئك الجنود الذين بدأوا يحاصرون منطقتهم من كل حدب وصوب حصاراً دائرياً هذه المرة. !!

لا يبحثون عن منطق السياسي، بل عن منطق المقاتل الباحث عن إجابات واضحة ومحددة لأسئلة واضحة ومحددة:

ماذا بشأن حربنا نحن؟ ماذا بشأن فلاحي قرانا المحررة؟ ماذا بشأن عوائلنا؟ ماذا بشأن المدن القريبة والبعيدة؟ ماذا بشأن حلفائنا؟

كثيرة هي الأشياء الباحثة عن شأنها في رؤوس الأنصار. وكان أهمها أنهم لطالما تجنبوا قتال الجنود على خلفية قناعة تقول إن الجنود ليسوا أعداءنا، بل هم فقراء يشكلون مع العمال والفلاحين قاعدة الحزب، الأمر الذي جعل عمليات الأنصار طيلة حربهم منتقاة تستهدف عناصر الأمن والاستخبارات وتتجنب الجنود.

كانت الظهيرة سابحة في حمم (آب) اللهاب، جاعلة حتى الظلال تحت أغصان أشجار الجوز تنث أبخرة لزجة.

إنه وقت سبات الظهيرة لكائنات هذا الشق الجبلي.

في غرفة (مكتب الفوج) كان سهراب ومنعم جالسين متقابلين صامتين، الأول يدخن بعصابيته المعهودة ويتلفت بين الحين والآخر إلى زوايا الغرفة الخالية إلا منهم، والثاني متكئاً على المخدة التي وضعها في حضنه مائلاً برأسه إلى الأمام وكأنه يستمع لصمت سهراب، الذي لم يقل شيئاً منذ دخوله المداهِم إلى الغرفة.

في الحقيقة هذه هي طريقة سهراب في الدخول، إن دخل مكاناً كأنه يداهمه وإن خرج كأنه يهرب منه وإن سار كِأنه يركض، شيء ما متحرك على الدوام في جسد هذا الرجل.

بدا واضحاً من صمتهما الذي تطاول؛ أن الاثنين يتجنبان الخوض في الموضوع الذي جعلهما يلجئان إلى غرفة مكتب الفوج التي ظلت فارغة منذ مدة طويلة بعد انتقال آمر الفوج القديم إلى الفوج الثالث.

في الواقع كان الاثنان هاربين من زوجتيهما، ترك منعم المسؤول السياسي السابق للفوج زوجته فريسة لهواجس ومشاعر تتجاذب زرع الكآبة والقنوط في نفسها، كانت جمرة الخلاف هي ذاتها، الجمرة القديمة، ما أن ينفخ عليها أحدهما حتى تتوهج، إنها تلك الرضيعة ذات الستة شهور التي تركاها بعهدة عائلة الزوج منذ ثمان سنين، بعد أن ادلهمت من حولهما غيوم الاعتقالات والقتل التي طالت كثيراً من التنظيمات الحزبية، تركا ابنتهما وسافرا بجوازات سفر مزورة إلى سوريا ومن هناك إلى بيروت، استقرا في تلك المدينة المقسمة بين الشرق والغرب بضعة أشهر، كما استقر من سبقهم بضيافة شيوعيي المدينة ومنظمات اليسار الفلسطيني، ثم عادا للوطن، لكن ليس كما خرجا، عادا مقاتلين، ثمان سنين وهما في ذات الخلاف، خلاف يبدو لمن يراقبهما على شيء من الغرابة، بسبب تبادلهما للأدوار، إذ يحصل أن يدافع أحدهما عن

الخيار الذي كان يدافع عنه الآخر والآخر مصر على دحض الخيار الذي كان خياره قبل مدة، الواضح أنهما كانا وما زالا في منطقة اللاخيار، كل الخيارات متوقفة على إنجاز الخطوة الأولى التي لم يجرؤ أي منهما على اجتراحها، خطوة الاتفاق على جلب الرضيعة التي صار عمرها الآن ثمانية أعوام دون الدوخان في جلبة الأسئلة والأسئلة المضادة من نوع:

إلى أين نجلبها؟ وهل نحن ضامنان حياتنا لنضمن حياتها؟ ولماذا نجعلها تقاسي ما نقاسي؟ لماذا عليها أن تدفع ثمن خيارنا نحن؟ وفي النهاية أليس من الأصلح بقاؤها حيث هي تنادي على عمها (بابا) وعلى زوجة عمها (ماما)؟

هذه الأسئلة المتناسلة من رحم بعضها كانت هي العقبة وهي مدار تبادلهما للأدوار وللإجابات المبتورة، الأمر الذي دفع الزوج للخروج من ذلك الجدل الشائك غاضباً على زوجته وكأنها هي سبب المحنة، وهي الأخرى كانت غاضبة عليه وكأنه هو سبب الألم والاحتصار الذي تحسه في صدرها كلما تذكرت وليدتها التي تركتها بالقماط وهربت.

أما سهراب المسؤول العسكري الأول في اللجنة الجديدة للفوج، أراد بعروجه على مكتب الفوج النفاذ من حصار خانق، وجد نفسه يتخبط في خيوطه، هو الآخر مشتت بين الموافقة على إرسال عائلته إلى الفوج الثالث، أو إنزالهم إلى الداخل.

الخياران بديا له من زاويته كزوج وأب لبنتين صبيتين وطفل رضيع بنتيجة واحدة، ضياع عائلته من جديد، حين ترك عائلته والتحق بتشكيلات الحزب العسكرية، كانت البنتان صغيرتين، وكانت أمهما تدبر أمرهما سواء في بيت أهلها، أو حتى في بيتهم من تلك القرية الصغيرة الضائعة، في تعرجات وأخاديد التلال الممتدة على طول (سهل الموصل)، أما الآن وبعد تهجيرها، وأخذ صك التعهد من أبيها بعدم استقبالها فيما لو عادت تحت طائلة سيف القانون المسلط على رأسه، ستكون عودتها ضرباً من التشرد.

صحيح أن هناك من تعهد له بتوفير مأوى لهم في بيوت أقاربه في الموصل،

وهذه مدينة كبيرة سيضيعون فيها. لكن، هل سيغامر بناء على تعهد من شخص لا يثق بمدى صموده فيما لو تعرض إلى ضغوط حكومية.

وحتى فيما لو تم كل ذلك ماذا بخصوص تكاليف المعيشة؟ هل ورقة العشرة دنانير التي يمنحها الحزب لكل نصير، تكفي لمعيشة عائلة وهي بالكاد تكفيه ثمناً لدخانه؟

أما خيار الفوج الثالث والحدود فبدا هو الآخر مبهماً كغموض الأهداف التي يريدها النظام بتحشيد جيشه الآن، واضح أن الهجوم القادم سيشمل كل مناطقهم بما فيها منطقة الفوج الثالث وهو في كل الأحوال لن يكون معهم، لأن مهمته العسكرية في الفوج تتطلب وجوده الدائم هنا، إلى ذلك، بدا له عناد زوجته هذه المرة مختلفاً، ظلت تردد ذات الجملة وكأن حياتهم انحصرت فيها:

(لو نعيش سوا لو نموت سوا)

هل تعرف هذه المرأة حقاً ماذا يعني القتال والانسحاب في هذه الجبال الوعرة. كيف و ئاسو الصغير ما زال رضيعاً. !!؟

عاد يأنب نفسه من جديد على ذلك الخطأ الذي اقترفه مع زوجته بإهمالهما احتياطات وتدابير الحساب بعد نفاذ (حبوب منع الحمل).

تذكر تلك الساعة التي كشف فيها لطبيب الفوج محنته:

- رفيق ما عندك حل بديل عن حبوب منع الحمل؟

ولأن الطبيب عماد من النوع الممازح، أجابه وهو يضحك:

- رفيق عليك بالأطراف واحذر الوسط. !!

لم يكن سهراب بمزاج يتفاعل به مع المزاح، غضب وقرر ترك الطبيب والخروج، غير أن هذا مسكه من ذراعه وأبقاه بعد أن ارتدى وجهه قناع الجد:

- رفيق آني ما اتشاقى فعلاً عليك بالأطراف، شوف، الأسبوع الأول بعد الدورة الشهرية والأسبوع الأخير قبل الدورة الجديدة أمان بنسبة أكثر من ٩٠ بالمئة، أما العشرة بالمائة المتبقية فهذه الله يعينك عليها

لأنها تعتمد في حدوثها على عوامل كثيرة منها قوة الإخصاب للزوجين، أما الأسبوعان الوسط فتحدث خلالهما كل البلاوي، لذلك قلت لك الأطراف وليس الوسط، ولزيادة الأمان يمكن لك أن تقلص الأسبوع إلى خمسة أيام من كل طرف.

أمام صمت سهراب وغضبه الذي ما زال يعلِّم ملامحه، فهم الطبيب أنه ما زال لم يستوعب المعلومة التي ذكرها له. واصل:

- راح أشرح لك العملية بالتفصيل الممل، بس الله يخليك البس غير هذا الوجه.

قدم له سيكارة (سومر) طويلة، وهو غير المدخن، لكنه يحتفظ بهذا النوع من السجائر، ثم أخذ يشرح له دورة حياة البويضة من الباب إلى المحراب ومعها الفروق بين الحيامن الذكرية والأنثوية وأوقات التخصيب، مستخدماً مصطلحات الطب تارة، وتارة المفاهيم الشعبية الشائعة، بل هو حتى زاد الشرح قليلاً بإرشاده إلى إمكانية التحكم بجنس المولود من خلال تتبع إحداثيات الدورة الشهرية وبالاستعانة بمحرار يكون بمعية الزوجة. !! ليجيبه سهراب ضاحكاً هذه المرة:

- إذا هالشكل على الحزب أن يوفر محارير.

لم يعن سهراب من كل تلك الشروح التي وجدها عويصة وهي في كل الأحوال تصلح لحياة مستقرة وليس لحياة القتال الجبلي، سوى معلومة الأيام الخمسة، ناقلاً هذه المعلومة بحرفيتها إلى زوجته، وبمرور الأيام توافق الزوجان على ما يشبه (الكودة) السرية بينهما، حين يسألها: أمان؟ فإن هزت رأسها صعوداً وهبوطاً مع ابتسامة مرحة عندها يواصل مشروعه، وإن كانت هزة رأسها من اليمين إلى الشمال مع ظل ابتسامة كأنه شماتة به، عندها يغمغم مع نفسه وينسحب من الموقف، ولانشغاله الدائم ترك أمر الحساب و(كود) الأمان لها، لكنها رغم كل ذلك أخطأت أو هكذا ادعت، لم يضغط عليها للتخلص من الحمل كما تفعل كثرة من نساء المتزوجين، وحين جاء المولود ذكراً دونما حاجة لمحرار الطبيب، كانت فرحته كبيرة.

سهراب رغم شيوعيته القديمة التي تلح على المساواة بين الذكر والأنثى، إلا أنه في كل الأحوال فلاح وحصوله على ولد بعد بنتين يستحق الاحتفال ونسيان كل المطبات القادمة، هكذا، ومع وصول ئاسو وهو الاسم الذي اختاره لابنه، تضاعفت أعباؤه، مثلما تحول ارتباطه بالمولود الجديد إلى هوس.

لم يعد كما كان قبل وصول ئاسو، صار يختلق الأعذار والحجج ليترك سريته ويعود إلى المقر، وتخافت رويداً رويداً اندفاعه وحماسه للعمل العسكري كما كان معروفاً عنه، حتى أن قيادة الفوج السابقة قد أعفته من قيادة السرية السادسة وجعلته بمهمة شبه وهمية في مكتب الفوج هي معاون آمر الفوج، مهمة وجد نفسه لا يمارسها طالما آمر الفوج موجوداً.

بعد صمت طويل بين الاثنين المتقابلين في غرفة (مكتب الفوج)، منعم برأسه المائل إلى الأمام مستغرقاً بأسئلته غير المنتجة، وسهراب بدخان سكائره الذي شكل ما يشبه الغيمة في فضاء الغرفة، نطق سهراب أخيراً:

- يقولون (البارتي) راح يدخل مفاوضات مع النظام.

ليرد منعم وكأنه كان يتوقع السؤال وحيثياته:

- لا تصدق. هاي إشاعة.

- يجوز. بس المشكلة من نسأل كوادرهم لا يؤكدون ولا ينفون.

- و أبو منيب شيگول؟

- أبو منيب خليه يطلع من غرفته في الأول.

- بس هو مسؤول الفوج، وهاي أخبار تؤثر على معنويات الأنصار، على الأقل يرسل برقية يسأل الحزب.

سهراب يعرف أن منعم رفض العمل مع أبو منيب بدواعي التعب والحاجة للراحة، لكن السبب الحقيقي كان عدم قناعته بإمكانية أبو منيب على قيادة الفوج عسكرياً وحزبياً، وربما طموحه كان أن يكون هو المسؤول، وهي اللاقناعة ذاتها لدى سهراب، لكنه لم يرفض المهمة الجديدة (المسؤول العسكري الأول) كما رفض معظم الكوادر.

رمى سهراب عقب سيجارته عبر باب الغرفة المقابل له إلى الخارج، غير أن العقب اصطدم بإطار الباب وسقط على فرشة الإسفنج الجالس عليه منعم.

رفع هذا رأسه وابتسم:

- رفيق مو كافي حارگ روحك، تريد تحرگني وياك؟

نهض سهراب ورفع عقب السيجارة بعد أن عمل دائرة حرق صغيرة في فرشة الإسفنج، ورماه إلى الخارج، لم يعد إلى مجلسه، ما زال يشعر بذلك الشيء الغريب الذي لا عهد له به، شيء صلب قاس يضغط على صدره، يشبه صوت استغاثة يأتي من بعيد لكنه غير واضح النبرات، لا يريد في كل الأحوال العودة إلى عراك زوجته التي تركها غاضبة تبكي في غرفتهما، هو يبحث عمن يخرجه من هذا السديم الذي يجد نفسه يدور في متاهته، لا شيء واضح، الجيش يتقدم وهم حتى بلا خطة عمل، قرر المغادرة إلى غرفة أبي منيب عسى أن يجد عنده شيئاً مختلفاً، لكنه قبل المغادرة ترك لمنعم هذا السؤال المبهم:

- زين. والحل؟

بالطبع صيغة السؤال لم توح بشيء محدد، كثيرة هي المشاكل التي تداولهم ويتداولونها وهي تبحث عن حل، إنما ذلك الخيط الذي كان يربط صمتهما قبل قليل، جعل منعم وكأنه هو الآخر يداور ذات السؤال، لهذا أجابه:

- حين تكون نتائج الحلول متشابهة، يعني ماكو حل. !!

(٧)
رسالة كيمياوية

كان أبو منيب مستلقياً على فرشته يتفرس في سقف الغرفة، حين دخل سهراب بطريقته المداهمة، أدار رأسه إلى الباب وابتسم، لم يتذكر أنه استدعاه، بادره:

- أكيد الحر خلاك تشرد.

سهراب اعتاد ألا يجعل لأحاديثه وطلباته مقدمات وحواشي، يدخل في الموضوع مباشرة، ولأنه ما زال محتصراً بالحيرة واللاوضوح مما يجري من حوله، قال قبل أن يجلس على الفرشة المقابلة وكأنه يؤنب أبو منيب:

- رفيق ترى ما يجوز نبقى ساكتين، الجيش راح يوصل (كانيكا)، والأخبار عن تفاوض (البارتي) والحكومة على كل لسان.

أجابه هذا بعد أن جلس في وسط الفرشة وبهدوئه المعتاد:

- لم يصلنا شيء من الحزب بعد.
- بس الجيش ما راح ينتظر حتى توصل توجيهات الحزب؟

هوّم أبو منيب بيديه على عادته حين لا يجد جواباً أو فكرة جاهزة للقول، ثم أردف:

- على كل حال، أنا طلبت من الحزب الموافقة على سحب القوة كلها إلى الحدود.
- أي حدود تقصد؟
- أقصد. نكون قريبين من الحدود التركية على الأقل.

استشعر سهراب شيئاً يشبه هزيمة موشكة، أن ننسحب هكذا دون قتال وإلى الحدود. يعني التسليم من الآن بالنتيجة.

ماذا عن القرى؟ ماذا عن العوائل؟ ماذا عن وجهة العمل الجديدة في المدن؟ ماذا يقول حلفاؤنا؟

هل ننسحب ويصمد بيشمركة (البارتي) مع الفلاحين؟

سأله:

- رفيق. أنت سألت الرفاق عن هذه الخطة. أم هي رأيك أنت؟

- هو اقتراح، وافق عليه أبو سعيد وأبو فهد، أما الآخرين فخليني أشوفهم بالأول حتى أسألهم. كل واحد مسويله حزب خاص به.

الاثنان المتفقان مع أبو منيب هما من الكوادر التي نسبتها قيادة قاطع (بادينان) إلى لجنة الفوج الجديدة، الأول كان في مقر الفوج منذ زمن متفرغ للعمل الحزبي المدني في مناطق الجنوب، والثاني وصل لمهمة الإدارة بدل الإداري القديم، أما الآخرون فهم أعضاء مكتب الفوج القديم وأمراء السرايا وقادة التنظيم المحلي المرتبطين بالسرايا، وكل هؤلاء لديهم مؤاخذات وملاحظات على قرار تسليم الفوج لأبو منيب، وبعضهم قدموا طلبات إعفاء من المسؤولية.

عمل سهراب لفافة تبغ جديدة وأشعلها، ومع الدخان الخارج من أنفه وفمه، قال بطريقة باترة:

- رفيق احنا راح نقاوم.

رد أبو منيب وربما لأول مرة يكون فيها غاضباً ويظهر غضبه:

- أنت مجنون، تريد تقاتل بين العوائل.

- وسنكون جبناء ومتخاذلين لو انسحبنا وتركنا بيشمركة (البارتي) والفلاحين يقاومون لوحدهم.

- أوجدوا بالأول حل لمشكلة عوائلكم، تعبت وآني أحاول إقناعكم بإرسالهم للفوج الثالث.

- أنا موافق، وسأجعل أصحاب العوائل يوافقون.

ما إن سمع أبو منيب بتعهد سهراب حول العوائل حتى شعر بارتياح وعاد إلى هدوئه الملازم لأحاديثه:

- الله وإيدك. اقنعلي أصحاب العوائل.

أبو منيب مع نفسه لم يكن جاداً في فكرة الانسحاب دون قتال، وأصلاً هو لم يرسل بمثل هذا المقترح لقيادة الحزب، هو فقط تداوله مع الثنائي أبو سعيد وأبو فهد، والاثنان على خلاف الآخرين اعتادا زيارته والمكوث عنده لساعات.

أراد استفزاز سهراب ودفعه إلى هذا الموقف وقد نجح، مما جعل سهراب يشعر بإحراج من وقع في مطب لم يكن في حسبانه، كان هو أشد الرافضين لفكرة إبعاد العوائل، وحتى الذين كانوا موافقين على الفكرة كانوا يترددون حين يرون إصراره على الرفض، رغم أنه لم يقدم خياراً بديلاً.

استغل أبو منيب الموقف وطلب من سهراب أن يرسل من يجس نبض الفلاحين في المنطقة وبيشمركة (البارتي)، إن كانوا سيقاومون أم سينسحبون.

رغم الإحراج الذي تلبسه وهو يوافق على ما كان قد رفضه في السابق، دون أن يعطي لنفسه فسحة للتفكير، لكنه شعر وهو يخرج من غرفة أبي منيب بارتياح غريب، لأول مرة منذ أيام يخرج من طلاسم الغموض واللاوضوح التي كانت تسد دونه مشارف الرؤية.

يرى الآن وبوضوح ماذا عليه أن يفعل، بل شعر وكأن عائلته قد وصلت إلى الفوج الثالث وقد تخلص تماماً من عبئها، وعلى الفور طلب من حاتم أن يرسل مجموعة من عشرة أنصار يختارهم هو ويقودها معاونه حاجي، للتنسيق مع الفلاحين ومع بيشمركة (البارتي)، وتقاسم مناطق الدفاع بين المحورين المهددين بالاجتياح؛ محور (سواره توكه-زاويتة) ومحور (أتروش – كانيكا).

ليلاً، وصل بريد من السرية الرابعة التابعة للفوج، يؤكد أخبار الاستعدادات الضخمة للجيش على الشوارع الرئيسية، سواء تلك الواصلة بين الموصل ودهوك أو تلك الفرعية الرابطة بين (ألقوش)، و(باعذرة)، و(الشيخان) وصولاً إلى (عقرة)، وأكدت أخبار التنظيم المحلي التابع للسرية على نية القوات

المتجحفلة الإبادة هذه المرة، سوف لن يتركوا جسماً متحركاً في مناطق عمل (البيشمركة)، هذا ما يتداوله مسؤولو وأعضاء منظمات حزب الحكومة في النواحي والقصبات، وفي آخر الرسالة يسأل مسؤول السرية الرابعة أبو حمدة ما هي توجيهات الفوج؟ ماذا عليه أن يعمل؟

في اليوم التالي وصل بريد مشترك من حاجي الذي كُلف بمهمة جس نبض الفلاحين والتنسيق مع بيشمركة (البارتي) ومسعود مسؤول السرية السادسة، المتجولة بالقرب من محور سواره توكه- زاويتة، يخبرهم بأخبار مشابهة عن استعدادات الجيش، لكنها مختلفة عن رسالة السرية الرابعة، إذ تؤكد على استعداد الفلاحين والهاربين من الخدمة العسكرية وقوات البيشمركة للدفاع عن القرى وعدم تركها هذه المرة للحرق، وهم يعملون على خطة يتقاسمون بها مواقع الدفاع بينهم وبين بيشمركة (البارتي)، مع ملاحظة موجزة تقول أن خبر التفاوض مع الحكومة من قبل (البارتي) هو إشاعة لا تصدقوها، حسب تأكيدات عزيز سور القائد الميداني لبيشمركة (البارتي).

أحدثَ البريد الأخير انشراحاً في صدور معظم الأنصار، على الأقل هم الآن يعرفون ماذا ينتظرهم، لكن ظلت الغصة عالقة في الصدور، إذ ملامح الهجوم القادم تنبئ أنه مختلف عن كل ما سبقه، سبق لهم وأن تصدوا لهجومات كثيرة، لكنها جميعاً كان وقودها تشكيلات (الفرسان) وبعض مفارز الاستخبارات من المدن والنواحي القريبة من منطقتهم، مقاتلو (الفرسان) في غالبيتهم منزوعي الرغبة في القتال، يجدون أنفسهم مدفوعين لقتال غير مقتنعين به، ناهيك عن معرفتهم أن المستشارين أو رؤساء عشائرهم يقبضون ثمن الهجوم مقدماً ولا يصلهم منه غير الفتات، لذلك، كانت تتسرب أخبار الهجوم القادم وخطته وأهدافه للبيشمركة بأيام وأحياناً بأسابيع قبل حدوثه، وفي كل الحالات لم يكن الهدف من تلك الهجومات مسك الأرض، بل كان شيئاً يشبه تحريك بركة ساكنة برمي حجر كبير فيها.

اقتصرت كل الهجومات السابقة على الوصول إلى مقرات الحزبين (الشيوعي)، و(البارتي) لحرقهما، ومن ثم انسحاب المهاجمين إلى المدن التي

أتوا منها، إلى جانب ذلك كانوا يحرقون كذلك عدداً من البيوت في هذه القرية أو تلك، وأحياناً يكتفون بحرق كومة قش في زريبة بجوار قرية ما، ليوهموا الطيران الذي يراقبهم من علوٍ أنهم نفذوا المهمة. !! أكثر من هذا كانت تصلهم بين حين وآخر تأكيدات من مستشاري الأفواج الخفيفة (الفرسان) وهم كلهم رؤساء عشائر بالقتال، أو قل لا نية على (تكريد) القتال بين (البيشمركة والفرسان).

من هما طرفا القتال في النهاية؟

هما العشائر ذاتها، منهم من هو مع البيشمركة، ومنهم من اختار السلامة وحياة المدن الرخية والامتيازات السخية بانضمامه إلى تشكيلات (الفرسان)، حدث كثيراً أن تقابل أبناء العم أو حتى الإخوان في تلك الهجومات، حتى تنبه (البارتي) لهذا الأمر وبادر للاستفادة منه، أخذ يساوم (الفرسان) على ثمن هجومهم ليحصل على نصفه (نقوداً وأسلحة) مقابل تسهيله لمهمتهم في الدخول والوصول إلى الأهداف التي يريدونها. !!

لقد اندهش الأنصار في البدء لسرعة انسحاب مقاتلي (البارتي) من مواقعهم الدفاعية، وبقائهم هم يدافعون عن القرى باستماتة وكأن مصير قضيتهم كله مرتبط بهذه القرية أو تلك، الأمر الذي أحدث مفارقات عجيبة كأن تجد ابن (البصرة) يدافع عن قرية حتى آخر طلقة وكأنها قرية أجداده، بينما ابن القرية ينسحب ويتوسل بالنصير العربي لينسحب معه.

- هفال[١٢] لخاطر الله انسحبوا.

ليرد النصير:

- هفال آني ما أنسحب بدون أمر من الحزب. !!

تستمر المقاومة أياماً بسبب عناد الشيوعيين، وهي التي كان مقدراً لها ألا تدوم سوى ساعات ينتهي بعدها كل شيء، ويعود كل طرف إلى مكانه، الأمر الذي دفع (الفرسان) لاحقاً بالطلب من (البارتي) أن يقاسم الشيوعيين الثمن لينفذوا مهمتهم بسلاسة ودون خسائر، لكن هذا الأمر لم يحصل، ربما

١٢- هفال: مفردة كوردية باللهجة البهدينانية بمعنى: رفيق

لمعرفة (البارتي) بـ (الجمود العقائدي) للشيوعيين أو لمجرد الاستحواذ على الثمن لنفسه ليمول حربه.

لم تكن تقلقهم أخبار تلك الهجومات، طالما نوايا المهاجم واضحة ومعروفة منذ البداية، وفي كل الأحوال تظل سلسلة جبل (گارا) وما خلفها من قرى ممتنعة وعاصية على أي هجوم، تظل هي القاعدة الخلفية الآمنة للانسحاب إليها مؤقتاً لحين عودة المهاجمين إلى مواقعهم في المدن والبلدات التي انطلقوا منها. كانوا يستبسلون في القتال في البدء، ويوقعون خسائر بالطرف المهاجم، ولم يندر أن قدموا هم كذلك خسائر من القتلى والجرحى، ثم يرتبون انسحابهم دون التعويل على (البارتي).

كانوا مدفوعين بهاجس إقناع الفلاحين بجديتهم في الدفاع عن القرى والمنطقة كلها، متوخين من الأمر مزيداً من الدعم والمساندة. هل كانوا ينجحون بذلك؟

ظل الأمر ملتبساً عصياً على الفهم، وهم يجدون الفلاحين غير معنيين بقضية القناعة أو اللاقناعة بما يقول ويفعل الشيوعيون، وجدوهم منشدين إلى رابط آخر لا علاقة له بالسياسة والمبادئ والأفكار والقناعات، رابط العشيرة، منطقة (بادينان) برمتها، ومن دهوك إلى زاخو إلى بعض سهل أربيل، هي منطقة نفوذ تاريخي لـ(البارتي) منذ أيام القائد التاريخي الشهير الملا مصطفى البارزاني. ورغم انشقاق معظم رؤساء العشائر عليه وانضمامهم إلى تشكيلات (الفرسان) الحكومية، ظل الفلاح الكوردي في جانبي القتال لا يعرف حزباً غير (البارتي) ولا (بيشمركة) غير (البارتي).

لم يحصلوا على أنصار ومؤازرين من هذه المنطقة الفلاحية إلا ما كان لهم في الأصل، لقد كانت هناك بضعة عوائل في هذه المدينة أو تلك في هذه الناحية أو تلك في هذه القرية أو تلك، شذت عن هذه القاعدة العشائرية، عوائل كانت وظلت شيوعية بشيوخها ورجالها ونسائها ومنذ زمن بعيد يعود إلى فترة المد الشيوعي العارم في البلد كله إبان الخمسينات والستينات.

ظلت تشكيلاتهم المسلحة مقتصرة على العرب الملتحقين من الداخل

والخارج، وعلى شباب مدينة (ألقوش) المسيحية، مدينة القائد ذي التاريخ العسكري البارز في الحركة المسلحة توما توماس، إضافة إلى شباب الطائفة الأيزيدية، وهؤلاء تاريخياً هم مع الشيوعيين، إضافة إلى مجاميع صغيرة من شباب أكراد من المدن المحاذية للمناطق المحررة في غالبيتهم مثقفون، متمردون على الروابط العشائرية.

ما يواجههم الآن شيء مختلف تماماً، الذي أمامهم هو الجيش وليس (الفرسان) منقسمي الولاء، الجيش بضباطه المحترفين وبجنوده الخارجين تواً من محرقة الحرب الخارجية، الجنود الذين يعتبرونهم موضوعياً هم قاعدة الحزب مع العمال والفلاحين.

أخيراً، إنهم أمام الجيش الذي يعولون عليه لينقلب على النظام، وها هي ملامح الهجوم القادم تشي وفق تسريبات كثيرة باتت تصلهم أن الهدف هو الإبادة الشاملة لهم وللفلاحين، نُقل عن ضباط كبار في الجيش زعموا أنهم كانوا مجتمعين مع علي كيمياوي ابن عم الرئيس ووزير دفاعه والقائد الأوحد الذي مُنح صلاحيات رئيس الجمهورية لهذا الهجوم، أن:

لا نريد أسرى، سجوننا اكتظت بهم، نريدهم أمواتاً، رجال، نساء، أطفال، شيوخ. إلى جهنم. !!

إذن باتت الرسالة واضحة وفق هذه التسريبات المتعمدة: لا ملجأ إلا الحدود. ما ينتظرهم داخلها الموت ولا شيء آخر سواه. !!

في اليوم التالي على أخبار الاستعدادات الدفاعية للبيشمركة، أغار الطيران الحربي على المنطقة المجاورة للقاعدة من (گلي آفوكي) إلى (كاني باسكي)، مستهدفاً قريتي (سواري) و(كاني باسكي)، كل قرية بقذيفة كيمياوية واحدة، وبعد جلب المصابين إلى طبابة الفوج على ظهور البغال، وحسب شهادات المصابين؛ تأكدوا أنه غاز الأعصاب.

لم يوِّلد انفجار القذائف صوتاً مدوياً على عادة القنابل التي يهز صوتها جدران الوديان والبيوت ويظل صداها تردده لفترة طويلة القطوع البعيدة

للجبل، صوت هاتين القذيفتين كان خافتاً يشبه انفجاراً مكتوماً لرمانة يدوية في بركة ماء عميقة.

كانت الإصابات قليلة لوجود أشجار كثيفة امتصت الغاز، كذلك الهجوم استهدف محيط القريتين وليس البيوت، قتلت امرأة عجوز من قرية (سوارى) في الحال، كانت ترعى بمعزاتها قرب القرية على سفح الجبل، وأصيب عشرة قرويين كان من بينهم طفلان.

هي رسالة أخرى تؤكد ذات المعنى، أن الهجوم القادم مختلف، بعد حصول الغارة، أصدر سهراب أمراً بالانتشار النهاري.

عملوا على تفريغ القاعدة من التجمعات، وإبقاء أقل ما يمكن من أنصار المهمات الثابتة كالطبخ والطبابة والإدارة، كذلك شمل القرار سكان القرية المجاورة، قرية عوائلهم.

كان على الجميع إخلاء الغرف طيلة النهار، والانتشار بين الأكمات والصخور على سفح الجبل، وعلى مسافات متباعدة.

رغم قلة الخسائر التي نتجت عن الغارة، إلا أن الرعب الذي أصاب المقاتلين والعوائل كان شاملاً، الرعب الذي سيتفشى لاحقاً في كل قرى المنطقة ويعلِّم ملامح الرجال والنساء.

لم تفصلهم عن مذبحة (حلبجة) الكيمياوية سوى أشهر قليلة، لم تزل الذكرى طرية ماثلة في الأذهان، لقد انتشرت الأخبار والإشاعات وتداخلت مع بعضها في عقول وقلوب الفلاحين، بين قائل بمسح (حلبجة) عن بكرة أبيها، وقائل إن جثث الألوف من النساء والرجال والأطفال غدت غذاءً للكلاب؛ إذ لا أحد من البشر يجازف بالدخول إلى المدينة المنكوبة، وقائل إن الحكومة هددت بمسح قرى أخرى.

عدا عن هذا كان الشيوعيون هم أول ضحايا السلاح الكيمياوي، الذي استهدف قاعدة قاطع بادينان في (گلي زيوه) قبل سنتين، حينها قُتل اثنان من

كوادرهما أبو فؤاد وأبو رزكار، والاثنان بصدفة غريبة كانا واصلين تواً من الخارج، إضافة إلى إصابة أكثر من مئة مقاتل بالعمى الذي دام أياماً، وكان له أن يتحول إلى عمىً دائم لولا نباهة أحد الأطباء الذي عمل للمصابين أحواضاً من الماء المخلوط بصابون الغار طالباً من الجميع غسل العيون مرات عديدة في اليوم.

لاحقاً تحولت طوابير العميان إلى مناسبات للتندر فيما بين المقاتلين، حين يقود أحد المبصرين طابوراً من عشرين أعمى أيديهم على أكتاف بعضهم كل يوم لقضاء حاجتهم، وهو يصيح بصوت عال:

(ارفع رجلك گدامك صخرة)

تشاهد الجميع يرفعون أقدامهم بما فيهم ذلك السائر في آخر الطابور، والذي لا يصل الصخرة إلا بعد تسع عشرة خطوة.

شفي الجميع من العمى، إلا أن تقرحات القصبات الهوائية والرئة ستظل ملازمة لهم طوال حياتهم المفترضة، مثلما سيلازمهم شبح الموت الكيمياوي ساداً بوجوههم أي أمل في المقاومة لاحقاً.

مساءً وصلت برقية من المركز القيادي في المثلث الحدودي (خواكرك)، تعلمهم أن غارة الصباح الكيمياوية نفسها شملت كل المناطق المحررة، من قاطع (هورمان) إلى (السليمانية) إلى (أربيل) إلى (بادينان)، وفي ذات التوقيت وكانت هناك إصابات كثيرة بين الفلاحين بينهم من توفيً حالاً.

لقد اختاروا من كل قاطع عمليات قرية من القرى، أودعوها طردهم الكيمياوي.

كل هذه الوقائع جعلت الأنصار يقرؤون رسالة النظام الكيمياوية بجدية أكبر، وكان من نتائجها؛ أنها حركت موضوع العوائل، اقتنع الجميع الآن بخيار إبعاد العوائل قدر الإمكان عن ساحة العمليات القادمة، ولم يكن أمامهم غير الفوج الثالث القريب من الحدود التركية.

(٨)
أنباء موسكو مقلقة. !!

انزواء المكان بين الصخور والأشجار التي تبدو بكراً لم تمسسها يد إنسان، يشعرانه بالوحدة التي طالما اشتهاها، زمن طويل مر وهو وسط الجماعة، على الدوام آخرون معه يتشارك وإياهم المأكل والمسكن والهواجس وكل شيء، لا فسحة أمامه للانفراد بنفسه ولو لبضعة دقائق.

اختار حاتم ظل صخرة كبيرة تقع بعيداً عن الطريق الرابط بين موقع الإسناد، ومقر الفوج واتخذها صومعة لمنتجعه.

منذ قرار الانتشار النهاري، وهو يلجأ إلى ذات الصخرة، حاملاً حقيبة الظهر بتلاوين محتوياتها من: كتب، دفاتر، أكياس شاي، وسكر، خبز، جبن متعفن إضافة إلى صرة التبغ، يشعل ناراً صغيرة من بضعة عيدان جافة، وما أن تشتعل يضع فوقها قطعاً كبيرة من جذوع الأشجار يجدها منتشرة في المكان ليديم جذوة النار.

يركن قرب النار قوطية الشاي، وهي علبة حليب الأطفال (كيكوز) التي حوَّر الأنصار وظيفتها ولونها، أصبحت للشاي لا للحليب، ولونها تحول من الفضي النظيف اللامع إلى لون السخام من الخارج والداخل. مع رشفات الشاي الأسود ولفائف التبغ المعطر القادم من حقول (بري گارا)، يستجمع لنفسه عالماً شخصياً من شتات أحلام، شتات أفكار، شتات كتب كان قد قرأها ودخلت تلافيف مخه تنبض بأحداثها وملابساتها، وملامح شخوصها كأنها واقع حقيقي لا افتراضي.

يصفّي رأسه من نثار أصوات عالم القاعدة الرابض في الأسفل، إذ لا يصله من هناك إلا الخفيض من الأصوات، وكأن الأصوات بتسلقها السفح تفقد الكثير من حدتها وعنفوانها تماماً كما البشر، يعزل الأصوات المخدوشة مبقياً على هدير (روبار[١٢] مه راني) ذلك الجدول ذو الماء الزلال وهو يخرج للتو من نبعه، لا يصله من ذلك الهدير إلا ما يشبه همس العشاق، يجعل هذا الصوت الأنيس خلفية موسيقية طبيعية لعالمه الذي يستجمع خيوطه.

منذ أيام وهو يسترجع في خلوته، ذلك الحديث المبتور الذي دار بينه وبين مساعده السياسي، قبل أن يعلن هذا نزوله واستسلامه للسلطة بكفالة أحد الوجهاء من أقربائه.

دلير الشاب اليزيدي الجميل والنظيف حتى في تلك الأيام التي لا يجدون فيها ماءاً للشرب وليس للاستحمام، بشرته تخبرك على الدوام أنه خارج للتو من دوشٍ ساخن.

كانت لدلير ثقافة لا تجعله أستاذاً على الفلاحين في المحاضرات التي يلقيها في القرى وهم ينادونه على أية حال بـ (ما موستا) فحسب، بل تجعل منه قائداً متمكناً في مختلف الشؤون.

دلير ذاك وصل إلى نهاية طريقه قبل أن ينتهي طريقهم.

حاتم:

ما أشعر به الآن مخيف.

يجيبه حاتم، وهو يحاول حرف الموضوع إلى مزاح:

- الله يستر.

- أشعر باللاجدوى.

يستجمع حاتم نفسه محاولاً التركيز، وهو يتأمل تلك التجاعيد التي بدت جديدة على جبين دلير الصافي منها، تجاعيد من يعتصر مخه ليخرج منه زوائد مزعجة، يقول له:

١٢- روبار: جدول ماء صغير.

- فعلاً. هذا شعور مخيف.

في ذهن حاتم أن التبدلات التي حدثت لحياتهم الجديدة من مفرزة متجولة تعتمد في قوتها على القرى، إلى مفرزة ثابتة في كهف جبلي، كانت تسكنه الوحوش قبل وصولهم إليه، وتحول جهدها من الاستطلاع والأعمال العسكرية إلى مجرد تأمين قوتهم اليومي، هي السبب في هذا الشعور.

لقد بذلوا جهداً مضنياً خلال الشهور الأخيرة لتكوين وإمداد القاعدة شبه الثابتة المشرفة على مدخل (گلي باعذرة)، كان لجهود دلير وعلاقاته داخل القرى والمدن القريبة الدور الواضح في إنجاحها.

استنفر كل معارفه سواء أولئك المرتبطين معه بعلاقة حزبية أو مجرد أقرباء وأصدقاء، لتدبير المؤونة التي تكفي على الأقل لشهر قادم.

منذ ثلاثة شهور لم يسأل دلير عن إجازة يقضيها كعادته في قرية من القرى الكثيرة التي ترحب به، لهذا اقترح عليه حاتم؛ أن يعود إلى المقر للاستراحة. لكنه أجابه:

- أعتقد المسألة أصعب من مجرد تعب يزول. !!

لقد دار في خلد حاتم لوعورة تضاريس حياتهم الجديدة، أن يضطر أحد الملتحقين الجدد أو حتى أحد الأنصار القدامى من سريته على مغادرتهم وتسليم نفسه للسلطة، بسبب الإجهاد، التعب، الغموض الذي يلف حياتهم وأهدافهم، أو حتى ارتعاب مما وصلهم من أخبار عن مذبحة (حلبجة).

زرعت المذبحة التشوش والحيرة الواضحة في نفوس الأنصار، وإن كانت بدرجات أقل حدة ومأساوية مما أحدثته في نفوس القرويين، خصوصاً وأن المستهدف فيها كانوا أهالي المدينة وليس مقاتلي (اليكتي) الذين قيل إنهم دخلوها قبل ليلة بصحبة الحرس الثوري الإيراني (البازدارية[١٤]).

لهذه الأسباب ولغيرها قد يضطر أحدهم للنزول وتسليم نفسه، لكن لم يخطر ببال حاتم أن يكون هذا النازل والمستسلم هو مساعده، المسؤول الحزبي والسياسي للسرية.

١٤- البازدارية: قوات الحرس الثوري الإيراني.

حدس حاتم أن دلير يفكر بالاستسلام، لذا عليه أن يقنعه بالعودة إلى القاعدة الخلفية في (مه راني) عله يستعيد هناك البعض من توازنه ويراجع قراره، كذلك فكر أن يكتب رسالة شخصية لآمر الفوج، يقترح بها المساعدة على إخراج دلير إلى الخارج، خصوصاً مع الأخبار التي جاءتهم من القاطع عن إعادة فتح طريق سوريا، وإمكانية إخراج بعض الأنصار من المرضى والمتعبين.

- دلير. ما زلت أقترح عليك الذهاب إلى المقر للاستراحة.

- حاتم. قل لي بصراحة. هل ما زلت مؤمناً بأفكارنا؟

بدا السؤال على وضوحه غير مفهوم لحاتم:

- لكن. ماذا تقصد بأفكارنا؟

- أفكارنا عن الاشتراكية وبناء عالمٍ خال من الاستغلال، أفكارنا عن الفقراء وقدرتهم على تحرير أنفسهم أو قدرتنا على قيادتهم، أفكارنا عن النظام الفاشي الذي سيزول بعد وقف الحرب بفعل انتفاضات الجنود أو احتجاجات الشعب، عن الصراع الطبقي في مجتمعنا، وهل حقاً عندنا صراع طبقي؟ أم هو صراع من نوع آخر ما زلنا نجهل طبيعته؟

أنا بدأت أشك بكل هذه الأفكار والمسلمات.

- كل هذا الذي ذكرته ما هو إلا مفاهيم وتعابير، في المحصلة هي وصف لمشاكل قائمة، أن نخطئ في الوصف لا يعني أن المشكلة غير موجودة، الفقر، الاستغلال، الظلم، انعدام الحريات كل هذه البلاوي موجودة، وعلى البشر بهذه الوسيلة أو تلك إيجاد حلول لها.

- أقصد. هل اطلعت على الأعداد الأخيرة من مجلة (أنباء موسكو)؟

همهم (حاتم) بصوت واضح:

-آها. الآن فهمت!!

وصلت نسخ قليلة عبر الأنصار العاملين على طريق سوريا من مجلة (أنباء موسكو) السوفيتية، أحدثت ضجة فكرية في كل مكان وصلته.

لا تتحدث المجلة كما اعتادوا عليها من قبل عن إنجازات عظيمة وقفزات

هائلة اجترحها المجتمع السوفييتي في الصناعة أو الزراعة أو الفضاء. بل هي تحدثت الآن عن فساد ناخر لجسد الدولة الاشتراكية الأولى، عن استبداد قديم واستبداد جديد، عن جرائم إبادة ضد الإنسانية مورست بصمت، عن انعدام الحريات، عن مراجعات فكرية حاصلة داخل قيادة الحزب الشيوعي السوفييتي، عن مصطلحات ومفاهيم جديدة تبدو أنها متداولة من مثل (بيروسترايكا)، (غلاسنوست)، حتى إن هذه المصطلحات وبعد أيام قليلة دخلت بانسيابية إلى أحاديث الأنصار وصاروا يرددونها كما كانوا يرددون من قبل مصطلحات البلاشفة والمناشفة والثورة، والبروليتاريا، سأل دلير:

- ما هو رأيك أنت؟

حاتم في كل الأحوال لم يكن متهيئاً لهكذا حوار، ناهيك عن تركيزه المشتت بين هموم متطلبات مقرهم الجديد والمصاعب الجديدة التي باتت تواجههم فيما يخص استجابات بعض متنفذي القرى الذين باتوا يرفضون بشكل صريح تقديم الضريبة السنوية من المحصول الزراعي كما هي العادة كل سنة، بحجة خوفهم وتهديدهم من قبل مفارز الاستخبارات.

فسر حاتم الأمر على خلفية انسحابهم من مواقع عديدة، وسيطرة مفارز الاستخبارات على عديد من القرى وتسليح سكانها، باتوا أمام الفلاحين ليسوا بذات القوة التي كانوا عليها.

أجابه:

- أعتقد أن هناك أخطاء كبيرة حصلت، وهم يراجعونها لغرض إصلاحها، هذا كل ما في الأمر.

- وهل تلك الأخطاء قابلة للإصلاح؟

- أعتقد ذلك.

- أنا لا أعتقد.

وأمام صمت حاتم الذي بدا مذهولاً من المسار الذي سار عليه الحوار، أردف دلير:

- يبدو لي إن أسباب الأخطاء ليس في التطبيق، بل في النظرية الماركسية نفسها حول الاشتراكية، الواضح أنها تفتقر لآلية إصلاح الخطأ من الداخل، كما هي الرأسمالية مثلاً، أو أن هذه الأخطاء جاءت من الخطأ الأول الذي ارتكبه (لينين) والبلاشفة بإشعال الثورة في بلد هو زراعي أكثر مما هو صناعي، أي أن اللينينية هي ببساطة انحراف عن الماركسية، وهذا عكس ما تعلمناه طيلة وجودنا في الحزب.

حاتم ما زال مصدوماً وهو إلى ذلك لا يجد عنده ما يرد فيه آراء دلير التي وجدها جريئة وجديدة تماماً، ربما هو نفسه راودته مثل هذه الأفكار، لكنه لم يصل معها إلى نهاياتها التي وصلها رفيقه.

يفكر الآن أن دلير مقدم على فعل فيه خطورة على حياته، البعثيون لن يغفروا له مقاومته لهم بالسلاح، وهو ليس نصيراً عادياً، هو من الكوادر العلنية المكشوفة، هو الآن خائف عليه أكثر مما هو خائف من أفكاره الجديدة، كيف يقنعه بالذهاب إلى المقر؟ أو بمعنى آخر كيف يقنعه بعدم التسليم للسلطة وهو لم يطرح مثل هذا الاحتمال بعد؟

قال:

- دلير. أتفق مع كثير مما طرحته الآن، لكن شيئاً واحداً لا أستطيع الموافقة عليه؛ هو أن نظهر أخيراً أننا على خطأ في مقاومتنا للبعث، مهما تراكمت الأخطاء من حولنا، يبقى الشيء الوحيد الصحيح الذي قمنا به هو الكفاح المسلح ضد البعث، كل ما عداه قابل للنقاش، هل تتفق معي؟

- لا أدري. لا أدري.

أخذ يكرر لا أدريته بصوت بدا خفيضاً كأنه يسأل نفسه. ثم أردف:

- أكو أسئلة كثيرة رغم وضوحها لكننا لم نتداولها:

لماذا الحكومة تقتلنا بالسلاح السوفييتي، ولماذا الدول الاشتراكية وأمريكا والغرب كلهم مع (صدام) وحربه؟ ولماذا نحن في هذا المفترق الغامض؟

ضد الاحتلال الإيراني لبلدنا من جهة، لكننا من جهة ثانية نخوض حرباً ضد النظام لإسقاطه.

ألا نبدو وكأننا مكملين للمجهود الحربي الإيراني؟ ما هو موقفنا من حلفائنا (البارتي) و(اليكتي)؟

ألا ترى أنهم يجلبون عناصر البازدار الإيراني ليستطلعو في مناطقنا؟

لقد وصلوا إلى سد الموصل.

- على العكس كل هذه الأسئلة متداولة بيننا، ربما لم نصل إلى أجوبة مقنعة تماماً، لكن لا تنس الحزب الآن لم يعد تابعاً للسياسات السوفيتية، موقفنا من النظام موقف وطني لا علاقة له بموافقات أو اعتراضات السوفييت، هم أصلاً معترضين على أسلوبنا في الكفاح المسلح، وبالنسبة للبازدارية الإيرانيين. أنت تعرف أن الحزب رفض هذا السلوك من (البارتي) وأعلن لهم رفضه.

- لكنه لم يصدر بياناً في هذا.

- هذا صحيح، ربما هو حريص على التحالف أكثر من إشهار الخلافات.

- وهكذا كنا مع البعثيين في الجبهة الوطنية، نحرص على التحالف ولا نفضح الجرائم، حتى وصلت إلينا.

بعد أيام من تلك المحادثة التي جرت أسفل مغارة الذئب الكائنة على سفح گلي باعذرة، خرج دلير في مهمة حزبية، أو هكذا أعلن لحاتم مصطحباً أحد الأنصار ولم يعد، عاد النصير مع ضوء الفجر لليوم الثاني بمفرده مع بندقية دلير ورسالة صغيرة لحاتم.

طلب فيها من (حاتم) أن يعذره مع جملة قصيرة كتبها أسفل الورقة الصغيرة بعيداً عن السطر الوحيد في الرسالة وساحباً تحتها خط غير مستقيم عاكساً من خلاله انفعالاً لم يقدر على كبحه، إذ ظهرت ثقوب وشقوق على الورقة على طول الخط، قال فيه: لا تخافوا مني سأبقى إنساناً. !!بغض النظر عن قدرة دلير بالإخلاص لوعده «أن يبقى إنساناً» أم لا، تحتم على حاتم أن

يعمل الكثير لجعل كل شيء على غير ما كان عليه، اختار لهم كهفاً جديداً أسوأ من الأول لكنه محمي نسبياً، ألغى كل مواعيد تسلم شحنات الطحين والسكر، ألغى خطط الاستطلاع المقترحة. بدا وكأنهم سيعيدون عملهم السابق الذي امتد أشهراً من جديد.

عاد متسمعاً لهمس (الروبار) عله ينجيه من تلك الأفكار التي تولدت رؤوسها في داخله وهي لم تكتمل بعد، أفكار بدت له هي السبب وراء أمر التشتت والقلق الذي تلبسه منذ حادثة استسلام دلير، أفكار لم يتعرف بعد على ملامحها الأكيدة، لذا لجأ إلى دفتره، إلى وسيلته الأمينة التي بها وحدها يكشف نفسه لنفسه، يمنح الحرية لقلمه ليفك ذلك التشابك الحاصل في رأسه.

ظل القلم يكتب لا يقطع استرسَاله إلا حين يشعر بجفاف فمه، أو يعجز عن فك التشابك الحاصل في كومة الخيوط المتناسلة من بعضها، عندها يلجأ إلى كأسة الشاي وإلى لفافة التبغ بهما يحصل على ما يشبه استراحة المحارب، هدنة زمنية يعود بعدها إلى محراب التفكيك والهدم في تلك الكتلة السوداء القاتمة التي بات يراها مرة في رأسه ومرة على الورق، بقوطية شاي وعدد من لفائف التبغ كتب شيئاً ما أن تملى في ملامحه حتى أرعبه، شيء كان يمور في كهفٍ من كهوف نفسه، مقرِّز منفِّر لا يريده، كتب:

((أنا أشعر بالخوف من الموت الآن أكثر من أي وقت مضى، كنت خائفاً منه طوال حياتي منذ تعرفي على الحزب، منذ التحاقي بجبهات الحرب على الحدود الإيرانية، منذ هروبي خارج الحدود، منذ عودتي إلى تلك الحدود، منذ التحاقي في الجبل، كل ذلك الوقت كنت خائفاً منه.

ساهمت في عمليات اقتحام وتسلل وكنت خائفاً، بادرت لاقتراح عمليات ومعارك ونفذتها وكنت متلبساً بذلك الخوف الفظيع من الموت، غير أن خوفي لم يعقني يوماً، لم يمنعني عن المواصلة، لم يقطع علي الطريق، على العكس كنت بحاجة إليه، كان يزودني بحزمة وصاياه وينسحب، لم أخف من خوفي ذاك، فقط كنت أخاتله. ما أن تُطلق الرصاصة الأولى حتى أكون نسيته،

ونسيت نفسي، وكل شيء إلا الهدف الكائن أمامي، لكن خوفي الآن مختلف: لِمَ هو مختلف الآن؟ لماذا هو قبيح إلى هذا الحد؟ أشم، له رائحة تشبه رائحة العفن.

ماذا يعني الموت الآن؟ ألم يكن الموت على الدوام حاضراً، متربصاً يشاركنا اللقمة والملبس والسكن والرفقة على دروب لم تكن يوماً صديقة؟

لكنه ظل مهمشاً، بعيداً، لا أحد راغب برفقته، كالحاضر الغائب، كان يشبه كلباً مطروداً لا يمل من تشمم أثر خطواتنا.

ما بالي الآن أرى الكلب الأبلق أمامي على الصخرة المقابلة، جالساً على عقبيه ولسانه لم يزل يلهث، عيونه الحمر مصوبة إلى عيوني، عيونه تقول شيئاً محدداً، لكنني لم أفهمه بعد. أيكون حكيم الساموراي ميتو على حق وهو ينصح فرسانه؟

«أيها الفارس الشجاع. إن الاندفاع إلى معمعة القتال والموت مسألة هينة، يستطيع الريفي الساذج أن يرتكبها، غير أن الشجاعة الحقيقية هي أن تحيا حين يكون من الصواب أن تحيا، وأن تموت حين يكون من الصواب أن تموت.»

لكن يا ميتو أيها الحكيم، كيف ومن هذا الذي يجيد التمييز بين الصواب واللاصواب؟ كيف التمييز بين تلك الأشياء التي يجب أن يخافها الإنسان وبين التي يجب ألا يخافها؟

ما زلت بذات الدائرة المغلقة، لا منفذ غير الاستمرار في الدوران، البسالة، الصلابة، الإقدام، الشجاعة، هذه هي ملامح قناعي، قناعنا جميعاً، نحمله حيثما ارتحلنا، قناعاً شكَّله الجبل بقسوته وصلابة صخوره، شكَّله صراعنا مع عدوٍ لم يرحم حتى الأطفال والعاجزين، نسجنا لخيالنا القصص والروايات والخرافات والأساطير روافعاً له. وأنا. أين أنا. من أنا...؟))

توقف القلم ولم يعد قادراً على خط حرف آخر، وهو في توق البحث عن إجابات واضحة تنجيه من التشابك الحاصل في رأسه، تيقن أن حادثة دلير واختياره قناعه الخاص به حفرت عميقاً في نفسه، ومن ذلك العمق البعيد سمع صوته يقول:

دلير سلم نفسه لأعدائه، لا أغفر له.

(٩)
حب يأتي مثل أشياء أخرى منهكاً

جلس حيدر كاميرا وحيداً عند شجرة الجلو الهرمة النابتة من صلادة الصخرة التي تتقاسمها مع الجبل، كان اسم هذا الشاب ذو السحنة السمراء حيدر بلا كاميرا، غير أن كثرة (الحيادر) جعلت لكل منهم لازمة جديدة يكتشفها أحدهم ويلصقها اسماً جديداً، منهم حيدر السمين الذي لم تبق المسيرات الجبلية من سمنه القديم شيئاً، وحيدر الأصلع، وحيدر عطيل إذ شبهّه أحدهم مرة بكائن (شكسبير) المغربي الأجعد صاحب (ديدمونة) في مسرحية (عطيل)، وحيدر كاميرا، ومنهم من يختصره إلى (كاميرا) فقط. جاء كاميرا، وخرج كاميرا، وقال كاميرا. كان هذا الشاب مولعاً بالأفلام ومهووساً بكاميرا لم يحصل عليها، لهذا هو يستدعيها إما بأحاديثه البينية، أو يتخيل نفسه يحملها، ويصور بها تلك المشاهد التي تحاصره من أفلام كثيرة تستوطن رأسه.

استوطن رأسه ومنذ زمن سيناريو فلم يجده متكاملاً، لكنه عنيد لا يريد أن يعطي نفسه مرة واحدة، حاله معه يشبه من تورط بحب امرأة راغبة ومتمنعة، تدهمه برغبتها حين لا يكون متهيئاً لها، وتتمنع عليه حين يكون هو الراغب، لذا يحاول أن يستدرج فلمه ويمسك به على الورق.

كان حزيناً على غير عادته، وفي عينيه نصف دمعة جعلته مشتتاً بين البكاء، أو مواصلة كتابة المشهد الذي أخذ بين يديه منحىً حزيناً، وهو لا يريد إغراقه بكل هذا الحزن.

أطال النظر إلى الشجرة المنشطرة على نفسها، بين الصخرة والتربة، نصف جذعها نابت من الصخرة مباشرة، ونصفها الآخر خارج من التربة المجاورة.

تخيل نفسه هو الآخر منشطراً على نفسه كتلك الشجرة التي تتقاسم مع الصخرة نسغ حياتها وهرمها، شطر يكتب والآخر يمسك بالكاميرا، لكنه في هذا اللحظة التي اختار فيها الانزواء بعيداً عن ضوضاء المقر، كان يسمع خطابية ممثل مسرحي يتحرك على شاشة رأسه، ظنها جزءاً من فلمه، لذا صار يتسمع ويكتب:

((لقطة خارج السيطرة: لم ينته السباق بعد. إنها مجرد استراحة للقتيل. جبل (گارا) محطة للشهيق وتحديد الاتجاه القادم. إنها الفرصة الأخيرة لجمع الأشياء المتناثرة. القمم الأخرى التي سيطر عليها الأوباش هي الأخرى أعادت تنظيمها.

أطعموا الكلاب من القدور الساخنة، ونصبوا خياماً بمناضد ومراحيض للقادة وساتراً من الجنفاص.كن رحيماً أيها الجبل الشامخ فإنك باق في نهاية المطاف، أما نحن المثقلون بالحطام فسنرحل الساعة أو يوم غد، إذا ما تتبعت خطواتنا طائرات الهوكرهنتر بطرودها السيانيدية.

الربيع لك ولأجسادهم الثياب ولك القرار؛ إما الترفق بالصبايا النازحات وتبعث الغيم المبلل بالمطر، أو تُستَباح مثل كانيكا تقاسمها الجحوش وصارت مأوى للكلاب)). خرج (كاميرا) من مشهده، ماداً البصر إلى البعيد إلى حيث قلعة (كانيكا) التي لا يراها من مكانه غير أنها كامنة خلف السلسلة التي أمامه، تذكر أن ما كتبه الآن استعاد تفاصيله من هجوم قديم شُّن عليهم واحتلت فيه تلك القلعة المتروكة الآن. نحّى دفتره جانباً وأخرج كيس تبغه. تذكر أنه للآن لم يتعلم تلك التقنية العجيبة، أن يلف لفافة تبغ دون أن تتهدل حوافها، أو ينفرط محتواها مع أول نفس، يردد مع نفسه أنه لا يبغي الوصول إلى مهارة عابد النصير الفلاح الذي يلف لفافته وهو يمشي صعوداً أو هبوطاً وبموديل لا يتغير.

عمل بهدوء على لفافته حتى نجح بتدويرها، وجعلها شيئاً يشبه السيجارة، أشعلها برأس غصن مجمر سحبه من الموقد الذي أمامه، سحب نفساً طويلاً،

جعل الدخان يحتصر في صدره لبرهة، ثم أطلقه دوائراً متغيرة الأشكال سريعاً ما تتلاشى وتضيع بين أغصان شجرة الچلو وأوراقها، وصله حديث اثنين يتسلقان السفح، الصعود لا يجعل الحديث إلا متقطعاً.

اقترب الصوتان من صخرته، حتى تبينهما كانا حسام الصغير وروزا بنت الشهيد چاويش. ماذا يبغي هذان العاشقان في زمن اللاعشق؟ عصفوران ضائعان في تضاريس الجبل يبحثان لهما عن خلوة.

ابتسم لنفسه ساخراً، وهو لا يدري إن كان يسخر من نفسه، أم من هذين العاشقين، ولأنه توقع ارتعادهما وارتباكهما من المفاجأة، ما أن يصطدما به، صار يصفر بلحن ما. سمع روزا تقول لحسام:

- أكو واحد فوق.

أجابها حسام:

- لا تخافين حبيبتي هذا صوت قبچ.

تحولت ابتسامة حيدر الصامتة الساخرة، إلى ضحك بصوت عال، صاح من مكانه:

- ملعون حسام. سويتني قبچ. !!؟ والله آني شايف أنت القبچ.

تصنَّم الاثنان تحت صخرته لا يدريان ماذا يفعلان، حسام بجرأته وإقدامه وفوران الشباب في عروقه، تحول إلى شيء مرتعش كطفل أمسكه أبوه بجرم مشهود، بدا مغلوباً على أمره، أما روزا فاكتفى وجهها بالتلون بقوس قزح من الأصفر إلى الأحمر إلى البنفسجي، الاثنان متلبسان بما أرادا فعله ولم يفعلاه بعد.

شعر حيدر بالشفقة وبالذنب لإرعابه هذين العاشقين المتورطين بعشقهما، وبدا حائراً كيف يعيد لهما الاطمئنان؟ أو كيف يصرفهما عن فعل ما قدما لأجله في هذه الخلوة المنقطعة عن عيون الرقباء، وهم كثرٌ يتوزعون السفح انصياعاً لأوامر قيادة الفوج في الانتشار النهاري؟

صحيح هو غير مسؤول عنهما، لكنه مسؤول عن منع الفعل الذي سيحصل، هكذا أقنع نفسه، هو الشاهد الوحيد الآن.

من هي روزا في النهاية؟

أليست ابنة الشهيد چاويش الفلاح الصلب الذي لم يساوم طيلة حياته حتى حين بدأ المرض ينخر جسده، الفلاح الذي بدأ بتمرده منذ صباه حتى بلغ الكهولة، مات في جبله تاركاً لأعدائه حسرة أنهم لم يقتلوه بأيديهم، لكن حتى وهم عرفوا بنبأ وفاته، لم يتوانوا عن سجن وتعذيب ومن ثم تهجير زوجته مع بنتيها وولدها ذي الأعوام الثمان.

روزا الآن على وشك أن تشهق بالبكاء، تلبس حيدر كاميرا قناع الأب وهو الممثل القادر على ارتداء ونزع الأقنعة:

- حسام خل روزا ترجع للقرية!

قالها وهو يداور وجهيهما الخائفين بعيون غاضبة، لم يعد الذي يواجهه الآن حسام ذو اللسان السليط، العنيد الجريء الذي لم يتوان عن قطع شعاب الجبال والوديان والغابات لوحده حتى عُرف أنه الدليل الذي لا تضيع المفارز بمعيته.

حسام متلعثم الآن يبحث عن الكلمات ولا يجدها، لعله حقاً كان مقدماً على فعل من النوع الثقيل، بعد صمت طويل، نطق:

- بس رفيق حيدر أرجوك لا تروح لبعيد، أحنا، كنا، كنت، روزا تريد تشوف مقر فصيل الإسناد.

خرج كاميرا من قناع الأب، ولبس قناع الأخ الكبير الذي يحنو على أخيه الأصغر:

- حسومي أنت تعرف طريق الإسناد مو هذا الطريق.

ظلت روزا منكسة رأسها ولم تنبس بشيء، كل الذي فعلته بعد وقفة المذنبين تلك، أنها استدارت مع استدارة حسام للنزول.

نزلا كالهاربين ركضاً، حتى أن حيدر خاف عليهما من شدة انحدار السفح الصخري أن يسقطا معاً.

صاح عليهما وكأنه يريد إيقافهما لتهدئة انحدارهما السريع:

- حسام. أكو شي جديد؟

أجابه هذا وهو مستمر بالنزول دون أن يلتفت إليه:

- ما أدري. بس تحشدات الجيش مو طبيعية.

عاد حيدر إلى دفتره، قرأ المشهد، لم يعجبه، وجده مغرقاً بخطابية وهو يريده بصرياً، قرر حذفه من الفلم، غير أن روزا وحسام دخلا فلمه بما يشبه الومضة، وهذا ما سيدفعه إلى إعادة كل شيء من جديد.

كتب في دفتره وهو يحاول التعرف على هاتين الشخصيتين اللتين دخلتا فلمه بلا استئذان:

((حسام قابع في المنطقة الوسطى بين رغبته الجارفة في احتواء جسد روزا، في العيش معها في مكان ما من غياهب الجبل، في إنجاب أطفال يتقافزون حولهما، في هجران الحروب ومخاوف الحروب وبين الروادع الكثيرة المقيمة في رأسه وخارج رأسه، رادع الاختلاف الديني بين طائفتيهما غير المتهاونتين مع الزواج المختلط، رادع تاريخ أبيها المخيف وسمعته المهولة في المنطقة، رادع الحزب، رادع الأنصار، رادع العمر ما زال الاثنان في منطقة ملتبسة بين المراهقة والنضج، هي تصغره بسنتين وهو قد بلغ الثامنة عشر هذه السنة فقط، لكن حسام يجد نفسه أكبر من عمره بكثير، لعل نباهته في الطرق واعتماد الفوج عليه يمنحانه مثل هذه الثقة بالنفس وبالرجولة معاً.))

أعاد قراءة ما كتبه وجده أكبر من ملخص أراده لدور صغير لهاتين الشخصيتين، كتب من جديد: ((عاشقان صغيران متعطشان للتجربة المحرمة لكنهما متورطان بحزمة ممنوعات.)).

ابتسم كاميرا ووضع خطاً تحت الجملة الأخيرة، قائلاً لنفسه: هذا فلم جديد. هائل. رائع. مذهل. !! بدا سعيداً وهو يعيد دفتره إلى الحقيبة، وهو يداري (قوطية) الشاي قرب الموقد وهو يصب لنفسه كأساً من الشاي الأسود.

إنها السعادة التي لا يعرفها سوى الشعراء والكتاب والفنانين، سعادة تلك القدحة التي تقدح في الرأس لمرة واحدة وتكون قابلة للإمساك بها، وهو قد مسكها ودونها على الورق.

أما حسام وروزا المصدومان ما زالا باعتراض حيدر كاميرا لمشروعهما، فقد ظلا يركضان حتى بعد أن ابتعدا عن صخرته وكأنه لاحقهما، لكن، ما هو مشروعهما؟

هل حقاً كانا عازمين على أن يصلا بالعلاقة التي بدأت منذ شهرين إلى نهايتها، كما يراها حسام الصغير أن يختلي بروزا في ملاذ آمن في غياهب الجبل ويفعل ما حُرِمَ عليهما فعله، هي تطيعه في كل شيء، منقادة إليه بجنون يشبه جنونه حين يفكر بخطفها وهي توافقه الفكرة.

هل حقاً هما غير عابئين بتقولات وممنوعات محيطهما؟ هذه الأسئلة وغيرها كان لها إجابات متناقضة عليها، إجاباتهما حين يكونان معاً، هي غيرها حين ينفرد أحدهما بنفسه.

كان حسام ناقماً على كاميرا الذي لا يدري كيف اهتدى إلى هذا المكان الذي حسبه ملكاً صرفاً لهما، هي صخرتهما التي شهدت بدايات حبهما، لكنه، كان كذلك ممتناً للقدر الذي وضع كاميرا في طريقهما وليس آخر، فهو يحب هذا الرجل ويثق أنه لا يبوح بسرهما لأحد، قرر أن يتخلى عن مشروعه المحرم ويعودا كلٌّ إلى مكانه، هي إلى أمها، وهو إلى حيث تجمع الأنصار قرب المطبخ.

اعتاد حسام في ظهريات الصيف اللجوء إلى هذا الملاذ هارباً من وخامة الشق الجبلي الذي تظلله أشجار الجوز العملاقة التي لا توفر غير الظلال الخانقة، في فناء هذه الصخرة المنبعجة من أسفلها قرب شجرة الچلو المعمرة والخارجة من الصخرة، لا يدري من أين تنضح الرطوبة المنعشة وتشيع في المكان جو الخدر اللذيذ.

ذات ظهيرة كان لائذاً هنا شبه نائم، حين دهمت روزا عزلته، في البدء ظلت واقفة، حائرة لا تدري ماذا تفعل، خطت خطوتها الأولى بعد جهد مضن من التردد، هي تراه فتاها الذي تبحث عنه، بلمعة عيونه، ببهاء الهالة التي يوحي بها وجهه الأبيض المحمر بتلك الإيحاءات التي يطلقها جسده الفتي وهو يلعب الكرة الطائرة مع الأنصار، بهيئة المقاتل الذي يقود المفارز على دروب الجبل.

راقبته كثيراً وهو يتسلق السفح ليصل إلى هذه الصخرة النائية، كانت تتبعه. لكنها تقف في منتصف المسافة مكتفية بذلك القرب.

وها هي في تلك الظهيرة تتسلق النصف الآخر من مسافة القرب تلك إلى حيث الصخرة، وقفت أسفل الصخرة.

لكن، ماذا بعد؟ شعر هو بحركة أغصان الشجرة التي تحته مباشرة، مد عنقه لم ير أحداً، عاد إلى وضعه الخدر، كانت تراه وهو لا يراها، ظلت هناك فريسة فعلين عليها الاختيار بينهما الآن: المواصلة أو العودة، وكلا الفعلين يمتنعان عن التحقق.

مضى وقت لعله طويل على وقفتها تلك اللابدة خلف أغصان تلك الشجرة، قبل أن تطاوعها قدماها على النكوص والعودة، وجدت نفسها تنظر إلى الأسفل إلى حيث سطوح قرية العوائل إلى سطح غرفتهم حيث أمها وأختها وأخيها غاطين في خدر نوم الظهيرة، نزلت بخطو متردد تتبع هاجس الخوف من فعلتها التي أرادت إنجازها، غير أن ترددها تسبب بتعثرها بنتوء صخرة على حافة الطريق غير المرئي أصلاً والتواء ساقها، سقطت مطلقة صرخة ألم، فز هو على صوت الصرخة، وبفعل لا إرادي انتشل بندقيته وهبط إلى حيث مصدر الصوت، ليرى روزا تئن من الألم، أراد حملها، صدته بيدها دافعة إياه.

- روزا. !! ماذا تفعلين هنا. اعطيني يدك.

أعطته يدها بعد تمنع، سحبها إليه وكان خائفاً من أن يراهما أحدٌ في هذا الخلاء الجبلي، لكنه شم ولأول مرة رائحة ليست لطفلة، رائحة جسد أنثى.

تشرب جسده بعبير جسدها، شعرها، حيرة عينيها وهي تنظر إليه باستسلام، اكتشف شيئاً لم يزل غامضاً، شيئاً لا يدري أهو في داخله أم هو خارج من تلك اللمعات الواضحة لعينيها الخضراوتين، كأنه لم يشاهد من قبل هذه الصبية التي كانت طفلة قبل هذه اللحظة.

كأن قوة خفية نحتت وجهها المستدير يقشط كل ما له علاقة بوجه الطفلة التي يعرفها، انتفاخ ذينك العصفورين تحت صدارتها الزرقاء بدا واضحاً، رجفة

شفتيها المكتنزتين بالخوف، كل هذا ألجم لسانه، ظلا واقفين صامتين، كانت يدها مستسلمة بين كفيه قرب صدره.

أحس أن حرارة هائلة تدور في رأسه وتوتراً ضاغطاً في وسطه، هو أمام وهج صار يلفحه من الخارج ومن الداخل، وبعد دهر لا يدري كم طال استسلم لفعل وقول لا علاقة له به؛ لا يدري أي وحي لقنه إياه. سحب يده من كفها وكأنه يدفعها، أحست هي بابتعاده، سحب له نفساً وهمياً من سيكارة غير مرئية، نافخاً دخانها الوهمي في اتجاهات مختلفة وهو يدوِّر رأسه يميناً ويساراً، ثم وجد نفسه يطلب منها بما يشبه الصراخ:

- روزا. ارجعي. !!

وليقطع وبشكل حاسم الطريق على النوايا التي تداولته، أدار لها ظهره صاعداً إلى حيث ملاذه تحت الصخرة، ظلت هي واقفة تراقب صعوده الواهن المتردد، لتدير هي الأخرى وجهها إلى حيث النزول، نزلت بعرج واضح.

في تلك الظهيرة لم يتخلص حسام الصغير من توتره الضاغط في وسطه إلا بالاستمناء، لم يستمن على جسد روزا بل على أجساد نساء يعرفهن ولا يعرفهن، لم تطل عملية تداول نسائه، كان احتصاره قريباً.

(١٠)
محنة (باكيت الزبد) مع الأنصار

عادت ليلاً مفرزة حاجي بوجوه يلوحها الذهول أكثر مما هي حزينة، كأنهم فقدوا أحدهم في قتال، أخبروا من التقاهم في مدخل القاعدة؛ أن المنطقة برمتها من حدود دهوك إلى قرى (دشت نهلة) قد أُخليت هذا المساء بقرار من (البارتي). !!

لقد خُيِّر القرويين بين تسليم أنفسهم للحكومة أو التوجه إلى الحدود، والغالبية منهم فضلوا خيار الحدود، تركوا بيوتهم على ما هي عليه بما فيه حيواناتهم، مكتفين بما خف حمله من فراش ومؤونة، سالكين الطريق إلى معبر (كافية)، كذلك هناك أوامر وصلت لبيشمرگة (البارتي) بعدم التصدي للجيش إذا بدأ التقدم!

انتقل الذهول من وجوه القادمين ليلوِّن وجوه المستقبلين الذين تجمعوا حولهم لمعرفة الأخبار، إخلاء المنطقة بهذا الشكل، بدا لهم قراراً استثنائياً، لم يعتادوا عليه طيلة سنوات حربهم، ينتمي إلى تلك القرارات التي تتخذ ملمحاً استراتيجياً، ولا تكون عادة إلا في نهايات الحروب، حين يتأكد أحد طرفي الحرب أن حربه باتت خاسرة.

أمس فقط كان اتفاقهم مع كوادر وقادة (البارتي) المحليين على التصدي للهجوم القادم، وكان واضحاً كذلك استعداد القرويين لهذا الأمر.

ما الذي حدث اليوم ليُقلَب كل هذا رأساً على عقب؟

ما زرع التشوش في الأذهان أن القرار أُتخذ من قبل حليفهم (البارتي) انفرادياً.

اعتادوا طيلة حربهم، أن لا يدعوا الطرف المهاجم يخرج بلا خسائر تكبدها قبل وصوله إلى قاعدتهم، ولم يندر أن يقدموا هم كذلك خسائر، وما أن توشك ذخيرتهم على النفاذ ويبلغ منهم الإنهاك مبلغ اللاقدرة على المواصلة، عندها فقط ينسحبون إلى تلك المعاقل الممتنعة بوجه تقدم آليات المهاجم والقادرة على توفير حماية كافية لهم من القصف بكل أنواعه.

ينسحبون إلى مناطق القطوع الحادة من جبل (گارا) بكهوفه المموهة والغائرة عميقاً في أحشاء الجبل، تلك المعاقل لا يصلها إلا من وُلد وترعرع في هذا الجبل، طرقها إجبارية ومن السهل حمايتها.

إذن، ماذا حدث؟ هل للأمر علاقة بإشاعة التفاوض؟ أم إن لقيادة (البارتي) المتمركزة داخل الأراضي الإيرانية، معلومات أكيدة عن أبعاد وحيثيات الهجوم المرتقب؟ لكن لماذا هم لم يتشاوروا أو يخطروا على الأقل حلفائهم الذين يتقاسمون معهم المهام نفسها؟

ظلت الأسئلة معلقة فوق الرؤوس. مثلما غدا السؤال: هل نواجه الهجوم منفردين؟ سؤالاً نافلاً.

هم في كل الأحوال يخوضون حرب عصابات، والمبدأ الرأس في هذه الحرب (إن أرض المقاتل هي بندقيته وحقيبته الظهرية).

ظهر اللغط الذي كان موجوداً أصلاً إلى السطح، ليتداخل مع بعضه، وينعكس سريعاً على أفعال وردود أفعال المقاتلين المتجمعين حول المفرزة القادمة تواً، توجهت الأنظار تلقائياً إلى تلك الغرفة الرابضة على المدخل الثاني للقاعدة، والجالس فيها المسؤول الجديد للفوج.

صاح رزوقي المستفَز على الدوام وبصوت أقرب للصراخ:

- هذا باكيت الزبد شوكت يطلع من الثلاجة. !!

قصد المسؤول الجديد للفوج أبو منيب، ربما ما دعا رزوقي لاختيار هذا التشبيه الغريب، هو بياض بشرة أبي منيب الذي يشف عن احمرار فاتح وربما

هو السلوك غير الانفعالي لهذا الرجل، وما يبدو عليه من طبع مسالم لا ينبئ عن علاقة من أي نوع بالسلاح وتبعاته. أو هي ملامحه التي تنبئك أن هذا الإنسان ذو ماضٍ مترف لا يغيب الزبد عن فطوره، لا كما هو حال الفقراء أصحاب فطور الشاي والخبز البائت. أو هي هيئته الكلية على الأخص تلك الصلعة الدائرية اللامعة التي تحتل المنطقة الوسط من حقل الرأس والتي يحرص على تغطيتها بما تبقى من خصل الشعر الناعم الكستنائي، هذه الصلعة بقناعة بعضهم ومن باب التندر كذلك هي (صلعة مدير عام).

لكن، يبقى أن ما زاد حنق رفاقه وتحاملهم عليه؛ أنه ومنذ تسلمه المسؤولية لم يخرج من غرفته، بدا متعلقاً بها بشكل غريب حتى مع قيظ تموز وآب.

بدد صراخ رزوقي المتحامل توتر المقاتلين وأدخلهم في فاصل من الضحك الشديد، على عكس ملامح الغضَب والتشنج التي تلبست ملامحه هو ورزوقي حين يدهمه الغضب وهو عادة ما يدهمه تتعطل كل كوابحه، يتحول فجأة من ذلك الفنان الرقيق ذي الإحساس المرهف إلى كائن عدواني لا يرى أمامه غير مسح الأرض بمن يضعه خصماً له.

قلائل الذين يعرفون أن رزوقي هو رسام محترف يجيد رسم الكاريكاتير بطريقة خاصة جداً.

الواضح إن حساسية الفنان في رؤية الأشياء بكمالها تأخذه بعيداً، يرتجف كل عضو من جسده مع ارتجاف وتداخل حروف المفردات التي يقذفها من فمه المزبد، عندها يدخل في لغة أخرى لا يفك شفرتها سوى قلائل من أصدقائه المقربين.

وصل رسام الكاريكاتير الآخر أبو زهرة أخيراً، وهذا من القلائل القادرين على لملمة غضب رزوقي وإعادته إلى نفسه، ربما لأنه هو الآخر رسام وهؤلاء ملة يفهمون على بعضهم.

ما أن رآه رزوقي من بعيد حدس بحسه الداخلي ما سيقوله ويفعله، لذا وقبل أن يصله وجّه حديثه مباشرة إليه:

- رفيق أبو زهرة قبل ما تگول أي شيء، أرجوك، روح عليه للغرفة، آني متأكد راح تلگيه متلفلف بقبوط، قبوط طويل، تعرف ليش.. حتى لا يموع، بس أرجوك نبهه، ترى إحنا بشهر آب، أخاف هو ما يدري.

ترك حاجي الحشد الغاضب بلغطه المتشابك وتوجه إلى حيث أبو منيب في غرفته، لحقه بعد حين سهراب ومنعم وأبو آزاد وأبو فهد وحاتم الذي كان يتهيأ للصعود إلى فصيل الإسناد باحثاً عن إجارته.

انسحبت الكتلة تلقائياً مع أبي زهرة ورزوقي المشتعل ما زال غضباً، إلى حيث تلك الفسحة الكائنة أمام المطبخ، وهذه كانت وسيلة أبي زهرة لإطفاء حريق رزوقي يجعله يمشي معه ولو خطوات، ليحرف خطابه الموجه إلى الجميع، إلى خطاب ثنائي يدخله في متاهات وتشعبات يأخذ معها الصوت بالخفوت التدريجي.

لم تزل الأصوات تتداخل والآراء تتضارب في تلك الفسحة أمام المطبخ، بين من يحمِّل (البارتي) مسؤولية ما سيؤول إليه الوضع وبين من يحمل تلك المسؤولية لقيادة حزبه.

بدأت تُستعرض الخطط والخطط المضادة، كلٌّ يدلو بدلوه في تلك الفسحة (العكاظية) بأعصاب متوترة، وبخصام لا يدري إلى مَنْ يوجهه.

ظل الحشد يكبر بمن يصل من جنبات القاعدة على أصوات اللغط والصياح ويتمدد مع تمدد الوقت، توسعت مواضيعه وانفتحت آفاقه كاسحة من أمامها كل ما يعكر حرية التعبير من قيود، لتتصادم الخطط والخطط البديلة فوق رؤوس المتجمعين، الكل يسأل والكل يجيب، لم يعد هناك من تحرِّج في اختيار المفردة والموقف والرأي.

شيء ما كان يغلي في الصدور وها هو يخرج داوياً:

أصوات أخذت تعرِّي قيادة حزبها من الرأس إلى أخمص القدمين.

أصوات أخرى انهمكت بغسل المسؤول الجديد لفوجهم ليصل رذاذها إلى كل القياديين السابقين والحاليين. أصوات أخذت تقسّم على وتر الجبهات

والتحالفات التي مر بها الحزب، بدءاً من جبهة الاتحاد الوطني في الخمسينيات وصولاً إلى (جود) و(جوقد)، وهذان اختصاران لجبهتين كان الحزب طرفاً فيهما، الأولى (الجبهة الوطنية الديمقراطية)، والثانية (الجبهة الوطنية القومية الديمقراطية)، في الثانية تجمعات وأحزاب قومية عربية إضافة إلى الكردية.

أخذ الجمع ينهل مفرداته تارة من لغة السياسة والتنظير، وأخرى من لغة الشجار والفشار العراقية المعروفة. راح نبقى زواج طول عمرنا، عبد الكريم قاسم لعب علينا، البعثيين لعبوا علينا، الاتحاد السوفيتي والتطور اللارأسمالي (. أمهاتنا)، جلال الطالباني ونوشيروان أخذوا من عدنا بليلة ظلمة أكثر من ستين رفيق قدموهم عربوناً للنظام.

هل نسينا (بشت ئاشان)؟ ، وتفضلوا هذا هو (البارزاني) الحليف الأمين حتى ما حاسب لنا حساب داخل بمفاوضات مع النظام. إلى متى نبقى جسراً لعبور الآخرين فوق ظهورنا، صاح آخر من وقفته على هامش التجمع:

زين هسه من راح يتحمل مسؤولية العوائل؟ ليش ما دزيناهم للحدود قبل أيام؟ ليخرج صوت أبي زهرة القوي والعميق والهادئ مشتبكاً مع فوضى الأصوات، حتى تغلب عليها بقوة قراره وهدوئه:

رفاق أرجوكم، بلا عصبية، خل نفتهم الموقف وبعدين نحكي، يعني ماذا ينفع هذا الهياج والعصبية. موقفنا صعب، ولأنه صعب يحتاج تفكير هادئ وحكيم، الجيش على مشارف (كانيكا)، خل نفتهم شراح نسوي وبلا هذه النقاشات والدفاتر العتيقة، يعني شراح نستفيد لو قلبنا دفاتر الجبهات وبشت ئاشان وجود وجوقد وموقد، وبعدين من قال إن البارزاني يتفاوض مع النظام. هذه إشاعة. رفاق أرجوكم هدئوا أعصابكم، وشدوا همتكم ترا قدامنا شغل يهد الحيل، صدقوني أحنا هسه أمام مفترق طرق، من هذه الليلة سيتقرر مصير الحركة كلها.

أنهى أبو زهرة خطبته، وعلى عادته حين يشعر أنه تحدث حديثاً مغايراً في وسط ناقم، يردفه بما يخفف من جديته، إذ يلجأ إما إلى نكتة أو يضحك هكذا وكأن ما قاله كله كان نكتة، لذا توجه إلى حمدان الأسمر الذي كان قريباً منه، إنما

بما يشبه الهمس هذه المرة:

- مو هيج رفيق حمدان؟

رد عليه هذا بتورية تنتمي إلى الخباثة:

- والله حقك، والله العظيم حقك، آني شايف هذولة الرفاق أغبياء كلش ما يفتهمون. (ثم رفع صوته ليُسمع الآخرين) يعني بشرفكم قابل الحزب هو المسؤول، طبعاً لا، رفاق إحنا المسؤولين، إحنا اللي ما بلغنا القيادة من انتهت الحرب حتى يأخذون احتياطاتهم، واحنا اللي ما كان عدنا بعد نظر قبل توقف الحرب، ليش تذبون الذنب كله على القيادة الرابضة في المثلث. (خفض صوته) آخ خ خ .. من كل المثلثات. (ثم عاد رافعاً صوته) زين القيادة اشمدريها راح توگف الحرب، يعني قابل هم فتاحين فال؟

ضج بعض الواقفين بضحك صاخب، لينقلب الموقف برمته إلى طرائف ونوادر مواضيعها ليست بعيدة عن مجرى ما يحدث. انسحب أبو زهرة وهو يلعن حمدان:

- غضب الله عليك يا حمدان، ردتك عون، طلعت غضب.

على العموم هذه الكائنات المنفية في تلافيف التضاريس القاسية منذ زمن بعيد، اتخذوا من النكتة والطرفة مصدمات دفاعية، يدفعون بها الضجر والملل وملابسات المصير المجهول، يستلون نكاتهم من مفارقات حياتهم، ومما يصلهم من رذاذ ملابسات حياة المدن والقرى، حتى تكونت لدى البعض منهم مهارات واضحة على اختزال أقسى الفواجع التي تصيبهم وتحويلها إلى نكتة.

بعد وقت قصير، خرج اجتماع (الغرفة) بقرارات عملية، قرروا: إرسال بريد سريع إلى مقر لجنة (البارتي) المحلية في (گلي سيدرة) لاستجلاء السبب الذي دفعهم إلى مثل هذا القرار، إرسال برقية إلى المركز القيادي في (خواكورك) ليعلموهم بالأمر وانتظار ما عندهم، إرسال برقية إلى الفوج الثالث المسؤول عن مناطق أرياف (دهوك)، و(زاخو) قرب الحدود التركية لمعرفة الموقف عندهم، إن كان مشابهاً، وتبليغهم بنية إرسال العوائل إليهم، إرسال برقية إلى

(قاطع أربيل) في مقرهم الكائن على الجهة الأخرى من معبر (كافية) لمعرفة مستجدات طريق العبور من هناك، إرسال بريد سريع إلى السريتين الرابعة والسادسة لسحبهما لغرض تجميع القوة، تشكيل مفرزة ترافق العوائل غداً صباحاً إلى الفوج الثالث عبر معبر (طاجيكة) وهو الطريق الأقصر إلى هناك، وأخيراً الإيعاز بتفكيك وإخفاء السلاح الثقيل، ونقل المؤونة إلى مخبأ الطوارئ (اشكفتة صباح)[١٥].

لم يطل مكوث المجتمعين في الغرفة، خرج كل واحد لينفذ المهمة التي كُلف بها، جاء الإداري الجديد باحثاً عمن يساعدونه في نقل أكياس المؤونة إلى المخبأ البديل، ولأنه جديد لم يعرف بعد أين هو المخبأ؟ وعلى من يعتمد في هذا الأمر؟

بدا حائراً في وقفته أمام التجمُع الكبير اللاغط والداخل في بعضه أمام المطبخ.

حدس أبو عصام الإداري القديم الذي كان واقفاً على هامش التجمع، ما يجول في رأس الجديد، قال له:

- رفيق هسه الدنيا ظلمة والطريق صعب حتى (اشكفتة صباح).

أخذه من يده إلى المخزن ليتولى هو لاحقاً المهمة كلها من تقسيم المواد بين التي عليهم إخفائها، وتلك التي عليهم توزيعها على الأنصار في الغد، ثم طلب من آمر فصيل المقر تحديد عدد من الأنصار مع عدد من البغال.

جاء سهراب وانفرد بعدد من المتجمعين، واتفق معهم على عملية إخفاء الأسلحة الثقيلة، بعد قليل انسحب من التجمع أصحاب العوائل وتوجهوا إلى قرية العوائل، ومع وصولهم إلى هناك وصلت إلى المقر أصوات الصراخ والنحيب للنساء والأطفال، شيء مما يحدث في حالات الموت والعزاء، واضح أنهم أخبروهم بالقرار الملزم بالترحيل.

تحولت تلك الليلة إلى ليلة من يعزم على الرحيل في اليوم القادم، محاصر

١٥- شكفتة: مفرد كوردية تعني مغارة، كهف.

بالساعات القليلة التي تفصله عن الفجر، عليه أن ينجز ويتذكر كل الأشياء، الأمر الذي يجعله لا يهتم كثيراً بما يتبعثر حوله من أشياء ومقتنيات، لفظ مخزنهم أحشاءه في الفسحة المنحدرة بين غرفة المخزن والجدول المائي (الروبار)، تبعثر هناك كل ما يحتاجونه وما لا يحتاجونه، صناديق الحليب، معلبات اللحم، الجبن، السمك، أكياس الجوز والزبيب، طحين، رز، سكر، شاي، عدس، فاصوليا، مثلما لفظ مشجب السلاح الكائن على الضفة المقابلة من الروبار محتوياته من جعب عتاد، مخازن عتاد، صناديق عتاد، مسدسات، نواظير عسكرية، أجزاء مفككة من أسلحة ثقيلة، قذائف صاروخية، قواذف، رمانات يدوية.

تداخلت الأشياء، وتجاورت في تلك المساحة الضيقة من الشق الجبلي، وما على المسؤولين سوى فك الاشتباك والمفاضلة بين المهم والأهم، من جهة لا يمكن الاستغناء عن أي شيء من هذا النثار المبعثر بالنسبة للمقاتل الذي سيهيم على وجهه في شعاب الجبل الخالي من القرى. ومن جهة أخرى أن لقدرات أجسادهم حدوداً تقف عندها، لا يستطيع النصير أن يحمل أكثر من عشرين إلى خمسة وعشرين كيلو غرام مع بندقيته ومخازن عتاده.

تكرر نداء أبي عصام وهو يلف ويدور على (تعب عمره) المنثور في تلك المساحة الضيقة:

- رفاق خذوا حاجتكم من كل شيء، أرجوكم، أرجوكم، حرام نتركه للجيش، لحم، جبن، سمك، جوز، طلقات، رمانات.

لقد دأب هذا الرجل طيلة سنين على تأمين حاجات الأنصار بحرص وتقتير (مصلاوي)، استجلب عليه الكثير من النكات والطرف والأحاجي التي نسجها حوله رفاقه، رابطين كل ذاك بالمدينة القادم منها (الموصل).

بدا الآن كأنه بقال يدلل على بضاعته والسوق في نهايته، والمشترون كأنهم يشاكسونه على تقتيره القديم، يكتفي الواحد منهم بالبحلقة بالمعروض أولاً، ومن ثم إذا رسا مزاجه على الشراء، سيكتفي بحاجة أو حاجتين، بما خف حمله

أولاً وأخيراً، ظل كل شيء على فوضاه، باستثناء أكياس الطحين والرز والسكر، التي هيؤوها للتحميل على ظهور البغال مع بزوغ الفجر القادم إلى (اشكفتة صباح)، تلك المغارة التي تشبه مغارة (علي بابا) بعمقها الغائر في أحشاء الجبل، ومدخلها الذي موهته الطبيعة بحنكتها الفذة، إذ لا يراها السائر وإن كان على بعد خطوتين منها.

واضح أن المقاتلين اركنوا إلى حدسهم الجبلي بالمجهول القادم، إلى تلك الوصية الذهبية من الوصايا العشرة التي حملتها كتيبات حرب العصابات.

على المقاتل ألا ينسى الشيء الوحيد الذي عليه الحرص عليه في حربه، حياته وبندقيته. !! كل ما عدا هذا قابل للتعويض.

(١١)
شيرين تبحث عن نفسها

بعد منتصف الليل بقليل عاد البريد المرسل إلى (سيدرة) مقر لجنة (البارتي) المحلية، بخبر لا يقل غرابة عما سبقه من أخبار ذلك اليوم، قالوا: أنهم لم يعثروا على أي من مسؤولي (البارتي)، مقرهم مهجور سوى من بضعة بيشمرگة كانوا مشغولين بشؤون عوائلهم ليلحقوا من سبقهم من المغادرين على طريق (كافية). ثم تحدثوا عن قافلة القرويين المهولة، والتي لم يروا لها لا بداية ولا نهاية، المنطقة برمتها تسلك طريق (گلي كافية) للوصول إلى نهر (الزاب).

بدا واضحاً أن وجهة (البارتي) باختيار معبر (كافية) هي ترحيل عوائل المنطقة إلى الحدود الإيرانية.

قال أحد الأنصار:

- معابر الزاب محدودة ومعروفة، والعبّارات هي إطارات تركتورات، وعليها خشب كل عبارة تأخذ لها أربع أو خمس أنفار، يعني حتى المنطقة كلها تعبر نحتاج شهرين.

في اليوم التالي وعلى ضوء تواتر الأخبار لسرعة وكثافة تحركات الجيش، بدا لهم أن قرار (البارتي) هو الآخر جاء متأخراً، حصل في قرية العوائل وضع يشبه الوضع الذي حصل ليلة البارحة قرب المطبخ. تداخل فيه جدل المجادلين من نساء ورجال القرية متشابكاً مع صراخ وزجر وبكاء ونحيب.

كان مطلب النساء المعترضات الوحيد ألا يرتحلن إلا بصحبة رجالهن.

بدا المطلب عادلاً طالما أن العملية كلها هي عملية انسحاب ولا نية في القتال، أما الرجال فكانوا يمنونهن بالوعود والعهود التي يعرفون قبل الزوجات أن لا شيء منها مضمون البتة، شذ عن الجمع الصاخب عدد من النساء، اللواتي كان الأمر لهن سيان، إن هنا أو هناك، وذينك كنَّ زوجات الشهداء، نساء فقدن أزواجهن في معارك وعمليات قتالية، منهن من حصل الأمر حتى قبل تهجيرها، ومنهن من كانت شاهدة على استشهاده، تلك النساء بأطفالهن وأثقالهن الكثيرة لا ينتظرن أحداً ولا أحد ينتظرهنَّ، لكن، من بين هذا الجمع غير الصاخب المتنحي جانباً، كانت واحدة بدت غير منتمية إلى الجمعين، هي شيرين زوجة النصير مراد، الذي ضاعت أخباره منذ زمن ليس بالبعيد.

كانت متنحية بعيداً جالسة على تلك الحافة الطينية التي تشبه مصطبة بحذاء جدار غرفتها، واضعة يدها أسفل خدها باستسلام واضح لعالمها الداخلي، كانت في جلستها مستغرقة بمراجعة خيار من نوع آخر، بدا لها فيما لو تحقق سيكون الخيار الوحيد الذي سيعطي لحياتها معنىً، وبعيداً عن نحيب وصراخ النساء المتجمعات حول رجالهن، انتشلت نفسها من جلستها وتوجهت إلى مقر الفوج وتحديداً إلى حيث غرفة أبي منيب، وجدت هناك سهراب داخلاً في جدل يعلو ويخفت، حيّت الجالسين بصوت خافت وخجول وظلت واقفة صامتة، إنما هدفها صار أكثر وضوحاً الآن.

هي في الواقع تبحث عن صفة لاستمرارها في الوجود في هذا المكان ومع هذا الجمع من البشر غير كونها زوجة النصير مراد، وهي قد وجدته الآن: نصيرة مقاتلة، نعم لِمَ لا تكون نصيرة حالها حال النساء المقاتلات في الفوج.

كانت تغلي من الداخل رغم أن مظهرها الخارجي لا يوحي بذلك، هي من نوع النساء اللواتي لا تفضح ملامحهن أعماقهن البعيدة، لها وجه طفولي ما زالت آثار حب الشباب تعلّمه، وعيون خضراء كبيرة برموش طويلة كأنها ممسكرة، لكن، رغم كل هذه الإيحاءات المهيجة للرجال تبدو ملامحها ساكنة، لا توحي سوى أن هذه الطفلة على وشك البكاء.

هي امرأة جميلة بكل المقاييس المدنية للجمال، إنما بمسحة ريفية واضحة تضفي عليه الطبيعة العذرية، العفوية، اللاتصنع، جمال بذاته، لا يحتاج إلى مساحيق والى كل السلسلة الطويلة من تكنولوجيا الجمال المدني.

ولما وجدتهما قد تنبها لحضورها المفاجئ في الغرفة وعيونهما تسأل: ماذا تريدين؟ دخلت في موضوعها مباشرة:

- رفيق أبو منيب، آني أريد سلاح.

أبو منيب بطبعه بطيء في ردة فعله، يحتاج وقتاً لتدوير الفعل أو القول في رأسه، ليتمكن من صياغة رد الفعل، أجابها بعد وقت بدا طويلاً:

- رفيقة، أنتم راح تكونون هناك بشكل مؤقت.

قصد قافلة العوائل التي ستغادر إلى الفوج الثالث.

- رفيق. بس آني مو عوائل، أريد أن أبقى معكم بصفتي نصيرة، جربوني!

سارع سهراب المعاكس تماماً لأبي منيب بردود أفعاله السريعة:

- رفيقة مشكلتك مع مراد سنحلها، أرجوك لا تعقدي المسائل علينا.

لتجابهه بعيون مفتوحة:

- رفيق أرجوك أنا لا علاقة لي الآن بمراد، كل الذي أريده أن تعتبروني نصيرة مثل باقي النصيرات.

أبو منيب يعرف أن أول من سيعارض هذا الأمر فيما لو وافق عليه، هم الشيوعيون الأكراد الأيزيديون، رغم شيوعيتهم التي أودت بهم إلى الجبال كل هذه السنين، وتحملهم ما لم يتحمله غيرهم، إلا أن جينات العشيرة والطائفة المتحدرين منها، ما زالت تفعل فعلها في دمائهم، لن تسمح لهم بالعبور إلى تقبل امرأة يزيدية معروفة الحسب والنسب تتجول مع المقاتلين في المنطقة التي تعرفها جيداً.

عشرات من السنين تصرمت والمنطقة ميدان لتمرد وصراع بين بيشمرگة وجيش، إنما كلا الطرفين كانوا رجالاً، أما النساء المقاتلات اللواتي جئن مع الشيوعيين، فهن في الغالب، سواء كنَّ عربيات أو مسيحيات أو كورديات، قد

جئن من مدن وبيئات بعيدة غريبة عن المنطقة. لا أحد من الفلاحين يعرف عنهن أو عن عشائرهن شيئاً. ظل وجودهن في مخيلة الفلاح مطلسماً بقصص عجائبية، قصص تسرح معها مخيلة الفلاح إلى حدود التخييل القصوى، تلك التي لا تخرج عما يعرفه الفلاح بشكل أكيد عن ثنائية رجل وامرأة في شعاب جبال وكهوف سرية، وتضاريس لا تطالها حتى حيوانات الجبل نفسها. في تلك الأماكن المطلسمة ماذا يمكن أن يحدث بين الرجال والنساء؟ هي الحكاية نفسها يلوكها أحدهم، يدّعي أنه سمعها من فلان عن فلان، كأنه مؤرخ جاء من عصور غابرة، والباقي يُترك لمخيلة السامع، الذي يتحول هو الآخر إلى راوٍ في مكان آخر، هكذا حتى تطوف القصص والروايات في أروقة القرى، زاداً دسماً لليالي شتاء قاس وطويل حول ما يفعله الشيوعيون والشيوعيات. في كل الأحوال؛ إن منطقية الطلب وعقلانيته لم تشفع لشيرين، حيث القرار كان التخفيف من أعباء المقاتلين لا زيادتها، لذلك هم أرسلوا مع العوائل عدداً من النصيرات اللواتي كن محسوبات على المفارز المقاتلة. لم يتبق من النساء المقاتلات إلا قلائل رفضن بشكل معاند فكرة التمييز الكامنة خلف الطلب وكأن القضية هي قضية رجال فقط. ذينك النساء كن من الرائدات في كسر التقليد العتيد. كان أبو منيب يداور كل هذا مع نفسه، حين انتشله صوت سهراب وهو يأمر شيرين بما يشبه الزجر:

- رفيقة شيرين. روحي لحگي على مفرزة العوائل.

ما كان يشغل شيرين حتى قبل صدور قرار ترحيل العوائل إلى الفوج الثالث؛ أنها لم تعد تدري ماذا تريد. بل هي تداور الآن مع نفسها ذات السؤال؛ لِمَ هي أصلاً رفضت العودة إلى أهلها بعد أن انفصلت عن مراد. ألم يكن هذا هو الشرط الموضوع أمام عودة الزوجات المهجرات وراء أزواجهن؟ هي ومراد ومنذ بضعة أشهر في حكم المطلّقين. حتى قبل ضياعه، هي قررت مع نفسها أن لا حياة لها بعد الآن مع من طعن بشرفها، ومسح الأرض بكرامتها أمام الجميع. مراد لم يعد لها كما كان. ما الذي يبقيها إذن. هل تعول على الأيام لتعيده إليها. بل هل هو قادر على العودة. لكن فيما لو عادت إلى هناك. كيف ستواجه

أهلها. جيرانها. صديقاتها. هي تعرف نفسها مثلما عرفها الذين هاموا بها وجداً سواء هناك في مدينتها الصغيرة، أو هنا في قرية العوائل وحاولوا تسلق صخرة عنادها أنها امرأة ممتنعة. جدار أصم. لكن كيف ستواجه نظرات الشماتة في عيون مسؤولي المنظمة الحزبية البعثية في بلدتها. أولئك الذين غدا بيت أبيها مقراً ثانياً لهم. كلٌّ يحمل ذات العرض لأبيها: دعها تطلقه. حرام تتعذب بالجبال والسجون وعلى ماذا. على مراد. هل يستحق مراد كل هذه التضحيات. وكان لها معهم مواقف باتت على كل لسان. لم تكن تخشاهم كما كانوا هم يخشون لذاعة لسانها وجرأتها على قول ما تخجل عن قوله النساء بحضرة الرجال. لكن هذا الأبله مراد كيف سمح لنفسه أن يتخذ هكذا قرار. أن يهيم على وجهه في الجبال؟ منذ عرفته قبل الزواج وبعده وهو خامل كسول لا يقدم على شيء إلا بمعونتها. في حياته لم يتخذ قرارا بمفرده، حتى قرار التحاقه بالشيوعيين هي من حرضته وحفزته عليه، هي من دفعته إليه دفعاً، بعد أن بات أمر قتله في جبهات الحرب الخارجية بحكم المؤكد. وكان القرار بحاجة لقوة خارقة كي ينفذه مع كل التسهيلات التي قدمتها له هي. لقد ربطت مصيرها بمصيره منذ أشهر الزواج الأولى، إذ قررت التحامل على نفسها وتجرع الأمر مهما كان. صحيح أن زواجهما لم يكن مشروعاً شخصياً لها أو له، أكثر مما هو توافقاً وانسجاماً مع تقاليد الزواج الطبقي الذي تنفرد به طائفتها، كان مراد في ذلك الوقت هو الرجل المناسب الوحيد من الطبقة المسموح لها الزواج منها. إلى ذلك أنه مدرّس رياضيات محبوب بين طلابه وداخل بلدته. لكن، بعد أشهر من تجارب الاعتياد على الحياة الجديدة، وجدت أن مراداً مع خموله وكسله الواضح، ليس سيئاً ولا مؤذياً، على العكس، هو يحترمها ويحبها بشكل واضح. مستعد لفعل أي شيء تريده هي. والأهم أنها وجدت فيه مواصفات الرجل غير الملوث بما اعتاد عليه الرجال من بهلوانيات وألعاب يقضون فيها وطرهم مع هذه أو تلك وحتى مع العاهرات. كان معها رجلاً بلا قناع. حين التحق كان في السنة الثالثة زواج، وشيرين ليست المرأة التي تُترك. ليس بسبب جمالها والذي هو من النوع النادر وجوده في قريتها الترابية الجدباء، بل هي إلى ذلك غير صموتة،

مجابهة، لا تحسن التغليس على استفزازات رجال الحكومة ومنظمتهم الحزبية، أولئك الذين تكرههم كما تكره الموت. حين كانوا يأتون إلى بيتهم لاستدعاء مراد كانت هي من يجابههم. حتى أنِ مسؤول تلك المنظمة الحزبية، كان يسميها (البزونة الشرسة) وله الحق في ذلك، حقاً أن استدارة وجهها الأبيض المخمَّر وعيونها الخضراء اللاصفة تجعل ملامحها أقرب إلى قطة جميلة، لكنها شرسة. كثيراً ما يعبر عن حسرته أمام رفاقه:

- هذولة الشيوعيين اشكد محظوظين بالنسوان.

هذا ما كان يُخيف مراد. سينتهي بها الأمر إلى السجن، أو إلى مصيبة لا يدري بها إلا الله، ماذا يمنع السفلة من أن يفعلوها معها، ليست هي الأولى ولا الأخيرة. هذه الهواجس جعلت من مراد طيلة المدة التي قضاها في المفارز بعيداً عنها، نصيراً راكداً، ساهياً طيلة الوقت، دائماً هو ليس هنا، جسده فقط في المفرزة، أما روحه، فكره، مشاريعه، هواجسه، كلها هناك عند شيرين. وربما هو الوحيد الذي كان سعيداً بوصول عائلته له. لم يشعر بذلك العبء الذي شعر به الآخرون من أولئك الذين استقبلوا عوائلهم، مع أن أمه كانت معها إذ هجروهما معاً. صار عليه أن يعيل أمه وزوجته، لكن أية إعالة؟ لم يحرك ساكناً، الجميع يذهب ويستقصي عن الطحين والمؤونة إلا هو، يظل في غرفته، حتى يقتلعه منها الآخرون اقتلاعاً. بحضور شيرين زايله القلق، الخوف، الهواجس اللعينة، الأمر الذي شحن خموله وكسله القديم بشحنة الاسترخاء المضافة، صار التأجيل صفة لصيقة به. صار كل شيء مهما عظم شأنه قابلاً للتأجيل. لِمَ الاستعجال إذا مو اليوم غداً. حتى جاء ذلك اليوم الذي لخبط خارطة الأشياء وانسيابيتها على سكة التأجيل، حين اقتنعت شيرين أن خمول ورتابة أيامهم لا ينفع معها شيء إلا الصدمة، مراد بحاجة إلى صدمة من نوع ما تضخ في عروقه النشاط والحيوية والمسؤولية، أو كل ما يميز الرجال في ذهنها.

- مراد. آني قررت إذا أنت ما تروح للطبيب تسأله، آني أروح.

- هاي شبيج تخبلتي. طبيب الفوج طبيب باطنية.

- باطنية صدرية. هذا ما يقنعني. هو طبيب.

كانت تحلم بطفل وهو يعرف أنه غير قادر على تحقيق حلمها. سبق له وأن تأكد من هذا الأمر الذي أخفاه عليها تماماً. لقد قصد قبل التحاقه طبيباً موصلياً اشتهر بمهارته في معالجة كل ما له علاقة بالعقم رجالياً كان أم نسائياً، وبعد فحوصات وجلسات؛ أخبره الطبيب:

- للأسف، أنت غير قادر على الإنجاب في الوقت الحاضر.

- يعني شنو؟

- تحتاج إلى علاج يأخذ شوية وقت.

لكنه التحق بالأنصار، ولم يحصل على ذلك الوقت الذي أراده الطبيب لعلاجه، بل لم يبدأ العلاج من أصله. إذ قررت شيرين على أثر المذابح التي حدثت في جبهة الحرب التي كان فيها، أن يلتحق بالجبل بدل التحاقه بوحدته العسكرية على الجبهات البعيدة في الجنوب.

على أثر تلك المحادثة القصيرة بينهما وتهديدها له بأنه هي من سيراجع الطبيب، جاءت النتائج على عكس ما توقعته هي. إذ بدلاً من أن ينتشل مراد نفسه من خموله ويبث الحيوية في عروقه، انتكس إلى قاع سحيق من اليأس والشعور بالذنب. مشاعر أخذت تؤرقه ويتداخل معها شعور الخوف والشك من أن تتركه زوجته، أو تفعلها مع أحدهم مدفوعة بهاجس الحصول على طفل هو غير قادر على تحقيقه لها. الأمر الذي جعله يدخل في طور غريب على سلوكه؛ أن يراقب سلوك وأفعال زوجته. أن يشك بكل ما تقوله وتفعله. صار كل ما تقوله يدخله في بوتقة التحليل والظنون، حتى جاء ذلك اليوم الذي انتكست فيه علاقتهم إلى درك الحضيض. شعرت شيرين ذات صباح أنها حامل. !! استعادت مع نفسها أيام وليالي الغثيان والصداع وقلة النوم والقلق، التي لازمتها منذ مدة ليست بالقصيرة، في البدء عزت كل ذلك إلى مرضٍ ما. إنما ذلك الصباح وبعد أن تحسست الانتفاخ الواضح في بطنها، لجأت مباشرة إلى حماتها العجوز أم مراد، وهذه أخذتها من يدها وهي تكاد تطير من فرحتها إلى امرأة عجوز أخرى عليمة بهذه الشؤون، لتخبرها تلك

المرأة بعد فحص يدوي، وليس من غير علامات اندهاش بدت واضحة على ملامحها: أنت حامل في شهرك الثاني.!!

شكرت شيرين في دخيلتها الله، ووليّها المفضل (شيخ ئادي)، الذي كثيراً ما زارت ضريحه، وهي عادة ما تستدعي عونه في نوبات اليأس القاتم التي تجتاحها بين الفينة والأخرى. لذا كان أول قرار اتخذته مع نفسها وهي تنتظر عودة مراد مع مفرزة الأرزاق، أن تزور ضريح هذا الولي الصالح، خصوصاً وإن ضريحه يقع في المنطقة الفاصلة بين المحرم وغير المحرم من الأرض، يستطيع الأنصار الوصول إليه. كان الحدث بالنسبة لها أكبر من أن تشغل نفسها بالبحث في حيثياته وأسبابه ونتائجه. جعلها تنتظر عودة مراد على أحر من جمر الموقد الذي لطالما أمسكت نفسها وهي تناغيه، وكأنه كائن بشري يحس بها ويسمعها ويتفهمها. وحال وصول مراد مترباً متسخاً منهكاً من عناء الطرق الجبلية مع حمله من الطحين والسكر والرز، وقبل أن تسخن له ماء الحمام، أخبرته بالخبر الصدمة. لكن ولنحس طالعها لم تكن الصدمة التي تمنتها لبث الحيوية والتفاؤل والنشاط في عروق زوجها، بل الصدمة التي جاءت على رأسه مثل هبدة قوية من فوق، أقعدته أرضاً وهو الذي كان يتهيأ لتبديل ملابسه، جلس مقابلها مبحلقاً في وجهها. لم يقل شيئاً. وإذ ألحت عليه:

- هاي شبيك. ما سامعني. آني حامل.

خرج من بحلقته مشدوهاً غير مصدق بعد:

- أنت تخبلتي...؟

- دا أگلك حامل.

- يعني منين. هذا ما يصير. شلون يصير. مستحيل.

ظل يردد مفردات الاستحالة مع نفسه، مما أدخلها هي الأخرى هذه المرة في عالم الذهول والبحلقة. لم تفهم شيئاً من ردة فعله. لكن وبعد حين استعاد رأسها مفردة كأنها سمعت مراد يقولها. لم تكن متأكدة بعد هل هو قالها. أم هي قد توهمت. سألته:

- أشقلت؟

لم يجابهها، اكتفى بترديد المفردة مع نفسه، إنما بصوت مسموع:

- قحبة. قحبة. قحبة.

تحول ذهولها إلى حالة إغماء أقعدها في ركن الغرفة، وهي التي كانت تتهيأ لتحضير حمامه، بعد أيام، وإذ وصل خمول وانطوائية زوجها إلى حافة الجنون، طلبت الطلاق، ولما لم يفهم طلبها أو لم يسمعه وهو في حالة الغياب الكامل، جلبت عدداً من شيوخ القرية، مع عدد من النساء كبيرات السن، وأعلنت أمام الجميع أنها طالق منه، وهذا هو الفعل المتوقع والمنسجم مع سجيتها وإحساسها بالكبرياء المهدد.

انكفأ على نفسه في الغرفة، ولم يغادرها أياماً حتى خرج في أحد الأيام ولم يعد، عقله قفل على الجملة التي قالها ذلك الطبيب الموصلي (للأسف، أنت غير قادر على الإنجاب في الوقت الحاضر) وهي حامل، كيف؟

لم يخطر ببال شيرين يوماً أن تخون مراد رغم كل خموله وكسله.

مرت عليها أوقات قاسية حين كانت بعيدة عنه تعيش مع أهلها، لم تسلم من تقولات الآخرين ومن محاولاتهم استغلال حاجتها لرجل، كذلك من محاولات أبيها لدفعها إلى تطليقه وتزويجها، كانت تقول لأبيها:

أظفر مراد يساوي عندي كل هاي النعل اللي تشوفها تتخطى في البشوارع، هو لم يتركني بإرادته، هو يقاتل بالجبل وما طخ رأسه لأحد. وبعدين آني طلبت منه الالتحاق.

كانت شجاراتها لا تنتهي، لم تكن تخاف أحداً، من يحاول أن يسمعها كلمة، تُسْمعه ما يجعله يفكر طويلاً قبل أن يكرر محاولته، حتى أقنعت الجميع بوضعها، أنها امرأة تنتظر زوجها وإن غاب الدهر كله.

ها هي الآن في مصيدة الخيار، ولسبب لم يخطر ببالها أبداً، من أين لها أن تعرف أن ما ظنته طيلة علاقتها الزوجية سبباً لتغيير حياة زوجها وحياتها نحو طريق السعادة، سيكون سبباً لكل هذه التعاسة التي هي فيها الآن، هي الآن

لم تعد راغبة بالطفل حتى، لقد فُقد مراد دون أن يعلم عنه أحد شيئاً، سوى أخبار مبهمة أوصلها بعض الصيادين، عن رجل بلحية طويلة هائم على وجهه وبوضع يرثى له.

شاهدوه وهو يأكل أعشاب الأرض، كأنه مجنون، ولما حاولوا الاقتراب منه سحب عليهم السلاح، المنطقة التي تحدثوا عنها هي منطقة عاصية لا أحد يستطيع الوصول إليها غير الصيادين من أبناء المنطقة. طلب منهم سهراب أن يرسل معهم أنصاراً ليرشدوهم على مكانه، ليعود الأنصار في اليوم التالي معلنين أنهم لم يجدوا أحداً هناك.

لقد ضاع مراد، وها هي في منطقة اللاخيار مع كل الكدس الفضائحي الذي تسبب به، حتى أن الخبر وصل إلى أهلِها هناك في القرية البعيدة.

(١٢)
الخناق يضيق

منذ الصباح الباكر، جرت الاستعدادات لتجهيز قافلة العوائل المتوجهة إلى الفوج الثالث، تخلى الإداري عن بعض البغال لحمل المرضى والحوامل والأطفال، لكن، ليس دون ممانعة بسبب حاجته الماسة لها في تسهيل أمر إخفاء الأسلحة والمؤونة في المواقع البديلة.

كان الرجال على غاية الاستعجال لإنهاء هذا الفصل المؤلم لهم، فصل التوديع، أما النساء فكنَّ على غاية البطء، عسى ولعل أن يُستجاب لتوسلاتهن في البقاء، أو أن يقرر الأزواج مرافقتهن.

لم تضم القافلة كل العوائل، لتسهيل أمر العبور ولتجريب الطريق بعد الأخبار المقلقة التي تتوارد على مدار الساعة حول حشود الجيش.

تم تجهيزهم بمؤنة كافية، إذ ظلت بعض النساء في قرية العوائل يخبزن طيلة الليل على صاجات إضافية زودهن بها إداري الفوج مع أكياس مضافة من الطحين والجوز والزبيب ومعلبات اللحم، في بادرة (حاتمية) لم يفعلها كثيراً.

سارت القافلة، وخطو النساء لم يزل متردداً يرنو إلى الخلف أكثر مما للأمام، وكان معهم عدد من المقاتلين للحماية والدلالة.

كانت توصية سهراب لحسام الصغير قاطعة:

- توصلهم وتعود بنفس اليوم.

حسام كان يعرف أنه هو الدليل، حتى قبل يومين من الأمر، لكنه واقع فريسة مشاعر متضاربة لا عهد له بها، مشاعر لا تسير بسياق واحد، تبدو له غير

مفهومة، غير واضحة. أو لا يريد تصديقها، هو سعيد لمرافقة القافلة، وتعيس في نفس الوقت.

يريد إبعاد حبيبته من المصير الجمعي المتربص بهم ولا يريد، يحب روزا ولا يحبها، يريد العودة ولا يريدها، لم يعد يفهم مشاعره، الشيء الوحيد الذي يحسه أن رأسه ورغم الدوي الدائر في جوفه من قرارات ومشاريع وأفكار ونوايا، لكنه مفرغ من أي تصميم.

البارحة وقبيل الغروب كان معها، صعد هو قبلها ولحقته هي إلى ذات الصخرة المنبعجة والمظللة بشجرة الجلو الهرمة، وقبل أن تستعيد أنفاسها، سألته ببراءة طفل لا يعرف ما يحاك له:

- صحيح راح يأخذونا إلى الحدود؟

أجابها بعد صمت طويل:

- سأكون أنا الدليل.

بشّت ملامحها، وكأنه أخبرها بموعد خطوبتهما، قالت:

- لن ترجع. !!

صدمه صوت الإصرار فيما قالته على غير عادتها الخجولة والمترددة في التعبير عن نفسها، حين استدعاها إلى هذا المكان، كان قد قرر مع نفسه أن يقول لها جملة واحدة، أخذت منه الأيام الأخيرة وهو يداورها مع نفسه حتى استقر عليها، ولسذاجته الطفلية ظن أن تلك الجملة قادرة على حل التشابك الحاصل في نواياه ومشاعره تجاه هذه الطفلة.

صمت مرة أخرى، وهي تراقب حيرته المرتسمة على بؤبؤ عينيه المفتوحتين على سعتهما كمن يحلق في مشهد مرعب شدهه عن الكلام، اقتربت منه أكثر حتى تلامس الجسدان، كانت راغبة أن يحتضنها كما احتضنها في مرات سابقة ليقبلها، لكنه لم يخرج من بحلقته المرعوبة في الفراغ.

رمت رأسها على صدره وأجهشت بالبكاء، لا تدري لِمَ هي بكت؟ هي لم تقرر أن تبكي، جاء البكاء من مكان بعيد في أعماقها لم يكن لها سيطرة عليه،

خرج هو من بحلقته وضمها إلى صدره شاداً على رأسها بعزم واضح، رغم بكائها كانت تشعر بأمان وهي على صدره، أمان لم تجربه إلا وهي في حضرة أبيها في المرات القليلة التي حظيت بقرب الأب منها.

حار حسام بيديه ماذا يفعل بهما وهي مرتمية بثقلها على صدره؟ رفع رأسها إلى وجهه وقبلها القبلة الأولى، في الواقع لم تكن قبلة، كانت شيئاً أشبه بمصمصة عظم، ظلت أسنانهما تصطدم ببعضها، لم يتعرفا بعد على تقنية اللسان ودوره الباهر في التقبيل، ظلا يقبلان بعضهما بذات المصمصة العظمية لمدة طويلة، حتى تخدرت شفاههما وتوترت حواسهما، وكادا أن يدخلا منطقة الغياب واللاعودة، قبل أن ينتشل حسام نفسه من نفسه في نوبة صحو، ويسمعها تلك الجملة التي تداولها مع نفسه:

- روزا. بعد وصولكم للفوج الثالث، انسيني وآني أنساك، اتفقنا!؟

لتجيبه مبرطمة قالبة شفتها مثل طفلة على وشك البكاء:

- لا يا خائن، تكدر تنساني؟

لم تشغل مفاجآت ووعورة الطريق الجبلي الضيق رأس الصبية روزا، إذ حرارة الدماء النابضة في عروق جسدها الفتي، قادرة على إيصالها إلى آخر الدنيا وليس إلى (گلي هسبة) حيث مقر الفوج الثالث، رغم ذلك، كانت خطواتها مترددة ترنو إلى الخلف أكثر من انشغالها بتفحص الصخور والتعرجات وتلك العلامات السائرة بهم صعوداً وهبوطاً، لرحلة قد بدأت تواً، لكن من هذا العارف أين ومتى ستنتهي؟ كان يشغل ذلك الرأس الصغير، شعور بالفقدان، شعور مبهم وواضح كذلك، يتراءى لها في صفحة خيالها كقمر تراوده غيوم يظهر ويحتجب.

هي بين حلمين ستفقد أحدهما لا محالة، كما هي الآن بين جبلين عليها عبورهما معاً، لا تريد أن تهجر حسام إلى الأبد، ولا تريد أن تخذل أمها وأخواتها مرة وإلى الأبد، تبدت أمامها كل الخيارات أبدية لا رجعة عنها، عائلتها تسير خلفها وحسام في مقدمة الطابور، تحاول التعلق بعدد من الخيوط، لكنها، تجدها جميعاً واهية وقابلة للقطع، بدا لها ما قاله البارحة غبياً، كما بدا له هو أيضاً فيما بعد.

لكن ما هو البديل القادر على الوقوف بوجه أعراف وديانات تجعل مجرد التفكير بالأمر دنساً؟ ما بالك فيما لو تحقق؟

إن علاقتهما تنتمي إلى علاقات المستحيل، على الرغم من أن الطائفتين المسيحية واليزيدية متجاورتان على ذات البقعة الأرضية، ويعيشان في بحبوحة التفاهم والتسامح منذ عروق التاريخ البعيد لهذه المنطقة المبتلية بالتنوع الديني والمذهبي والقومي، لكن معظم تجارب التجاوز والاختراق لهذه الأعراف أثبتت أنها قد تحولت إلى وبال ومآس على المتجاوزين، لا ينجيهم من وبالها غير التشرد وقطع كل الخيوط الواصلة مع البيئة المحيطة، سيكون ثمن التجاوز نسيان الأب والأم والأخ والأخت إلى الأبد، وهجران المكان.

ها هي تكاد تدرك مقدمة الطابور الملتوي صعوداً وهبوطاً مع إفعوانية الدرب الصاعد بهم خلال التموجات الأرضية الكائنة بين جبلين، وهو الطريق يتلوى في رأسها المغبش برؤىً واحتمالات ومشاهد بدت كلها مخيفة، مرعبة، مظلمة تنهش بما تبقى لها من رجاء يائس.

بعد أن خلفوا قرية (اسبندار)، التزموا الطريق الواصل إلى گلي (طاجيكة)، بدا طابورهم أطول مما هو عليه أصلاً بتلك المسافات التي أخذت بالتباعد بين السائرين والسائرات كالمنومين من التعب والإرهاق، كانت محنة النساء اللواتي يحملن أطفالهن على ظهورهن، أو يسحلن بالكبار منهم من أيديهم هي الأشد، لا تشابهها إلا محنة الشيوخ المدهومين بلعنة السنين التي لم تخرجهم من دائرة المقاتلين فقط، بل تعيدهم إلى الطفولة، إلى تلك المراحل البعيدة من بدء تعرفهم على هذا العالم، إلى حيث البحث الدائم عن من يأخذ بيدهم ويرشدهم، ويرتب لهم أشياءهم بما فيها تلك الأشياء الخاصة جداً.

في النهاية إنه طابور خطة الطوارئ، أو هكذا صار يتندر الناقمون على خطط ووسائل قيادتهم.

المسافة بين (گلي مراني) في سفوح جبل (گارا)، و (گلي هسبة) المنزوي في تعاريج ووهاد سلسلة جبل (متين)، حيث المحطة الأخيرة، لا تأخذ مع المسير الطبيعي للمقاتلين سوى ليلة وبعض يومها، وفي الظروف الطارئة يمكن

اختزال الزمن إلى ليلة واحدة تبدأ مع تكاثف الظلام، وتنتهي مع بزوغ خيوط الفجر الأولى من اليوم الجديد، عندها سيجدون أنفسهم بضيافة أنصار الفوج الثالث على وجبة الفطور.

صحيح أن قدرات حسام في الدلالة، ومعرفته كل زواغير الطرق الجبلية، تجعله قادراً على اختصار الطريق إلى أقصر من هذا بكثير، هو الدليل المعتمد للفوج كله وإلى كل الاتجاهات، لكن، مع طابور جله من النساء ومنهن الرضع والحوامل وشيوخ لم يعولوا كثيراً على أقدامهم أكثر مما يعولوا على عكازاتهم، قد تستغرق الرحلة بضعة أيام بلياليها، هذا ما حدسه وباح به إلى النصير الذي يناوبه في قيادة المفرزة، الأمر الذي ملأه بالبرم والقلق، ولا يخفف من ذلك سوى قربه من روزا تلك السائرة في وسط الطابور.

ما أن يلتفت ويراقب خطوها الثابت النشيط، حتى يهدأ تململه من الاحتمالات القادمة، عندها يشعر بذلك الشيء الذي لا يشبه الفرح ولا يشبه الحزن، شيء هلامي ذو ملامح متحولة، وحتى يهرب منه يستعيد مشاهد من علاقتهما.

كانت تكرر تهديداتها البريئة له: هاي آخر مرة تبوسني. دير بالك. ليجيبها هو: أقسم لك هي آخر مرة. !! وفي المرة القادمة تنسى تهديدها مثلما ينسى هو قسمه، ويقبلان على وجبة دسمة من التقبيل أو (البوس البري)، يكادان يفترسان بعضهما بأسنانهما المتصادمة.

ما يغبش الرؤية في صفحة خياله الآن، هو الإلحاف الذي كان في حديث سهراب وهو يكلفه بالمهمة: أنت بالذات ترجع. يردد رأسه:ليش آني بالذات؟ هل هي نقمة أني أعرف الطرق؟ ظل يراود نفسه ليصنع من ذلك الشعور المتخاصم مع نفسه، شيئاً من سعادة، يقتطعها في الاستراحات، باختلائه بروزا، أو حتى باتخاذه مكان استراحته قرب عائلتها، كان يبذل جهداً في التودد لأمها وأختها حياة، لكن دونما طائل، الأم تعرف في قرارة نفسها أن ما يفكر به لن يحصل، بل كلما بالغ في التودد، كلما زاد ضغطها على بنتها ومراقبتها لها.

أخطر ما في الطرق الجبلية هي الممرات الإجبارية، تلك الطرق التي لا تستطيع إلا أن تمر من خلالها، الجبل بطبعه لا يعطيك نفسه كما تريد، بل

كما هو يريد، إن تسلقته عليك تسلقه من طرق هو يدلك عليها، وإن أردت التجاوز كذلك هو الذي يتحكم بالكيفية وأين تتجاوزه، أنت في كل الأحوال تحت رحمته، وكلما كانت رفقتك له طويلة كلما أطلعك وعرفك على أسرار جديدة، أسرار الجبل لا تنتهي، لكن أمر تلك الممرات الإجبارية يظل أمراً مقلقاً، حيث من السهل على القوات المتربصة للهجوم الوشيك، أن تراقبها وتسيطر عليها سيطرة تامة.

على الطابور في البدء اجتياز ممر (طاجيكة) الإجباري، هذه الفسحة السهلية الضيقة بين جبلين والفاصلة بين سلسلة (گارا) المتعجرفة القاسية، ومتمددات جبلية أخرى من جبال صغيرة، وتلال وكنوت اتخذت مسمى (البرواري)، حيث تبدأ مناطق البرواري السفلى، ومن ثم العليا المسكونة من قبل عشائر البرواري الكوردية.

كان عليهم اجتياز الممر بعد منتصف الليل حيث استرخاء وخفوت أمر المراقبة، الأمر سيكون سهلاً على بضعة شبان مسلحين، سيقدرون على التسلل حتى بين الآليات العسكرية المنتشرة على طول الشارع، قادرون في اللحظات الحرجة على كتم حتى تنفسهم عند اجتياز الشارع المزفت، وبعض الأكمات والأحراش التي تقع خلفه.

لكن ماذا ستفعل للطفل الرضيع لو أراد الصراخ في هذا المكان بالذات؟ وماذا تفعل للشيخ المتعب حين يرفض الحركة خطوة إضافية؟ وبكل سهولة يطلب منك أن تقتله لتريحه من عبء المتبقي من الطريق ومن حياته، أو المرأة التي لطول حملها لرضيعها تنسى أن بين يديها شيء، وفقط حين يسقط من يديها، أو من على ظهرها، عندها فقط تعود إلى نفسها وتتذكر الأمر، لكن هذا لن يحصل بدون صرخة مرعبة.

منذ وصولهم إلى نهاية الگلي وإطلالتهم على الشارع، متخفين خلف الصخور والأكمة، وحركة الآليات العسكرية لم تتوقف، أفواج وألوية وفرق، شاحنات عسكرية، مدرعات، دبابات، ماتورات كلها تدبي وتسير ببطء شديد على هذا الشارع، قادمة من مدينة (دهوك).

قرروا الانتظار، عل الحركة تفتر وتهدأ مع قدوم الليل، عرض الشارع لا يتجاوز العشرة أمتار، سيكونون بعدها بمنجى من كل الاحتمالات، إذ سينتقلون إلى منطقة من الكنوت من السهل الاختفاء والسير فيها حتى في النهار، لأنها في كليتها خارج سيطرة جيش الحكومة حتى هذه اللحظة التي يراقبون فيها على الأقل.

اعتاد حسام لدربته الطويلة كدليل مفارز وقوافل على الكثير من القصص غير المنتهية تظهر فجأة قبل العبور، وكأن الجميع يريدون حلولاً لمشاكل عوالمهم في هذه البقعة بالذات، البقعة المحروسة بالأكمة والمرصودة بالعيون وفوهات الرشاشات.

خلال ذلك الانتظار الذي بدا طويلاً، ظهرت بوادر تذمر لعدد من النساء، خصوصاً اللواتي كن يعتقدن أن إرسالهن مع القافلة كان خطأً، استعان بالشيخ مام عجلان لتهدئة النساء المتذمرات، هذا الشيخ الثمانيني المحفورة سنينه على وجهه على شكل خارطة من الأخاديد، والوهاد التي تخبرك أنه هو الذي يقال عنه أخذ من العمر عتياً، ما زال محتفظاً بقواه العقلية وحكمته وهدوئه على الرغم من بطء حركته، لذا كان قادراً على تنفيذ المهمة، غير أن تقنيته في التهدئة كانت تسير بوتيرة واحدة ومع الجميع، يبدأ بالتهدئة الناعمة لينتهي بالزجر، وكأن النساء كلهن بناته أو زوجات أولاده، وحين يشعر بخروج إحداهن عن مقاييسه الناعمة والزاجرة، يستنجد بأم روزا:

- رفيقة شوفي شغلك ويه هاي البلية.

أم روزا التي على خلاف زوجات الشهداء اللواتي لا يعني لهن الفوج الثالث شيئاً مميزاً، يعني لها أنها ستزور قبر زوجها چاويش الذي توفي هناك على أثر مرض لم يمهله طويلاً كما أمهلته سني حربه الطويلة ضد الحكومة، هي سائرة الآن إليه، ربما لذلك السبب بدت طريقتها ناجعة بتهدئة المتذمرات؛ على عكس طريقة مام عجلان، هي لا تزجر ولا تصرخ ولا تنصح، بل تبكي مع الباكية، وتنحب مع الناحبة وتشعر في ذلك تنفيساً لاحتصاراتها الكثيرة، لكنها

في النهاية تجرجر المتذمرة رويداً رويداً إلى الهدوء، ومحاولة استيعاب الوضع الجديد، الملمح الواضح على وجهها هو الانكسار، لكنه ليس وليد اللحظة، بل عمره بعمر علاقتها بزوج لم تلحق أن تتعرف عليه إلا وهو مستعد لرحلة جديدة أو اختفاء جديد، حتى اختفى إلى الأبد.

لقد وصلوا منتهى (الگلي) منذ أول المساء، وعليهم الانتظار لما بعد منتصف الليل للبدء بالعبور، أو هكذا أخبرهم الدليل، توزعوا كيفما اتفق خلف الصخور، وبين الأحراش التي تشكل مدخل أو مخرج (گلي طاجيكة).

ما يفصلهم عن الشارع مسافة لا تتعدى المئة متر، تقدم حسام إلى الأمام متخذاً من صخرة كبيرة على كتف الوادي متراساً للمراقبة وللحراسة، فيما بعد صار المقاتلون المرافقون للمفرزة يتبادِلون المهمة فيما بينهم، إنما حسام وهو القائد الفعلي لهذه المفرزة، كان عليه المرور بين الحين والآخر ليرى مآل تلك الآليات الزاحفة على الشارع، وهل توقف زحفها، كذلك لمراقبة كمائن الجنود المنتشرة على طول الشارع.

بعد ساعات من الصمت الصاخب في لواعج النساء المرتحلات إلى المجهول كما يرين حالتهن، خلف الصخور والأحراش، قررت أم روزا الانفراد بنفسها، اتخذت لها صخرة كبيرة اتكأت عليها جالبة البنات والصبي قريباً منها، اتكأت بخدها على راحة كفها، كما تفعل عادة في أوقات الحزن الشديد، ودخلت في جب الصمت، الصمت الذي يجلب لها أصواتاً وحوارات ومناشدات بما يشبه حلم اليقظة، سمعت فيه صوتاً كأنه صوت زوجها يخرج من مكان ما لا تدري هل هو في الخارج أم داخلها؟

صوت يحاول مواساتها، معلناً لها عن اعتذاره لكل ما سببه لها من مآس ونكسات وأحزان.

صوت أنيس مواسٍ، أشاع فيها فرحاً وطمأنينة لشد ما كانت بحاجة له، رجاها ألا تفارق البنات والولد مهما حصل.

فزت من صمتها، وجدت الصغير فرهاد غافياً على ساقها، والبنتين متكأتين على أكتاف بعضهما على الصخرة الكائنة تحت صخرتها، تذكرت أنها لم تتعرف على زوجها، إلا كما تتعرف ذئبة إلى ذئب بين جولة صيد وأخرى.

رجل مولع بالحروب والغياب، لا تذكر أنه استقر في بيته أكثر من أسبوع حتى في تلك الأوقات التي كانت تحصل فيها هدنة بين حربين، على الدوام ثمة من يلاحقه ويتسقط أسراره، وهو يتنقل كصندوق أسرار مغلق من قرية إلى أخرى، لا يبوح بسره لأحد.

مع اختفاء القمر تماماً في أفق السماء البعيد، تكاثفت شرائح جديدة من الظلام، والطابور الآلي ما زال يزحف بذات البطء والزخم على الشارع المزفت، حسام لم يحسم أمره بعد، في الحالات العادية ومع غياب القمر يمكن للمفرزة أن تبدأ بالعبور، لكن، مع هذا الطابور غير المنضبط من الصعب المجازفة.

بدأت الآمال تتخافت في العبور، على الأخص بعد أن رأى شاحنات كبيرة أفرغت حمولتها من الجنود ووزعتهم على شكل كمائن خلف الشارع في تلك المساحة المشرفة على بداية تموجات الأرض (البرواري). هكذا يكون العبور مجازفة قد تنتج عنه مذبحة، قرر العودة، اتخذ قراره على وجه السرعة بعد غياب القمر بقليل، لم يشاور أحداً به، لكنه أسمع من كان بقربه:

- عبورنا يعني انتحار.

سأله بعد حين (مام عجلان):

- والحل؟

- نرجع إلى (مه راني)، وبعدين نحاول على معبر (كافية).

(١٣)
محنة المعابر

وصلت عند الفجر السرية السادسة، الجديد من أخبارهم أن الجنود احتلوا كل الربايا والمواقع العسكرية المتروكة، بما فيها تلك المواقع التي كانت مشغولة من قبل قطعات (الفرسان)، إضافة إلى خبر تحرك الجيش من (أتروش) إلى قلعة (كانيكا)، الخبر الأخير أوصلهُ قبل وصولهم فصيل الإسناد، إذ شاهدوا بالعين المجردة وعبر النواظير العسكرية أرتال الجيش وهي تسلك الطريق من (أتروش) إلى (قلعة كانيكا).

ما يفصلهم الآن عن طلائع القوات المتقدمة لم يعد أكثر من كيلو متر واحد مؤثث بتضاريس وعرة من تلال وكنوت واطئة نسبياً وممر إجباري يحتم على القوات المهاجمة سلوكه فيما لو أرادت التقدم بواسطة الآليات؛ هو معبر (گلي كاني[١٦] ماسي)، الذي يفصل الآن بينهم وبين قلعة كانيكا، حيث ما زال ثمة طريق نصفه معبد بالإسفلت إلى حدود الـ (گلي)، ثم يبدأ المقطع الترابي المترع بالحفر والانهيارات لكنه غير المنيع تماماً أمام الآليات العسكرية، في كل الأحوال غدا مقرهم بمرمى المدفعية المتوسطة الآن.

كذلك، وصلت قافلة عوائل الأمس بحال يرثى له من الإنهاك واليأس، اختفت النضارة من وجوه كل النسوة بما فيهن تلك الجميلات، قناع موحد حل محل الوجوه التي كانت، قناع متماه مع ملامح وجه الشيخ الثمانيني (مام عجلان) بأخاديده الأحفورية ووهاده الكثيرة، جباه النساء مخددة، والخدود

١٦- كاني: عين ماء، نبع ماء.

ناشفة، والعيون غائرة والحركة بطيئة، سريعاً ما انتقلت العدوى إلى الرجال أصحاب العوائل، هؤلاء الذين بالأمس كانوا قد استبشروا بتخفيفهم من عبء ثقيل، عاد العبء من جديد ليهدل أكتافهم ويدخلهم في بوتقة الحزن الجماعي.

لم يجد سهراب مدعاة لسؤال حسام الصغير ماذا حدث، كان يتوقع الجواب، لكن حسام وكأنه يريد هو الآخر الخلاص من عبئه، اقترب منه وأخبره:

- رفيق! الطريق محمي، والخسائر أكيدة، لو حاولنا العبور مع هذا العدد من النساء والأطفال.

رد سهراب، بلا مبالاة:

- زين سويت.

كان ينظر إلى زوجته وهي تحمل ئاسو على ذراعها والطفلتين بجوارها، كانت تتحاشى النظر إليه، عرف أنها ما زالت على خصامها وزعلها، كانت بالأمس عنيدة أكثر مما يعرفه عنها، ترفض الرحيل إلا بمرافقته، ولا يدري الآن كيف سيتعامل معها، وهو منشغل بأمور تخص حياة وموت الكثيرين وفي المقدمة أنصار السرية الرابعة، الذين لم يصلوا بعد.

ثلاثة أيام مرت على دعوتهم للقدوم إلى المقر، وطريقهم من قرية (بيرموس) عند مشارف الدشت لا يستغرق سوى نهار أو ليلة، كيف له أن يرحل ويترك كل شيء خلفه، حسم أمره وحاول جاهداً أن ينتزع من وجهه العابس ابتسامة، اقترب منها وحياها بصوت خافت:

- الحمد لله على السلامة.

لم تجب وأدارت عنه وجهها، غير أن الطفلتين قفزتا باتجاهه، رفع الصغيرة وقبلها، وانحنى على الثانية ساحباً إياها إلى حضنه، أراد أن يأخذ الرضيع من أمه، لكنها أدارت له ظهرها مرة أخرى، سحبها من كتفها بعنف وأخذ الرضيع، قبله وصار يلاعبه، ثم أعاده بين ذراعي أخته الكبيرة.

عرف أن لا أمل في عقد أي مصالحة الآن، تركهم حيث هم قرب المطبخ، وعاد إلى العمل الذي كان منشغلاً به، الإشراف على تفكيك وتجميع الأسلحة

الثقيلة، ونقلها على ظهر البغل الوحيد الذي تنازل عنه الإداري، محتفظاً لنفسه بالبغل الثاني لنقل المؤونة إلى (اشكفتة صباح) في الأخدود المجاور.

كان حريصاً على عدم إشراك عدد كبير من الأنصار في هذا العمل، انتخب بنفسه الأماكن التي أراد للسلاح أن يُخفى فيها، معتمداً على اثنين من الأنصار هما فؤاد ورزوقي، لكن، عودة العوائل وتزايد ضغط أخبار تقدم الجيش، أفلتت الزمام من يده، عندها أوكل العمل بكليته إلى رزوقي.

عُقد اجتماع على الفور في غرفة ابو منيب دُعي إليه كل الكوادر، بسط لهم المسؤول آخر ما وصله:

- الاتصال اللاسلكي مع مقر القاطع والفوج الثالث انقطع تماماً منذ صباح يوم أمس، ولا ندري شيئاً عن موقفهم، بالنسبة للسرية الرابعة لا ندري ما الذي أخّرهم؟ كان عليهم الوصول قبل يومين، الاتصال مع (خواكورك) ما زال مستمراً، ينصحون بتجنب القتال، والعوائل كما تعرفون رجعت، ما هي الحلول التي أمامنا الآن، طرح السؤال وكأنه يوجهه إلى نفسه.

أجاب منعم:

- طالما طريق (طاجيكة) قُطع، يعني أن طريق العمادية كذلك قُطع، ليس أمامنا الآن سوى طريق (كافية).

الطريق المقطوع الذي قصده منعم هو الذي تسلكه المفارز في العادة بتسلق جبل (گارا) إلى صفحته الأخرى (به ري گارا) ومن ثم قطع الكنوت أسفل العمادية إلى ممر (سگيري) ومن هناك تنفتح طرق عديدة منها ما يقود إلى الحدود التركية، أحد لم يعلق، بدا الأمر مفهوماً للجميع، خصوصاً وأن فلاحي المنطقة كلهم قصدوا معبر (كافية)، واصل (منعم):

- أقترح مرافقة كل الأنصار أصحاب العوائل لعوائلهم، العوائل تحتاج الشعور بالاطمئنان.

نظر إلى سهراب الصامت على غير عادته، وهو يستعيد مشاهد الخصام الذي حدث بينه وبين زوجته، ووجه الحديث له:

- رفيق أنت تروح مع عائلتك، كل صاحب عائلة يتولى مسؤولية عائلته، نبقي في المقر قوة صغيرة.

سأل حاتم:

- وما هي مهمة هذه القوة الصغيرة طالما لا نية في القتال؟

أجابه أبو منيب:

- خلينا نشوف موقف الجيش، وين راح يوصل.

علق (مسعود) مسؤول السرية السادسة:

- رفيق الجيش بقلعة كانيكا، لا يفصلهم عن مقرنا غير ساعة مشي.

سأل (أبو منيب):

- اش تقترح؟

- أقترح ننسحب كلنا على طريق كافية.

فجأة هدر صوت طيران حربي فوق المقر، وكأن الطائرات دخلت إلى عمق الگلي، استمرت قطوع الوادي تردد الصدى حتى بعد ابتعاد الطائرات، وصوت الطائرة الحربية حين يصل الآذان، تكون هي قد توارت بعيداً، انتشل الجميع أسلحتهم ووقفوا بفعل لا إرادي، ينتظرون سماع أصوات انفجارات، لم يصل شيء. خرج سهراب وتبعه آخرون، انتشروا على الفور بين صخور السفح الكائن فوق الغرفة، لم تزل ذيول صوت الغارة تصل من بعيد من جهة (گلي كافية) واختفى تدريجياً قرب سفوح جبل بيرس، كانت غارة صوتية أنجزتها بضعة طائرات حربية، لكن الجميع ظل ينتظر تكملة المشهد الذي اعتادوا عليه، أن تكر ذات الطائرات من جديد وتقذف حمولتها، أو أن تأتي طائرات غيرها ليتبعها قصف مدفعي، هذه هي مقدمات المعركة المتوقعة، طال الانتظار، لا شيء، الصمت وحده، الصمت الكريه، صمت الانتظار.

همد كل شيء في القاعدة التي كانت قبل قليل مثل خلية نحل، لا شيء غير الصمت، ومن وسط القاعدة حيث النساء والأطفال تكدسوا فوق بعضهم، انبثق صراخ رضيع أفلت حلمة ثدي أمه التي ألقمتها له على عجل، وصل الصراخ إلى كل جنبات الوادي المكتظ بالانتظار، وكأنه بشير لعودة الحياة من جديد.

قرر سهراب مع نفسه ودون العودة إلى اجتماع الغرفة، أن تكون حركة العوائل بعد الغداء مباشرة، على أن تتهيأ القوة المتبقية من الفوج للانسحاب في أثر العوائل فجر اليوم التالي، أخبر أبو منيب بما عزم عليه، وافقه هذا سريعاً:

- طيب، بلغوا الجميع.

نزل الإداري الجديد أبو فهد من السفح الذي صعده بعد خروجه من الغرفة مباشرة كأنه حدس ما اتفق عليه الاثنان:

- رفاق. إحنا بعدنا ما جاهزين، ما زلنا ننقل الأرزاق، والأسلحة الثقيلة مفككة ومبعثرة على الأرض.

تدخل حاتم الذي كان غير بعيد:

- لا عليك رفيق، سأكلف رفاق لمساعدتكم.

- رفيق آني احتاج بغال، وليس رفاق، عندي بغلين وهاي غير كافية.

أجابه سهراب بطريقته الغاضبة:

- رفيق عدنا بغلين خصصناها للعوائل، أكو حوامل ورضع وكبار سن، أرجوك دبرها باللي عندك.

الوصول إلى نهر (الزاب) لقوة صغيرة من مقاتلين شباب، وبلا تعويق غير تعويقات الطبيعة الجبلية يحتاج ليوم ونصف على الأقل، والطريق بمجمله واقع ضمن مناطقهم المحررة التي يمكن السير فيها ليلاً ونهاراً، أما مع هذا الجيش اللجب من النساء والأطفال والشيوخ، ومع الجهل شبه الكامل بنوايا وتحركات الطرف المهاجم، تتحول كل التوقيتات والحسابات المتعارف عليها إلى ضرب

من التنجيم، لقد بُنيت كل الحسابات، على أن مجرد عبور (الزاب) يعني زوال كل الأخطار، ما بعد (الزاب) تنفتح الخيارات باتجاه الحدود الإيرانية أو التركية، كل المعوقات ستكون أسهل من العائق المائي الهادر نهر (الزاب)، سيكون السير في سهول ومناطق من الكنوت والتلال، وهذه كلها واقعة في المحرر أو المحرم من الأرض، هي أراض لم يطأها الجيش منذ زمن بعيد، لكن، هل ما زالت هذه الحسابات صحيحة.؟

جلس حيدر كاميرا على المصطبة الحجرية قرب المطبخ يطالع وجوه القافلة العائدة لتوهان، لم تزل عيون النساء والأطفال مشدوهة بما خلفته الطائرات المغيرة قبل قليل من رعب وصدمة، لم يناموا ليلتهم الفائتة كما لن يناموا هذه الليلة والليالي التي ستليها، امتصت وعورة الطريق الذي ذهبوا وعادوا عليه نظارة الجمال من وجوه النساء والأطفال، بضع ساعات تفصلهم عن الحركة من جديد إلى مجهول جديد، هذه الكائنات البائسة تدفع ثمن أفعال لم تفعلها، لقد أُخذوا جميعاً بجريرة ذويهم المتمردين، المأخوذين بحمية وحرارة ما ينتجه التمرد من قيم تحدٍ تتصاعد مع تصاعد وتائر ووسائل الإخراس الشامل.

تحد، إخراس، تحد، إخراس: ثنائية في طريقها للتفكك مبقية على عنصر الإخراس وحده، يبدو عدوهم حاسماً في تنظيف دروبه الذاهبة بالجميع إلى الجحيم.

هدف وحيد لم يحد عنه: الإخراس، إخراس الجميع، لا صوت نشاز في الجمع المخرّس، لا نأمة احتجاج ضد الاستباحة الشاملة.

انبنى مشهد جديد على شاشة رأسه المأخوذ ما زال بفلمه الطويل، *((لقطة عامة - مئات من البشر يتوجهون صوب الجبل، خلفهم حرائق ودخان أصفر يلف بيوتهم الطينية، خلفهم حيواناتهم مستغيثة كأنها تطلب النجدة، الكلاب توقفت عن العواء وهي تتسلق السفح قبل البشر، الجميع يسعى للنجاة بنفسه من الموت القادم من أعلى القلعة. لقطة*

متوسطة - الكتل البشرية التي قصدت الجبل يلفها الضباب الأصفر . لقطة SLOWMOTION - وجوه ضبابية صفراء تشكل مع بعضها حلقات للرقص – دبكة كوردية - ZOOMIND على عازف بالزرنة بعيون دامعة، بغل يزفر دخاناً أسود من منخريه، امرأة مسنة تنكفئ على وجهها، كفان لطفلتين ينفصلان عن بعضهما، الرقص بالأرجل يزداد سرعة وقوة.))

خرج كاميرا من مشهده على صوت سهراب، وهو يكاد يقتلع زوجته نازين من جلستها الصامتة:

- نازي أرجوك قدري موقفي، سألتحق بكم، صدقيني.

الزوجة على عادتها القديمة تواجه عناد الزوج بالصمت المعاند، كانت منكفئة على وليدها وكأنه سيهرب منها. قررت ألا تتزحزح إلا وهو معها، وصل أبو منيب الذي خرج أخيراً من غرفته، يمشي متمهلاً واضعاً يديه خلف ظهره، وبلا صف رصاص فوق حزام القماش الذي يلف به خصره، صاح على سهراب مؤنباً:

- رفيق سهراب، اتفقنا أن ترافق عائلتك، ليش هذا العناد؟

يرد سهراب بعيون قلقة:

- رفيق شلون أروح، بعدنا ما نعرف أي شيء عن السرية الرابعة.

وهذا ما كان يقلق زوجته ويدفعها إلى الإيغال بعنادها، أنه لا يهتم بعائلته قدر اهتمامه بمسؤولياته:

رد أبو منيب مطمئناً وبابتسامته التي تشيع الود في الحوار:

- لا تخاف، الرفاق سيصلون، هم أدرى بطرق المنطقة كلها، هي منطقة عملهم، لا داعي للقلق.

ظل مصير السرية الرابعة الغامض مقلقاً ومحبطاً للجميع، معلوماتهم تقول؛ أن الجيش قد سيطر على كل المعابر والطرق الواقعة على طريق انسحاب السرية، مما سيجعلها تواجه احتمالات الاصطدام الاضطراري بالجيش.

ظل سهراب يدور برأسه من اليمين إلى الشمال، وكأنه يريد إشهاد أحدهم على ما سيقوم به، ارتكن أخيراً، أذعن لقوة شكيمة زوجته. أخذ الرضيع من يدها وسار أمامهم، عندها غادرت هي صخرتها، وبدا أن شيئاً من مغاليق ملامح وجهها قد انفتح، شيء يشبه فرحاً غامضاً.

(١٤)
سجناء خطرون

لم يبق أمامهم غير الطريق الوحيد: الانسحاب بأثر القرويين والبيشمركة عبر ممر (كافية) مع أنهم غير متيقنين بعد أن هذا الممر لم يسقط هو الآخر، الممر قريب من منطقة نفوذ عشائر الزيباريين المتحالفين مع الحكومة، وهؤلاء لهم ثارات كثيرة مع البيشمركة والشيوعيين.

تحول مقر القاعدة بعد رحيل قافلة العوائل عند الظهيرة، إلى ورشة عمل فيما يخص الإخفاء، لم يعد الإخفاء مقتصراً على المؤونة والأسلحة الثقيلة، شمل أيضاً المتعلقات الشخصية للمقاتلين، ثمة أشياء صغيرة وخفيفة، دفاتر، كتب، أدوات حلاقة، ألبومات صور وغيرها، هي ما أن تتجمع في مكان واحد حتى تغدو كتلة كبيرة ستثقل كاهل حاملها، لكنهم، مع هذا أبقوا على تلك الأشياء العزيزة التي لا يمكن التخلي عنها: بضعة صور شخصية لعوائلهم، وثائق رسمية، شهادات تخرج، جوازات سفر، تلك الأشياء التي قد تنفع فيما وراء الحدود.

الجيش المهاجم يتقدم في كل المناطق التي كانت محررة-محرمة، وبلا عوائق تُذكر، حتى هو لم يعد بحاجة للقصف المدفعي الكثيف الذي في العادة يسبق الهجوم، واضح أنهم على دراية بخلو المنطقة بالكامل من ساكنيها وبقرار اللاقتال الذي اتخذه الحزبان المتحالفان.

مر المساء بهدوء غريب على هذا الوادي المكتظ بالحياة منذ زمن بعيد، كأن كل شيء أقفر بعد رحيل العوائل، اختفى صخب الأطفال المتراكضين طيلة

النهار في جنبات المقر، اختفت مشاهد النسوة الحاملات صفائح الماء من رأس العين إلى قرية العوائل، لم تعقد تجمعات الأنصار المعتادة بعد العشاء وشرب الشاي، لا نية بحفلة ساهرة أو دبكة كوردية كما هي العادة، فقط الأنصار يتخاطفون هنا وهناك بحركات سريعة وسط تبعثر الأشياء بين أقدامهم، كرات الجوز، حبيبات الزبيب الأسود اليانع، معلبات لحم، سمك، جبن، عتاد ثقيل، عتاد خفيف، ملابسهم الشتوية والصيفية تبدو مثل أسمال بائدة متناثرة هنا وهناك.

لقد لفظت الغرف أحشاءها إلى الخارج، وجوه الأنصار ملوحة بحزن من فقد كائناً كان لصيقاً به، وهو لا يعرف بعد ماذا سيفعل بعد فقدانه.

ومع أول الليل برزت أمام قيادة الفوج مشكلة جديدة من نوعها، تناسوها في زحمة الفوضى والقرارات السريعة.

ماذا بشأن السجناء؟ هل نسحبهم معنا؟ هل نطلقهم؟ هل نعدمهم؟

لم يزل أربعة سجناء يقبعون في سجن المقر، تم إطلاق سجناء كثر وعلى فترات متتالية منهم من أُطلق بفدية مالية، وسلاح وهؤلاء كانوا من الفرسان الزيباريين وغير الزيباريين، ومنهم من أُطلق بلا فدية ولا سلاح مزوداً بمصاريف الطريق، وهؤلاء كانوا إما جنوداً، أو بعض القرويين من المجندين عنوة ضمن مفارز الاستخبارات في قرى سهل الموصل بعد أن سيطرت عليها تلك المفارز.

أما هؤلاء الأربعة فلهم شأن مختلف، هم موضوعون تحت بند (سجناء خطرين)، عادة يكون البت بمصيرهم من صلاحية المكتب العسكري المركزي، وبعد إخفاء جهاز اللاسلكي مع ما تم إخفاؤه من أسلحة في قطوع ومخابئ متفرقة على سفح الجبل لم تعد من وسيلة اتصال.

خطورة الأربعة تتأتى من كونهم كانوا (أنصاراً). !! نجحت الأجهزة الأمنية الحكومية ولفترات طويلة بزرعهم بين التشكيلات المقاتلة، اطلعوا على كل شيء، مثلما شارك اثنان منهم بعمليات عسكرية كانت تحتاج إلى مقاتلين يتمتعون بمواصفات استثنائية من الجرأة والشجاعة والإقدام.

كانوا من الفاعلين في سراياهم الجوالة، باستثناء سمير الذي بدا مرعوباً على طول الخط حتى حين تكون المفرزة في أأمن استراحاتها، وكان هذا هو الحاشية الرخوة في المجموعة، أما فهد الذي ادعى أنه فنان مسرحي كان يدرس الإخراج في أكاديمية الفنون الجميلة قبل التحاقه، فكان هو أنشطهم وأكثرهم حيوية، كلهم ادعوا أنهم طلاب جامعة ومن الشيوعيين المطاردين، حتى أن تزكيات لا غبار عليها قد وصلت من تنظيمات بغداد تفيد بسلامة موقفهم من الناحية الأمنية وتوصي بمساعدتهم.

اعتاد فهد ومنذ أيامه الأولى أن يستثمر استراحات المفرزة الجوالة في البساتين والوديان لتدريب الأنصار على التمثيل، بل هو أعد وأخرج مسرحية أشرك فيها عدداً من هؤلاء المتدربين، وكان من المؤمل أن تكون تلك الفعالية ضمن فقرات الحفل الذي كانت تستعد له المفرزة بمناسبة عيد تأسيس الحزب، غير أن ردة فعل رزوقي وبعصابيته المعهودة لخبطت المشروع كله.

كانت فكرة المسرحية تدور حول مجموعة رجال في جزيرة معزولة يناطحون جداراً عالياً، إلى أن تتكسر رؤوسهم. !! ليعلق رزوقي من مكانه وهو كان يراقب على فترات استعدادات الفرقة:

- فهد. أنت اشكاعد تسوي. شنو جدار. شنو مناطحة. يعني أنت شايفنا ثيران!؟

كان الضحك هو ردة فعل الأنصار الذين كانوا قريبين من الحادثة والمعتادين على قفشات رزوقي، غير أن هذا لم يكن مزاحاً، سريعاً ما تلبس غضبه، وكاد يهجم على فهد وهو يصرخ:

- لك أنت إذا ما تطلع واحد مندّس. هاي إيدي أݣطعها. !!

تلاحق أبو زهرة الأمر على طريقته وكان هو المسؤول السياسي للمفرزة حينها، ممتصاً غضب هذا ومهدئاً من روع الآخر، غير أن انتباه رزوقي لمغزى فكرة المسرحية وتوافقها مع ما تشيعه عيون الحكومة بين الناس من أن الأنصار

والبيشمركة يناطحون جداراً ستتكسر عليه قرونهم، جعل الأنصار أكثر حذراً وريبة من فهد.

ثم ردة فعل فهد هي الأخرى جلبت عليه الكثير من الشك والريبة، فبدلاً من أن يتنطع كأي مسرحي مؤمن بفنه للدفاع عن فكرته ومشروعه، انهار فجأة وصار يحاول كسب ود رزوقي بأي ثمن بالتوسل والتذلل والتذرع وكأنه أمام جلاد بيده الحكم عليه بالموت.

تأكد الجميع أن شيئاً ما قد تحرك في تلك البركة التي كانت ساكنة، رغم هذا، فإن سبب اعتقاله لاحقاً لم يكن له علاقة برزوقي وبيده التي قرر قطعها أو حتى بدائرة الشكوك التي طوقت فهداً.

ظل نصيراً مسلحاً يمارس واجباته كأي نصير آخر، بما فيها الحراسات الليلية، حين تكون المفرزة كلها نائمة في الجامع وهو الحارس الوحيد، جاء اعتقاله إثر انهيار سمير واعترافه على نفسه، لم يعترف على غيره وكان صادقاً لأنه لا يعرف شيئاً، كانت لهم مرجعيات أمنية مختلفة واحدة لا تدري بالأخرى.

أُكتشف أمر الثلاثة الباقين وغيرهم في مواقع أنصارية أخرى، إثر معلومات وصلت من المكتب العسكري المركزي تتحدث عن اختراقات واسعة حصلت في صفوف تنظيمات بغداد من قبل الأجهزة الأمنية، مع دعوة للتدقيق في أمن المحطات الحزبية الواصلة إلى بغداد، وكذلك التدقيق في حالات الملتحقين من هناك، مع توصية بالتحفظ على هؤلاء الأربعة لحين وصول المحقق أبو شهاب، وهذا المحقق لا يُنتدب إلا للحالات المستعصية، لديه وسيلة فريدة من نوعها بانتزاع المعلومات، ودون استخدام أي وسيلة من وسائل العنف التي يكرهها، ويغضب فيما لو مورست مع أحدهم.

يعتمد على حزمة أسئلة ملظومة بخطة استدراج هادئة وغير محسوسة، إلى جانب بضعة حركات صادمة يؤديها أمام المعتقل، منها علبة سكاير (دي موريه)، شغل سر العلبة الجميع، وهو لا يبدأ عمله إلا إذا حضرت هذه العلبة الأنيقة ممشوقة القوام كأنها سيدة فرنسية، المشكلة أن هذا النوع من السكاير

يكاد يندثر من الأسواق، وكان على المسؤول العسكري أن يرسل أكثر من مفرزة، وإلى اتجاهات مختلفة عسى أن تعثر إحداها على هذه العلبة، المنطقة برمتها محاصرة لا تدخلها غير السكاير التركية المهربة،

من أين يحصلون على (دي موريه)؟ لكنهم رغم ذلك كانوا يحصلون عليها والمحقق نفسه لم تكن حقيبته تخلو منها، ويبقى الأمر الغريب في كل هذا إن المحقق نفسه لا يدخن، يبدأ طقسه التحقيقي بالجلوس أمام المعتقل على فرشة مقابلة وفي غرفة مغلقة، بعد أن يكون قد تركه لفترة زمنية محسوبة وحيداً. وبعد حركات توحي أنه يبحث عن شيء، يخرج تلك العلبة من جيبه الداخلي، يرفعها أمام عينيه ويظل لبرهة يتأملها، ينزع عنها الغشاء النايلوني بحركة متأنية يلحقه برفع غطاء الرأس، وما أن يصل إلى الغشاء الداخلي للرأس يرفع العلبة إلى أنفه ليشمها، وبعد عملية شم تبدو طويلة يرفع الغشاء الداخلي ثم يعاود عملية الشم. يسحب سيجارة واحدة يمررها تحت أنفه مرات ثم يضعها فوق العلبة على الأرض، كل هذا يجري في صمت مطبق، وكأن الرجل منهمك بعملية تعرية سيدة جميلة، وهو ليس في عجلة من أمره. السجين يراقب العملية وهو على صفيح ساخن من الانشداه والخوف والتوقعات، للأخير أحد لم يفهم ما هو الربط بين الـ (دي موريه) والتحقيق، إلا المحقق الذي احتفظ بالسر لنفسه، ولعل العملية بلا سر ولا هم يحزنون أكثر مما هي طقس من طقوس جلب الإلهام، يبتلى به كثير من المبدعين ولكلٍّ طقسه الخاص، نوع من أفعال تشبه أفعال الانعكاس الشرطي، لا يحضر الإلهام إلا بحضور شيء ما.

على كل حال، على مدى عشرة أيام من مداورة الأربعة، تفكك نسيج المجموعة ولفظوا أسرارهم تباعاً، باحوا حتى بتلك المعلومات التي لم يسألهم عنها، لتتجمع أمام المحقق حصيلة موجعة ومخيفة، قالها فيما بعد لمسؤول الفوج:

- كل محطاتكم إلى بغداد وفي داخلها محروقة، يشتغل على كل شيوعي هناك عشرة من عناصر الأمن يراقبون كل سكناته وخلجاته، ولا تغفل

عيونهم عنه لا ليل ولا نهار، لديهم تعليمات بعدم اعتقال الشيوعيين بل الاكتفاء بمراقبتهم.

كل هذه المعلومات كانت في أذهان المجتمعين في غرفة أبي منيب، الذين عليهم الخروج بقرار فيما يخص السجناء يتحملون مسؤوليته هم طالما لم يصلهم شيء من المكتب العسكري، ومنذ البداية جرى تنحية خيار سحبهم مع المنسحبين، وجدوا فيه ثقلاً مضافاً، وباحتمالات كثيرة هم في غنى عنها، لذا انحصر القرار بين إطلاقهم أو إعدامهم.

طالت المداولات، وصار كل منهم يعيد ذات الأسباب والمبررات لمرات عديدة ليدعم رأيه، سهراب مع إعدامهم، منعم مع إطلاقهم، أبو منيب متأرجحاً تارة مع وتارة ضد، لكنه حسم الأمر في النهاية:

- هذولة شباب مغرر بهم، إعدامهم لن ينفعنا بشيء، وبعدين اللي نخاف منه قد كُشف وانتهى الأمر، والحزب اتخذ التدابير اللازمة لتغيير كل الخطط والوسائل هناك، أنا مع إطلاقهم.

بعد انتصاف الليل ومع اكتمال القمر بدراً، بدأ الهجوم الفعلي للجيش، بدأه برشقات كثيفة من المدفعية، أخذت تقترب تدريجياً من مدخل القاعدة، شوهد من موقع الإسناد أن نيران الرشاشات تنطلق من قمم قلعة (كانيكا)، فهم الأنصار؛ أن الجيش لم يتعد (قلعة كانيكا) بعد، لكنه ينوي النزول.

في ظروف أخرى، فيها مقاومة، سيحتاج الجيش إلى يومين أو ثلاثة ليحقق له انتشاراً مريحاً في هذه المساحة الوعرة الفاصلة بين القلعة ومقرهم، توفر لهم القطوع الحادة عند مدخل گلي (كاني مازي) قتالاً مؤَمناً، كذلك يستطيعون المناورة من السلسلة المشرفة على قرية (ميزة) والواصلة بتدرجها إلى سطوح الجبال المشرفة على (كانيكا)، لكن، يظل سقوط القلعة والسلسلة التي تشرف عليها يدخل في حسابات المهاجم والمدافع تحت بند (اختراق استراتيجي)، يجعل المقاومة لا تهدف سوى العرقلة، وليس المنع من تحقيق أهداف الطرف

المهاجم، تم إنهاض الأنصار على عجل، خلال أقل من ساعة أصبح الجميع مهيأً للحركة، تُرك اثنان طُلب منهما الصعود إلى موقع الإسناد لمهمة استقبال السرية الرابعة، فيما لو وصلت والإتيان بهم على ذات الطريق. كذلك انفرد حاتم بناءً على تعليمات أبو منيب بوافي النازل تواً من موقع الإسناد مع اثنين من الأنصار طالباً منهم مرافقة السجناء:

- تقرر إطلاق سراح هؤلاء الملاعين. لا نريدهم أن يعرفوا طريق انسحابنا. اعبروا بهم سلسلة صوصيا إلى الجانب الآخر واتركوهم هناك. ثم ألحقوا بنا على طريق (سيدرة).

سكت ليرى ردة فعل وافي الذي بدا مندهشاً من القرار، أردف حاتم بحزم:

- لا تقتلوهم.

(١٥)
مأساة البغل النورس

شمل القصف كل المنطقة بما فيها طريق انسحابهم المفترض، والتجربة علمتهم إن القصف الليلي غير معيق، طالما هو يفتقر لتصويبات الراصد، بدأت حركة المجاميع متباعدة بفواصل زمنية تقارب الربع ساعة، لكنها وبعد ساعتين من المسير تقاربت حتى تحولت إلى مجموعة واحدة، مشكلة رتلاً مفرداً بتعداد أكثر من ١٥٠ نصيراً ونصيرة، هم كل ما تبقى من قوة الفوج.

بدا القمر هذه الليلة وكأنه يلتزم جانب المهاجمين، إذ أحال الليل إلى نهار، على عكس ما كان يحتاجه المنسحبون، معرفة الطريق ليست بالأمر الصعب، هم قادرون على اكتشاف الطريق بدون معونة القمر.

بدأ المسير على أرض صخرية قليلة التموج وتكاد تكون سهلية، وهو أمر لا يمكن أن يكون متعباً لكائنات اعتادت قطع الجبال العاصية، إلا أنهم رغم هذا شعروا بتعب غريب يدب في الأقدام وينخر في العظام، تعب من يكون قد قلب جبل (گارا) مرتين دون توقف، بعد أن انداحت المنطقة التي أشعلها القصف المدفعي إلى الخلف، توقفوا للاستراحة وتناول ما يمكن تناوله من الخبز والماء، أو ما يسمونه (بنزين الطريق)، بدوا صامتين على غير العادة في الاستراحات التي يكونون فيها صاخبين، يتسمعون لدوي الانفجارات التي صارت وراءهم الآن، قذائف كثيرة تنفجر في ذات الوقت وكأنها صليات رشاش ثقيل. غير أن ما جلب انتباههم هو قذائف هاون ٨٢ ملم، بدت وكأنها تطلق من عند گلي (كاني مازي) المواجه لقرية (صوصيا) الكائنة خلف مقرهم، كذلك،

رافق ذلك القصف بين الحين والآخر، صليات رشاشات متوسطة وخفيفة تشير إلى معركة حامية اشتعلت بالقرب من قرية (صوصيا)، اشتد قلق حاتم على وافي ومجموعته.

تحركت المجاميع باستثناء مجموعة حاتم التي كانت قد وصلت آخر المجاميع، وبعد نحو نصف ساعة، شعر حاتم أن الخدر سيعطّل حركة الجميع وليس أمامهم غير سرعة الحركة لبلوغ گلي (كافية) عند الفجر، أعلن الاستعداد للحركة، شدوا بغالهم وواصلوا المسير، إنما ذلك التعب الغريب ظل ملازماً، لم يكن تعباً جسمانياً، بل شيء أوجع منه بكثير، نابع من أعماق أخرى في دواخلهم، أعماق صارت تلفظ ما يشبه القيح والصديد الذي يسيل جارحاً مخدشاً أعماق الشعور بالخيبة والهزيمة.

ملامح الهزيمة أخذت تعلِّم الوجوه منذ يومين، ليست هزيمتهم وحلفاءهم فقط، بل هزيمة الفلاحين الذين لا تقوم قائمة لحرب عصابات دون إسنادهم، دون وجودهم.

لأول مرة يقدم الفلاحون على رحيل جماعي بهذا الذعر الذي يجبرهم على ترك بيوتهم كما هي، وأن يفروا بجلودهم، وحتى دون قتال، ودون أن يدروا شيئاً عن وجهة رحيلهم القادمة.

لكن هل الأهداف لدى الأنصار أكثر وضوحاً؟ هل حقاً هم يريدون الهجرة إلى إيران أو إلى تركيا؟

هم بالذات لم تكن لهم تلك الحدود في أي يوم ظهير أمان، بل على العكس، حصل كثيراً أن حاصرتهم الحدود مطاردين من طرفيها، مثلما حصل وأُعتقل كثير من الأنصار سواء في تركيا، أو في إيران لأنهم شيوعيون.

لقد دأبوا على قتال الكر والفر، لكنهم كانوا يكرون ويفرون في ذات الأرض، على الدوام ثمة متسع في تضاريس الجبل قادر على توفير الحماية لهم وللفلاحين، لم يفكروا يوماً بحدود لم تكن صديقة لهم، لعل الأمر مختلف مع

حليفهم (البارتي) بعمقه العشائري المعروف داخل الأراضي الإيرانية، وبمواقفه المعلنة بدعم الجانب الإيراني في الحرب، لكنهم، الأنصار مطلوبون في إيران وتركيا والعراق، لهذا الثلاثي المتناحر والمتخاصم عداء مستحكم مع الشيوعيين.

في النهاية غموض تفاصيل المصير القادم والتعب النابع من أعماقهم البعيدة، جعلهم يسحلون أقدامهم سحلاً على طريق اعتادوا أن يركضوا عليه دون الشعور بنصف هذا التعب.

بعد ساعات من سحل الأقدام والبغال، طالعتهم الملامح البشعة لهزيمة الناس، بدأت تظهر آثار انسحاب العوائل، عوائل الفلاحين من عشائر المزوري والبرواري والكوچر والقشورية، والقرى المسيحية القليلة التي ما زالت تبقّع الكثافة السكانية الكردية في هذه الجبال.

بدا أن الناس في بداية رحيلهم، قد جلبوا معهم كل ما ستحتاجه رحلة طويلة من مؤونة وأغطية، لقد دبغّت السنين الطويلة من الكر والفر بين البيشمركة والجيش جلودهم، وزودتهم بخبرة كافية لمعرفة ما يطلبه الرحيل الجبلي، لكنهم يشاهدون الآن الطريق معلّماً ببطانيات، شراويل رجالية، شراويل نسائية، راديوهات كبيرة، قدور، صحون، ملاعق، حفاظات بيتية لأطفال رضع، صرر خبز وجبنة الكشك الصلبة، حتى إن هناك ثمة فرشات إسفنج كانت مرمية على جوانب الطريق، لعل حاملها كان من الموسرين الذين نسوا منذ زمن بعيد نكهة النوم على الصخور، من الواضح لو استمر الحال على هذا التخويف سيصل الراحلون إلى الحدود بملابسهم الداخلية.

بدأ المزاج الحاد والتشنجات يظهران في العلاقات بين الأنصار، لعله إفراز لذلك الشعور المخيف الذي ينخر دواخلهم، لقد تعودوا على مسيرات أعقد وأشق وأطول من هذا المسير، دون حصول ما يحصل الآن من تمنّع ولا إبالية و(دردمة). وهذه الـ (دردمة) مصطلح خاص جداً شائع بين الأنصار، يحاول وصف تلك الأصوات المصاحبة للغضب والزعل والتي تُطلق بحروف متداخلة كأنها خصام مع النفس لا يفهمها حتى من ينطق بها، نوع من غضب يُنفَس عنه

بتلك الأصوات، كثر المدردمون وتشنجت ردود الأفعال، ولم يعد هنا من هو قادر على إطفاء شعلة الغضب والدردمة، كلٌّ مبتلىً بما ابتلى به الآخر.

مع طلوع الفجر لم يتبق على مدخل (گلي كافية) غير نصف ساعة من المسير العادي، بعض المجاميع توجهت دون توقف، وغيرها فضّل الاستراحة في تلك القرية الصغيرة التي تركها أهلها بأشيائها الثمينة وغير الثمينة.

ليس لدى الفلاح ما هو أثمن من حيواناته بأنواعها، وها هي مغلوبٌ على أمرها لا تدري ماذا تفعل بهذه الحرية التي حصلت عليها أخيراً بعيداً عن الربط والحجز في الزرائب والأقفاص، ما زالت تدور غير مبارحة محيط القرية، ومن المؤكد أنها ستكون صيداً دسماً لوحوش الجبل الجائعة، ومن الجنسين الحيواني والبشري.

انقشع الظلام تماماً، ما زالت أصوات القصف المدفعي تسمع في تلك المساحة المنداحة إلى الخلف، شدت آخر مجموعة كانت متكاسلة في القرية أحمالها على بغلين من المؤونة والعتاد مع بعض الأسلحة المتوسطة، غير أن مشاعر التوجس من شيء خطير ومجهول سيحدث، أخذت تفعل فعلها، لقد رأوا عبر النواظير العسكرية وعلى ضوء الفجر الطالع، أن السلسلة الجبلية الموازية لخط سيرهم باتجاه الگلي، السلسلة التي تشرف من الجهة الأخرى على (دشت[١٧] نهلة) مناطق نفوذ عشائر الزيباريين، قد أُحتلت بكاملها، شاهدوا الجنود و(الفرسان) يتخذون مواضعاً لهم، بل هم قبل هذا كانوا يشاهدون شعل من النيران المتفرقة على قمم هذه السلسلة، اعتقدوا أنها في البدء لقرويين نازحين، هذا يعني أن السيطرة النارية للجيش على مدخل (گلي كافية) الذي هم فيه الآن، باتت وشيكة.

ما أن وصلت مجموعة حاتم إلى الكتف الصخري الوعر الذي سيأخذهم نزولاً إلى مدخل الگلي، حتى واجهت موجة بشرية من النساء والأطفال والشيوخ والبيشمركة تعود صاعدة الطريق الضيق تروم العودة، وصلوا. لم يصلوا. وصلوا.

١٧- دشت: الأرض السهلية.

لم يصلوا. الرجال والنساء يرددون الكلمتين بلا إضافات شارحة. وصلوا. لم يصلوا. من هم الذين وصلوا، وإلى أين وصلوا؟

لا أحد يجيب، كلّ منشغل بنفسه، ضيق الطريق الصخري الذي أُتخذ رغماً عن الجبل طريقاً، جعل الأنصار يتنحون على جوانبه فوق الصخور ذات الأطراف الحادة، بعد أن أطلقوا البغلين بأحمالهما لينزلا الطريق دون مرافقة إلى حيث بقية المجاميع التي سبقتهم في النزول، البغال تعرف طريقها خيراً من البشر، كان الأمر شبيهاً باستراحة إجبارية لهذه المجموعة من الأنصار، ظلوا جالسين يراقبون صعود الموجات البشرية، وهي تقطر أجسادها بوجوه مرعوبة عائدة القهقرى.

اختلط اليقين مع ذعر وهلع الموجات البشرية الصاعدة على هذا الدرب، الذي يشبه حد الموسى بإطلالته المخيفة على عمق الهاوية (الگلي)، لا أحد متيقن مما يقوله، الشيء الوحيد الذي استبطن وعي هؤلاء الناس الهاربين من عدو ما زال مجهولاً؛ أن الموت متربص وقريب، بل هو قريب أقرب مما كان يعتقدون. تمكن حاتم وبعد انتظار طويل من استخلاص معلومة، تفيد أن الجيش وصل إلى المدخل الثاني لهذا الگلي قاطعاً الطريق على هذه الموجات البشرية، والناس هناك بين قتيل وأسير.

بدا الخبر لحاتم ومجموعته ينتمي للإشاعة أكثر من كونه خبراً، خصوصاً وهم لم يسمعوا أي صوت لمعركة حدثت على المدخل الثاني لهذا الگلي، والمسافة قريبة بين المدخلين، لكن ما بال الناس يعودون بكل هذا الرعب.

لم يبال الأنصار المتنحين على حافة الطريق بهذه الأخبار على خطورتها، ربما لأنهم تعودوا على مبالغات الفلاحين، أو ربما هو التعب الذي لم يكن مصدره الوحيد وعورة الطريق، والذي خدر فيهم الإحساس بالأشياء ومنها الإحساس بالخطر.

طلب حاتم من مجموعته الانتظار حيث هم، لينزل هو ويستطلع الأمر بنفسه عله يستطيع الاتصال بمجاميعهم الأخرى، سلك حافات الطريق الصخرية، لئلا

يصطدم بهذا الكدس البشري الذي كأنه يسير مغمض العيون مندفعاً إلى الأعلى بلا هدف يسائل نفسه: إلى أين يصعد هؤلاء الناس؟ وإلى أين هم عائدون؟

تململ حيدر كاميرا وأحس أن زووم كاميرا خياله أخذ بالاشتغال تلقائياً هذه المرة، صار يستعرض اللقطات:

((لقطة عامة من فوق-

نساء، أطفال، بيشمركة، شباب، شيوخ، معوقون. ينوؤون بأجسادهم وهم يجاهدون صخور الطريق والتواءاته الحادة - لقطة قريبة-الحيوانات تلهث مع البشر، سقط بغل بحمله إلى عمق هاوية الوادي، ولعله انتحر slowmotion-- الكاميرا تلاحق سقطة البغل، بطن البغل ناصعة البياض مثل نورس عملاق مغسول بماء البحر يفرش جناحيه في الهواء. - انفتاح الخُرج الذي كان مشدوداً على ظهره بفعل السقطة بدا كجناحين للبغل- يتهاوى البغل النورس بجناحيه المفتوحين إلى الهاوية. يعترض السقطة لسان صخري ناتئ من خاصرة الجبل، يتدحرج البغل على اللسان الصخري، يصل الحافة، ليواصل سقوطه الحر إلى هاوية الماء.

Zoomind عيون الرجال تبكي، صراخ امرأة شقت ملابسها عند الصدر، وأخذت تلطم على وجهها، إلى جانبها رجل يحمل طفلاً على رقبته يحاول تهدئتها، صراخ أطفال يصل من خارج الكادر، أنين مكتوم يصل من داخل الحشد البشري يتماهى تدريجياً مع نحيب عزف على الزرنة، دبكة الرجال والنساء تتواصل بقوة وعنفوان على وهج نار تلفظ دخاناً كثيفاً، يتلون الدخان بقوس قزح الألوان حتى يستقر أصفر، يبتلع الدخان الأصفر وجوه الرجال والنساء، يظل عازف الزرنة منتفخ الأوداج ينفخ. ينفخ. ينفخ.))

لملم كاميرا أدوات مشهده أو مصيره القادم، وعاد يراقب صعود القرويين المرعوبين أسفل صخرته، سمع الآن مفردة واضحة لكنها يتيمة. (فاشل بو)، كأنها كودة السر لدخول الجحيم القادم، (فاشل بو).

ما هو هذا الذي فشل؟ هل هو الطريق لم يعد سالكاً؟ هل هو تمنع نهر الزاب الهادر هناك؟ هل هي قيادة الثورة المتنحية في مثلثاتها العاصية؟ هل هو تحدي البشر الذي تطاول مع تطاول السنين؟ من الذي فشل، وإلى أين وصل الجيش بالضبط؟ تظل الأسئلة معلقة وسط غبار كثيف يثيره صعود الموجات البشرية.

ظل حيدر يعيد على صفحة مخيله المأخوذ بعوالم السينما تسجيل مشهد البغل والمرأة التي شقت زيجها، كأنه خائف عليهما من الضياع في زحمة المشاهد القادمة التي سيمتلئ بها قلمه، ظل يتابع حركة تلك المرأة الشابة المفجوعة، وهي مرة تجلس على حافة الطريق، ومرة تحاول رمي نفسها إلى الهاوية، والرجل مع الطفل الذي على رقبته يسحبها، صار الرجل الآن هو الآخر يبكي.

لمح فؤاداً قادماً ينوء بجسده السمين، شاداً على ظهره فوق الحقيبة لفافة ورق بيضاء طويلة كأنها أسطوانة مدفع هاون، هي معرضه الشخصي الأخير، هرع إليه مسرعاً:

- فؤاد شفت حاتم. شنو اللي صار؟

هو الآخر لا يعرف شيئاً أكيداً، ما يعرفه مبني على ما (يقولون):

- حاتم هناك (أشار بيده إلى الأسفل). يگولون أن الجيش احتل ضفتي نهر الزاب، ويگولون أن مئات من الناس قُتلوا هناك.!!

- لكن...

واصل فؤاد صعوده الوئيد، ظل ما أراد حيدر قوله معلقاً مثلما هي عيونه ظلت معلقة بتلك اللفافة الورقية التي تتأرجح على ظهر فؤاد.

- لكن الزاب بعيد من هنا.

ضاعت جملته في غبار الصاعدين، مشاهد الرعب مستمرة في صعود درب الجلجلة.

وصل حاتم مصحوباً برجل معوق بساق واحدة، ووجه معفر بالتراب يصعد متكئاً على عكازة خشبية.

حاتم عثر على هذا الرجل في طريق نزوله، يعرفه جيداً، كثيراً ما استضافه في بيته من تلك القرية القريبة من ناحية (زاويتة)، كانت الموجات الصاعدة تدفعه، وهو يتنحى منها كاظماً غيظه، لعله بدأ الرحلة صاعداً على ظهر بغل، وإلا كيف وصل إلى هنا من قريته البعيدة؟ هكذا خمن حاتم، نزل إليه وصار يساعده على الصعود.

ماموستا خليل هكذا يلقبه أهل قريته، لأنه في الأصل كان معلماً، يتقن اللغة العربية كما لم يتقنها غيره في هذه البقاع، بيشمركة قديم فقد ساقه في حقل ألغام أثناء هجوم على ربيئة عند نهايات الثورة الأولى جلسا على الصخرة المسطحة التي كان حاتم جالساً عليها قبل قليل:

- ماموستا خليل. شنو اللي صار...؟

التفت هذا إليه، مسح ما بدا لحاتم أنه دمعة نزلت دون إرادته، ثم عاد ينظر إلى القطع الجبلي المقابل لهما، إلى ذلك الجدار المهول في حجمه، لم يقل شيئاً.

- ماموستا خليل. لخاطر الله. شنو اللي صار؟

تكلم دون أن يلتفت:

- خر تشتك چو. چو. چو..

ظل يردد تلك الـ(چو) وكأنها بلا نهاية.

- أرجوك ماموستا. هدئ نفسك شوية. أنت وين كنت؟

يعرف حاتم أن لهذا الرجل عائلة كبيرة من أب وأم وزوجة وأولاد وبنات، أين تركهم؟

التفت ماموستا خليل مبحلقاً بوجه حاتم بنظرة بدت مكور لحزن، تحد، انكسار، خذلان، رعب، كأنه يبحث في وجه حاتم عن شيء ضائع منه:

- هاوري[١٨] حاتم. خر تشتك چو.

رد حاتم بعصبية واضحة:

- ماموستا هسه افتهمت كل شيء راح. بس وين. عائلتك وين. أنت وين كنت؟

ضحك. أو هو لم يضحك. هكذا بدا لحاتم. لعله تذكر أنه اعتاد على الدوام أن يتكلم مع حاتم بالعربية. وهو الآن يكلمه بالكردية وكأنه من قريته.

- كنت على الزاب. عبرت زوجتي مع بنتي والأولاد. ثم عبرت أمي وأبي واثنين من أعمامي وزوجاتهم. وأنا انتظرت مع ابني الكبير على الوجبة التالية.

سكت.

- إي. وبعدين.

- بعدين. أتى الجيش كانوا قوات خاصة، أنزلتهم طائرات هليكوبتر قرب النهر على الضفة الثانية، اشتعلت المنطقة بالرصاص، اللي انقتل واللي استأسر واللي قدر يهرب، لا أعرف ابني الكبير أين؟ كان قريباً مني قبل انهمار الرصاص من الضفة الأخرى.

- شفت رفاقنا؟

- شفت رفاقكم من قاطع أربيل، كانوا يساعدون العوائل على العبور ومعهم بيشمركة، يمكن انقتل كثير منهم.

أدار حاتم عيونه التي كانت تحدق بوجه ماموستا خليل إلى الجدار الصخري المهول المقابل لجلستهم، والذي تظهر فيه كل أحشاء الجبل. واصل ماموستا خليل دون أن ينظر إلى حاتم:

- تعرف قصة هاي المرأة؟

فهم حاتم أنه يقصد المرأة التي شقت ملابسها عند الصدر قبل قليل،

١٨- هاوري: مفردة كوردية باللهجة السورانية بمعنى: رفيق.

وكانت تضرب على وجهها وهي تصرخ بجنون، لم يجب حاتم اكتفى بهزة من رأسه أن: لا.

- هذه كانت حامل وولدت أمس عند الزاب طفلاً ميتاً، لم يلحقوا على دفنه، سحبوها وظل وليدها مرمياً على الأرض.

زاد حاتم من هزات رأسه الرافضة، وهو ينكس رأسه إلى الأرض، مر أسفل صخرتهما رجل خمسيني بهيئة مختلفة عن الجموع بدءاً من الطقم الذي يرتديه، والذي يشبه طقم الأغوات[١٩] الملون ذا الخطوط العريضة والطولية، ثم بعصابة الرأس العريضة وكأنها مفصلة لإثنين.

في العادة هذا الزي يرتديه بعض الفلاحين الأغنياء في مناسبات الفرح.

كان هذا الرجل يصعد ويلعن بـ(صدام وقادة المعارضة على السواء)، وبين الفينة والأخرى يوجه يديه إلى السماء مهدداً، وكأنه يتشاجر مع أحدهم هناك، وما أن ييأس من ردة فعل ذلك الكائن السماوي حتى يعود إلى شتائمه، يعود إلى ذات الأسماء التي يضعها بتسلسل يغيره في كل مرة: (صدام، مسعود، جلال، عزيز محمد).

ابتعد عنهما بعيداً في الأعلى خلف التواءات الصخور، وهو يواصل ترنيمة اللعن، كان ذلك الرجل يقطر خلفه سلسلة طويلة من الصبيان والصبايا والنساء اللواتي كن يحملن أطفالاً رضع، لعلهم جميعاً أهل بيته.

شعر الأنصار؛ أن القرويين نساءً ورجالاً صاروا ينظرون إليهم بعيون زائغة تشع غضباً أو لوماً أو مشاعر أخرى تتكور على حقيقة وحيدة؛ هي تحميلهم هم دون غيرهم مسؤولية ما يحدث.

ترددت كثيراً مفردة (نكسة) بالكردية والعربية تفسيراً لكل هذا، في ظروف سابقة كان الفلاحون يرددون تلك المفردة، إنما كانوا يشيرون بها إلى نكسة قديمة، إلى نكسة الثورة الكردية في ١٩٧٥، الآن، بين الصراخ والنحيب والأنين،

١٩- الأغوات: زعماء القبائل الكوردية.

صار الجميع يردد هذه المفردة التي تشعر المقاتلين بالعار والذنب، قد تكون أحكام هؤلاء الضحايا قاسية، لكنها لا تخلو من الصحة، لأن هؤلاء المسلحين يشكلون أمامهم السبب الملموس لكل هذا البلاء الذي وجدوا أنفسهم في خضمه. في مثل هذه الظروف لا تنفع تلك المبررات التي ساقها المقاتلون لأنفسهم، وجعلت خيارهم يدخل هذا المعترك العنيف. لا ينفع القول إنهم حاولوا أن يحققوا تلك الرغبة الحارقة التي تكوي صدور الناس هنا وهناك للخلاص من النظام ومن حروبه ومن كل الكوارث التي حلت بالبلاد. لا ينفع القول أنهم حاولوا القول بصوت مسموع أن أرضهم ليست مداجن تُنتج دجاجاً جاهزاً للذبح فقط، بل فيها بشر لهم أحاسيس ومشاعر وآراء وتصورات حول كيفية إدارة حياتهم ومواردهم. لا ينفع القول أن هؤلاء الشباب دفعوا ثمناً لكل محاولاتهم تلك دماءً وأرواحاً، وحياة تمزقت بين توتر وخوف، وقلق وجوع، وظمأ في وديان وكهوف وجبال تهجرها حتى الحيوانات في موسم البرد لقسوتها وعدم قابليتها للعيش الإنساني أصلاً، كل هذا وذاك لا ينفع الآن تبريراً لمواساة تلك الأم الثكلى بطفلها، وتشرد هذا الحشر البشري المخيف في تعداده وتلاوينه، لن ينصفهم أي من هؤلاء الضحايا، طالما أن النضال والمقاومة والكفاح في هذا البلد يشبه لعبة الحظ الروسية، مغامر مع مسدس محشو بطلقة وحيدة لا يعلم في أي ثقب من ثقوب بكرته استقرت، يضع فوهة المسدس على صدغه ويطلق النار، إن نجا سيقال عنه كم هو جريء وشجاع، وإن بعثرت الرصاصة مخه سيقال عنه كم هو غبي وأهوج هذا المغامر.!!!

(١٦)
حرب الفيقي

بدأ الحر مبكراً، والساعة لم تتجاوز السابعة صباحاً، لقد نسي الصاعدون في غمرة ذهولهم، أن يجلبوا معهم الماء من الروبار الهادر بشلالاته الكثيرة في قاع الوادي.

كانت ثمة مراحل من الطريقَ الذي جاؤوا عليه يحاذي فيها الجدول الذي يكون هادئاً متطامناً يسمح حتى للسباحة فيه، لا أحد يدري لِمَ تركوا الماء في الأسفل وتجشموا عناء هذا الصعود المهلك إلى حيث لا ماء، طالما أن الجيش ما يزال بعيداً على نهر (الزاب) وما يفصل هذا الگلي عن (الزاب) مسيرة نصف يوم، لعلها غريزة الكردي باللجوء إلى قمم الجبال عند إحساسه بالخطر، لقد نفد ماء الزمزميات والمطارات الكبيرة وعاد ينضح من الأجساد سيولاً، لا شيء يعوض الأجساد المتعرقة، لا شيء يعيد بريق الزهو الذي كانت تلمع به عيون هؤلاء القرويين.

عادة ما كان يردد هؤلاء لأنفسهم ولغيرهم؛ أنهم أكثر كورديةً من أولئك المتكرشين في مدن مستباحة (يقصدون أبناء جلدتهم من سكان المدن الذين تجحفلوا بتشكيلات الفرسان الحكومية ليقاتلوا أخوتهم أكراد الريف). (آز كوردم) (أنا كوردي) جملة يقولها الفلاح بفخر حين يواجه أحدهم بـ: لماذا لا تنزل يا فلان؟ وكان النزول يعني أن يسلّم أمره إلى رئيس عشيرته المعيّن من قبل الحكومة مستشاراً في فوج من أفواج الفرسان الكثيرة، لن يكلفه الأمر غير تسجيل اسمه واستلام راتبه آخر الشهر، ومنهم من تخلى حتى عن الراتب للمستشار مقابل إعفائه بشكل كامل من واجبات التقدم والحراسات.

آز كوردم، حتى أن سكان المدن الأكراد حين يشيرون إلى هذه المناطق الواقعة خارج سيطرة الحكومة يقولون عنها أنها مناطق الكرد، وكأنه اعتراف ضمني غير واع بلا كورديتهم هم.

إذن، هؤلاء هم الكرد الذين تحملوا أعباء استمرار الثورات المسلحة لسنين طويلة، محاصرون على طول الزمان بجبالهم وجحافل أعدائهم، هؤلاء الفقراء لكل شيء عدا ما تمنحه لهم الطبيعة وما تنتجه سواعدهم وهم يداورون ممانعات الطبيعة القاسية.

هؤلاء ومنذ خمس سنين وهم يخوضون حرباً موازية لحرب السياسيين المسلحين، أطلقوا عليها مسمى (حرب الفيقي) أي (حرب الفواكه). !!

لقد تدارك النظام القابض على شؤون البلد أخطاء كل الحكومات والأنظمة التي سبقته في حروبها ضد الكرد، بلفتة شيطانية لم يسبقه إليها أحد. !! على طول الحروب السابقة، كان الريف الكردي يزرع كل أنواع الحبوب والخضروات إلى جانب الفواكه، الأمر الذي كان يضمن للسكان اكتفاءً ذاتياً في ظروف الحصار، وفي كل تلك الحروب كان هناك حصار.

جاءت اللفتة الشيطانية بخطة محكمة وطويلة النفس، ولأنها طويلة النفس لم تكن محسوسة، عملوا على إلغاء الألوان في الاقتصاد الفلاحي وجعله مقتصراً على لونٍ وحيد، هو (الفواكه).

لسنين طويلة شجعوا الفلاحين الكرد على زراعة الفواكه، على الأخص تلك السنين التي كانت الغلبة فيها لجيش الحكومة، السنين الفاصلة بين ثورة فاشلة وأخرى جديدة، ظلت الحكومة تشتري من الفلاحين فواكههم بأسعار عالية، كذلك وجد الفلاح أن هذا النوع من الزراعة مع يسر إدارته وسرعة منتوجه وغلاء أسعاره في السوق الداخلي هو أفضل بكثير من زراعة الحبوب المرتبطة بتقلبات الطقس، وهي على العموم لا تدر عليه ربحاً عدا سد رمقه من موسم إلى آخر.

في سنوات قليلة تحولت أراض شاسعة من زراعة الحبوب والمحاصيل

المحلية الأخرى إلى بساتين للفواكه، زراعة تعتمد على ميزة القرب والبعد من مصادر المياه، الأمر الذي سهلّته كثيراً المضخات الكبيرة والصغيرة، إضافة إلى تقنية الري الكردية الجبلية القديمة التي تلوي عنق سواقي الري وتجعلها تصل إلى أبعد نقطة عن نبع الماء، شبكات ري منها المعلق الذي يعبر الوديان والقطوع باستخدام جذوع الأشجار المفرغة ومنها الأرضي.

سنين والفلاح الكردي يبيع فاكهته بأسعار عالية ويشتري الحبوب التي كان في السابق يزرعها بأسعار متدنية جداً، لأنها مدعومة من الدولة، هنا يكون النظام قد انتصر في حربه، لأن السوق بيده وهو من يستورد المضخات وقطع غيارها، وسيكون أمر غلق المنطقة وفتحها أمراً ذا جدوى عسكرية هائلة، وهو ما حصل منذ خمس سنين.

ظلت البساتين تنتج سنوياً أطناناً من الفواكه ذات الجودة العالية وغالية الثمن في السوق، لكنها تتعفن على أشجارها، إذ لا سوق أمامها، الحصار محكم، لقد تجمدت حياة الفلاحين، وعانت المنطقة من عوز محسوس، صار الفلاح مضطراً لحرق مدخراته في شراء الحبوب عبر عمليات التهريب من المدينة إلى الريف، التهريب الذي رفع سعر كيس الطحين من ٣ دنانير في المدينة إلى ١٥٠ ديناراً في الريف، على مدى خمس سنين، والفلاح يستهلك الحبوب التي تأتيه من المدينة، وهو يتطلع بحسرة وعيون حزينة إلى فاكهته وهي تتعفن على الأشجار، الأمر الذي حقق لجماعات التهريب أرباحا أسطورية، كيف لا والفلاح المهددة عائلته بالجوع يضطر لبيع صندوق التفاح الجيد بدرهم، بينما الكيلو الواحد يباع هناك بدينار أو أكثر.

لقد تعاملوا مع الريف الكردي كـ (منطقة عدوة)، والعرف العسكري يبيح لهم تخريب اقتصاد العدو.

بعد ساعات من الصعود اللاهث، استقرت أخيراً الموجات البشرية في شق جبلي أجرد حتى من الأحراش، شق يصعد في جسد جبل (گارا) بعيداً، لعل الناظر من علو وهذا الأمر يتحقق فقط لمن هم في الطائرات العمودية التي

باتت تحوم فوق الرؤوس، سيرى أن هذا السيل البشري إن كانت نهايته في هذا الشق الضيق فإن بدايته في تلك الأحراش المتناثرة في القطوع الصخرية المطلة على نهر الزاب.

سيل لبشر ما زالوا أحياء ويتنفسون لكنهم موضوعون تحت بند (مشاريع قتل) ما أن تصدر الأوامر بذلك، لعل المشهد يتسبب بالذهول حتى للطيارين وللرماة فيما لو صدرت لهم الأوامر بالقنص.

عند الظهيرة، ومع اشتداد غليان الأرض والسماء معاً، انقطع القصف المدفعي البعيد على المقرات الفارغة، كما كف الطيران وبنوعيه الهوكرهنتر والعمودي عن التحويم فوق الرؤوس، أخذ الجبل يفور بصخوره وقطوعه وحتى بظلال أشجاره القليلة، كأن شمس أواخر (آب) بدأت تشرق من هذه الصخور الملساء المحيطة بهم. الهدوء حين يعقب جيشان الأصوات من الأرض والسماء، سيمنح هذه الكائنات فسحة من الاسترخاء والتفكير، لا توتر وانشداد أعصاب، رغم أن ملامح انتظار المجهول ستظل تعلِّم الوجوه وتتحكم بالأفعال وردودها.

ران السكون ومعه العطش سكاكين تنهش حناجر هذه الكائنات، لا أحد يجرؤ على الحركة، وهو لا يعلم متى سيعود الطيران، اختفت حتى تلك الجرأة التي تأتي الفلاح في أحلك مواطن الخطر، جرأة المخاتلة للوصول إلى ما يريد رغم كل شيء، هو لا يريد الآن سوى الماء.

ومن داخل هذا السكون العجيب لهذه الألوف البشرية، خرج صوت إطلاقة، إطلاقة واحدة يتيمة، لكنها رغم يتمها كانت كافية لبث الفوضى والرعب من جديد، كلٌّ انتفض كالملدوغ تاركاً مكانه ليصعد، وهو لا يعلم بعد إلى أين يصعد؟ وماذا سيفعل بعد الصعود؟

يكفي الواحد أن يصعد مترين أو ثلاثة فوق المكان الذي كان جالساً فيه، ليعتقد أنه أصبح بمأمن، مع أنه في بعض الأحيان قد يكون مكانه السابق الأكثر أماناً. !! دوت إطلاقة أخرى، لقد أصبح الحدث أكثر جدية وهذا السفح اللعين بخيل بأشجاره، لا شيء سوى قطوع لصخور شديدة الانحدار.

دقائق تمر، تتمهل، كقذائف مراوغة، وكلّ ضاغط إما على زناده أو على قلبه، أو على الاثنين معاً، دقائق طويلة من الصمت الملغوم مرت قبل أن ينجلي الموقف. وصل أحدهم من الأسفل يلوّح بيديه: أن لا شيء!

لكن ماذا حدث؟ من أطلق النار في هذا الجو المشحون بالانتظار، وهلع الألوف من الأطفال والنساء؟

لا شيء، لا شيء، فقط أن أحدهم حاول أن يقتل ابنته وزوجته، ولما فشل حاول قتل نفسه، وهو لم يفلح في هذا أيضاً، لحق به من كان بقربه في اللحظات الأخيرة، ولعل التردد أطاش رصاصاته.

إنه الرعب من المجهول نخر أرواح القرويين، لقد انتشرت بين الجموع إشاعة لا أحد يدري مصدرها، مع أن الفلاح ذاته يكون في أحيان كثيرة مصدراً لمثل هذه الإشاعات، تقول:

إن الجنود سيقومون بعزل النساء عن الرجال، ثم يقومون باغتصاب النساء أمام أنظار ذويهن. !!

لعل هذا المسكين أراد إعفاء نفسه من تلك المشاهد القادمة، كما صورتها الإشاعة.

تعدت الظهيرة بهدوئها الخالي من القصف المدفعي والطيران، وارتكن الجميع إلى حبل الانتظار حتى المساء، غير أن صوت تلك المرأة المكلومة بوليدها ما زال يُقطّع أوتار الصمت والقلب معاً، هي ذاتها التي كانت تحاول الانتحار برمي نفسها إلى الهاوية، هي لم تكن تبكي، البكاء ليس هو الوصف المناسب لتلك الأصوات التي تطلقها، والخارجة من عمق بعيد في داخلها لأقل أنها كانت تعوي عواء حيوان جريح تُرك لمصيره في العراء، عاجزاً عن الحركة وعن الموت معاً.

رغم ابتعاد خطر الطيران، إلا أن أحداً لم يحاول العودة نزولاً إلى حيث (الروبار) الهادر بمائه المثلج، اقتربت من إحدى تجمعات الأنصار المبعثرة على حواف الوادي امرأة عجوز بخارطة الأخاديد والوهاد التي تعلّم وجهها، كانت تتوكأ على

عكاز مما يسمونه بـ (الگوبال)، لكنه (گوبال) نسائي، وليس ذاك الذي يتبختر به قادة المفارز والأغوات والمخاتير ورؤساء الأوجاغات[٢٠].

خشبة ملتوية من فوق تحقق لها التوازن، هذا كل شيء، طلبت بملامح التوسل من هؤلاء الشباب أن يعطوها ماءً، وهؤلاء لم يكونوا حتى من الذين وصلوا إلى الروبار، لقد أعادتهم الموجات البشرية صعوداً قبل أن يصلوا إلى عمق الوادي، قد نفذ ماء زمزمياتهم منذ الصباح وهم منذ ذلك الوقت يمزمزون بسكاكين العطش وهي تحزز حناجرهم، لم يقولوا لها شيئاً، لكنهم التفتوا برؤوسهم جميعاً إلى أحدهم وكان متكئاً على صخرة فوق كأنهم يقولون له:

أعطها مما عندك ولا تبخل، يعرفون أن (عواد) لا تخلو زمزميته من الماء مهما حصل، لكنه الماء المخلوط بالملح، انفرد هذا النصير بحرصه الشديد على تطبيق الوصايا المبثوثة في كتيبات حرب العصابات بحرفيتها: على المقاتل أن يخلط الملح مع ماء مطارته، عندها سيحصل على فائدتين: الأولى لا يستطيع أن يشرب كثيراً من الماء مهما كان عطشه، والثانية سيعوض الملح الذي يفرزه جسمه في المسيرات الطويلة، رد (عواد) على الرؤوس المتوجهة إليه بـ (ما يفدها)، رفعت العجوز نظرها إليه وكأنها فهمت الذي قاله بالعربي، لم تقل له شيئاً غير أن نظرتها كانت حزينة ومنكسرة، ثم عادت من حيث أتت، لم يتحمل هذا النصير نظرتها، إذ لحقها:

- دايكه. دايكه من.

أراد أن يقول لها أن الماء الذي معه مالح، لكنها لم تلتفت إليه، ولما اقترب منها دفعته في صدره، وواصلت مشيها المتعكز على تلك الخشبة البائسة، عاد هذا إلى مكانه يدردم مع نفسه ويشتم برفاقه.

- الله يلعنكم. كله منكم.

علق أحدهم، وكان أصغرهم:

- وأنت يعني إلاّ تخلي ملح بالماي؟

٢٠- الأوجاغ: كل قبيلة كوردية تتكون من عدد من الأوجاغات أو البيوت.

رد عليه بغضب:

- حتى لا أصير مثلكم.

تحقق عند المساء اتصال مع بعض كوادر (البارتي) العائدين مع عوائلهم، تبين أن هؤلاء كذلك ليس لديهم معلومات مؤكدة حول الطريق ولا تصور حول الوجهة اللاحقة، كذلك هم منقطعون عن قيادتهم منذ أيام، وباستثناء الأمر الذي وصلهم بتخيير سكان المنطقة بين الرحيل إلى خارج الحدود أو تسليم أنفسهم عبر مستشاري الأفواج الخفيفة (الفرسان)، لم يصلهم من القيادة شيء، وبمناسبة هؤلاء المستشارين، أسرَّ أحد الكوادر في حديث جانبي مع سهراب؛ بأن لديه إمكانية إيجاد صلة برؤساء (الفرسان)، لبحث إمكانية نزول العوائل.

سهراب الشكاك بطبعه والحذر، لم يأخذ هذا الأمر على محمل الجد، لكنه رغم هذا أخبر أبو منيب بهذه الإمكانية وسأله عن رأيه، وهذا بدل أن يجيبه سأله:

- وأنت شتگول.؟

سهراب ما زال غير متيقن من الخبر أساساً، كذلك هو لا يثق بالفرسان وتقولاتهم. لذا أجاب:

- ننتظر. ونشوف بعدين.

(١٧)
محنة سجَّان وسجناء

مع انكسار حدة لهب آب عصراً، تحركت قافلة الحياة الباحثة عن الماء لا إلى الأسفل حيث الماء في عمق الوادي، بل إلى الأعلى حيث لا ماء، لا أحد يعرف على وجه اليقين مصدر الأمر بالحركة واتجاهها.

واصلت الألوف البشرية صعودها وهي تتوغل بعيداً مع توغل هذا الشق الصخري في جسد الجبل، قيل أن ثمة عين ماء في مكان ما من الأعالي، يعرف طريقها الصيادون، قافلة من البشر ابتدأت ولا أحد يعرف متى ستنتهي، إذ وعورة الطريق لا تسمح بالسير إلا رتلاً منفرداً، حتى بدت للأنصار الذين صدرت لهم الأوامر بالبقاء في آخر القافلة؛ كأنها بلا نهاية.

داوموا على انتظارهم ساعات قبل أن يضمحل الخيط البشري الملظوم من أحراش الزاب التي هرب منها هؤلاء الناس على بعد نصف نهار مشي حتى تلك العين التي قيل أنها موجودة في القطوع المرتفعة من سفح (گارا)، بدوا وهم يتبعون الخيط البشري وكأنهم عقدة المنتهى.

تجمعت المعلومات التي بحوزة المحاصرين ولا أحد يعرف مصدرها، لترسم الصورة بوضوح أكبر، لقد سيطر الجيش بمعية أفواج (الفرسان) الكرد على كامل المنطقة التي كانت تدعى بـ (المحررة)، على الأقل فيما يخص منطقة (بهدينان) التي تبدأ من أقاصي (زاخو) عند الحدود التركية إلى تخوم ريف (أربيل) عند الحدود الإيرانية، لم يبق مكان غير محتل سوى هذه السلسلة الجبلية الشديدة الوعورة (گارا)، إذ اكتفوا بمحاصرتها من كل الاتجاهات، بما فيها الوجه الآخر للسلسلة وجه (بري گارا).

لا يبلغ طول السلسلة أكثر من ١٠ كم، تبدأ من گلي (كافيّة) حيث هم الآن وتنتهي في گلي (طاجيكه)، المعبر الذي أراده الأنصار لتمرير عوائلهم قبل يومين، إذ تتحول فيما بعد إلى تلال وسفوح ليست بذات الوعورة والارتفاع، تتفرع منها ثمة سلاسل منها يحتضن مدينة دهوك، والآخر يوغل في امتداده شمالاً وغرباً مشكلاً مناطق (الدوسكي)، و(البرواري الأعلى) متواشجاً مع تفرعات سلسلة جبل (متين)، وصولاً إلى تضاريس(زاخو) الحدودية الوعرة.

تتوفر هذه السلسلة على أعصى القمم الجبلية وأعلاها، لا يمكن اختراقها إلا من طرق معدودة، وهي كلها طرق مشاة نحتتها حوافر بغال التهريب سعياً وراء ديدن الإنسان الأزلي، سد الرمق والتواصل مع الآخر الكائن خلف هذا العلو الشاهق، وهي من السلاسل الجبلية التي يصعب الإنزال الجوي عليها، لعدم توافر مساحات مسطَحة تناسب هبوط الطائرات، إلا في أماكن محدودة ومقطوعة وغير مريحة على أية حال للهبوط، كتل صخورها وعرة وقاسية على المشاة وتتلون في أماكن عديدة بألوان المعادن التي تحتويها في أعماقها، للسيطرة عليها، لا بد من التقدم من أسفل إلى أعلى بواسطة المشاة، معتمدين على غطاء مدفعي وجوي كثيف، إضافة إلى استخدام أعداد كبيرة جداً من الجنود، مع ذلك ستكون خسائر المهاجمين مخيفة، فيما لو كانت هناك مقاومة فاعلة.

إلى ذلك تضم السلسلة في طياتها عدداً كبيراً من الكهوف والمغارات المتشكلة على مزاج الطبيعة الغفل، كهوف قادرة على تأمين الحماية من كل أنواع القصف لآلاف البشر، غير أن ثمة ثغرة قاتلة تتوافر عليها السلسلة في الحالة الراهنة، كون الجهة التي حوصرت فيها هذه الألوف من القرويين مع المسلحين من البيشمركة والأنصار تفتقر إلى عدد كاف من عيون الماء، كل عيون الماء وهي قليلة على أية حال تقع أسفل السلسلة، وباتت تحت سيطرة الجيش، باستثناء اثنتان واقعتان في تلافيف قمم السلسلة، لكنهما شحيحتان، قد تلبيان حاجة الصيادين في مواسم الصيد ليس إلا.

على عكس الوجه الآخر من السلسلة، وجه (بري گارا) الغني بعيونه العجيبة في برودتها صيفاً ودفئها شتاءً، العيون التي شكلت ينبوع حياة أكثر من عشرة قرى كبيرة ومتوسطة، تبدأ من محاذاة مصيف (سه رسنك) السياحي حيث القلعة العسكرية التاريخية وإلى جانبها (قصر الرئيس) وصولاً إلى تخوم نهر الزاب المتوغل شرقاً لينحرف لاحقاً إلى الجنوب إلى حيث نهر دجلة، إذ يشكل (الزاب) في تلك التضاريس الوعرة حاجزاً حدودياً طبيعياً بين العشيرتين الكبيرتين والمتخاصمتين منذ أمد بعيد؛ عشيرة الزيباريين وعشيرة البارزانيين.

لم تنفع في أفول ذلك العداء حتى تلك الزيجات التي حصلت في فترات الهدنة جاعلة من بعض أغوات الزيباريين أخوالاً لقادة (البارتي).

كل هذه المعلومات وغيرها هي في أذهان العسكريين من قادة الجيش المهاجم، الأمر الذي قد يكون هو السبب الذي دعاهم للتريث إلى حين، والاكتفاء بهذا الحصار الدائري، أما المحاصرون فكانت أذهانهم خالية تماما من هذه المعلومات والتي هي في معظمها لصالحهم.

ما كانوا ينتظرونه بين لحظة وأخرى هو بدء الهجوم وحصول الإبادة الكيمياوية المنتظرة ولا شيء غير ذلك، انتظار يشوبه الاستغراب من هذا التلكؤ الواضح من جانب المهاجم.

لماذا هم متقاعسون لا يتقدمون؟ كل شيء مهيأ لمذبحة تاريخية، كل شيء مهيأ لأن يصبح نموذجاً صارخاً لكل من يفكر مستقبلاً بالمقاومة والعصيان، أذهان المحاصرين متخمة بوقائع من نوعٍ آخر لا يتماشى مع هذا التمهل والتقاعس الواضح على الجيش المهاجم.

إنها وقائع السياسة الفعلية للنظام وجيشه في التعامل مع الخارجين عن طوعه، ويكفي هذه الألوف من القرويين إن لم يكونوا جميعاً رافعين السلاح ومقاومين، يكفي كونهم كل هذه السنين خارج سيطرة الحكومة وجيشها الذي كان منشغلا في الحرب الخارجية.

هذا الأمر كان محور جدل دار بين ثلاثة من الأنصار، كانوا جالسين في ظل لسان صخري متوجه برأسه إلى السماء على هيئة صاروخ، بالقرب من تلك العين الشحيحة التي لم ترو ظمأ الجميع والتي وصلوها أخيراً، يتداولون الموقف بحدوده المفتوحة على كل الاحتمالات، قبل أن يخرج عليهم صوت شيخ سبعيني ذي وجهٍ لم تنل من نظارته تجاعيد السنين ولا تجاعيد جباله، رغم أنه محاط ببياض السنين بلحية لم تعد مشذبة.

كان يتسمع لجدل الفتية الثلاثة المختلط بحماس واندفاع الشباب، وهو منشغل بتدبر أمر لفافة تبغه جالساً القرفصاء قريباً منهم، وجد نفسه مضطراً للمشاركة لما سمعه من اقتراحات وأفكار عجيبة تنتمي لعالم الخيال أكثر من انتمائها لواقع الحال، قال بتأنٍ وبلغِة عربية مطعمة بلكنته الكردية وكأنه يحادث لفافة التبغ التي بين أصابعه:

- أولادي. !! الكردي يگدر يقاوم الجندي، ويگدر يقاوم الجحش، ويگدر يقاوم حتى الطيارة.

سكت وهو يضع لفافته التي انتهى منها في فمه وأشعلها بزناده النفطي، سحب نفساً أخرج دخانه من منخريه فقط، عاد بها بين أصبعيه المتعرقين، وظل يبصق بقايا تبغ علقت على شفاهه، ثم واصل:

- بس الكردي ما يگدر يقاوم الهوا اللي يتنفسه، لا تنسون هذا !!!

رد الفعل الأول للثلاثة كان البحلقة بعيون الدهشة بوجوه بعضهم، وكأن الشيخ ذكّرهم بشيء قد تناسوه تماماً في خضم حساباتهم العسكرية، لقد نسوا مثال (حلبجة) المدينة التي نظفتها الغازات السامة من ساكنيها بدقائق معدودة، وهو قد حدث قبل أشهر قليلة، ونسوا واقعة العمى الجماعي لأكثر من مائة نصير من أنصار مركزهم القيادي في (گلي زيوه).

العملية التي أُريد لها أن تنتهي بأسر أولئك العميان وسوقهم إلى مطاحن مديريات الأمن العام والخاص، لولا صدفة وجود مفرزة من بيشمركة (البارتي)

كانت على وشك النزول من القمة إلى حيث قاعدتهم القريبة من قاعدة الأنصار في باطن الگلي، إذ تصدى أولئك البيشمركة للطائرات المغيرة بأسلحتهم الخفيفة، مجبرين واضعي الخطة على الاكتفاء بحدها الأول.

مثلما نسوا ما حدث قبل أيام، لقد رُشت ١٠ قرى منتقاة بغاز الأعصاب على امتداد خارطة الريف الكردي من أقصى حدود (السليمانية) إلى تخوم (زاخو)، وكانت رسالة واضحة الحروف، نحن قادمون للإبادة. !! خرج الشاعر رعد من صمته وكأنه يريد أن يطمّئن الشيخ الذي قال ما قاله، وارتكن إلى صخرته مع لفافة تبغه:

- مام كل الحق معك، قذيفة كيمياوية وحدة تكفي لقتل كل هؤلاء من الخوف وليس بالغاز وحده. !!

سمع الثلاثة أصواتاً قادمة من الأسفل، حيث بقية مجاميعهم، كانت أصوات استقبال مجموعة قادمة.

هرع حمدان وفؤاد إلى هناك، وظل رعد على جلسته الصامتة يتأمل الطريقة التي كان يدخن بها الشيخ لفافته، وفي ذهنه مطلع قصيدة عن شيخ لا يدخّن سيكارة بل يدخّن روحه، ظلت اللفافة تحرق بروحها في فم الشيخ حتى وصلت جمرتها إلى قرب بياض شاربه الكث، هناك لفظت الجمرة نفسها الأخير بحزم دخان خرج من كل تجاويف وجهه.

فكر أن ينبّه الشيخ؛ إذ وجده ساهياً عما يحدث قرب شاربه، لكنه عدل عن ذلك وهو يسمع أن وافي قد وصل أخيراً.

وصل وافي مع مجموعته التي كانت مكلفة بمرافقة السجناء المطلقين، أشاع وصول المجموعة شيئاً من الفرح في نفوس رفاقهم الذين حسبوهم في عداد المفقودين، بعد سماعهم لأصوات تلك المعركة الليلية التي حدثت عند مقرهم، تبين أنهم كانوا فيها، إذ ما أن أبلغ وافي السجناء بقرار إطلاقهم في تلك الفوضى التي رافقت القصف والانسحاب، حتى واجه وضعاً مفاجئاً، إذ بدل أن يستبشر السجناء بالخبر، واجهوه بعبوس وقنوط اليائسين، لقد

تناوبتهم فرضيات متعاكسة، منها إن قرار إعدامهم قد صدر، وهؤلاء الأنصار جاؤوا الآن للتنفيذ.

سيأخذونهم إلى وادٍ جانبي ليطلقوا عليهم الرصاص وينتهي كل شيء...!

ومع هذا الاحتمال الممكن جداً وفق حساباتهم، بدا الاحتمال الآخر كذلك ممكن تصديقه؛ أن الأنصار أطلقوا سراحهم حقاً، لكن، ماذا بعد ذلك، أليس ما سيأتي سيكون أكثر مأساوية من الإعدام. من هذا الذي سيصدقهم هناك. ولماذا لا يصدقون الأمر الآخر الأقرب للمنطق؛ أن الشيوعيين أعادوا لنا بضاعتنا بعد إعادة تدويرها. !؟

الفرضية الأخيرة أدخلتهم في جب العذاب الذي يعرفون مداخله في تلك الجحور المتعفنة تحت الأرض في بيوتات ومقرات الأمن، فجأة تنقطع رتابة أيامهم التي اعتادوها في سجن الأنصار، ثلاث مرات خروج من الغرفة لجلب الطعام، يداورونها فيما بينهم، مرتان للخلاء لقضاء الحاجة، مرة واحدة وهي الأطول زمناً للتحطيب، وجمعه من على سفوح (گارا)، ثم يقضون بقية وقتهم في الغرفة الكبيرة على فرشات الإسفنج بين القراءة وألعاب الشطرنج والدومينو.

هم الآن في محنة طرفاها الموت، موت سريع في وادٍ قريب هنا، أو موت بطيء في جحر مجهول هناك.!!

لذا، وبعد صمت غير منسجم مع الصخب الذي تتسبب به قذائف المدفعية وهي تهطل على أطراف المقر، طلبوا بلسان السجين هادي؛ أن يرافقوا الأنصار باعتبارهم كذلك أنصاراً وعلى الحزب إعادة سلاحهم إليهم، ثم أردف وهو يرى صمت وافي هذه المرة الذي بدا هو الآخر وكأنه في حيرة من أمره:

- رفيق وافي. هنا وهناك سنُقتل، اقتلونا أنتم بدل الأمن.

خرج وافي من صمته وكأنه يقدم نصيحة ثمينة لهؤلاء الشباب:

- هادي.. آني شايف العكس، راح يستقبلونكم بالأحضان، أنتم كنتم فدائيين، وين راح يلگون مثلكم...؟

قالها بترو وبفواصل بين الكلمات، وكأنه حريص على عدم ضياع مفرداته في صخب القصف المدفعي الذي يهز جدران الوادي بين الحين والآخر، هادي يئس من إمكانية إقناع وافي، أردف:

- رفيق وافي أرجوك، خليني أشوف آمر الفوج، نحن لم نؤذ أحداً منكم، كان بإمكاننا، لكننا لم نفعلها، كنا نحسب أنفسنا منكم، أرجوك دعني أقابل أبو منيب.

رد وافي بنفاذ صبر هذه المرة:

- ما عدنا وقت نضيعه، لموا أغراضكم حتى نوصلكم.

ارتكس هادي بحركة سريعة إلى الخلف إلى حيث فرشة الإسفنج، جلس على ركبتيه ووضع يديه خلف رأسه عارضاً صدره للرصاص وصرخ:

- اقتلني هنا، ما راح أتحرك خطوة وحدة. !!

تبعه السجناء الآخرون فهد وصارم وسمير، جلسوا على أسرتهم بجلسة نصفية على الركب، عارضين صدورهم كالمحكومين بالإعدام في ساحة الرمي.

ما زال وافي في دائرة الحيرة، ولم يفهم بعد لماذا اختاره حاتم دون غيره لهذه المهمة.

أعادته الحركة التي أبداها هادي ومشهد عرض الصدور للرصاص سنيناً إلى الوراء، إلى تلك الأيام العصيبة التي قضاها هو سجيناً شيوعياً في سجن شيوعي، ليواجه لأول مرة امتحاناً بذاك الارتباك والغفلة، قضى عمره مشروع سجين في مدبغة من مدابغ الأمن، أو مشروع مغدور تدهسه سيارة مجهولة بلا رقم، وتتركه جثة مضرجة على رصيف شارع عام، أو مشروع قتيل بعنوان شهيد ملفوف بالعلم في مطحنة من مطاحن الحرب الدائرة على الحدود، لكن لم يدر بخلده لحظة واحدة أنه سيكون يوماً سجيناً في سجن شيوعي ورفاقه هم السجانون، مثلما لم يدر بخلده أنه سيكون في يوم من الأيام سجاناً.

- وافي. !! صدقني أنا أريد مساعدتك، لكن فقط لو أخبرتني بتفاصيل

المهمة التي أرسلوك بها، سلامة الحزب والرفاق هي الحد الفاصل أمامي في المرونة.

هذا ما قاله المحقق أبو سلام بهدوء مصطنع في سجن قاعدة (هيركي) في بدايات تأسيس القواعد الأنصارية، ليدفع وافي إلى تخوم اليأس من إصراره على الصمود وليبح لهم بالمهمة التي أُوكلت إليه. كذلك فعل وافي ما فعله الآن هؤلاء الشباب، جلس على ركبتيه عارضاً صدره للرصاص، صارخاً:

- اقتلني إن كنت متأكد من عمالتي. سلامة الحزب والرفاق تهمني كذلك. أعدمني الآن. !!

ليضع أبو سلام بذات الحيرة التي هو فيها الآن؛ يداور مع نفسه كل الاحتمالات بما فيها احتمال أن يكون هؤلاء الشِباب قد ظُلِموا من قبل المحققين.

لكن أبو سلام لم ييأس تماماً، عاد من جديد إلى محاولاته، عله يحصل على شيء جديد:

- أنت من كل عقلك، قادر على خداعي؛ بكونك شيوعي؟

- أنا شيوعي، ولا أحتاج إلى خدعك.

- كيف تثبت؟

- وكيف تثبت أنت شيوعيتك؟

- أنا شيوعي رغماً عنك وعمن أرسلك، وإلا كيف يختارني الحزب محققاً مع واحد مثلك؟

- أما اختيارك للتحقيق فهذا شأن الحزب، والحزب ليس دائماً على صواب في اختياراته، أما كوني شيوعي أم لا، هذا أمر يخصني، أنا شيوعي رغماً عنك.

انفلت أبو سلام من هدوئه المصطنع الذي أراده ممراً لدواخل وافي رافعاً يده يريد ضربه، لكنه عدل في اللحظة الأخيرة، مكتفياً بالتهديد:

- عدت من جديد للتحدي وطول اللسان، واضح أكلة البارحة لم تفدك بشيء.

مرر وافي يده أسفل عينه، ما زالت هناك دماء متخثرة، أحس بسكاكين الألم تخرج من عينيه، كانت ردة فعله البارحة غريبة، التبست عليه، لم يعد قادراً على التمييز، هل هو فخور بأولئك الأنصار الذين يتناوبون على تعذيبه، أم هو يكرههم، حيناً يشعر بحب جارف لذلك الشاب الذي لطمه على عينه، وكانت عيونه تقدح شرراً، كان غاضباً بصدق ذلك النصير الشاب، لم يفتعل غضبه، كذلك هو لم يشتم، فقط قال:

من زمان وأنا أتمنى أن أظفر بواحد بعثي، وهو حظك جابك علي، بعثي واستخبارات. !! يا الله، بعد شأريد أكثر، لك تعرف هذا الصدر شكو بيه. قهر. قهر. خليني أفرغه بيك.

وفرغ قهره، حقده، غضبه، بضربة واحدة، لم يأت بغيرها، ضربة كانت كافية لقذف (وافي) بين صخرتين في تلك العزلة التي أرادوها وكراً لتعذيب السجناء العنيدين، اختفى من أمامه الجبل بصخوره والغابة بأشجارها، وجوههم، أسئلتهم المكررة، حيرته في الحب واللاحب، الشيء الوحيد الذي رافقه في عالمه الآخر، هو السؤال الذي بدا شاذاً: هل أقدر يوماً على كسب ثقة هذا الشيوعي الغاضب. !!؟

وجد أن غضب ذلك النصير كان بمثابة التعويض الذي افتقده في الشيوعيين.

طالما ردد مع نفسه: هل يملك الشيوعيون قسوة مماثلة لتلك التي يمارسها الآخرون بحقهم؟ يبدون على الدوام مسالمين، ناعمين، مشغولين بعالم الفكر وتبعاته، تاركين العالم الفعلي وراء ظهورهم، العالم بقسوته، بالتواءاته، بقذارته، بغموضه، كل شيء في عالمهم الفكري واضح، مبرر، منطقي، لذا هم غير قادرين على ممارسة القسوة، التعذيب، الثأر.

هذا ما كان يعتقده، ليأتي ذلك النصير الغاضب وينسف هذه القناعة في داخله.

الشيوعيون قادرون على الثأر، عليهم أن يثأروا لعقود من الدم، القتل، التضييع، العذاب الذي طالهم. حتى غدوا في ذهن المواطن مشاريع للذبح، ما الشيوعي إلا مشروعاً لضحية ينتهون منها يوماً ما.

لقد نسف ذلك النصير الصورة التي كانت مستقرة بشكل نهائي في ذهن وافي، لذا هو أحبه.

قبل التحاقه كان متلهفاً ليرى كيف يقاتلون، وهل ما سمعه عن قتالهم وشراستهم هو حقيقة أم تخيلات، وتوهمات الناس المبتلين بقسوة وشراسة أجهزة الاستخبارات.

غريبة تلك المشاعر التي تداولته وهو مبتلىً بإغماءته، وبالدماء التي أعمت بصره، كان عاجزاً حتى عن البصق، لم يقدر على بصق الدماء التي تجمعت في فمه وأنفه، تكاد تخنقه ملوحتها، وهو ينشقها إلى الداخل.

قطع أبو سلام تداعياته:

- وهسه. تحتاج أكلة ثانية. لو تصير عاقل وتعترف.

- ما أحتاجه هو أن يسمعني الرفيق توما توماس.

لقد سمع قبل التحاقه بمآثر هذا القائد الشيوعي القديم، وفي المحطات التي مر بها قبل وصوله، رأى بشارة وجوه الفلاحين والتماع عيونهم وهم يتفاخرون أن توما كان جالساً هنا. وتوما قال كذا وتوما فعل كذا. كان يشعر بالزهو وبفرح داخلي غامر متسمعاً لرواياتهم عن شراسة وحكمة وجرأة هذا القائد الذي نصفه فلاحي ونصفه الآخر مديني، وأمام صمت المحقق وحيرته البادية في أسئلته، واصل وافي:

- أنت لم تفهمني.

- زين. فهّمني!

- ألا يوجد عندك حدس؟

- حدس. !؟

- نعم حدس، أنا أستطيع أن أعرف الشيوعي من التفاتة بسيطة، من طريقته في الحديث، من لغة الحديث، من ردة فعله، وأحياناً من تحيته.

هكذا كنا نعيد ما تقطع من صلات وعلاقات ونؤسس لمشاريع منظمات من أفراد لم يسبق أن التقى أحدهم بالآخر، بلا تراحيل وتزكيات، وبذات الحدس كنا نتجنب الفخاخ التي تلاحقنا وننجو منها، هذا هو الحدس الذي قصدته.

أراد أبو سلام أن يضحك، لكنه عدل وعاد إلى صنمية المحقق الجاد:

- تعرف آني حبيتك، لهذا أرجوك أن تساعدني حتى أستطيع مساعدتك. فقط لو قلت لي: ما هي علاقتك بالاثنين اللذين جاءا معك؟ ومن الذي أرسلكم؟

كان حظ وافي العاثر أنه وبعد توديعه صديقه أنور، وخروجه من (أربيل) بمعية أحد شيوعيي المدينة الذي كان مرة يصعده في شاحنة صغيرة ومرة ينزله ليلتفوا حول السيطرات الحكومية، ويعودوا مرة أخرى إلى ذات الشاحنة التي تكون بانتظارهم، حتى وصلوا القرية المختارة التي تتردد عليها مفارز الأنصار، هناك سلّم الشيوعي الأربيلي أمانته إلى صاحب البيت، وكان عنده في البيت اثنان من العرب ادعيا أنهما كذلك شيوعيان ويريدان الالتحاق.

كان صاحب هذا البيت ووفق مصطلحات الأنصار (محطة محروقة)، بمعنى أن الأنصار عرفوا بازدواجية ولائه، وسبق لهم أن حذروا باقي محطاتهم من التعامل معه، غير أن هذا التحذير ربما لم يصل منظمة أربيل بعد، أو أنه وصلهم لكنهم قرروا الإبقاء عليه لأسباب تخص عملهم.

من هنا بدأت مأساة وافي، خصوصاً والاثنان الآخران اعترفا بمهمتهما من الوهلة الأولى وحتى دون تحقيق، لكن ولأن الثلاثة جاؤوا معاً، استمر الضغط عليهما لمعرفة علاقتهما بوافي، وللتخلص من التعذيب الذي مورس عليهما،

اعترفا أنه هو الآخر مرسل، وهم الثلاثة فريق عمل واحد، ولما تتبع المحققون الخيط الذي أوصل وافي إليهم وجدوه مقطوعاً عند جندي كوردي اسمه أنور، وهذا الجندي لم يزل في الجيش في إحدى الجبهات الجنوبية، ولاؤه السياسي غامض باستثناء أنه (خوش ولد طيب وثقة ومن أقاربي) حسب ما قاله الشيوعي الأربيلي الذي أوصل وافي.

أعادوا وافي إلى ذلك الجحر الصخري، الجحر الذي كثيراً، ما فكر في مدى إهمال وغفلة الذين بنوه واتخذوه سجناً، إذ يمكن ببساطة فتح ثغرة في سقفه والهروب منه، مثلما هناك إمكانية حقيقية لاستغلال فترة التحطيب التي يأخذون السجناء فيها للتحطيب، والتآمر على قتل الحارس وأخذ بندقيته.

هذه الأفكار جعلته حذراً ومحترساً من السجينين الآخرين اللذين كانا معه في الغرفة؛ إن في نومه، أو خلال التحطيب، لقد وضع من نفسه حارساً داخل السجن، داوم على مراقبتهما ومتابعة كل ما يهمسان به، رغم أنهما كانا عوناً له سواء في تطبيبه أو بتقاسم حصتهم من السجائر معه فوق حصته، أو بنصيحتهم المستمرة له:

- أخي أنت ليش ما تعترف وتخلّص روحك.

جاء صوت السجين كأنه من هوة بعيدة، سمعه وافي الذي جلس تواً وأشعل له سيكارة، رد عليه بعصبية:

- أنت تسكت وتاكل خرا، ثم أنت منين تعرفني حتى تعترف عليّ؟

رد هذا بمسكنة:

- الله الشاهد، لا أعرفك ولا تعرفني، بس شسويلهم، لو ما معترف عليك، كان قضوا عليّ.

تصاعدت عصبية (وافي) وانفلت منه الزمام:

- أنت جبان. حقير. لطختني، شوهتني. خايف يقتلوك. بس هاي المرة أنا راح أقتلك، رمى سيجارته ونهض ليمسك بخناقه غير أن السجين

الآخر كان له بالمرصاد، أمسكه محاولاً تهدئته ومتحملاً ضرباته ورفساته.

مع حدوث الضجة التي وصلت إلى الحارس، كان وافي قد وصل هدفه، ومسك بخناقه وهذا يترافس بين يديه محاولاً تخليص رقبته، فُتح الباب ودخل حارسان وشرعا بندقيتهما تجاه السجناء، هدأت الجلبة وعاد وافي إلى فرشته، كَذلك عاد السجينان الآخران إلى فرشتيهما، وهما يحاولان القول أن وافي هو الذي بدأ الشجار. توجه أحد الحارسين إلى وافي:

- وافي خليك محترم نفسك، أنت قضيتك تختلف عن هذين الحقيرين.

رفع (وافي) رأسه إلى الحارس، هو نفسه، ذاته الشاب الغاضب الذي ضربه قبل ليلتين، يرى في عينيه الآن بريقاً مختلفاً لا أثر فيه للحقد، بريق يشبه رسالة بوح، رسالة أسف، شيء في عينيه يود الاعتذار. هل عرف شيئا مختلفاً. هل كان متسمعاً لحديثه قبل قليل، قضيتك مختلفة؟

نعم قضيتي مختلفة، لا تشبه قضية هذين السجينين، قضيتي تشبه قضيتك أنت، بل هي قضيتك أنت. اقترب الحارس من وافي أخرج سيكارة وأشعلها له، ثم وضع يده على كتفه وابتسم:

- لا تفقد أعصابك مرة ثانية، اصبر شوية.

هل هذا وعد؟

لقد صدق حدسي، هذا نمط مختلف، هو شيوعي، كما أفهم الشيوعي، وعنفه الذي مارسه معي، عنف شيوعي موقن أنه على حق، موقن أن هذا السجين مرسل من أعدائهم، مرسل بمشروع تدميرهم جميعاً، يندس بين صفوفهم، يستميل ثقتهم، وبعد أن يستتب له الأمر، يحقق الهدف الذي أُرسل من أجله، هكذا ينسف أحلامهم، أهدافهم التي صعدوا الجبال من أجلها، ربما هذا ما أفعله أنا فيما لو كنت في مكانه. ظلت عيونه متسمرة بعيون الحارس متابعاً مشيته، وهو يخرج من غرفة السجن، ظلت عيونه متسمرة هناك حتى بعد أن أُغلق الباب، ظل يحدق في الباب، في شقوقه الطولية، التي تعكس لوناً رمادياً هو لون الخارج.

عاد وافي من رحلته البعيدة، إلى حيث يجلس السجناء على ركبهم فاتحين صدورهم وكأنهم أسرى في معركة. ليقترح عليهم:

- طيب. أقترح عليكم القصة التالية، بعد وصولكم، قولوا إنكم هربتم من الشيوعيين، أو أن الشيوعيين حاولوا أن يقتلونكم لكنكم نجحتم بالسيطرة على الموقف والهرب، يعني شوفولكم فلم واحبكوه زين، أظن هذا راح ينفعكم.

تكلم فهد لأول مرة خارجاً من حزنه وقنوطه:

- رفيق وافي.. وتتصور راح يصدقون أفلامنا...؟

فهد معه حق، لأن هكذا مسرحيات هو لا يعرفها فقط، بل هو درسها لسنين هناك وتقمصها باقتدار، هو أدرى بشعاب أولئك الناس القابضين على السلطة هناك.

اشتداد القصف ووصول القذائف إلى قرب مدخل القاعدة جعل وافياً يفقد صبره ويخرج عن هدوئه، صرخ بهم مهدداً:

- خلال خمس دقائق تلمون أغراضكم وتجون ويانا، واللي يتأخر راح آني أتخذ بيه قرار وأعدمه. !!

وليعطي مصداقية لتهديده، سحب أقسام بندقيته وحشا طلقة في بيت النار، مع تلك الحركة نهض هادي من فراشه، وكأنه كان جالساً على نابض مضغوط، وأعلن، سنتحرك، لا أغراض عندنا غير ملابسنا التي نلبسها وسكائرنا.

في الطريق إلى قرية (صوصيا)، طلب من هادي أن يكون هو الدليل والثلاثة وراءه وأوضح له الطريق:

- هادي أنت تعرف المنطقة زين، الجيش هسه دينزل من قلعة كانيكا، شوفولكم قرية بالطريق وابقوا بيها للصبح، والباقي أنته تعرفه.

ما زال السجناء مترددين، بل خائفين من أن يفعلها الأنصار ويطلقوا عليهم النار من الخلف. ترك وافي مسافة بينهم وبين السجناء، مقتفين أثرهم النازل إلى قرية (صوصيا).

قرر بعد أن يغادر السجناء قرية صوصيا، أن يلحق بالمنسحبين عبر الطريق الآخر الواصل إلى قرية (آطوش) وهو طريق سالك حتى لسير التركترات والعجلات الأخرى.

أراد إعفاء نفسه ومجموعته من صعود جبل (صوصيا) مجدداً، لكن، ما إن اقتربوا من قرية (صوصيا) الخالية من سكانها، حتى فاجأ السجناء حراسهم بالركض، لقد ركضوا وكأنهم هربوا من الأنصار، لم يتخذوا الطريق المعهود الداخل في القرية، بل نزلوا إلى الأسفل قافزين فوق الصخور إلى حيث الأحراش والأكمات الكثيفة أسفل القرية.

كان رد فعل الأنصار هو التوقف عن النزول ومراقبة ركض السجناء، ليدخلوا لاحقاً في الضحك ربما من مفارقة التوسل قبل قليل بإعادة سلاحهم واعتبارهم أنصاراً وبين هروبهم غير المبرر هذا.

في كل الأحوال أجواء عدم الثقة تظل هي بوصلة العلاقة بين السجين والسجان.

اعتبر وافي أن المهمة قد نُفذت، لذا أخبر رفاقه؛ أن عليهم التزود بالماء من عين القرية مع استراحة قصيرة للتدخين، ومن ثم ينسحبون على طريق قرية (آطوش)، ومع إشعال أول سيكارة، انهال عليهم وابل من الرشاشات والبنادق الخفيفة وكأنها تنطلق من كل مكان من الأمام ومن الجوانب وسمعوا خلال إطلاق النار صراخ السجناء في الأسفل وهم يصيحون ويتوسلون بكائنات غير مرئية: إحنا إخوانكم. إحنا إخوانكم. !! انسحب الأنصار بحركة غريزية إلى أقرب الصخور المحيطة بهم، ليحتموا بصخرة كبيرة واقعة على جانب الدرب الضيق الذي نزلوا منه تواً، ومن هناك دخلوا في القتال، وهم لا يدرون بأي اتجاه يطلقون النار، إذ كانت أصوات الرشاشات برصاصها الأحمر الذي يخرج مثل رذاذ ناري تأتي من أماكن عديدة بما فيها طريق (آطوش) نفسه الذي أرادوه طريقاً يوصلهم إلى حيث مجاميعهم المنسحبة من گلي (مه راني). لقد وقعوا في كمين متقدم للجيش.

بعد وقت بدا طويلاً من إطلاق الرصاص المتبادل، هدأت الجهة المهاجمة، لم يصب أحد من الأنصار، لكنهم لم يعرفوا شيئاً عن مصير السجناء، لعلهم قتلوا جميعاً أو أُسروا، إذ كان الرمي في البدء عليهم، قبل أن يتحول إلى إطلاق نار عشوائي كأي قتال ليلي.

ظلوا ملتصقين بسفح الجبل وراء الصخور الكبيرة لمعرفة وتحديد أماكن كمائن الجيش، وبعد هدوء لم يدم طويلاً، بدأ قصف مدفعي كثيف على سفحهم وتحديداً على طريق انسحابهم، قصف يشبه من يريد حرث السفح شبرا شبراً.

سقطت قذائف كثيرة حواليهم وفوق صخرتهم كذلك، ظلوا محتمين بملاذهم الصخري يراقبون من المزاغل مصادر النيران، اطمأنوا أن كمائن الجيش انسحبت، غير أن القصف لم يهدأ إلا مع انبلاج الفجر، عندها توضحت لهم الصورة، إذ شاهدوا وبدون نواظير عسكرية آليات الجيش وهي تجتاز گلي (كاني مازي) الواقع في الأسفل، والعمل جار هناك على إنشاء جسر عسكري فوق الروبار القادم من گلي (آفوكي)، الروبار الذي هو حصيلة ماء عين (مه راني) مع عيون (گلي آفوكي) والمخترق لسلسلة (صوصيا) على بعد كيلو متر من مقرهم ليشكل من هناك نهراً هادراً ينحدر إلى گلي (كاني مازي)، ومن هناك يأخذ بالانحدار بعيداً حتى يلتقي بأنهار وجداول تكوِّن نهر (الخازر) إلى الجنوب.

ما أن همّوا بالصعود حتى بدأ القصف من جديد وكأن هناك من لمحهم، كان القصف الجديد أكثر تركيزاً هذه المرة، أجبرهم على الاحتماء بالصخور قاطعاً عليهم طريق الانسحاب، إذ توجد مساحات جرداء سيكونون فيها مكشوفين تماماً فيما لو حاولوا الصعود.

ظلوا هناك طيلة النهار معتمدين على ما فضل في مطارة أحدهم من ماء، لم ينجحوا بالعودة إلى حيث مقرهم خلف الجبل، إلا مع ليل اليوم الآخر، ليقفوا هناك على أطلال رحيل رفاقهم، بدا لهم المشهد لقرية راحلة على عجل أو أُجليت على عجل، أحد لم يمد يده على أي من ممتلكاتها المبعثرة.

ما زالت الأشياء متناثرة حيث تركها الراحلون، تزودوا بالماء، وبما قدروا على حمله من مواد غذائية، كذلك عوضوا العتاد الذي خسروه من صناديق العتاد الكثيرة المتناثرة هنا وهناك على الأرضية المقابلة للمشجب.

وصول مجموعة وافي كان مدعاة لحل جزئي لمشكلة الجوع، إذ جلبوا معهم كثيراً من أرغفة الخبز عثروا عليها في القرى المتروكة على الطريق، وبعض معلبات الجبن واللحم والسكر والشاي، إضافة إلى علبة حليب (نيدو) كبيرة، الأخيرة حلت إلى حد ما مشكلة حليب الأطفال الرضع.

تولى الإداري أبو عصام جمع حصيلتهم مع ما تبقى في حقائب الأنصار، وعمل قسمته المعروفة في التوزيع، وكان الأمر الصادر إليه من قيادة الفوج، البدء بالعوائل أولاً وبالأخص العوائل ذوات الأطفال، لقد حُلت مشكلة عشاء تلك الليلة، إذ وجد الجميع ما يسدون رمقهم به، وإن كان كسرة خبز مع قدح شاي.

(١٨)
نحن في حصار العنكبوت

بدأت مساء اليوم الثالث وبعد خفوت حدة الحر، بوادر حركة باتجاه عين أخرى للماء بناءً على نصيحة أحد الصيادين، من الآن فصاعداً وعلى طول السلسلة الجبلية سيكون للصيادين الدور الأبرز في الدلالة. هم أبناء هذا الجبل ومهنة الصيد تأخذهم إلى متاهاته وأسراره التي لا يكتشفها غيرهم، لقد شاعت بين الحشود معلومات عن كهوف كبيرة بالقرب من تلك العين، ستكون كفيلة بتوفير الحماية والمأوى لكل هذه الكائنات المنخورة بالرعب من المجهول القادم.

تحرك الخيط البشري الملظوم من جديد، متخذين من أحد الوديان العرضية الموازية لخط اتجاه السلسلة الجبلية ممراً.

بدا الممر الجديد في كثير من ملامحه أرضاً بكراً، لم تطأها قدم إنسان من قبل، لا طرق واضحة فيه ولا نياسم تدل السائرين على الخطوة القادمة.

بدت كل خطوة قادمة فتحاً جديداً في جسد هذا الممر أو الوادي الطويل المتعرج، وكانت رائحة وآثار عفن السنين بعيداً عن يد الإنسان واضحة على الأشجار، إذ توجد أسفل كل شجرة ما يشبه مقبرة لأوراق وأغصان تلك الشجرة التي تجدد نفسها كل سنة بطريقة عذرية خالصة، لم تزل برودة ورطوبة ثلج الشتاء عالقة بين طبقات الورق والأغصان المتراصة فوق بعضها من سنين مديدة.

سلسلة المرتفعات الجبلية المتناسلة من جسد الجبل الأم على جانبي هذا الممر، قد حمت حركة القرويين اللائذين بها من عيون الراصدين من العسكر

المتربصين من على سطوح السلسلة الجبلية الأخرى الموازية لسلسلة (گارا) لكنها المختلفة عنها، بتوفرها على سطوح مستوية تسمح بإقامة ليس معسكرات بل وقرى كذلك، المسافة بين السلسلتين تستطيع أن تقطعها رصاصة القناص، لكنها تصل باردة.

لم تهدأ حركة الجنود على تلك السطوح الجبلية وهم يبدون للمحاصرين على هيئة كائنات قزمة يراقبون في النهار، ويشعلون النيران الكثيرة في الليل، وهم كذلك منتشرون على التلال الفاصلة بين السلسلتين.

ليل الجبل بلا نار لا يطاق، ومشهد الجذوع الكبيرة المنخورة والمنطرحة أسفل كل شجرة سيعفي الحطابين من جمعه لليالي النار.

توزع القرويون على تضاريس هذا الوادي الطويل على هيئة مجاميع حسب عوائلهم أو أوجاغاتهم العشائرية، عين الماء الجديدة كانت كالقديمة شحيحة إلى حد يحتاج الأمر إلى ساعات طويلة من الانتظار لكي يشرب الفرد الواحد من هذا الحشر البشري ما يعادل قدح ماء، حتى أن بعضهم فكر بإمكانية تفجيرها بما متوافر من رمانات يدوية، علهم يحرفون مسارها من تحت الصخور ويوسعوا مجرى التدفق، غير أن ملاحظة أحد الفلاحين الشيوخ أوقفت تلك النية، قائلاً: قد يأتي التفجير بنتائج عكسية ويدثرها تماماً.

ما ينقص الجميع هي الأوعية التي سيجلبون بها الماء إلى مجالسهم الملتئمة حول مواقد النار، إذ تخلصوا من ثقلها في غمار الرعب الذي اجتاحهم قبل يومين، وفي كل الأحوال لا يستطيع الجميع البقاء قرب العين المحشورة في تضاريس قاسية شديدة الانحدار، ناهيك عن الملاحظة الصحيحة التي قالها أحدهم: إن إحداثيات كل عيون الماء موجودة في الخرائط العسكرية للجيش.

لم يبد على الجهة المهاجمة أية استعدادات تدل على نية بالهجوم، اكتفوا بانتشارهم السهل على كامل المساحات الفاصلة بين القرى وحول القرى، متخذين من التلال الكائنة أسفل المحاصرين متاريس قتالية، طلائع الجيش قريبة الآن من الوادي العرضي الذي يخفي هذا العدد الكبير من القرويين مع

البيشمركة والأنصار، لا يفصل الجانبين غير سلسلة من التلال الواطئة وغير المترابطة، أُتخذت من قبل الأنصار والبيشمركة حدوداً للمراقبة أو خطاً جبهوياً للمعركة القادمة.

يشاهدون الجنود بالعين المجردة يتحركون في النهار، وكأنهم في معسكراتهم ويشعلون النيران في الليل، في كل الأحوال من الصعب إخفاء هذا العدد من البشر في مساحة لا تتجاوز الكيلومترين جبلية.

لعلهم قد اكتفوا بما وفرته الطبيعة لتلك الجموع البشرية، لقد عملت الطبيعة هذه المرة وباتساق واضح مع خطط الجيش المحاصِر، بتحويلها تلك المساحة الجبلية الوعرة إلى سجن كبير مهول وفريد من نوعه. سجن من نوعٍ خاص لا يشبه أي سجن على وجه الأرض، إذ لا سجن قادر على استضافة أكثر من مائة ألف إنسان، أما ميزته الفريدة؛ فهي أنه السجن الوحيد الذي يتكفل فيه السجناء بتدبر أمر غذائهم وشرابهم بأنفسهم بعيداً عن إزعاج السجانين. !! لا شيء يدفع المحاصِر للعجلة، السجن بكائناته تحت المراقبة وبواباته مغلقة بإحكام، كل شيء بات واضحاً لطرفي الصراع، باستثناء ما تخبؤه الأيام ومن كلا الطرفين في إجاباتهم على السؤال المحوري الوحيد: وماذا بعد؟ بالنسبة للقرويين المحاصَرين ليس أمامهم ما يفعلونه سوى الانتظار، وهذا ليس فعلاً بل هو واقع حال أجبرهم عليه المحاصِر، عليهم من الآن التفكير بلازمتي الإنسان الأساسيتين (الطعام والماء)، إن كان الماء موجوداً على شحته، فالطعام بات هو المفقود الأعظم. لقد تبخرت صرر القرويات التي أعددنها قبل الرحيل بأرغفة الخبز والجبن والسكر والشاي، إما أنها أُستهلكت أو ضاعت في خضم الفوضى والهروب المرعوب تحت وابل الرصاص وتحويم الطائرات بنوعيها العمودي والهوكرهنتر، لقد نفدت آخر الأرغفة، وآخر قناني الحليب للرضع، وهذا الأمر شمل بيشمركة (البارتي)، حالهم حال عوائلهم، هم في غالبيتهم من أبناء هذه القرى وعشائرها، لا أحد يستطيع تمييزهم عن الفلاحين.

أما بالنسبة للأنصار فكان الهاجس الأكبر الذي يزرع فيهم التشوش والذعر؛

أنهم قد تحولوا من مفارز قتالية كانت يوماً تزرع الرهبة والهيبة في نفس من يشاهدها، إلى تجمع لقرويين مغلوبين على أمرهم يبحثون عن الماء والطعام، يرتحلون مع القرويين ويحطون حيثما يحط هؤلاء، لم تعد لهم أسرارهم الخاصة، مثلما لم تعد لهم خطط للخلاص، هم الآن حتى لا يختارون وجهتهم، هناك من يختار الوجهة، لعله أحد الصيادين ولعله كبير قرية من القرى، ولعله لا أحد سوى القنوط من الجوع والعطش يدفع هذا الحشر البشري المحاصر للبحث في كل الاتجاهات، يختارون لأنفسهم فسحة أقل وعورة من تضاريس الجبل ويتوزعون، تحولت أسلحتهم وعتادهم إلى مجرد أثقال زائدة، أثقال تعرقل سعي النصير لوأد الجوع والعطش الذي ينخر جوفه.. أثقال ثقيلة ومتوسطة وخفيفة، لقد تخلصوا من أثقلها قبل الانسحاب، إذ دفنوا (الدوشكا) ومدافع الهاون بعياراتها المختلفة مع صناديق عتادها في مخابئ حفروها بين الصخور، وهم الآن يداورون النية على دفن الأثقال المتوسطة من رشاشات البي كي سي وقاذفات الآر بي جي ورشاشات العفاروف، أثقال تهدل كتف حاملها ولا نية على استخدامها في معركة، ما زال قرار اللاقتال هو الساري، كيف سيكون حال من يحملها وهو متورط بهذا الكدس من اليأس زائداً الجوع والعطش، أسلحة كانت فيما مضى مدعاة لزهو حامليها يدخلون بها معارك كبيرة، تظل جدران الوديان وقطوع الجبال تردد صهيلها، هي الآن كتل من الحديد تضغط على الأكتاف وتحرز النفوس اللاهثة الباحثة عن قطرة ماء وكسرة خبز.

قال أبو طيف الذي تدرب مع المقاومين الفلسطينيين في بيروت قبل التحاقه:

- رفاق نحن الآن في حصار العنكبوت.

قال جملته بحدية قاطعة وكأنه كان يتجادل مع أحدهم، كانوا حلقة من الأنصار متحلقين حول جذع شجرة كبير، لم يقطعوه، بل تركوا رأسه يتجّمر على وهج أغصان وجذوع صغيرة جمعوها على عجل من المكان الذي هم فيه، ولما وجد الآخرين إما غير مهتمين أو هم ما زالوا يداورون ما قاله، واصل وهو

يستعيد مفرداته من محاضرة تذكرها الآن لضابط فلسطيني حصل على علومه من الأكاديمية العسكرية السوفيتية:

- أشكال الحصار التي تواجه حروب العصابات كثيرة، لكنها جميعاً تشترك بميزة ما يسمى بالثغرة، كلها تترك للمحاصَر ثغرة ينسحب عبرها من المعركة لتفادي مزيداً من الخسائر في صفوف المحاصِر، لأن غلق تلك الثغرة سيدفع المحاصَر لقتال مستميت، إلا حصار العنكبوت، إذ لا ثغرة في هذا الحصار. !! يتشكل هذا الحصار من مجموعة من الأطواق الدائرية أو البيضوية حسب تضاريس المكان، تفصل بين الدائرة والأخرى مسافة كيلومتر أو أكثر بقليل، ثم تُهيأ قوات خاصة تخترق هذه الدوائر بأرتال طولية بحثاً عن المحاصرين بين الأطواق، وحسب عدد وطريقة انتشار الأنصار تُشكل عناكب كثيرة، وليس عنكبوتاً واحداً.

بعد أن سكت أبو طيف، أعقب سكوته فترة صمت كان لها أن تمتد طويلاً، وكأن كل واحد من الذين استمعوا للـ (محاضرة) دخل في عملية تقليب ومداورة لمصيره العالق بين شباك العناكب، خرج حمدان الذي كان منزوياً بعيداً عن وهج النار من صمته:

- الله لا ينطيك العافية يا أبو طيف على هاي المعلومة. يعني هي ناقصة. !!؟

ابتسم بعض الصامتين واستمر الآخرون في عمليات التقليب والمداورة، غير إن السؤال لم يزل كما هو: وماذا بعد؟

مع أول الليل وبعد انتهاء فترة مداورة ما تجمع من أرغفة الخبز الخارجة من الحقائب الظهرية ومن ثم توزيعها فيما بينهم، ارتكن الأنصار إلى مجاميعهم حول مواقد النار لشرب الشاي، لم تزل في الحقائب الظهرية بضعة أكياس من الشاي والسكر، كذلك انعزلت المجموعة القيادية حول موقد نار بحذاء أحد القطوع، دعا أبو منيب لاجتماع عاجل، كان فيه السؤال (وماذا بعد؟) هو الفقرة الوحيدة.

شمل الاجتماع هذه المرة كوادر التنظيمين العسكري والمدني، إضافة إلى استدعاء ملازم أبو طيف، باعتباره ضابطاً قد تدرب على فنون قتال الجيوش، لمعرفة المزيد عن هذا الذي أسماه (حصار العنكبوت).

لا أحد من المجتمعين الآن يعرف أكثر من الآخر، العزلة المعلوماتية الخانقة على مدى الأيام الأربعة الماضية، جعلتهم متساوين في العلم والحيرة.

ميزة القائد في ساحة المعركة هي كم المعلومات التي يعرفها هو ولا يعرفها الجندي، ما أن يفقد تلك الميزة حتى يتحول إلى جندي، يجهل نوايا الطرف المهاجم، نوايا الحلفاء، مثلما تكون نواياه هي الأخرى غامضة، لا يستطيع أن يقرر ماذا يريد؟ هل يدفع أنصاره لقتال أعمى؟ هل يتسللون في الظلام وينسحبون بين خطوط الجيش والفرسان إلى أقرب حدود تاركين خلفهم عوائلهم والقرويين إلى المصير الغامض؟ هل ينزلون ويتسللون إلى المدن؟ هل يسلمون أنفسهم؟ وأخيراً كيف يمكن الركون إلى معلومات مصدرها الوحيد عدوهم. !!؟

ما انفك عدوهم على مدى الأيام الأربعة يسرب لهم معلومات عبر (الفرسان) الكرد وأبناء عمومتهم من المحاصَرين، لم تتوقف أخبار ونوايا الطرف الآخر من الوصول إلى المحاصَرين، قيل على لسان أحدهم نقلاً عن أحدهم آخر أن عميداً في الجيش من القوة المواجهة، قد أقسم بشاربه أنه وجنوده سيصونون شرف النساء ولا يعتدون على الرجال فيما لو سلموا أنفسهم طواعية، وقال فلان نقلاً عن علاّن بالاستناد إلى حديدان أن المستشار الكردي الفلاني قال وأقسم كذلك بشاربه أنه لن يقاتل إخوانه الكرد، لكن ألا تكون تلك الأخبار الممهورة بقسَم الشوارب مفلترة بفلتر الحرب النفسية..؟ مثلما هم على يقين أن لا شارب في دولة القائد فوق شارب القائد، كل الشوارب تسقط في الوحل وتداس بالأحذية فيما لو قرر الشارب الأعلى شيئاً آخر. ألم يسمعوا ما تناقلته راديوهات الترانستور الصغيرة قبل الهجوم بأيام؛ أن القائد أسلم الجمل بما حمل لإبن عمه، ابن العم إياه صاحب مأثرة (حلبجة) الكيمياوية. !! ظل سؤالهم باحثاً عن طلاسمه في وحل الغموض.

اقترح منعم وهو يرى إلى الوجوم الذي يغلف وجوه رفاقه؛ أن يدعو المسؤول الأول أبو منيب إلى اجتماع لكل الأنصار ويشرح لهم الموقف كما هو:

- يجب ألا نخفي عن الأنصار شيئاً.

لكن هل كان هناك حقاً ما يخفونه...؟ وافق الرجل بلا تردد، رغم شعوره بشيء من الشك في دوافع مثل هذا الاقتراح الذي يريد إظهاره أمام من يقودهم عارياً لا حول له ولا قوة، وبدا كأنه يريد الإيعاز بتجميع الأنصار حالاً، لولا اعتراض سهراب الذي خرج كعادته غاضباً يقذف مفرداته بذات التعجل الذي يوحي أنها تتزاحم بعنف بين أسنانه:

- رفاق هذا شلون يصير. !!؟ تجمع أكثر من ١٥٠ نصير في مكان واحد فيه خطورة، إحنا مكشوفين للعدو، وبعدين.

لم يكمل ما بعد تلك الـ (بعدين) لعل خزين معلوماته قد نضب، مكتفياً بتهويمة يديه وكأنه ينش ذباباً قرب أنفه، نكص أبو منيب في جلسته المنتصبة متكئاً على الصخرة التي خلفه، سحب لنفسه نفساً من الهواء، وكأنه قد تخلص من عبء كان جاثماً فوق صدره. بدا الرجل مُجهَداً وفي حيرة من أمره، افترس القلق وإنهاك السهر ملامحه، هو الآن على غير هيئته المعهودة: اختفت النضارة من وجهه الأبيض المتورد سابقاً مخلفة اصفراراً وذبولاً وتجاعيداً افترشت كل مساحة الوجه، مثلما اختفت تلك الأناقة والنظافة المعروفة عنه، ملابسه لم تعد نظيفة الآن، بل مبقعة بسخام دخان المواقد وأتربة الأرض، كما اختفت اللمعة الحادة في عينيه مخلفة وراءها دكنة الحيرة والقلق.

عيونه الآن كما هي عيون الآخرين ؛محاجر غائرة في عمق الوجه بفصوص حمراء تحيطها دوائر داكنة متورمة، تتهدل حوافها إلى الأسفل، إنها عيون المحرومين من النوم أياماً وليال، كذلك ثمة شعيرات بيضاء بدت وكأنها نبتت وتكاثرت هذه الأيام في ثنايا لحية غير مشذبة، لعلها كانت من قبل، لكن، أحداً لم يشاهده قبل الآن بوجه غير حليق، لقد تمردت على إرادته حتى خصل الشعر الكستنائية المتفرقة النابتة قرب الأذن، والتي كان يغطي بها مساحة كبيرة من

الصلعة الدائرية، هي الآن لا ترضى بغير الحرية بعد أن تخلصت من سطوة دهن (الجيل) الذي لم يستغن عنه قط، هي الآن منسدلة على أذنه مثل ضفيرة غير مجدولة.

لقد حصلت الأحداث مرة واحدة وكأنها سلسلة متتالية من سوء الحظ، لم يمض أكثر من شهر بعد على انتدابه لمهمة المسؤول الأول للفوج، ليواجه معضلة إيجاد الانسجام مع كوادر رفضوا العمل معه بطرق مختلفة من المداورة والتمنع ولأسباب ما زال يجهلها، ناهيك عن إيجاد حلول آمنة لهذا العدد من الأنصار مع عوائلهم والنفاذ بهم من بين شرنقة حصار محكم، فوق هذا وذاك ما زالت سرية بكامل أنصارها مفقودة، لم يصل من السرية الرابعة أو حولها أي شيء، هو في عزلة مزدوجة من فوق ومن تحت، قيادة الحزب لم تشر عليه بما يفك ضائقته، لم تعلمه شيئاً عن خارطة انتشار الوحدات الأخرى من الأنصار، ناهيك عن خارطة انتشار القوات المهاجمة.

اكتفت بالقول في آخر برقية لها: افعلوا ما ترونه مناسباً. !! لكن كيف يعرف الرجل ما هو المناسب من غير المناسب في ظل افتقاره للمعلومات، كل ما يصله من معلومات تنتمي للإشاعة أكثر منها للمعلومة، وماذا بوسعه أن يفعل إزاء غضب وتذمر وتململ الأنصار، وكأنه هو المسؤول عن كل ما حصل في السابق ويحصل الآن. !!

رغم كل ذاك ما زال الرجل يبدو متماسكاً معتصماً بتلك الابتسامة التي تشيع الود في الحوار ولا تسمح للآخر مواصلة انفجاره، ما زالت ردوده على ذات النسق الكلامي الهادئ المستقيم المنساب بلا تموجات صعوداً وهبوطاً تبعاً للانفعالات.

نسق كلامي يوحي أن صاحبه بلا انفعالات مفترضة، لم يغضب من أحد، لم يتذمر، لم يُشعِر الآخرين بما يشعر به حقيقة من نحس الطالع والحيرة المغلفة بجهله الفاضح للمعلومات وللدرية العسكرية، لهذه الأسباب نجده وبنفس السرعة التي وافق فيها على اقتراح منعم، وافق كذلك على اعتراض سهراب

واقترح أن يقوم بالمهمة مسؤولي السرايا والفصائل، أن يبلغوا رفاقهم حسب المجاميع بكل شيء:

- قولوا لهم لا شيء نعرفه أكثر مما تعرفونه أنتم، استمعوا لاقتراحاتهم وأفكارهم، عسى أن يخرج علينا أحد بشيء مفيد.

وقبل أن ينهي كلامه نط أبو فهد الإداري الجديد المنتدب من قبل المركز القيادي والذي لم يمارس مهمته بعد:

- رفيق هل نحن مجانين، كيف نسمح لأنفسنا بهذا، أليس من الأفضل أن يبقى الأنصار يعتقدون أننا نعرف أشياء هم لا يعرفونها، على الأقل سيوفر هذا لهم الأمل، هل تريدون حرمانهم من الأمل؟

ظهرت سريعاً علامات التململ على سهراب وهو يلمح ابتسامة حاتم المنزوي بعيداً والصامت، علق سهراب:

- رفيق هذا يا أمل يا بطيخ، الأنصار خلصوا عمرهم بالمعارك والحصارات، ويعرفون كل شيء أحسن مني ومنك.

رد أبو فهد إنما غاضباً هذه المرة من لكنة سهراب الساخرة والموسومة بالبطيخ، معلقاً أهمية قصوى على الأمل، كان ممكناً لذلك الجدل كأي جدل أنصاري بين شيوعيين أن يطول ويتشعب، ويدخل في متاهات الفلسفة والأفكار وعلم النفس وغيرها، لذا تدخل أبو منيب مغيّراً وجهة الجدل بتوجيه السؤال إلى أبو طيف:

- إي رفيق أبو طيف. شنو هذا حصار العنكبوت؟

أجاب هذا بلهجة أكاديمية وكأنه في قاعة محاضرات:

- هو شكل من أشكال الحصارات التي تعتمدها الجيوش لكسر شوكة حروب العصابات. يُدَرّس في الأكاديميات العسكرية بوصفه نوعاً نادر الحدوث ولا يُنصح باستخدامه، الميزة الفارقة له أنه يضرب أطواقاً محكمة الاستدارة، وكثيرة العدد يتناقص قطرها من الخارج إلى الداخل.

إلى تلك البؤرة التي يُحاصَر فيها المستهدفون، ثم تحدث اختراقات طولية بطوابير من المشاة في الغالب يكونون من قوات النخبة، لإبادة كل ما يصادفها بين الأطواق من بشر، أما لماذا هو نادر الحدوث، فالسبب يعود؛ إلى أنه ليس من السهل على كل الجيوش تطبيقه؛ لأنه يفترض إخلاء منطقة العمليات من المدنيين تماماً، وإلا ستحصل مجازر إبادة جماعية حيث يختلط في العادة أفراد العصابات بالمدنيين.

سكت قليلاً، واستطلع وجوه المستمعين كأي محاضر يريد معرفة وقع ما قاله على الحضور، ثم واصل:

- بالطبع هذا على صعيد الجيوش التي وراءها حكومات تحسب حساباً للعامل الدولي، ولاحتجاجات منظمات حقوق الإنسان والحيوان والبيئة.

علق أبو منيب بصوت خافت كأنه يحدث نفسه وهو يهز رأسه من الأعلى إلى الأسفل:

- العامل الدولي. نعم. العامل الدولي.

تدخل (سهراب):

- رفيق هذا النظام لا يهتم لا بالعامل الدولي ولا بخسائر جيشه، ما حاسب حساب لأي شيء، وبعدين العامل الدولي معه، الدول الاشتراكية والرأسمالية معه. شيريد أكثر؟

رد أبو منيب، موجهاً الحديث إلى المجتمعين:

- الآن تعرفون ليش (البارتي) استعجل بإخراج الناس خارج الحدود...؟

أدار رأسه على المجتمعين وكأنه ينتظر أن يجيبه أحدهم، ولما لم يبادر أحد بتلك الإجابة، واصل:

- ليحول المشكلة من مشكلة حكومة ومسلحين متمردين داخل نطاق البلد. إلى مشكلة شعب لاجئ لدى دول الجوار يرتعد من أسلحة الإبادة الجماعية، هذا الوضع حتماً سيحرك العامل الدولي.

علق حاتم:

- إذن ما فعله (البارتي) كان صحيحاً، وجد أن لا طاقة للشعب الكردي بمقاومة الأسلحة الكيمياوية، نقل المشكلة إلى مستوىً جديد.

ما زال أبو منيب يهز برأسه، وعادت كلماته خافتة كأنه يحدث نفسه:

- بالضبط. بالضبط. نقل المشكلة إلى مستوى جديد.

غير أن مسعود مسؤول السرية السادسة بدا غير موافق على ما ذهب إليه رفاقه، خرج عن صمته والتذمر باد على محياه:

- رفاق، هذا أي عامل دولي. هذا النظام ضارب كل القوانين عرض الحائط، وبعدين وين كان هذا العامل الدولي كل هاي السنين اللي الشعب يذبح فيها من الوريد إلى الوريد، الشعب يُقتل في السجون، في الجبهات، في الساحات العامة، رجاءً بلا تخدير وأماني خيالية، السوفييت مع النظام، أمريكا مع النظام، فرنسا مع النظام، بل كل أوروبا، مِمَن سيخاف. !؟

تدخل حاتم مبعداً الجدل إلى مسار جديد:

- أعتقد أننا سنقاتل فيما لو أُجبرنا على القتال، لا أظن أحداً من الأنصار مستعد لتسليم نفسه، لهذا أرى أن نبعد الأنصار عن تجمعات العوائل، سيكون القتال صعباً بين الأطفال والنساء وفيه خطورة مؤكدة على حياتهم.

وافق الجميع على الاقتراح، ليضيف سهراب:

- أقترح أن نخفي الأسلحة المتوسطة، يجب أن تكون حركتنا من الآن حركة خفيفة.

رد أبو منيب:

- مثل ما تشوفون لا نية بالقتال لدى حلفائنا، بيشمركة (البارتي) لديهم أوامر بعدم القتال، ومعنويات الناس كما ترونها ليست مع القتال، أعتقد هذا الأمر قد حسمناه، لا نقاتل إلا دفاعاً عن النفس، أخفوا الأسلحة المتوسطة.

انفض الاجتماع بهاذين القرارين الواضحين، إخفاء الأسلحة المتوسطة وإبعاد الأنصار عن تجمعات العوائل مع السماح للأنصار أصحاب العوائل بالبقاء مع عوائلهم، سيتحتم على الأنصار من الآن تمويه حركتهم بالانتقال إلى أكثر من مكان في اليوم الواحد.

(١٩)
بقرة عابد المقطورة

اتخذت كل قرية مساحة لها من الخلاء الجبلي سكناً، فراشهم الأرض بصخورها ولحافهم السماء بقيضها نهاراً وقرها ليلاً، ومثلهم فعل سكان قرية عوائل الأنصار، البالغ تعدادهم أكثر من ٢٠٠ نسمة، تكتلوا بقرب بعضهم في إحدى تلك المساحات القريبة من عَين الماء، في الواقع الجميع يريد القرب من عين الماء، الأمر الذي أوجد تزاحماً بين سكان القرى وصلت ذروته إلى حد الشجار، لكنه ظل شجاراً كلامياً لم يصل إلى السلاح بعد، رغم إن الجميع مسلحون.

في الصباح التالي وتنفيذاً لقرار الابتعاد عن تجمعات العوائل، ضاع أثر الأنصار، الأمر الذي فجر لغطاً وفوضىً جديدان بين عوائلهم، فُهم الأمر على أنه خيانة من نوع ما، خطة مبيتة اختطها الأنصار لأنفسهم يتسللون وينفذون بجلودهم تاركين هذا الحشر البشري لمصيره.

- طبعاً شكو عليهم، كل واحد منهم بنفسه، قابل عدهم أطفال، لو رضّع، لو نسوان؟

يكفي أن تقول إحداهن مثل هذا القول حتى ينتشر كالنار في الهشيم وكأنه معلومة مؤكدة، إذ ملابسات الظروف المحيطة لم تترك مجالاً لحسن الظن في أي سلوك، لهذا كانت مهمة الأنصار أصحاب العوائل وهم في الغالب من التنظيم المحلي هي الأشق في إعادة الروع وتهدئة النفوس المضطربة.

مع انقضاء اليوم الخامس للحصار، كان شبح المجاعة هو الضيف الثقيل الذي تقمص ملامح الجميع، تُشاهَد ملامحه في هدوء واستكانة الأطفال، هؤلاء الذين لم يعتادوا على غير اللعب والركض والمرح مهما كانت الظروف، كذلك في صراخ الرضّع الهستيري وفي استغاثات النساء من اللواتي بدأت تنشف ضروع الرضاعة عندهن وفي التشنجات والانفعالات التي تبدو غير مبررة والتي أخذت تدمغ العلاقات البينية بين الناس، في النهاية هو الجوع.

مع اختفاء آخر الأرغفة وآخر قطع الجبن الكردي (الكشك)، ولّى الرجال والنساء وجوههم شطر الجبل وصخوره باحثين هنا وهناك بين الحشائش والأحراش عما يجود به الجبل من ثمار.

لم يبخل الجبل على مجاوريه، كانت ثمار (الفُطر) متفشية بكل مكان على السفوح وبين الصخور، وهي بحاجة فقط إلى من يستطيع التمييز بين السام منها وغير السام، الفروق تكاد لا تبين بين النوعين إلا للعين المجربة، كذلك هناك نبات (الخبيز) والثوم البري و(الكعوب) المحمي بدرع أشواكه، هكذا بدت الحياة قادرة لأن تختط لنفسها نسقها الجديد.

ومثلما يدفع العوز والمصير المشترك البشر لأن يتقاسموا ما يحصلون عليه من غذاء وماء، كذلك إطالة أمد أيام الخوف سيجعل أمر التعايش معه ممكناً.

منذ اليوم الخامس أصبح التنقل على امتداد هذا الوادي الطويل خلال النهار ممكناً، لتتحول الحركة تالياً ومع انقطاع القصف المدفعي وقلة طلعات الطائرات بنوعيها العمودي والحربي، إلى حركة حرة لا يشوبها خوف مفترض من عدو متربص على مبعدة بضعة مئات من الأمتار في بعض الالتواءات الجبلية، كذلك، نجح البعض في التسلل لغزو القرى سواء كانت قراهم أو قرى غيرهم، لم يدخل الجنود والفرسان إلى القرى بعد، بل ظلوا يحيطون بها، متخذين التلال وبعض المساحات المسطحة مقاراً لهم.

يتفرج الجنود في النهار من مواقعهم القريبة على الحركة الحرة للحيوانات البيتية من الدجاج وديوك الحبش والقطط والكلاب، التي ظلت سارحة بين

بيوت القرية وأطرافها وكأنها موضوعة هناك بأوامر من أصحابها للحراسة.

يحدث أن يتسلل جندي أو أكثر في النهار إلى تلك البيوت ليحصلوا على ما يسد رمقهم على الأخص من الدجاج والبيض، أما في الليل فيكتفون بالرمي العشوائي بين الفينة والأخرى باتجاه البيوت، ما أن يسمعوا نباح كلب أو صراخ دجاجة قبض عليها أحد غزاة القرى الليليين، بالنسبة للقرويين فهذه هي قراهم وبيوتهم، يعرفون كل مزاغلها ومداخلها، لهذا نجح كثيرون في جلب ما يستطيعون حمله من مؤونة وبطانيات، وبعض الأفرشة إضافة إلى عبوات الماء سواء الصغيرة سعة خمسة غالون، تلك التي كانت في الأصل عبوات لزيوت السيارات أو الكبيرة (الجلكانات) العسكرية سعة الواحد أكثر من عشرين غالون والتي لا يخلو بيت منها، إضافة إلى عدد المطابخ من صحون وقدور وغيرها، كأنهم عزموا على اتخاذ ذلك الوادي مستقراً دائماً لحياة جديدة اختطت لنفسها عاداتها الجديدة كذلك، لكن يبقى الإنجاز الأكبر للقرويين هو قدرة البعض منهم على استعادة حيوانات الحمل من بغال ومطايا؛ سواء تلك التي هربت قبل أيام وهامت على وجهها بأحمالها في غياهب الجبال، أو تلك التي حصلوا عليها في غزواتهم الليلية على قراهم.

لم يقلل من أهمية هذا الإنجاز المشاحنات والشجارات التي حدثت بين مالكي الحيوانات الأصليين وبين الغزاة الذين غنموها، كانت هناك دائماً ثمة حلول يوفرها الكبار سواء كانوا كبار القرى أو كوادر البيشمركة.

أما الأنصار فما زالوا محتفظين بالبغال الثلاث التي صاحبتهم الرحلة منذ بدايتها، يستعملونها الآن لجلب الماء من العين، كذلك نجحوا بتحويل الكفوف البلاستيكية الصفراء التي وُزعت عليهم قبل الانسحاب مع كمامات، وشيء يشبه القناع قيل إنها عدة الوقاية من السلاح الكيمياوي، نجحوا بتحوير وظيفتها من حماية الأيدي من الحروق إلى ما يشبه مطارات ماء إضافية، كل كف بلاستيكي يحمل من الماء حمولة (قوطية) شاي كفيلة بإطفاء عطش أربعة أنصار من مدمني الشاي.

أما في اليوم السادس، فقد تفتقت قريحة شبح الجوع وبعد الحصول على حرية الحركة، على فكرة بدت هائلة، هي التوجه إلى قطعان الماعز السارحة في ربوع السفوح على غير هدىً وبلا راع، هي في الحقيقة قطعان هؤلاء القرويين المحاصرين، لتبدأ مع هذا الاكتشاف الحياة الجديدة بثلاث وجبات لحم مشوي غير مملح، بدا هذا الاكتشاف نوعاً من حل لمعضلة الجوع، أشاع في أيامه الأولى شيئاً من الاسترخاء بعيداً عن التوترات التي يفرزها الجوع على السلوك البشري، وانسجاماً مع العادة اللحمية الجديدة، ظهر أن عابد النصير الفلاح من قرية (سواري)، كان يقطر خلفه طيلة تلك الأيام بقرة كبيرة مع عجلها.

حين تخلى الناس في مسيراتهم الطويلة المنهكة حتى عن البطانيات التي تقيهم شر البرد الليلي وعن مؤنهم وحليب أطفالهم، فإن عابد لم يتخل عن بقرته وعجلها الجميل، لم يتململ ولم يتعب رغم أن البقرة ليست كالبغل، فالبغل يحملك إن تعبتَ لكن البقرة عليك أنت تحملها إن تعَبت، خصوصاً وهي غير قادرة على تسلق السفوح والقطوع.

رغم كل تلك العواقب الوخيمة التي تحملها الرجل بصبر وأناة أوصل بقرته إلى حيث وصل، لكنه اليوم وهو يرى إلى انتشار العادة اللحمية وافتراس قطعان الفلاحين الهائمة في سفوح الجبل، أعلن وبصوت منكسر حزين وكأنه يريد أن يبكي:

- رفاق. البقرة وعجلها لكم. اذبحوها. اسلخوها. افعلوا بها ما تشاؤون، فقط أعفوني من رؤيتها وهي تذبح. !!

لعل الرجل قد اقتنع أخيراً بجدية ما ينتظره وعائلته من أخطار لا تنفع لدرئها كل أبقار العالم، ما إن نطق عابد بأمر الذبح حتى تحول ذلك الجسد الهائل وخلال وقت قصير نسبياً إلى قطع صغيرة، وجدت طريقها إلى الجميع بما فيهم سكان قرية العوائل.

لا أحد يدري من أين؟ وكيف خرجت سكاكين الذبح؟ لأن الأمر كان يخص بقرة مع عجلها وليس ماعزاً صغيراً يتمرد حيناً ليهمد أخيراً.

قيل حينها أن عابد لم يذق لحم بقرته وتعرض إلى آلام مبرحة كانت السبب فيها زوجته الميالة أصلاً للنكتة، لم تهدأ صفية طيلة الفترة التي استغرقها طبخ حصتهم من البقرة في علبة السمن الكبيرة التي أُتخذت بمثابة قدر، وهي تردد النكات والقفشات بحق زوجها وعلاقته بالبقرة، حتى أن من يسمعها سيظن أنها تتحدث عن امرأة أخرى كانت شريكة لها في زوجها وتخلصت منها أخيراً.

لم يتحمل الرجل المزيد، حمل سلاحه وعدة تبغه واختفى بين صخور الجبل تاركاً إياهم يتناهشون لحم بقرته.

الهدنة غير المعلنة، أوجدت لدى المحاصرين بعض العادات الجديدة، لقد تنبه المحاصرون ولأول مرة إلى هيئاتهم التي لم تعد هيئات بشرية، إذ اللاغسل والترحال الدائم والنوم على الأرض ملتحفين السماء مع الخوف والقلق وسخام مواقد اللحم المشوي، قد أضفى على وجوه الجميع ملامح غير بشرية، نوع من أقنعة لكائنات متوحشة، لكن على توحشها وتحفزها الظاهر هي في الحقيقة مرعوبة.

لقد تخططت الوجوه باللونين الأبيض والأسود، لون السخام ولون العرق المالح الناضح من قمة الرأس إلى أخمص القدمين، حتى النساء لم يعد ما يميزهن عن خشونة الرجال غير الملابس النسائية، وجوه الجميع بما فيهم الأطفال، ذابلة وملطخة بالسخام، عيون جاحظة محمرة، مفرغة من أبجدية لغة العيون المعروفة. لم تعد للترافة والبضاضة والنعومة في أجساد النساء من أثر، وعلى أثر هذا الاكتشاف تنبهوا فجأة إلى مدى حاجتهم للغسل.

في البدء كان يتجشم أحدهم أو إحداهن مشقة جلب الماء بما متوفر من أوعية للشرب فقط، وهناك عند عين الماء يحصل هو أو تحصل هي على رفاهية غسل الوجه واليدين وربما حتى الرأس، لأن الصعود من أقرب تجمع بشري إلى رأس العين يستغرق ثلاثة أرباع الساعة صعوداً وأقل منها بقليل هبوط، مضافاً إليها ساعات الانتظار الطويل هناك لكثرة مستخدمي النبع.

رغم ذلك، صار كثيرون يتجشمون ذلك العناء بين القطوع والجروف الآيلة

المتآكلة للوصول إلى رأس العين الكائن في تجويف من تجاويف جِسد الجبل والذي لم يسمح بالسكنى بجواره، بالتبعية وبعد غسل الوجه، بدا الاهتمام بترتيب الهندام على ما فيه من بقع العرق والسخام، وإذ وجدت بعض النساء إن ما زال في حوزتهن مرايا صغيرة، صارت تُشاهد تجمعات النساء تحت شجرة عملاقة أو بجوار صخرة كبيرة وهن يتناقلن مرآة مكسورة بحرص وخوف وكأنها حرز مصون، كل منهن تريد الوقوف على آخر ما وصل إليه شكل وجهها، أما الأنصار فاكتفوا أن يكون الواحد منهم مرآة الآخر، وعلى عادتهم في المناكدات البينية، كثيراً ما يتكرر مثل هذا الحوار:

- رفيق. شكلي شلون صار؟

يجيبه الآخر بلا مبالاة:

- شكلك يخبِّل، بس لو شوية تطول أذانك تصير سخل.

ليرد الآخر على دعابة الأول:

- وهسه أنت شلونك عاد. ابن عم الجلب. !!

كذلك استذكر البعض أن ما زال في حقائبهم الظهرية ثمة راديوهات ترانزستر صغيرة، ستتيح لهم متابعة أخبارهم التي بدأت الإذاعات العالمية تتناقلها بشيء من الاهتمام الغريب، اهتمام لا يمت بصلة لذلك العزل الإعلامي المطبق الذي عانت منه الحركة المسلحة منذ انطلاقها على أيدي أولئك الفتية الذين كانوا مسلحين بالعصي والسكاكين في بادئ الأمر.

عزلة جعلت من وصول أحد الصحفيين الغربيين إلى مقراتهم الخلفية مع كاميرته حدثاً استثنائياً يستحق الاحتفال به، وعقد الندوات لتدارس حيثياته وآثاره، يظلون شهوراً آذانهم ملتصقة بتلك الأجهزة الصغيرة بحجم الكف علهم يسمعون شيئاً عن ذلك الربورتاج الموعودين به، وتمضي الأيام والشهور والسنين حتى يُنسى الأمر، لتصل قيادتهم رسالة اعتذار يتيمة من ذلك الصحفي؛ أنه فشل في إقناع رئيسه بنشر ذلك الربورتاج، ظلوا في عزلة، حتى وهم يحققون اختراقات عسكرية مهمة في مناطق مختلفة.

هل هناك أخطر وأهم بالنسبة للصحفي والإعلامي من تغطية خبر السيطرة على مدينة مثلاً؟

لقد سيطر الأنصار والبيشمركة على ناحية (بامرني) وهي بكل المقاييس مدينة، أجلوا عنها الجيش والفرسان تماماً وسيطروا على مطارها العسكري مرتين ليستعاد لاحقاً، مثلما سيطروا على مدينة (مانكيش) لأيام، نظفوها من كل ما له صلة بالحكومة من أجهزة وعناصر، وكانت لهم طيلة سنوات سيطرة ليلية واضحة على مركز مدينة (أربيل) ناهيك عن ريفها الممتد حتى المثلث الحدودي، مثلما سيطروا لأيام على شوارع مهمة تربط المدن الكردستانية بعضها، وأسروا الألوف من مقاتلي الأفواج الخفيفة ومعهم المئات من الجنود، لكن كل تلك الاختراقات لم تحظ بتغطية إعلامية لا من بعيد ولا من قريب، وكأن ما يحدث كان يحدث في كوكب آخر وليس على الأرض.

لقد نجح النظام بإحكام سيطرته الإعلامية على كل منافذ النشر العالمي والإقليمي، وكانت له أوراقه الرابحة.

ألا يكفي أنه بصدد تخليص العالم من نظام (ولاية الفقيه) وجمهوريته الإسلامية. !!؟

أما ورقته الرابحة مع نكد الجوار العربي المتشابك بخصومات بينية لا تنتهي، فلم تتعد تلك النكتة التي ولّفها مرة أحد الأنصار في محاضرة له عن دور الإعلام في الحروب، إذ قال:

بالنسبة للإذاعات العربية كانت رسالة صدام مختصرة وواضحة، مضمونها: يا ذيب ليش تعوي، حالك مثل حالي، إن عويتّ أعوي، وإن صمتّ أصمت، والبادئ أظلم. !!

حينها ضج الحضور بضحك تطاول لدقائق، ليس لأن المحاضر قد خرج عن لغته الفصحى التي كان يلوك مفرداتها بتأن وتكلف واضحين، بل لتحويره تلك الأغنية البدوية المعروفة لوصف أعقد تحالف إعلامي بين أطراف بينها من الخصومة والعداء أكثر مما بينها من الود.

(٢٠)
انسحاب خمبابا البستان

في سابع أيام العنكبوت، توالت على تجمع الأنصار ثلاثة أحداث.

عند الفجر عُلِمَ أن اثنين من الأنصار قد اختفيا دون أن يعلم أحد بوجهتهما، اختفى يعقوب وصلاح وهما من الأدلاء اللذين تحتاجهما القوة المحاصرة أمسّ الحاجة، الجبل بلا دليل يجعل المحاصَر محاصراً بعماه هذه المرة، لا يرى غير القطوع وانسداد الدروب يصدمه كلما اختار طريقاً جديداً.

الغريب في أمر الاثنين أنهما لم يكونا يوماً على وفاق فيما بينهما، كأي بشر يتقاسمون ذات الوظيفة (الدلالة)، تقاسماً يستجلب التباغض والتحاسد ومحاولات إبراز الذات على حساب الآخر، الأمر الذي يستبعد اتفاقهما المسبق، إلى ذلك هما من الأنصار المتحدرين من سلالات موصومة بالتمرد، عوائل مغضوبٌ عليها حكومياً لتاريخ طويل يتوارثون فصوله ابناً عن أب عن جد عن عم عن خال. إلخ، على الدوام ثمة من في العائلة الكبيرة من يتخذ له من الجبل وصخوره قاعدة انطلاق أو ساتر قتال، الأمر الذي لن يجعل لاستسلامهما أية فائدة تجنى على صعيدهم الشخصي، إذ مهما قالا وفعلا لعدوهما يظل أمر قتلهما مؤكداً، هذا فيما لو قررا الاستسلام.

على أية حال، إن انشغال المحاصَر بحصاره ومهما كانت احتمالات الخطورة في الأحداث الجارية حوله وعليه، لن يجعله يحصل على فسحة تشريح الحدث، وبلورة رؤيا أو موقف حوله، لذلك مر اختفاء هذين النصيرين على التجمع المحاصَر كما يمر خبر عابر قاله أحدهم وانصرف.

تناقلوا الخبر فيما بينهم بعلامات تعجب بادئ الأمر، وبعد سويعات نُسيَ تماماً.

الحدث الآخر كان؛ وصول مفرزة (عقرة) بقيادة هاوار، ثمانية أنصار كلهم من سكنة مدينة (عقرة)، سبق وغادرت هذه المجموعة قاعدة (مه راني) قبل الهجوم بوقت طويل، كان عليهم البحث لأنفسهم عن محطات ومخابئ في جبل (عقرة)، ليباشروا من هناك عملهم السياسي هذه المرة وليس العسكري، وكانت هي أول مجموعة تسعى لتنفيذ الوجهة الجديدة في العمل، وجهة الاعتماد على محطات المدن وعمل المدن.

ساد الاعتقاد أنهم قد نجحوا في مهمتهم، لم يكن ينقصهم شيء، هم جميعاً من أبناء الجبل والمدينة وعلى معرفة كافية بتضاريس الاثنين.

ها هم قد عادوا بعد أن أُحتل جبلهم، وكُشفت مخابؤهم، ويأسوا من محاولات العبور إلى الحدود عبر نهر الزاب.

كان الحصار محكماً هناك مثلما هو هنا، جلبوا معهم ما قدروا على حمله من الخبز والمعلبات والسكر والشاي من القرى الخالية من السكان التي في طريقهم، لكن الأهم؛ أنهم كانوا محملين بكم من المعلومات التي جعلت قيادة الفوج على بينة من الخارطة التقريبية لانتشار قطعات الجيش؛ سواء على الطريق الذي أُريد له أن يكون معبراً لهذه الحشود المعنكبة، أو على الضفة الأخرى من نهر الزاب.

تلك المساحة الممتدة من النهر عبر أراض عشيرة البرزانيين المهجرين منها منذ زمن بعيد، والمتصلة بأرض عشيرتي الهيركي والسورجي المتجاورتين، كانت المجموعة متخفية طيلة الوقت على مقربة من كمائن الجنود وتجمعاتهم في تلك السفوح الوعرة المطلة على نهر (الزاب).

باعتقادهم لم يزل سهل برزان وجبال شيرين المطلة عليه خالية من الجيش، هكذا تكون خيارات الوصول إلى الحدود التركية أو الإيرانية لم تزل مفتوحة لكن بشرط القدرة على عبور نهر الزاب المحاصر ما زال بمعابره القليلة، كذلك علموا

أن الجيش استطاع مع الفرسان إحكام الطوق الدائري حولهم تماماً، وذلك بوصولهم إلى السلسلة المقابلة لـ (گلي كافيّة) قادمين من مجمع (ديره لوك) الكائن خلف الجبل.

أما الحدث الثالث؛ فكان وصول السرية الرابعة، وصلت السرية بمساعدة رزوقي وحاجي اللذين ظلا في مقر القاعدة متخفيين ينتظران وصولها، بدت صحتهما جيدة ووجهيهما مشرقين لجهة التغذية، تقوتا طيلة المدة على أرزاق القاعدة المتروكة وعلى ما جادت به مزرعة القاعدة التي أدارها المزارع النصير أبو خدر، وهي مزرعة زاخرة بكل أنواع الخضروات الصيفية.

في البدء ظنّا وهما ينزلان كعادتهم كل ليلة لأخذ حاجتهم من الخضروات والماء؛ أن الجنود قد احتلوا المقر ليلاً، سمعا أصواتاً داخل الوادي باللغة العربية، قال حاجي:

- إنه الجيش.

غير أن رزوقي سمع شيئاً مختلفاً لفت انتباهه، لذا واصل النزول غير آبه لتحذير رفيقه، بعدها صاح بأعلى صوته على حاجي:

- لك هذا أي جيش. أي قيامة. هاي ضحكة أبو حمدة.

وكان لتلك الضحكة الشهيرة، الضحكة المسجلة ماركة باسم أبو حمدة إذ لا أحد يجيدها غيره، ثمة فائدة، أنها لا تشبه الضحك تماماً، صوت يطلقه يشبه صهيل مكتوم، أو حشرجة تخرج من البلعوم متموجة تعلو وتخفت في مقاطع يتحكم في طولها وقصرها.

وصلت السرية أخيراً إنما ليس بكل أنصارها، لقد فقدوا عشرة منهم.

قرر أبو حمدة بعد أن أطبقت عليه العزلة في قرية (بيرموس) قاعدتهم الأمامية في العمق، أن يستجلي ما يحدث بإرسال مجاميع استطلاع إلى المدن القريبة منه، أرسل مجموعتين واحدة إلى مدينة (ألقوش)، والثانية إلى مدينة (الشيخان)، ومن الأنصار الذين ينتمون للمدينتين، لذلك هو لم ينسحب حال

وصول برقية الفوج التي طلبت منه سحب السرية إلى (مه راني)، كان ينتظر عودة أنصاره، وبعد طول انتظار لم يعد من المجموعتين غير نصير واحد؛ أخبره أن الباقين سلموا أنفسهم هناك بأسلحتهم. !!

كانت صدمة موجعة لما تبقى من أنصار السرية، وهي إلى ذلك سابقة لم تحدث من قبل، كانت الخسارة كبيرة لأن العشرة هم من الصلات التي تربط السرية بالمدينة، هكذا تكون السرية قد فقدت عيونها التي ترى بها ما يحدث، ظلت في عزلة مقفلة يزيد تعقيدها أن المنطقة هي أصلاً خالية من السكان، إذ أجبرت الطائرات بغاراتها المتكررة سكانها على الرحيل عنها منذ زمن بعيد، كذلك هم تعودوا على البقاء لفترات طويلة في مخابئ ومغارات سهل الموصل، لا يعتمدون على الفوج أكثر من اعتمادهم على صلاتهم المحلية هناك، ولما انقطعت تلك الصلات بتسليمَ العشرة أنفسهم، أطبقت عليهم العزلة أكثر من ذي قبل، لم يستوعبوا الوضع الجديد إلا بعد أيام على حصول الهجوم الذي استهدف القرى والمقرات التي تقع كلها خلفهم، وفقط حين وصل إلى مقرهم في قرية (بيرموس) أحد بيشمركة (البارتي) من اليزيدين بمعية عائلته يريد إيصالها إلى قريته في (دشت الموصل)، عرفوا وقتها أنهم محاصرون:

- يا جماعة ترى الجيش وراكم على (گلي الرمان) وجماعتكم توجهوا إلى الحدود، لا يوجد مكان غير محتل الآن، حتى شيخ شمس الدين انسحب، أنتم اشد تسوون هنا. !!؟

عندها قرروا الانسحاب مستعينين بالمعلومات التي قدمها ذلك الرجل عن حالة الطرق الواصلة إلى مقرهم في (مه راني)، كان عليهم أن يتجنبوا كل الطرق التي كانوا يسلكونها في السابق، وعلى رأسها الطريق المار عبر قرية (بريفكه) عند مدخل (گلي الرمان) لصاحبه شيخ شمس الدين الذي يطلق عليه الأنصار فيما بينهم لقب (خمبابا البستان)، تشبيهاً له بذلك الكائن الأسطوري حارس غابة الأرز في ملحمة (گلگامش) الذي صارعه الثنائي (گلگامش)، و(أنكيدو) وانتصرا عليه.

لسنين طويلة اعتبروا هذا الرجل علامة فارقة وثابتة لهذا المضيق الغني برمانه وتينه الشهي، حين يُذكر (گلي الرمان) يقفز مباشرة اسم شيخ شمس الدين، ورغم أن أصحاب البساتين كانوا يسمحون للبيشمركة بدخول بساتينهم وأن يقطفوا من ثمارها ما يشاؤون، لأنها في كل الأحوال ستتعفن على أشجارها طالما لا تسويق لها، إلا هذا الشيخ الذي له جسم يشبه جسم مصارع، هو يسمح للأنصار والبيشمركة أن يقطفوا ما يشاؤون من ثمار بستانه من الرمان والتين، لكنه لا يتركهم لشأنهم؛ أينما يذهب النصير لقطف رمانة أو تينة إلا ويجده أمامه واقفاً مثل شجرة من أشجار بستانه، لا يفعل شيئاً ولا يقول شيئاً، فقط يحدق بالنصير بذات النظرة الحزينة الكسيرة التي كأنها تقول؛ خذوا ما تريدون.. لكن ارحموا الشجرة، وفي هذا معه حق، إذ بعض الأنصار لا يجيد طريقة القطف الصحيح، مما يتسبب بتكسير بعض الأغصان.

لقد أجبرت الطائرات سكان هذه القرية الصغيرة (بريفكه) الوديعة الكائنة على مدخل المضيق، ومنذ زمن طويل على ترك بساتينهم وقريتهم والرحيل بما فيهم عائلة هذا الشيخ، إلا هذا الشيخ القادم من زمن الأساطير بهالة الشيب التي تؤطر وجهه الدائري المحمر الذي يشعرك أن عسل الرمان سيتفجر من خدوده، ظل صامداً في بيته وبستانه ولسان حاله يقول:

أنا وبستاني نعيش معاً. أو نموت معاً. !! وها هو الآخر قد رحل ناكثاً بوعده لنفسه ولبستانه.

قيل لاحقاً؛ أن (خمبابا البستان) وبعد الغارة الكيمياوية التي شملت قريته الخالية إلا منه وحماره الهزيل، قد ركب حماره ورفع راية استسلامه البيضاء وانسحب لا أحد يعلم إلى أين؟ وقيل أنه قُتل في تلك الغارة وقيل قُتل بعدها. !! كثرت الروايات عن هذا المَعلْم الجبلي.

لقد تعقدت خطط الوصول إلى (مه راني) بعد احتلال (گلي الرمان)، لم تعد أمامهم من طرق سوى السير على هدى بوصلة الاتجاه المخزونة في الرؤوس، بوصلة الاتجاه التي قد تكون نافعة في كل مكان، في الصحارى في

البحر في السهوب الثلجية، إلا الجبل، في الجبل تفقد هذه البوصلة أهميتها.

الجبل لا يعطي نفسه، ولا يجعلك تشق طريقاً رغماً عنه، هو من يدلك على طرقه، وليس أمام من يدخل التيه الجبلي سوى البحث عن تلك البوصلة الخفية الكائنة في رأس الوعل البري، هو الحيوان الوحيد الذي يوِّجد له دروباً ومسارات رغماً عن الجبل.

لقد استهلك منهم الطريق أو اللاطريق أكثر من أسبوع من السير الوعر بين الوهاد والقطوع، وتلك الأمكنة التي لم يرتادها حتى صيادو المنطقة، كانوا يسيرون في الليل ويتخفون في النهار، يمرون بين الكمائن وعلى مقربة من حشود الجنود، رأوا في طريقهم القرى والرشمالات الصيفية وهي مهجورة، رأوا بيوتاً بدا ساكنوها أنهم أُخذوا على حين غرة قبل أنِ يتركوها كما هي، لفافات طفل رضيع منها ما زال في مهده مع فضلات البراز، ومنها قرب المهد لم تلحق الأم على حزمها معها في هروبها، الواضح أن الأم لم تلحق سوى على انتشال وليدها من المهد والركض به، كيس تبغ من قماش النساء الشفاف مفتوح وإلى جانبه دفتر (بافرا) بدا أن صاحبه لم يلحق على إكمال لفافته هرب تاركاً تبغه وراءه، صناديق حوائج النساء وملابسهن مفتوحة على النصف ومنها مقلوباً على محتوياته، صحون اللبن والبيض المقلي السابح في الزيت مع رقائق الخبز الخفيف لم تزل في صوانيها الكبيرة، موضوعة بانتظار فطور العائلة التي لم تفطر. قدور الطبخ متروكة بطبخاتها المتكلسة وصحون فضلات ليلة البارحة تنتظر من تأخذ بها إلى رأس العين لجليها وغسلها، فرشات النوم الإسفنجية وفوقها دثاراتها، مزاحة قليلاً كأن صاحبها قد غادرها لقضاء حاجته في الخلاء ولم يعد.

كل شيء يشير إلى حياة قد توقفت فجأة، حتى الحيوانات البيتية المتروكة من دجاج وديوك رومية وماعز وقطط وكلاب هي الأخرى بدت في خدر واستسلام عجيبين، الدجاجات النقاقات في العادة لا يعطين أنفسهن لمن يريد جعلهن غذاءه بلا وقوقة وصخب معتادين، هي الآن مستسلمة، لا تستدعي جهداً لمن يريد اقتناصها.

حمل أنصار السرية في البدء كل ما يعتقدون أنهم بحاجة إليه في رحلتهم الطويلة إلى الحدود، لكنهم وما أن اصطدموا بتلك الحيوات التي توقفت فجأة في القرى والرشمالات التي وصلوها، حتى عدلوا عن أحمالهم الثقيلة، كل ما يحتاجونه متوفر في القرية أو الرشمال القادم.

وكان أثمن ما جلبوه معهم إلى القوة المحاصرة في قطوع جبل گارا هو علب الحليب المجفف (النيدو) ذات الخمسة كيلوات والتي حلت مشكلة الأطفال الرضع وعموم الأطفال، العلب التي ستتحول لاحقاً إلى أوعية لجلب وتخزين الماء. كذلك لم يبخلوا على المدخنين بكيس كبير من التبغ وجدوه في إحدى القرى مع كدس من دفاتر اللف (البافرا)، ليقوم الإداري غير المدخن بتوزيعه على المدخنين بالتساوي، لكل مدخن حفنة تبغ مع دفتر لف، وكان الخبر الأهم من تلك التي جاءت بها السرية، هو خبر عدم احتلال قاعدتهم (مه راني) لحد الآن، هذا يعني أن مخزن مؤونتهم في (اشكفتة صباح) لم يزل على حاله بانتظارهم.

كانوا قد دفنوا على مقربة من (إشكفتة صباح) بعض الأجهزة التي هم الآن بأمس الحاجة لها، ومنها كاميرا مع جهاز تحميض وحزم ورق تصوير إضافة إلى نماذج فارغة لهويات ووثائق حكومية مختلفة.

إنه خيار جديد ينفتح أمامهم، خيار التسلل إلى سهل الموصل ومن هناك إلى المدن الأخرى بوثائق مزورة بدل اللجوء إلى الحدود، بالحصول على الكاميرا مع مستلزماتها وتلك النماذج الفارغة، من الممكن عمل هويات ووثائق شبه رسمية توزع على الأنصار، وباستخدام ذات الطريق الذي جاءت عليه السرية، بدا هذا الخيار الجديد لمن فكر به اختراقاً مذهلاً، أنه خيار الهروب إلى الأمام، الهروب الذي ربما لن يتوقعه العدو المحاصِر.

لديهم في سهل الموصل معرفة كافية بمزاغل ومخابئ (كند[٢١] حتارة ودوغات) القريتان الصغيرتان للأنصار كل التوقعات تشير إلى نية المحاصَرين

٢١- كند: أرض متموجة تتوفر على مغارات أرضية، والجمع (كنود).

الوصول إلى الحدود الدولية، لهذا هم غير متشددين حسب معلومات السرية الرابعة فيما يخص مناطق (دشت الموصل) وقراه، الضغط كله هنا في الجبل وفي الطرق الواصلة إلى الحدود.

لقد تنبه قياديو الفوج لهذا الخيار الجديد إنما بدرجات متفاوتة من الاهتمام، وبدون اتفاق فيما بينهم قرر كل منهم الإبقاء عليه لنفسه بعيداً عن التداول، ربما خوفاً عليه من الإفساد فيما لو تعرض إلى مزيد من الأخذ والرد والجدل في الممكنات والمعوقات والمحبطات وغيرها، مثلما شط الخيال ببعضهم للذهاب إلى أبعد، إلى تداول خيار الحدود السورية عبر منطقة (سنجار) المحاذية للحدود، لدى أبو منيب بحكم مسؤوليته صلات حزبية تستطيع إيصاله بمحطة الحزب في مدينة (القامشلي) السورية، مثلما لدى سهراب وأبو آزاد وسيدو مثل هذه الصلات التي منها حزبية ومنها عشائرية قرابية، لكن، وفي كل الأحوال لا يمكن البدء بأي خطوة عملية في هذا الاتجاه ما لم يتم حسم مصير العوائل.

يظل هذا الخيار صالحاً لمفارز صغيرة من الأنصار القادرين على الزوغان وعبور الكمائن بدون الاصطدام القتالي، لكنه غير صالح البتة لهذا العدد الكبير من العوائل بنسائها وأطفالها وشيوخها.

(٢١)
معاقبة إذاعة موسكو السوفيتية

غدا الاستماع إلى نشرات الأخبار من الراديو طقساً يتوجب على الجميع تأديته باهتمام، وبرزت أوامر ليس من المسؤولين هذه المرة، إنما بين الأنصار أنفسهم، تحث على ضرورة الحفاظ على البطاريات وعدم استخدام الراديو إلا لسماع نشرات الأخبار.

لو ضُبط أحدهم وهو يستمع إلى أغنية، لا يعرف من أين سيصله التوبيخ الجماعي وربما حتى (الكفخات)، كذلك أوجد النصير الصحفي مدلول من هذا الطقس طقساً فرعياً خاصاً به وحده، إذ قرر أن يدون في دفتره يوميات أخبار الوكالات وبحرفيتها التي ينقلها مباشرة من أفواه المذيعين والمذيعات.

التزم الجميع بطقس السماع مختطين لأنفسهم ما يمكن تسميته بـ(جدول سماع)، وضعوا فيه ترتيب أسماء الإذاعات العالمية وأوقات بث نشراتها الإخبارية المفصلة، وُضِعَت على رأسه الـ (بي بي سي) البريطانية، تلتها (صوت أمريكا)، ثم (مونت كارلو)، لكنهم استبعدوا من هذه الأخيرة مضطرين تلك البرامج التي كانت تفح بغنج هيام ووداد المذيعتين صاحبتي الصوت الآسر المثير والذي كان لوحده كافياً لاستفزاز خيال أقلام الرجال المحرومين وجعلها تنتصب كأنهم داخلون في طقوس فلم (بورنو).!!

اكتفوا من تلك الإذاعة (المغناج) بصوت (حكمت وهبي) الرخيم وهو يبدأ نشراته بلازمته المعهودة التي يطلب بها في الأول (رضى الله ورضى الوالدين ورضى السادة المستمعين).

أما (إذاعة موسكو) الشيوعية وبعد أن وجدوها غير مهتمة بأخبارهم، أكثر من اهتمامها بالجرارات السوفيتية، فقد أقصوها تماماً من خارطة السماع، تركوها لحالها منشغلة بأمر تسويق جراراتها السوفيتية إلى أسواق الدول العربية، وكأنها تخاطب جمهور بلاد مزدهرة زراعياً وصناعياً واجتماعياً، ولا ينقصها شيء غير وصول تلك الجرارات، ختموا أمر الإقصاء بنكتة قالها أحدهم ولعله ولّفها من عندياته؛ تقول النكتة:

إن اليابانيين أبرموا عقداً لعشر سنوات مع الاتحاد السوفييتي لاستيراد تلك الجرارات، لكن هل تعلمون ماذا فعلوا بها...؟ ليترك علامات تعجب على وجوه المستمعين، ثم يردف:

صاروا يحولون كل جرار سوفيتي اشتراكي إلى خمس سيارات رأسمالية من نوع مازدا وتويوتا يصدرونها إلى الدول العربية. !!

على مدار أيام أصبح خبر ((عشرات الألوف من اللاجئين الأكراد وصلوا إلى الأراضي التركية))، خبر الساعة لتلك الإذاعات العالمية، تدور حوله التحاليل والتغطيات الصحفية واستضافات لهذا وذاك من المتخصصين بشؤون الشرق الأوسط، الذين لا أحد يعلم أين كانوا طيلة تلك السنين.

تأكد المحاصرون؛ أن هناك من نجا من شرانق العناكب، خبر آخر من (البي بي سي) يقول أن ((السلطات المحلية التركية منعت السكان المحليين من تقديم المساعدات والإعانات الغذائية للاجئين الأكراد خوفاً من حدوث اتصال بين أكراد تركيا والعراق))، خبر ثالث ((الطبيب الفرنسي برنار برندي مندوب منظمة أطباء بلا حدود، طالب دي كويلار سكرتير الأمم المتحدة التدخل السريع لوقف إبادة آلاف النساء والأطفال والرجال الأكراد المحاصرين)).

غدت أسماء من مثل اسم هذا الطبيب برنار برندي ودي كويلار سكرتير الأمم المتحدة وأسماء نواب من الحزب الديمقراطي المعارض في مجلس الشيوخ الأمريكي، أسماءً معروفة ومطبوعة في رؤوس الجميع، كأن تجد امرأة عجوز لا حظ لها بالتعليم ولم تر أبعد من جبالها وهي تجادل ابنها أو كادر من

كوادر البيشمركة بأهمية الجلسة القادمة لمجلس الشيوخ الأمريكي، الجلسة التي أُريد لها أن تكون جلسة استماع ومن ثم مناقشة خيار فرض عقوبات على النظام العراقي لاستخدامه الأسلحة المحرمة دولياً ضد شعبه. أو تتكلم عن برنار برندي وكأنه كوردي يسكن قرية مجاورة وقد نجا من الحصار: الله يحرسه. الله يحفظه. الله ينطيه العزم والقوة. !!!

من الآن فصاعداً ستغدو أخبار تلك الإذاعات مع الإشاعات والأخبار المنقولة كلها على لسان (الفرسان)، هي الزاد اليومي الذي لا يستغني عنه أحد، والتي أوجدت لدى المحاصرين مشاعراً متضاربة تصعد وتهبط حسب أهمية الخبر بالنسبة لمصيرهم.

تلك الأخبار ومع ما يتسرب إليهم من معلومات عن الطرف الآخر وإن كانت في معظمها تدخل تحت بند الحرب النفسية، كونت لديهم ما يشبه قاعدة معلومات يبنون عليها احتمالات المستقبل القريب، صار يُحكى الآن عن: أن (الفرسان) يرفضون الهجوم. !! وهم سيتمردون فيما لو أجبروا على ذلك.

بدا الخبر معقولاً من ناحية تلكؤ الطرف المهاجم بشن هجومه المنتظر، ثم من هم هؤلاء (الفرسان) في نهاية الأمر؟ هم ذات العشائر المنقسمة على نفسها هنا وهناك ومن الطبيعي أن تتحرك في ذواتهم بعض المشاعر الإنسانية تجاه أبناء جلدتهم.

غير أن خبراً آخر غطى على الخبر الأول لعلاقته بشبح الجوع، إذ أوحى (الفرسان) أنهم سيغضون النظر فيما لو حاول المحاصرون الوصول إلى مخازن المؤونة السرية في (گلي سيدرة) مقر (البارتي) وكان هذا المخزن قريباً جداً، لكنه حسب الاستطلاعات كان محروساً بشكل جيد، لتتحول تلك الكهوف السرية إلى هدف لغزو بشري انتهى عند الفجر مفرغاً تلك المخازن الكبيرة من محتوياتها، في كل الأحوال لم تكن القسمة عادلة بين المحاصَرين، اعتمدت على توافر حيوانات الحمل لدى هذه العائلة أو تلك وعلى درجات القربى، من معه بغل وله قريب من البيشمركة سيحصل على ما يكفيه ربما لشهر لأن

البيشمركة أدرى بشعاب مخازنهم ومن ليس لديه لا بغل ولا بيشمركة سيضطر لاستجداء حاجته من الغزاة الغانمين.

في تلك الليلة (ليلة الغزو) لم يزاحم الشيوعيون غزاة مخازن (سيدرة) الجياع، اكتفوا بما فضل لديهم من سكر وشاي وبمرأى قطعان الماعز وهي تسرح بجوارهم، وجبتان من اللحم المشوي تكفيان للجم شبح الجوع، غير أن ثمة قرار مبيت في رؤوسهم، أن لديهم مخزوناً استراتيجياً في (اشكفتة صباح) ما زال بمنأىً عن أيدي الجياع.

لا أحد يعرف إحداثيات ذلك الكهف غيرهم، أو هكذا توهموا لتهدأ ضجة جوع الفلاحين أولاً، ومن ثم العمل على الإتيان بذلك المخزون تباعاً وحسب الحاجة.

تضاريس هذا الوادي الطويل المتخفي وسط سفح (گارا) المهيب والذي اتخذوه ساتراً يحجبهم عن طلائع الجيش المهاجم، غنية بالصخور الكبيرة بأشكال هندسية منها المعروف ومنها وغير المعروف، مثلما هي غنية بالجروف الصخرية شبه المنهارة على حواف السفح، والتي توفر ملاذات صيفية رخية خلال النهار والليل، مثلما يتوسط الوادي غابة عذراء كأن لم تطأها قدم إنسان منذ لا علم لأحد به من السنين.

تتشابك أغصان أشجارها وتتداخل، مثلما تجد الجذوع الكبيرة والصغيرة لكن المنخورة بعفن ودود السنين منطرحة عند قدمي الشجرة، كل شيء مرتب وفق مزاج الطبيعة، هم الآن في ضيافة عراء الجبل، غير أن ليالي الجبل وحتى في شهور الصيف اللاهب، عادة ما تنسى نهاراتها عائدة إلى بردها الثلجي، أما شهر أيلول فهو في الأصل من الأشهر الحائرة بأمرها، إذ نهاره صيف وليله شتاء، الأمر الذي لا يجعل من النار حاجة ترفيه لتزجية وقت المسامرات الليلية وعمل الشاي، بل حاجة وجودية لهذه الكائنات التي حُرمت من كل شيء ومن هذا الـ (كل شيء) الأغطية والأفرشة، لم يُترك لها سوى العراء لتفترش الأرض وتلتحف السماء.

اعتاد الأنصار منذ زمن طويل على هذه الحياة البرية، كذلك الفلاحون المتمرسون بشؤون وشجون قوافل التهريب، اعتادوا قبل الغروب من كل ليلة أن يتقاسموا العمل لتأثيث مبيتهم الليلي، ثمة من يجمع الحطب وهذه لم تعد بالمهمة الشاقة، هم في الأصل وسط غابة يجدون عند كل شجرة مقبرة جذوع وأغصان جاهزة لا تحتاج إلى قطع ولا إلى تطبير، وثمة من يجمع الأحجار الصغيرة ليحوط بها فراشه المصنوع من غصون الأشجار الناعمة مع أوراقها الخضراء الزاهية، بدائرة حجرية وكأنه يضع أساسات بيت المستقبل، وهذه عادة فلاحية جبلية بامتياز، قيل أن لهذه الدوائر الحجرية قصصاً وجذوراً موغلة في القدم، ومنها ما يدخل في تلافيف عالم الأساطير، لكن الواضح المفهوم أنها وفي حالتهم تمنع زحف الزواحف من أفاعٍ وعقارب إلى أجساد النائمين، وثمة من يهيئ الشاي (خمرة الثوار) كما اعتاد الأنصار على تدليعه وهم يمازحون أنفسهم.

لكل عائلة موقدها، مثلما لكل مجموعة أنصار موقدهم، هكذا تتشكل كل ليلة سلسلة تبدو غير متناهية من النيران على طول هذا الوادي، من المؤكد أنها ستبهر الناظر إليها من علوٍ، بزخرفتها العجيبة والعفوية.

لم يمض من الليل بعد غير أوله، إنما الصمت كان هو المهيمن، خفتت الأصوات القادمة من تجمعات العوائل، انكتم صراخ الأطفال الرضع الباحثين عن حليب الصدور، وحده عزف الليل الصامت ينوس بصفارة تلك الحشرة غير المرئية.

انفعل حيدر كاميرا بمشهد الليل والنار والصمت، التقط كاميرا خياله وبدأ يوثق اللحظة:

((لقطة متوسطة:

رجال يلتفون حول موقد النار، ينحني أحدهم وينفخ فيه روح الجنوب ليمنح الآخرين الدفء، يحمل بيده عوداً كان لغصن شجرة يحمل ما زال طراوتها وخضرتها، يدور حول الموقد، ينغز بعوده الطويل جسد النار، يهيض

الجسد الناري بشرره، يتراقص الرذاذ الأحمر القاتم شرراً يشهق إلى الأعالي ويختفي في الليل، حركات الرجال حول النار تبدو مثل تأدية طقس ديني، ما أن يقترب أحدهم من النار حتى يعرض عليها أصابعه المتراقصة مبعداً وجهه إلى الخلف، تمتص الأصابع دفء وحنين النار لتضخه في الأجساد الرطبة وكأنها تبعث فيها ذكرى عشق. كأنهم على موعد مع حلم جماعي يأخذهم إلى حيث المدن والسيارات والمواعيد.

Zoomind على (قوطية) الكيكوز السوداء وهي تستقر بشكل جانبي على جمرات صغيرات، يغلي في داخلها الماء.

(لقطة قريبة) غصن متيبس يغور بالنار ثم يخرج متوهجاً ليشعل لفافة تبغ أحدهم)).

فجأة يتمزق غشاء الصمت، يخرج حيدر كاميرا من مشهده ومن كادره كله لينتشل سلاحه، الصوت مرعوب يستجير. طيران. طيران. طيران، خلال لحظات أطفأت كل النيران بما حصلوا عليه هذا المساء من ماء أرادوه للشرب والشاي، امتشق المسلحون أسلحتهم، وإذ يخرج المسلح من نور النار إلى الظلام يكون الظلام أدبسَ هذه المرة لا يستطيع أن يميز فيه حتى سلاحه الذي بين يديه، الصوت المرعوب ظل يستجير من الطيران.

عادت الهواجس إياها التي كانت تنخر هذه الكائنات وغادرتها خلال الهدنة غير المعلنة، سيفعلونها، هذا ما تداولته الألسن الصامتة، هذا ما حدسته النفوس اللائبة، سيفعلونها.

الجميع تذكروا ما أرادوا نسيانه أو تمنوا نسيانه، تذكروا أنهم ما زالوا طرائد اقتطعت لها من وقت المطاردة هذه الليالي لجر النفس، لكن المطاردين على عجلة من أمرهم، قنبلة واحدة من تلك التي أبادت (حلبجة) كافية الآن لإبادة هذه الألوف المرعوبة، ستبدأ المذبحة الآن، مع الصباح يكونون قد أجهزوا على كل شيء، كانت مواقع النيران تعطي تصويباً دقيقاً للراصد الجوي وللرامي في حوامته العمودية.

طيران. طيران. طيران، صار النداء المستجير يخرج من كل مكان، تحولت الآذان إلى مجسات مرهفة الحساسية لأي صوت، حتى الرضع من الأطفال الذين اعتادوا مع الفوضى أن يملؤوا الغابة بصراخهم قد همدوا الآن، عادت الغابة إلى هناء عذريتها من جديد، إلى سكونها الأزلي الذي كانت متلفعة به قبل أن تتطفل عليها هذه الكائنات المرعوبة.

العيون مصوبة إلى السماء المرصعة بنجومها اللاهثة، لكن لا طائرات في تلك السماء النظيفة إلا من لمعان نجومها، انبثق بعد حين وبدلاً من أصوات الانفجار ضحك صاخب، بدأه أحدهم وتبعه الآخرون، صار الضحك قهقهة تخرج من كل مكان وكأنها تريد رد الاعتبار للنفوس التي كانت قبل قليل لائذة برعبها، مع هستيريا الضحك الجماعي المنطلق من كل الجنبات لا أحد يرد على السؤال العالق فوق الرؤوس: ماذا حدث؟

مرت دقائق متطاولة قبل أن يعرف الجميع؛ أن لا شيء قد حدث، فقط إن أحدهم قد سمع صوت التشويش على إحدى إذاعات المعارضة الممنوعة وظنه طيراناً، ثم بادر بصوته الجهوري ليجعل الآخرين يأخذون حذرهم. كانت نكتة باهظة في استهلاكها لأعصاب هؤلاء البشر.

عاد رزوقي من مكمنه الذي اتخذه غير بعيد عن موقدهم المنطفئ، متذمراً يلعن أسلاف هذا المرعوب الذي عكر صفو الجميع، بدأ ينبش بغصن نصف محترق جسد الموقد المنطفئ، كانت الجمرات الكبيرة التي خلفها الجذع الكبير الممدد وكأنه بقايا فريسة افترستها النار، ما زالت متوهجة تحت الرماد المبلل بالماء. أخذ ينفخ فيها روح النار وهو ما زال يدردم مع نفسه وكأنه يحادث الموقد:

- أگص إيدي. إذا ما يطلع هذا جحش.

بالطبع كثيرة هي المرات التي وضع فيها رزوقي يده على طاولة الرهان على أحداث وأشخاص يكون موقناً بصحة موقفه أو رأيه منهم، قصد الآن برهانه الجديد صاحب الصوت الذي تسبب بكل الفوضى التي كانوا فيها، متهماً إياه

إنه من (الفرسان) الذين خانوا أبناء جلدتهم واصطفوا مع الحكومة والقرويون يسمونهم جحوشاً، وما أن سمع سعال فؤاد العائد هو الآخر من مكمنه، حتى تناوله باللوم والتوبيخ بدلاً عن موقد النار:

- أنت مريض. منو طلب منك تصعد...؟

ليجيبه هذا ببروده المعهود ومن بين سعاله:

- قصدك الطيار يعرف آني مريض؟

وصلتهم وهوهة حمدان العائد من مكمنه هو الآخر وهذا إذا أراد السخرية من حديث أحدهم يردد لازمته المأخوذة من أغنية الفنانة (سعاد حسني) التي يعشقها (وه .. وه يا بوي).

التفت إليه رزوقي غاضباً مما دفعه ليكسر حدة السخرية بالتوجه إلى فؤاد مؤنباً:

- بشرفي رزوقي عنده حق. أنت منو طلب منك تصعد. ما تستحي. مريض وتكحكح وشايل بندقيتك تريد تقاتل الطيران...؟

عاد رزوقي يسلط غضبه تارة على الجحش أبو التشويش وتارة على الموقد الذي تباطأ بالتوهج من جديد وعاد الآخرون تباعاً.

صب فؤاد لنفسه شاياً من القوطية السوداء التي كانت قريبة من جمرة قاومت الماء، ظل واقفاً يشرب ويتأمل محاولات رزوقي لتهييج النار من جديد ويتكلم بذات اللهجة الأبوية المؤنبة:

- رفيق روح نام ارتاح، أنت مريض.

انسحب فؤاد إلى فراشه الورقي، وكأنه أطاع رزوقي، لكنه انسحب مبتعداً عن الدخان الذي سيهيج في صدره السعال مرة أخرى، لف وافي سيكارة بأصابع ما زالت ترتعش لم يزايلها التوتر الذي كان عليه قبل قليل، أنهى لفها على عجل وهو لم يزل قرب الموقد، قال وكأنه يريد حرف النقاش إلى مجرى آخر:

- منذ اليوم الأول وأنا أداور مع نفسي قرار (البارتي)، مرة أشوفه غبي

كلش، ومرات أشوفه ذكي كلش،

علق فؤاد من مكانه:

- بالعكس ذكي، بس جاء متأخر، لو قبل أسبوع من بداية الهجوم كان حقق بيه ضربة قوية للنظام.

علق رزوقي المتذمر من ذلك الفلاح الذي سماه بـ (الجحش):

- هاي أي ضربة أي قيامة. إحنا المضروبين على رؤوسنا، خلينا نسمي الأشياء بأسمائها، هذه هزيمة لـ(البارتي) ولنا وللجميع...؟

دخل أبو زهرة على الجدل وهو يتلثم بالجمداني وكأنه يريد تغطية كل وجهه حتى العيون:

- الانسحاب بأكثر من ربع مليون إنسان إلى خارج الحدود. هذا قرار سياسي وليس عسكري.

وافقه وافي الذي أثار هذا النقاش:

- فعلاً. القضية الآن لم تعد قضية نظام يطارد عصاة كما يقول إعلامه، هي الآن قضية شعب لاجئ مرعوب من السلاح الكيمياوي.

ما زال رزوقي غير متفق مع آراء رفاقه:

- هذا القرار وجه لطمة قوية لمعنويات كل الشعب العراقي، الشعب كان ينتظر منا أن نفعل شيئاً، وها نحن نهرب إلى خارج الحدود.

وافي ما زال على رأيه:

- استعداد النظام لاستخدام السلاح الكيمياوي غيَّر كل الموازين.

رد رزوقي بنفاذ صبر:

- زين إحنا شنو. نواطير خضرة. ليش نبقى ورا الأحزاب، ليش الحزب ما تنبأ بهذا اللي ديصير وسحب قواته من وقت. على الأقل العوائل...؟

أخرج حمدان رأسه من براثن قمصلته التي تشبه القبوط معلقاً على سؤال رزوقي:

- رفيق أنت ما قاري وثائق الحزب...؟

ثم غير صوته مضخماً نبراته وكأنه خطيب يخطب في قاعة اجتماعات كبيرة:

- لقد أثبتت الأحداث صحة تنبؤات الحزب.

ضحك المجادلون، غير أن رزوقي ما زال على عهده، يبحث عمن يتشاجر معه، وليس أمامه الآن غير الحزب:

- حلو. إحنا أول من يتنبأ وأول من يقع بشر تنبؤاته. ليش ننتظر حتى يوگع الفأس بالراس؟

أجابه حمدان وعلى طريقته الملتوية بخلط المزح مع الجد:

- حتى نثبت بالملموس الفأس فأس والرأس رأس.

بدا على رزوقي أنه على وشك أن ينفلت من زمامه، بعد أن وجد أن حمدان هو الأقرب له الآن من الحزب ليتشاجر معه:

- حمدان، أنت ليش دائماً تسّخِف النقاش، مدا تشوف إحنا بيا حال؟

عاد حمدان يتدثر بقمصلته الطويلة، لكنه تنبه إلى نية رزوقي:

- آني آسف رفيق رزوقي، بس آني شايف أسئلتك ينرادلها كعدة طويلة.

تدثر بقبوطه الطويل وأردف:

- الله يخليك خلينا ننام.

واصل رزوقي تقريعه ولومه لرفاقه وهو يحاكي موقد النار:

- نامو. اشبعو نوم. ليش أنتم تعرفون شيء غير النوم. خلينا ننام. نامو.

ولما لم يرد عليه أحدهم، عاد يواصل حواره مع نفسه وهو ينبش جمرات الموقد ويهيض شررها، لكن بلغة مختلفة هذه المرة، لغة هادئة مؤدبة تنتمي للثقافة والتحاليل: سنين والحزب يستقرئ الواقع ويحلله ويرشحه ويفعل فيه البلاوي، ليخرج في النهاية بسياسة صحيحة، سياسة تثبت الأحداث صحة

تنبؤاتها، بس اللي محيرني. ليش ما يتفادى الضربات، ليش يبقى ينتظر حتى ينضرب. ليش. زين ليش. يعني إحنا مازوشيين. نحب الأذى. بس أريد واحد يجاوبني. ليش. ليييييش.

أحد لم يجب رزوقي. تظاهروا جميعاً بالنوم لكنهم كانوا يضحكون في عبهم.

(٢٢)
الموت لحماً

بعد أن أفرغ الفلاحون مخازن (سيدرة) العائدة لبيشمركة (البارتي)، يمموا وجوههم في الليلة التالية إلى مخزن الأنصار الكائن في (اشكفتة صباح)، مرة أخرى يثبت الفلاحون أن مجساتهم أقوى من حدس السياسيين، لقد توهم هؤلاء ألا أحد عليم بأسرارهم، ومنها سر هذه المغارة وموقعها ونسوا أن الفلاحين هم أبناء الجبل، على مدى ليلة كاملة من مغربها إلى مطلع فجرها، تم تصفير مغارة صباح بدون علم صاحبها الذي طوبت باسمه.

لقد استعادت ذاكرة فلاحي القرى القريبة من قاعدة (مه راني)، تلك الأيام التي تحولت فيها هذه المغارة العجيبة في طرازها الهندسي إلى مستشفىً ميداني.

حدث في بداية الحركة المسلحة أن تعرضت مفرزة من بيشمركة (البارتي) إلى عملية إبادة شبه كاملة بإنزال أنجزته القوات الخاصة على مدخل (گلي الرمان)، حين لم تكن المنطقة (محررة) بعد، كان البيشمركة نياماً في استراحة نهارية في بستان شيخ شمس الدين أو (خمبابا البستان) كما يسميه الأنصار، كانوا عائدين من عملية عسكرية، لم يلحق الحارس الوحيد الذي كان يحرس المفرزة على أن يفعل شيئاً أمام دهم الطائرات العمودية وهي تنزل حمولتها من الجنود المدججين بنوايا القتل، لتحدث معركة غير متكافئة بين جنود صاحين مستعدين ومقاتلين متشربكين ما زالوا بخيوط النعاس، لم يتبق من المفرزة سوى جثث القتلى وأجساد الجرحى الذين لاذوا رغم جروحهم بين الصخور

والأحراش، ولما سمع صباح آمر فصيل الأنصار أزيز الطائرات العمودية وأصوات الرشاشات، كان مع فصيلة يستراحون في مكان تفصله عن موقع المعركة بضعة ساعات، لم يلحقوا المعركة، لكنهم لحقوا إنجازاً أكبر، عملية إخلاء للجرحى، ثم دفنوا الشهداء في أرضهم على عادة الأنصار.

استنفروا كل ما استطاعوا الحصول عليه من تركتورات الفلاحين وعجلاتهم لنقل الجرحى إلى هذه المغارة المنزوية في أحد شقوق (گلي مه راني)[٢٢]، لتتحول المغارة التي كانت مقرهم المؤقت إلى مستشفىً ميداني فريد من نوعه، بطبيب وحيد وبلا مستلزمات جراحة وتطبيب، لكن الفلاحين لم يقصروا بجلب الأدوية والمستلزمات من المدن القريبة، في النهاية كان أغلب الجرحى من أبنائهم، ومنذ ذلك الحين ووفق تقنية إطلاق الأسماء التلقائية على الأشياء والأحداث، سميت المغارة (اشكفتة صباح).

شاع خبرها واسمها الجديد في كل المنطقة القريبة منها، مثلما دخلت في سجلات وإحداثيات الجيش بهذا الاسم كذلك.

ميزة هذا الكهف الجبلي المنزوي في شق ضيق يغور في جسد الجبل؛ أنه لا يُرى للسائر على مقربة أمتار منه، تحجبه صخرة كبيرة على مدخله ليس بينها وبين المدخل الصغير أكثر من نصف متر على أفريز جرف صخري تآكلت قاعدته بفعل عوامل التعرية الطبيعية، كذلك فإن فضاءها الداخلي يتوفر على مدرجات واسعة تفضي إلى غرف في كل غرفة مصطبة حجرية لا أحد يعلم على وجه اليقين إن كانت من أعمال الطبيعة الخلاقة، أم هي من أعمال أولئك الرهبان القدامى الذين كانوا عاشقين للعزلة بعيداً عن رجس عالمهم الدنيوي، في ذلك الزمان كانت المنطقة تدين بأغلبيتها بالدين المسيحي.

لم يلحق الأنصار مخزون مؤنهم الاستراتيجي، عادوا منه ببضعة أكياس وجدوها مرمية على الطريق، لكنهم عادوا كذلك بلقية ثمينة؛ إنه جهاز الاتصال اللاسلكي من نوع راكال،04. وجدوا الجهاز مرمياً على مبعدة من الكهف، لعل

٢٢- گلي مه راني: موقع عسكري تابع للأنصار يقع على سفوح جبل (گارا).

أحد الفلاحين فكر بحيازته، غير أن جبروت الجوع والأفواه المنتظرة جعله يفضل عليه كيس الطحين، وكان أول المستقبلين لهذا الجهاز بفرح مشوب بالغضب هو النصير المخابر فتاح، شعر حينها أن شيئاً ثميناً كان له اعتقد أنه فقد إلى الأبد وها هو يستعيده، لكنه يعرف تماماً العناء الذي ينتظره صعوداً وهبوطاً بين القمم والوهاد، حتى يجد مكان إرسال واستقبال مناسب.

شاركته النصيرة وضحة فرحه وقلقه، هذه الفتاة التي تعدت منتصف العقد الثالث من عمرها تلاحقها نكات الأنصار بسبب صغر حجمها، رغم التعادل الواضح في جسمها بين الطول والوزن، هي ليست ممتلئة ليبان قصرها كما هي ليست بالنحيفة، ظلت في عيون الأنصار طفلة صغيرة، اعتاد كثيرون على مناكفتها بـ (عمو شلونك) ومنهم فتاح الذي تقاسمته غرفة المخابرة، أحد لم يصدق أن هذه الطفلة ستحتمل كُل هذا العذاب الذي هد أجساد الرجال الأشداء، وتظل صامدة، وها هي منذ الوهلة الأولى تستعد لتقاسم عناء المهمة مع فتاح، رغم القلق الذي ألم به، لم يزل على سجيته الممازحة لها:

- عمو وضحة، أنت تبقين عند الجهاز، ثبتي الموجة، وآني أروح أصعد أدور على مكان للأريل.

قالها وكأنه حقاً يخاطب بنت أخيه، ثم حمل الجهاز مع لفة الأسلاك وصعد، لحقه رزوقي، وانتدب نفسه بنفسه لمساعدة المخابر، ظلا يناقلان جهاز أريل الاستقبال والإرسال بين القمم وعبر الوهاد علّهما يلتقطان موجة جهاز القيادة في المثلث الحدودي، لم ينجحا إلا عند الغروب، وبعد أن بدّلا ثلاث قمم بقطوعها ووهادها وشعابها القاسية، أرسلت وضحة أول برقية وحصلت على جوابها.

الغريب في هذا الأمر؛ أن العملية كلها من جلب الجهاز، واستخدامه قد تمت بمعزل عن رأي قيادة الفوج بالموافقة أو الرفض، وهذه واحدة من تجليات اللامركزية في العمل العسكري بعد أن فقدت القيادة بوصلة القيادة.

تحدثت أول برقية وصلت من المركز القيادي في المثلث الحدودي؛ عن معارك كبيرة تدور على مقربة منهم، وعن إنزال مظلي على مقرات (البارتي)

وعن نجاحهم مع بيشمركة (البارتي) وبيشمركة (اليكتي) في دفع المهاجمين بعيداً عن المقرات، كذلك قالت البرقية أن بحوزتهم عدداً من الأسرى من الجنود والضباط. أول من تلقف مضمون البرقية قبل وصولها إلى أبي منيب هو رزوقي اللائب على الدوام، الذي لا يهدأ ولا يستقر في مكان، يتنقل بين المجاميع بخططه العسكرية وأفكاره التي يطرحها بذات العصبية والنرفزة، والاستعداد لمشاجرة من يعترضه أو لا يوافق على رأيه، لعله في قرارة نفسه كان متأكداً من عجز قيادة الفوج.

أينما يكون رزوقي سيكون هناك اجتماع عسكري تنشط فيه الأفكار والخطط للنفاذ من مأزق الحصار، لكنها تظل خططاً وأفكاراً ملجومة باللاجواب على سؤال: وماذا بخصوص العوائل؟ عندها يرتكن الجميع بما فيهم رزوقي إلى قدرية الانتظار.

أشاع رزوقي محتوى برقية المركز القيادي ووصل خبرها فيما بعد إلى جموع القرويين والبيشمركة وكان له وقع مفيد، إذ أعاد بث شيء من الحماس في نفوس الأنصار الذين بدأ القنوط واليأس مع مرض الإسهال بسبب أن اللحم المشوي يتمكن منهم، كذلك جعل بعض كوادر (البارتي) يتقاطرون على موقع الأنصار ليبلغوا قيادتهم عبر الجهاز بوضعهم، محنة هؤلاء البيشمركة هي ذاتها محنة الأنصار أصحاب العوائل، وهي الأصعب من بين الآخرين، إذ غالبيتهم إما من فلاحي المنطقة أو من منطقة مجاورة، مقيدين بعوائلهم الكبيرة، ويلوكون ذات السؤال الذي يشغل الأنصار الشيوعيين؛ ماذا بشأن عوائلنا..!!؟ لكن ما يخفف عنهم؛ أنهم تماهوا بالكامل مع هذا الجيش الفلاحي المحاصر معهم، احتضنتهم عشائرهم وأفخاذهم على عكس الشيوعيين وعوائلهم الذين ظلوا على الدوام على مسافة من تجمعات الفلاحين.

أوصل لهم الجهاز في يوم آخر خبراً عن نجاح مفارز قاطع أربيل بعبور نهر (الزاب) ووصول إحدى مجاميعهم إلى مقر القيادة الحدودي، غير أن هناك كثير من المفقودين من بينهم.

برقية أخرى كانت على شيء من الغرابة، لأنها تسأل عن عائلة محمد صالح كفركي، تطلب التحري عن هذه العائلة هل هي موجودة معكم.!!؟ تبين لاحقاً أن فتاة صغيرة بعمر ٧ سنوات من هذه العائلة انتشلها أنصار قاطع أربيل بعد أن وجدوها لائذة بين الأحراش مرعوبة وفي حالة يرثى لها، اصطحبوها معهم في عبورهم الصعب ولم يتخلوا عنها حتى وهم يشتبكون مع القوات الخاصة على الضفة الأخرى من الزاب. شاع الخبر بين العوائل دون أن يتقدم أحد بمعلومة عن العائلة، قد تكون عائلتها من الضحايا الذين قتلتهم القوات الخاصة حين سيطرت على ضفتي الزاب بإنزال مظلي، وقد تكون نجت وعبرت النهر إلى مكان ما.

كثرت الأخبار التي يتداولها المحاصرون، لكن ليست كلها مصدرها الجهاز، إذ شاع خبر مجهول المصدر عن معارك كبيرة حدثت قرب مدينة (العمادية)، خاضها بيشمركة (البارتي)، ضد الجيش واستولوا فيها على سلسلة الربايا المسيطرة على معبر (سيگيري).

يحمل هذا الخبر في طياته رسالة واضحة؛ أن على هذه الجموع المحاصرة أن تفكر بقلب سلسلة (گارا) إلى وجهها الآخر (بري گارا)، ومن هناك وعبر التلال والوديان والشقوق التي تحرز المساحة الوعرة بين سلسلة (گارا)، وسلسلة (متين) سيقطعون الشارع الرئيسي إلى معبر (سگيري) الكائن وسط المسافة بين مدينة (العمادية)، ومجمع (ديره لوك) لتنفتح أمامهم فيما بعد كل خيارات الوصول إلى الحدود التركية.!! غير أن الخبر كان يحمل في طياته كذلك بذور الشك بصحته، على الأخص بعد وصول مجموعة آزاد ئاميدي التابعة لسرية العمادية، كان هؤلاء مجازين في قراهم حين دهمتهم الأحداث ولم يلحقوا رفاقهم الذين عبروا جبل (متين).

قال هؤلاء أن لا وجود للبيشمركة في تلك المنطقة، لأنهم ظلوا أياماً هناك يبحثون علهم يعثرون على البيشمركة لينسقوا معهم، ثم إن المنطقة مسيطرٌ عليها بالكامل من قبل الجيش، ومن الصعب حدوث هكذا عملية، بل هم جاؤوا أصلاً على أمل تمكنهم من العبور عبر معبر (كافية)، لكنهم ذكروا كذلك

وبعد يأسهم من استخدام معبر (كافية) إن ثمة إمكانية للتسلل بين الربايا العسكرية وعلى مقربة من قلعة (العمادية) نفسها، إمكانية محفوفة بنسبة عالية من المجازفة بسبب حقول الألغام التي تحيط بالربايا.

فكر سهراب بتجربة هذا الخيار رغم نسبة المجازفة العالية فيه، بتهيئة اثنين من الأنصار لمرافقة مجموعة آزاد ئاميدي لتجريب العبور من هناك، على أن يعودا بعد أن يتأكدا من سلامة الطريق، لكنه اصطدم بواقع أن أغلب الأنصار مصابون بمضاعفات الإسهال.

كان لوجبات اللحم المشوي الملوث بما طاب لها من بكتيريا؛ سواء تلك القادمة من الماء، أو من التراب، والنوم في عراء ليالي أيلول الحار نهاراً والبارد ليلاً، أن تفعل فعلها خلال الأيام الماضية بأجساد الأنصار، إن كان بالإسهال أو بالنزلة الصدرية الحادة أو بكليهما.

ظل سهراب يقلب وجهه بوجوه الأنصار المتعبة والذابلة ولم يجد ضالته، المهمة تحتاج إلى أجساد قوية ونشطة، لمح من بعيد دكتور الفوج، ولما قصده وجده هو الآخر يعاني من الإسهال:

- دكتور يعني هسه ولا رفيق صاحي. !!؟

- لا. ليش. أكو كم رفيق كل واحد منهم عنده معدة تطحن حتى الحصو، بس أنت ليش تريدهم...؟

أجابه سهراب الناجي من (الإسهال) وتبعاته، ضاحكاً وربما لأول مرة في تلك الأيام الكالحة يطلق دعابة:

- عندي كم حصوة. أريدهم يطحنوها.

ضحك دكتور عماد، ولما وجد سهراباً يريد الانصراف، استوقفه:

- رفيق سهراب انتظر شوية. اسمع هاي القصة. بس ما أدري هي قصة لو نكتة.

أكو قبيلة بأفريقيا عندهم عقوبة للخارج على قوانينهم يسمونها (الموت بواسطة اللحم)، سامع بهيج عقوبة. !!؟

يحجزون المسكين بكوخ من أكواخهم، ويظلون يطعمونه لحماً فقط على مدى ثلاثين يوماً، كل يوم ثلاث وجبات لحم، وله حق الاختيار يريده شوياً، قلياً، سلقاً، يعني مو مثل حالنا كله شوي، إذا اجتاز ثلاثين يوماً، ولم يمت يعفو عنه رئيس القبيلة، ويطلق سراحه ليعود مواطناً صالحاً من مواطني القبيلة، لكن في الغالب كانوا يموتون إما خلال ثلاثين يوم أو بعدها بقليل، تعرف ليش...؟ لأنهم سيصابون بداء الملوك الذي نسميه طبياً بـ (النقرس). !!

وصل تعليق حمدان الذي كان على مبعدة لكنه سمع القصة، كأنه يلقي قصيدة:

- أيها الدهر اللعين. عشناك صعاليكاً. لكننا سنموت ملوكاً.

أجابه دكتور (عماد) بعد ضحكة قصيرة:

- رفيق حمدان، أطلبك قصيدة.

انتشر الإسهال كالوباء بين الجموع، ليحول ملاذات الصخور والأحراش إلى مراحيض جماعية، هذا الفعل الإنساني شديد الخصوصية والوحيد الذي يحرص الإنسان على تأديته بكل سرية وانعزال عن العالم، قد تحول الآن إلى فعل جماعي يؤدى بمنتهى الشفافية.

الكل يرى الكل والكل في ذات المحنة، لم تعد ملاذات الصخور الكبيرة أو الأحراش تغطي الزخم الكبير من مرتاديها، لذا اضطر من لم يحصل له على ملاذ آمن أن يفعلها في أي مكان، لكن ظلت محنة النساء هي الأشد، إذ ظللن يحرصن رغم الداء والأعداء على عهدهن في سرية الأداء، يخرجن مجاميعاً وكأنهن يؤدين طقساً ما، تبقى واحدة منهن الأقل تورطاً أو الأقل تعرضاً لإلحاح المعدة تحرس المجموعة، تراقب الأنحاء من تطفل الرجال، هن كذلك كن بذات السجية الجماعية بشفافية الأداء، لكنها ظلت شفافية داخل النوع.

سهراب وهو من القلائل الذين قاومت أمعاؤهم تبعات اللحم المشوي، ما زال يبحث عمن يرسله مع مجموعة آزاد ثاميدي، لمح حسام الصغير يريد التوجه إلى تجمع العوائل لتبديل الحارس هناك، وبدا هذا هو الآخر يبحث عنه، لأنه بادره من فوره:

- رفيق سهراب. عندي اقتراح. ليش تبدلون الحراسات كل ساعة واحد. آني مستعد أحرس طول النهار.

سهراب فهم ما وراء الاقتراح، أجابه:

- هسه اترك الحراسة، أنت راح تروح بمهمة.

(٢٣)
كل مصائبنا من ورا العرب

مع حضور جهاز اللاسلكي وراديوهات الترانستور، تحول تجمع الأنصار إلى ما يشبه وكالة أنباء، يقصدها الفلاحون لمعرفة آخر الأخبار خارج أسوار العنكبوت، لم يبق ثمة سر يمكن الاحتفاظ به لمجموعتهم، أخذت تنتقل حتى النوايا على أنها أخبار تازة؛ مثل:

الشيوعيون سيفعلون كذا والبيشمركة سيفعلون كذا، ومثلما تداخلت معها أخبار ونوايا الطرف الآخر (الجيش)، ومازالت مصادر الأخبار مجهولة، على طريقة قال فلان عن فلان عن علان، اختلطت الأشياء ببعضها وغدا الأمر ينبئ عن مخاطر محتمة، على الأخص فيما يخص إمكانية استمكان جهازهم وقصفه.

غير أن ثمة خبر كذلك مجهول المصدر، أنبأ الشيوعيين باقتراب خيوط العنكبوت من رقابهم وحدهم هذه المرة! أُشيع عن حوار جرى بين أحد كوادر البيشمركة (لم يذكر الخبر اسمه) ورئيس فرسان من الطرف المهاجم، كذلك لم يُذكر اسمه، وعلى الشكل التالي:

- بسمام. البيشمركة أولاً وأخيراً هم أولادنا. والحكومة وعدتنا أنهم يقصدون الشيوعيين العرب وبس، توكلوا على الله وسلموا نفسكم. وهذه رقبتي ضمان. !!

قيل إن ذلك (الفارس) قد ضرب رقبته السمينة بكف يده السمين دلالة على توقيع الاتفاق بين الاثنين.

لكن وعلى الرغم من المواقف الواضحة لبعض قادة البيشمركة وتصريحهم بعدم الاعتماد على رقاب مثل هؤلاء (الجحوش):

- العرب إخواننا وحالهم حالنا، لا تصدقوا الإشاعات.

ظل كثير من الفلاحين يريدون تصديق الخبر مصرين على تطويب المأساة باسم الأنصار العرب، وعلى حد قول أحدهم:

- كل مصائبنا. من ورا العرب. !!

فُهم الأمر لدى الأنصار؛ أن هناك رغبة واضحة لدى القرويين لتسليم أنفسهم، لم يتحمل الناس مزيداً من المطاولة وهم يرون عوائلهم تتضور جوعاً وعطشاً ومرضاً أمام عيونهم، الأمر الذي جعل سؤالهم القديم منذ بدء الأزمة حاضراً وبقوة: ماذا بشأن عوائلنا نحن؟ هل ندفعهم للنزول مع عوائل المنطقة فيما لو نزلوا. أم نبقيهم معنا؟

تُرك السؤال بكليته لأصحاب العوائل يجيبون عليه، وهؤلاء كانوا الأشد حيرة من غيرهم، لأن ملامح السؤال لا تجعله ينتمي للأسئلة النظرية التي قد تجيب أو لا تجيب عليها، السؤال يخص أجزاءً من أجسادهم هي: أولادهم، بناتهم، زوجاتهم، آباؤهم، أمهاتهم، هل يتخلون عنها؟ هل يثقون بالحكومة التي سجنتهم وعذبتهم وهجرتهم؟ هل سيكونون بمنجاة من مخالب البعثيين الذين خبروهم جيداً؟ كيف يقنعون من ترفض هذا الخيار من النساء اللواتي ربطن مصيرهن بمصير الأزواج ومنذ البدء...؟

لكن وعلى الجانب الآخر. هل باستطاعتنا نحن أن ننفذ بهم إلى الحدود؟ أن نحميهم فيما لو حصل الهجوم. وهل نعرف أصلاً ملامح القادم من الأيام. ألا نضطر للقتال وهم معنا...؟

خضم من الأسئلة تتشعب وتتوالد من السؤال الأول، ولا جواب يطفئ الحرائق التي يتلظون بها من الداخل، أعادوا حيرتهم مجدداً إلى الاجتماع الذي عُقد على عجل، على أثر ذلك الخبر أو الإشاعة مجهولة المصدر، أطال أبو

منيب تحديقه في الوجوه وهو يرى حيرة العيون، وقرر أن يجيبهم وبتجرد واضح مما هم مبتلون به.

- رفاق أنا أرى ألا نميز عوائلنا، إن نزل الفلاحون ننزل عوائلنا معهم. اختلاط عوائلنا بعوائل الفلاحين سيجعلهم بمنأىً عن إجراءات تمييزية محتملة فيما لو سلموا أنفسهم فيما بعد أو أُسروا، وكما ترون كل الاحتمالات واردة.

هو أيضاً صاحب عائلة، له زوجة وأطفال، لكنهم خارج الحدود، منذ التحاقه تركهم في دمشق بعهدة الحزب هناك، ووصله أن زوجته ومنذ سنين وجدوا لها عملاً في شركة هندسية، وأولاده التحقوا بالمدارس السورية، الأمر الذي يجعل رأسه وعلى طول الخط بارداً من جهتهم.

لكن، من لهؤلاء البؤساء المعروضة مصائرهم في سوق الانتقام والثأر الجماعي بجريرة ذويهم...؟

الغريب الآن، أن المعارضين لهذا الخيار الذي طرحه أبو منيب كانوا من غير أصحاب العوائل. !! وهؤلاء كانوا يناقشون المشكلة ببعدها الأخلاقي وليس الوجودي:

- نسلّم عوائلنا. !!؟ هذا عار علينا، ماذا سيقول الناس؟ الشيوعيين سلموا زوجاتهم وبناتهم للجيش، هذه وصمة عار ستلطخ تاريخنا، أنا لست مع هذا الرأي.

هذا ما قاله أبو حمدة بغضب واضح، ليرد عليه أبو منيب وعلى غير عادته المتأنية في الردود:

- رفيق مو أحسن من أن يقولوا علينا؛ الشيوعيين قتلوا أطفالهم وزوجاتهم وتسببوا بقتل الألوف من عوائل المنطقة. !!

بدا أن كلا المنطقين مقنعان للمجتمعين، والحيرة لم تكن في اختيار أحدهما، إذ لا قدرة على استشفاف نبوءة واحدة مما سيحصل فيما لو نزلت

العوائل، مثلما هو غير قادر على توفير ضمان نجاة العوائل من القتل والإبادة فيما لو حصلت معركة.

خرج الاجتماع بقرار عدم تمييز عوائلنا عن عوائل المنطقة، نفعل ما يفعلون، لكن الجدل خرج من الاجتماع المغلق إلى حلقات النقاش المفتوح بين الأنصار المرضى والأصحاء والجميع يلوِّح بالحل الوحيد:

ننسحب كلنا إلى الحدود، لكن بلا توضيح كيف سيكون الانسحاب والمعابر والطرق كلها ممسوكة؟

ربما قصد الأنصار أنفسهم بهذه الحلول، وهي ممكنة التحقق، إذ تعودوا على التخفي والتسلل بين الكمائن. لكن ماذا بشأن هذا الجمع غير العسكري أصلاً...؟ ظل أصحاب العوائل يجترون مأساتهم بمرارة ولوعة وهم يتبادلون الاحتمالات التي ستحصل فيما لو سلموا مصائر زوجاتهم وأطفالهم لعدو خبروا وسائله الثأرية أكثر من غيرهم.

تعالت أصوات الأنصار المتحلقين في حلقاتهم إلى حد الصراخ تبعاً للحالة النفسية التي تهيجها مضاعفات الإسهال المستحكم بأجسادهم، وبضغط من هذا الجدل الحامي بين مجاميع الأنصار، قرر المسؤول الأول إخراج مجاميع متعددة وإلى أماكن مختلفة، لاستكشاف خارطة انتشار الجيش أولاً، والبحث عن طرق جديدة تُوصل إلى الحدود، لا يهم أي حدود، المهم الخروج من شرنقة هذا الحصار الخانق.

طلب من مجموعة (عقرة) العودة من حيث أتوا على أن يصطحبوا معهم نصيرين من غير المجموعة، مهمتهم العودة لإعلام القوة في حالة اكتشاف إمكانية لعبور نهر الزاب، كان أنصار مجموعة (عقرة) الأقل تعرضاً لوباء اللحم، وافقوا على الأمر شرط أن يكون أحد الاثنين هو (كمال) رغم معاناته الواضحة من مضاعفات الإسهال، أجابهم أبو منيب:

- سنلحق بكم نزار وعواد، أما كمال فاسألوه، هل يقدر على مرافقتكم؟

أجاب هاوار:

- راح يقدر، بس يشوف دايكه عيشه راح يشفى تماماً. !!

قالها بنصف ابتسامة وهو يقصد الأم عائشة امرأة الرشمال الزيباري القوية، التي التقوها وقبيلتها الصغيرة في مكان ما من تلك السفوح والتلال المطلة على الزاب، واضح أن هؤلاء الزيباريين هم كذلك تركوا مكانهم وهاموا على وجوههم بحثاً عن منفذ للعبور، لم تشفع لهم زيباريتهم، لأنهم محسوبون على النصف الآخر من الزيباريين؛ أولئك الذي صاهروا الثورة وقائد الثورة منذ زمن بعيد، والذين باتوا يعرفون منذ ذلك الوقت بـ (أخوال الثورة)، كذلك تقرر الاستفادة من معرفة مجموعة (العمادية) بالطرق الواقعة خلف سلسلة (گارا) إذ جرى شطرها إلى مجموعتين بإضافة عدد من الأنصار إليهم، الأولى بقيادة آزاد ئاميدي لاستكشاف ذلك الطريق الواقع أسفل رابايا (العمادية)، والأخرى بقيادة أوميد بامرني النصير التابع للفوج الثالث أصلاً، وهو من الأدلاء في مناطق عشائر (الدوسكي)، و(برواري باله) وهذه مناطق لو تم الوصول إليها ستوفر حتماً منافذاً للوصول إلى الحدود التركية، حسب تأكيد أوميد. كذلك أُرسل اثنان هما حاجي وشيخ لقمان لاستكشاف طرق جديدة توصل إلى (سهل الموصل)، كما جرى تكليفهما بمهمة أخرى فيما لو وصلا إلى هناك، هي تحقيق اتصال مع (محطة سنجار) الحدودية مع الحدود السورية، تقرر أن تتحرك كل المجاميع فجراً.

اتفق (سهراب) مع قادة السرايا حاتم وأبو حمدة ومسعود على أسماء الأنصار المنتدبين لهذه المهمات، على أن يكونوا من الأقل تعرضاً لنزلات البرد والإسهال، كان الأربعة يتداولون الأمر دون أن يعلموا أنهم على مقربة من (المنتجع) الخرائي للصحفي مدلول، هكذا أطلق الأنصار على أماكن التفريغ الإسهالي (منتجعات).

طوّبَ كل واحد من المتورطين بداء اللحم مكاناً له يفرغ ما تجود به معدته من مضاعفات الإسهال اللحمي، تفاجأ الأربعة حين خرج عليهم هذا من وراء صخرته وهو يسوي شرواله، بادرهم من فوره وبغضب:

- هاي شبيكم، يعني ما لكيتوا مكان تجتمعون بيه غير المراحيض.

ضحكوا رغم المفاجأة، إذ لم يتوقعوا وجود أحد في المكان الذي اختاروه للاجتماع، علق أبو حمدة:

- ولا يهمك رفيق الوضع كله صاير مراحيض.

سأله سهراب وكان يفكر بإضافته إلى إحدى المجاميع:

- زين أنت هسه شلون شايف وضعك الصحي، أقصد تكدر تطلع بمهمة ؟

أجاب هذا:

- والله كل اللي أعرفه، آني هسه خلصت الواجب، وكل نص ساعة عندي طلعة، إذا يصرفلكم هذا الوضع آني جاهز؟

ضحك سهراب:

- زين لعد. روح ارتاح.

رجع هذا يتلمس طريقه إلى حيث فراشه المؤثث من بعض الأغصان وأوراق شجرة الجلو، شعر براحة تشبه الحرقة أطلقتها أحشاؤه، ظنها كما في كل مرة أنها نهاية الإسهال، وعلى وهج ضوء النار، بدأ يسجل في دفتره وعلى عادته اليومية أهم الأخبار التي تناقلتها الإذاعات لذلك اليوم.

بدأها بالخبر الذي كررته كل الإذاعات الأجنبية، الخبر الخاص بترحيب الرئيس التركي (توركوت أوزال) بعائلات (شمال العراق)، وعلى حد قوله في الخبر المنقول عن الـ (بي بي سي):

.. هذه العائلات ما كانت استطاعت اللجوء إلى تركيا، لو لم تكن تركيا بلداً ديمقراطياً. !!

وضع الخبر بين قوسين، ثم كتب في ذيله:

هذا الرجل المحتال يخاطب أوروبا هذه المرة، أوروبا التي ما زالت أبوابها مؤصدة بوجه دخول تركيا إلى اتحادها.

سجل خبراً آخر انشغلت به إذاعة بغداد و(صوت الجماهير) حول البادرة الكريمة التي اجترحها الرئيس القائد (صدام حسين) تحية لأخيه الرئيس المصري (حسني مبارك) الزائر بغداد مهنئاً بالنصر؛ إذ أمر بإطلاق سراح كل السجناء المصريين في السجون العراقية عفواً عاماً شاملاً عن الجميع، وعلى عادته وضع الخبر بين قوسين وذيله بتعليقه:

هذا الأمر يخص تجار المخدرات ومروجيها، واللصوص، والقتلة من الأربعة ملايين مصري الذي استوطنوا بلاد ما بين الحربين لتعويض الأيدي العاملة المنشغلة بحروب الداخل وحروب الخارج، ثم سجل الخبر الذي كان يتابعه المحاصرون كل يوم وكأنهم يتابعون مسلسلاً إذاعياً، الخبر الذي خف ضجيجه منذ أيام لينزوي في ذيل النشرات الخبرية لبعض الوكالات، ولا يُذكر في وكالات أخرى، الخبر الخاص بمحاولات شيوخ الديمقراطيين المعارضين لشيوخ الجمهوريين الحاكمين في البيت الأبيض.

في البدء ألحّوا وأصرّوا على إنزال (عقوبات قاسية) بالنظام العراقي لاستخدامه الأسلحة المحرمة دولياً ضد شعبه، ثم غيروا لهجتهم من عقوبات قاسية إلى (عقوبة من نوع ما)، ثم تنازلوا أكثر من هذا، إلى (مناشدة. !!) وحتى هذه لم يقرها الكونغرس المسيطر عليه جمهورياً، ذيل الصحفي هذا الخبر بـ:

نامي جياع الشعب نامي. حرستك آلهة الطعام. !!

لا يدري لِمَ تذكر الآن هذا البيت المشهور للشاعر (محمد مهدي الجواهري)، وضع دفتره وأخذ يبحث في كوم الأحجار الصغيرة التي بجانبه، ليحوط بها فراشه، لقد درج وبعد كل وجبة يقذف بها جسده في العراء الخرائي أن يجلب معه بضعة أحجار يراكمها عند فراشه، كانت حصيلته الآن لا بأس بها وهي كافية لتسوير جسمه كله، أغلق سوره الحجري وحاول النوم، لكن ما كان يفعله وافي غير البعيد عنه لم يدعه ينام، كان هذا داخلاً في نوبة جديدة من هرس الجلد وحكه بقساوة تترك أثرها دماءً وخطوطاً على طول ربلة ساقه.

لقد ابتلي وافي ومنذ الأيام الأولى لاتخاذهم من الكهوف قواعد ثابتة للسكن والمبيت، ابتلي بحشرة (البنطك) هكذا يُعرف اسمها كردياً، ولم يعثر لها طبيب الفوج على مرادف عربي، لقد تطفلت تلك الحشرة عليه وهو نائم مفقسة بيوضها تحت جلده، ومنذ ذلك اليوم وعذابات الحك والهرس لم تهدّئها إلا أدوية الكورتيزون تلك العبوات التي أوصى عليها الطبيب بكميات كبيرة، لكن ما أن يعطي واحدة لأحد المصابين وقد كثروا حتى يردفها بنصيحة ألا يدمن عليها النصير؛ لأن للكورتيزون مضاعفات خطيرة على مناعة الجسم.

وجد مدلول أن وافياً على وشك تمزيق شرواله وهو الممزق أصلاً ومن عدة أماكن، ناداه من مكانه:

- وافي. سمعت اسمك مع المجاميع اللي رح تطلع استطلاع، عسى أن تجد شروالاً في قرية من القرى.

بحكم التجربة يعرف وافي أن النوبة لا تطول سوى أيام تكون فيها شديدة قاسية، ثم تأخذ بالخفوت حد التلاشي، لقد نفذت منه آخر عبوة كورتيزون منذ شهر، ولم يحصل على غيرها، وواضح أن الهدنة التي تمنحها تلك الحشرة قد انتهت وهو الآن في محنة أيامها القاسية، لذا علق على نصيحة مدلول:

- بس المشكلة يا مدلول هي تحت جلدي، وليست في شروالي.

(٢٤)
رحلة التيه

تقاسمت المجاميع الثلاث ظلال الفجر المترهل وغابت في الجهات. حملوا ما استطاعت أكتافهم حمله من أرغفة الخبز التي عملوا عليها طيلة الليل مع السكر والشاي، ما زالت ذيول داء اللحم والنزلات الصدرية تعلِّم هزال الأجساد واصفرار الوجوه لهذه المجاميع التيَ تروم التسلل من بين شباك العنكبوت بحثاً عن ثغرات متروكة هنا أو هناك؛ لإنقاذ الحشر البشري الذي ينتظرهم.

إذا كان خيار (سهل الموصل) هو رحلة الهروب إلى أمام، وبالتالي لا أحد يتوقع منها فتحاً من نوع ما، فإن الآمال كلها انعقدت على من سيعود من المجموعتين الجبليتين، ليأخذ بيد هذه القوة المعنكبة إلى حيث الحدود، إلا أن عقدة هذا الخيار وبعد الانتشار العنكبوتي للجيش والفرسان، الذي حرمهم مما توفره المضائق والمعابر الجبلية من تسهيلات لهذه الألوف التي جلها من غير المقاتلين، تكمن الآن في الجبل نفسه.

الجبل الذي ولكي يثبت لنفسه أنه جبل، لا يكف عن انقسامه على نفسه ومن نفسه إلى جبال وهضاب وتلال وأكمات متوالية، أحد لا يصدق الجبل إذ يوهمه أن القمة التي يتسلق شعابها وسفوحها ووديانها الصغيرة والكبيرة ستكون هي الأخيرة، على الدوام ثمة جبل آخر يكمن خلف هذا الذي يتسلقه، وما عليه سوى توطين النفس على الاكتفاء باستراحات مستقطعة تمنحه إياها القمم المتنحية إلى الخلف، أو الانحدار على السفح الآخر، الانحدار ومهما كان وعراً أو مسطحاً فإنه يمنح الجسد بعض الارتخاء والرأس بعض الهدوء، واللسان شيئاً

من بلل العرق الناضح من الجبين والعيون، ولأن كل عيون الماء مرصودة، ما على المقاتل سوى أن يرتشف عرقه الناضح ويروي به ظمأه الباحث عن نبع الماء، حتى ليبدو الأمر وكأن الهدف من تسلق الجبال وقطع الدروب الوعرة هو فقط للتزود بذلك الماء الذي يمن به الجبل في مقطع ما من مقاطع الرحلة، عدا هذا هناك المقاطع الإجبارية من رحلة التسلل، شارع مؤثث بالقير والعسكر، عين ماء مرصودة، عبور نهر، شيء من هذا وغيره، على المتسللين المرور منها مروراً لا يزعج حتى البهائم المجاورة، لئلا يوقظوا حراس الكمائن الموقوفين لخدمتهم بصلية تتبعها أخرى وأخرى. هل سينجحون...؟

هذا السؤال لا يسأله المحاصَر الباحث عن الخلاص بأية وسيلة وإلى أي اتجاه، بل يتداوله الأدلاء مع أنفسهم، هؤلاء الذين وما أن يضعوا أنفسهم على رأس القافلة، حتى يتورطوا بحياة وموت السائرين خلفهم. صحيح هم خبروا أبجدية هذه التضاريس على مدى سنين الرفقة الطويلة، لكنها الآن لم تعد كذلك، من الآن هي تضاريس غريبة، ستتحول كل محسوساتها إلى مكامن لخطر محتمل.

قد يكمن الخطر خلف الشجرة التالية، وقد يكون وراء الصخرة المقابلة، وقد يكون في الليل هذا الذي كان صديقاً أنيساً للأنصار، من الآن لم يعد الليل ليلهم، ستنفصم عرى تلك الرفقة لتتحول كل خطوة يخطونها إلى فتحٍ في أرضٍ جديدة، مسيرة ليلة من ماضيهم القريب على ذات التضاريس ستأخذ لها الآن ليالي قد تطول وقد لا تتحقق.

إنها رحلة استكشاف أرض غريبة لا تتهاون مع تلك الأخطاء التي درجوا على نعتها بالصغيرة، من الآن ستتساوى كل الأخطاء بالنتيجة.

بعد عبورهم الوعر لسلسلة (گارا) ودخولهم إلى منطقة (بري گارا) التي كانت صديقة لهم، كان عليهم الانشطار إلى مجموعتين، مجموعة آزاد ئاميدي للبحث عن طرق بين تلك الربايا القديمة المطلة على قلعة العمادية ومن ثم عبور سلسلة (متين)، ومجموعة أوميد بامرني لعبور ذات السلسلة إنما من

طرفها البعيد إلى اليسار، هناك حيث تحتضن سلسلة (متين) ناحية (بامرني) الخالية من السكان وسلسلة القرى والتضاريس التي ستوصل إلى مناطق (برواري باله) و(الدوسكي)، وفي ذهن أوميد إن هم وصلوا إلى هناك فالمتبقي من الرحلة سيكون أسهل حتى الحدود.

بعد منتصف الليلة التالية بقليل، نجحت مجموعة آزاد بعبور شارع العمادية-ديره لوك متسللين بين كمائن الجنود إلى تلك الفسحة الكائنة بين المدينة-القلعة ومصيف (سولاف) المجاور، اتخذوا الثغرة غير المتوقعة، لأنها المحمية بأكبر عدد من الربايا، هنا تجلى ذكاء (آزاد ئاميدي) وخبرته في الدلالة، حين تكون الربايا متقاربة لا حاجة لحقول ألغام، ثم التفوا من فوق الربايا التي تحرس القلعة، وبهذا الالتفاف تخطوا مخاطر حقول الألغام، إذ لا ألغام بين المدينة والمصيف.

قديماً، كان مضيق (سيگيري) الذي على يمينهم والمحروس الآن بالعسكر والفرسان، هو الثغرة التي يتحايلون من خلالها على قساوة ومنعة هذا الـ (متين) الفقير لعيون الماء، المضيق يشق السلسلة عرضياً، موفراً مسالك للصعود بتدرج مريح يمكن قطعها بأقل من ساعة، وكانوا من هناك يصلون إلى كل الاتجاهات الكائنة خلف السلسلة بما فيها مقر قيادة قاطع (بهدينان) في گلي (زيوه).

في كل الأحوال لم تعد توقيتاتهم القديمة معمولاً بها الآن، عليهم الآن مواجهة الجبل وجهاً لوجه بلا تحايل والتفاف من أي نوع.

آزاد ئاميدي وبغريزته الجبلية وهو ابن هذه الجبال، لاحظ ومع الوقت أن عدم التوقف خطر بالدرجة ذاتها فيما لو توقفوا للاستراحة، لشدة الصعود والنزول على هذه القمم المتناسلة، سينزل عقل وتركيز المقاتل وبالتدريج إلى قدميه، على الأخص على سفوح المنحدرات إن كانت وعرة أم سهلة، ستظل عيناه مصوبتين إلى الأرض وهو يمشي، لا ينظر جانباً ولا إلى الأمام، لن يرى شيئاً وإن مر على بعد مترين من رجل جامد، طالما لا تصدر عنه حركة.

إنها تبعات اجترار التعب المتواصل، الذي سيجعل مع الوقت طابورهم كطابور مسرنمين يتبعون جنازة، غارقين في تفكيرهم بأفضال وأخبار ومآل المتوفى وعائلة المتوفى وتفاصيل العزاء، عملية اجترار ذكريات لا يصغون فيها لأي صوت غير صوتهم ولا يرون شيئاً غير أفخاذهم وأقدامهم وأحذيتهم وكواحلهم، كما أن ضجيج الدماء في العروق وعلى الأخص عروق الرقبة، حيث التشنجات هي الأكثر إيلاماً بسبب حقيبة الظهر، تجعل الطابور يسير كيفما اتفق وبعيون مغمضة، بينما هم بأمس الحاجة إلى التركيز ومزيداً منه في المسافة المتبقية لهم من الطريق.

لكن الاستراحة هي الأخرى، ليست حلاً لهذا الخدر الشامل الذي هم عليه، حين ترتخي عضلات الرقبة، ويسحب النصير منديله الموضوع تحت سيور حقيبة الظهر لمنعها من تحزيز عظام الترقوة، ويأخذ بتنشيف العرق الناضح من عينيه ووجهه، ثم يركن البندقية المتحولة إلى قطعة من الجسد إلى جانبه، ثم حين يرتشف رشفة ماء من وشل قاع الزمزمية ويتبعها بسحب نفس من لفافة تبغ، عندها لن يكون بمقدوره مقاومة سلطان النوم، مما يجعل بإمكان أي عابر سبيل ومهما كان خوفه من المسلحين أن يأسر طابور الأنصار وبأسلحتهم، هذا إن لم يقتلهم.

خرج الدليل من خيرة تبادل حلوله لحالة الطابور، إلى الاستراحة، لمح في جوف الظلام أكمة كثيفة من الأشجار تشبه غابة وسط هضبة صخرية وقرر الاستراحة هناك.

ثلاث ليالٍ من المسير المسرنم، يتخفون في النهار بين طيات الجروف الصخرية، بعيداً عن عيون الماء وعن البساتين، يحصلون خلالها على بضعة سويعات من النوم المتقطع، يتقوتون على ما حملوه في حقائبهم من أرغفة الخبز مع الماء، ما تسعه زمزمية[٢٢] الماء لا يسمح بأي نوع من أنواع الترف؛ كأن يعملوا شاياً مثلاً، لذا تخلصوا من (قواطي) الشاي لئلا تتحول بذاتها إلى إغراء لا يمكن مقاومته.

٢٢- زمزمية: مطرة ماء

يسابقون ساعات الليل لقطع أطول مسافة ممكنة على اللاطريق السائرين عليه وفق بوصلة رأس الدليل. هدفهم تلك القرية الحدودية المنقسمة على نفسها بين بلدين (هيركي) القرية التي شهدت بدايات حركة تمردهم قبل اشتعال الحرب الخارجية.

لم تزل معلومات الدليل ولعلها غريزته الجبلية تؤكد له إن تلك القرية ستظل عصية على الجيوش.

تشاغل حسام الصغير الملحق بالمجموعة مع رفيقه منار، بالعبث بموجات الراديو الصغير الذي أخرجه من جيبه، كانوا في آخر استراحة نهارية وفق إحداثيات رأس الدليل (آزاد ئاميدي)، تنّقل مؤشر المذياع بين محطات الموسيقى والغناء ليستقر أخيراً عند دقات ساعة (بگبن) و(هنا لندن.)، كانت النشرة المسائية لهذه المحطة، ما أن سمع آزاد دقات (بگبن) التي بدت له أنها ستوقظ كائنات هذا الجبل وليس مجرد أهالي لندن، حتى وبّخ حسام:

- رفيق سد الراديو.

خفّضَ حسام الصوت ولم يقطعه تماماً، وكان الخبر الأول الذي التقطه من موجز النشرة هو (العفو عن المتمردين الأكراد)، ذكره المذيع على رأس النشرة دون إيضاحات، عندها رفع الصوت، حتى سمعه الجميع الذين كانوا منتشرين على مسافات متباعدة.

فهموا أن ثمة قرار عفو قد صدر اليوم من الحكومة العراقية خاص بالكرد فقط، بالنسبة لهذه المجموعة المسرنمة من المسير الليلي والتي هي على مشارف الحدود، لم يعن القرار لهم شيئاً، جميعهم من غير المتورطين بعوائل، وليست لديهم تلك الثقة التي تجعلهم يصدقون ما يصدر عن الحكومة لتاريخ طويل من الصراع، غير أن حسام وهو يتسمع لتفاصيل الخبر، شعر حالاً بما يشبه الوخز في رأسه مع تصاعد نبضات القلب، ومع انتشار الوخز في كل جسده أحس وكأن قلبه نط إلى وجهه، كل شيء صار ينبض بتواتر سريع، أخذت عضلاته بالتوتر أكثر مما كانت عليه قبل قليل، بل شعر بغصة في الحلق وكأنه يوشك على ابتلاع شيء كبير لا يحتمله.

تعرّف سريعاً على ذلك الشيء المستعصي على البلع؛ هو روزا، خمّن أن مصيرها سيكون مصير عائلتها فيما لو استجابوا للعفو وسلموا أمرهم، هي وعائلتها من الكرد والعفو يشملهم، كذلك ستشعر القوة المتبقية هناك بشيء من التخفف فيما لو تخلصوا من ثقل العوائل.

فجأة رأى نفسه على مفترق طريقين يسيران باتجاهين متعاكسين تماماً، طريق روزا إلى الداخل وطريقه هو الآن السائر به إلى الخارج، استعاد رأسه سريعاً قصة حبهما من أولها، وبجردة سريعة وجد العلاقة مكتظة بل مختنقة بكثير من المتعاكسات، والتي لم تبدأ بعمريهما غير الصالحين للزواج، ولا بطائفتيهما المحرّم عليهما الزواج من بعض ولن تنتهي في ملابسات الظروف الجديدة المحيطة بهم، كأن كل شيء في هذه القصة عمل منذ البداية وما زال يعمل على تهديمها، لا شيء فيها واضح لهما ومفهوم غير الحب. لكن، متى كان الحب مفهوماً على هذه الأرض؟

وعلى غير ما توقعه من نفسه وهو يستعيد تفاصيل هذا الحب المستحيل، دارت سريعاً في رأسه خطة وجدها متكاملة، بما أنه اكتشف الطريق، إذن، ما عليه سوى العودة السريعة واللحاق بها لاختطافها من عائلتها. لن يصطحب غيرها. !! هذا الخيار سبق له وأن تداوله معها:

- نهرب إحنا الاثنين. وشيصير خل يصير. شتكولين؟

أجابته في كل المرات التي طرح عليها هذا الخيار بصمتها، لم تقل شيئاً، اكتفت بهز رأسها تلك الهزة التي تحمل دلالتي الرفض والموافقة، كل الذي تعرفه أنها تريد البقاء بقرب حبيبها، أن يتحول حلمها إلى حقيقة، أن ترى فتى حلمها لا يتخلى عنها مهما تكن ظروفهما، لكنها كذلك لا تريد مفارقة أمها وأختها وأخيها الصغير، أقفل حسام على مشروعه المصنوع مسبقاً، وكأنه خائف عليه منه، لكن، حمدان كان له بالمرصاد. لا يدري لِمَ هو يستعيد وجه حمدان كلما لمح بصيصاً في نفق علاقته بروزا.

- حسومي. ترى عشگ أول العمر جتال. !!

كان حمدان وكلما صادفه، يُسمِعه هذا البيت الشعري المقتطع من قصيدة جنوبية معروفة، رغم أنه كان يقلب معنى البيت رأساً على عقب، لم يكن البيت الشعري يتحدث عن عشگ أول العمر، بل عن عشگ تالي العمر.

في البدء كان حسام لا يأخذ دعابة حمدان على محمل الجد إن كان لحداثة سنه وبالتالي حداثة تجربته الحياتية أو حتى للغته العربية غير المكتملة والقادرة على الغوص فيما وراء الكلام، هو قد تعلم العربية ولم تكن هي لغة أمه.

ظل وجه حمدان وبيته الشعري ينط بوجهه كلما عزم على تنفيذ خطته، تململ في جلسته ثم نهض منتشلاً بندقيته كأنه يريد الهرب من نفسه، قرر العودة ومواصلة عشگ أول العمر، نكاية بحمدان، أخبر مسؤول المجموعة:

- رفيق آزاد آني لازم أرجع.

أجابه هذا بلا مبالاة:

- وين ترجع. بعد قدامنا نصف ليلة.

- أعرف بقية الطريق.

لم يعلق هذا، غير أن (منار) رفيقه المقارب له عمراً، فهمه سريعاً. قال:

- انتظرني أرجع وياك.

إذا كانت مجموعة آزاد ئاميدي قد شارفت على نهاية الطريق، مكتشفة طريقاً جديداً للعبور، فإن مجموعة أوميد بامرني قد علقت في أول الطريق واقعة في شباك العنكبوت، لقد انتظروا طويلاً على السفوح المطلة على شارع سرسنك-عمادية وهم يتابعون حركة الكمائن والدوريات العسكرية على الشارع.

كانوا ينتظرون غياب القمر هذا السائر ببطءٍ شديد على صفحة السماء كأنه يناكدهم، ولما اختفى أخيراً لم يتبق من ليلهم سوى ساعات قليلة، نجحوا بعبور شارع سرسنك-عمادية بين كمينين من الكمائن الكثيرة التي تحرس الشارع، قاصدين كتلة السواد التي أمامهم.

كانت تلك الكتلة وفق معلومات (أوميد) مجموعة بساتين وتضاريس أرض متموجة فيها جدول ماء.

قرر التزود بالماء من هناك، ومن ثم المواصلة لقطع أطول مسافة ممكنة في تلك التضاريس السهلة قبل طلوع الفجر، لكن وعلى بعد أقل من مئة متر من تلك الكتلة السوداء، انهمر عليهم الرصاص من الأمام، بالضبط من المكان الذي حسبه الدليل آمناً، ليتبعه بعد حين رصاص الكمائن التي خلفوها وراءهم على الشارع، غدوا الآن بمرمى نيران متقابلة، وكأن الطرفين يطلقان على بعضهما.

استنتج (أوميد) أن الفوضى ليست عندهم فقط، لا يمكن أن يحدث هذا إلا في حالات أن مجاميع الجنود لا يدرون شيئاً عن بعضهم، طلب من القريبين منه التزام الهدوء وعدم الرد والبقاء ملتصقين بالأرض. الرمي متواصل من رشاشات متوسطة وبنادق خفيفة والرصاص الملون يوز فوق رؤوسهم، يتقطع أحياناً، لكنه يعاود كثافته ما أن يبدأ أحد الطرفين بالإطلاق.

استغل إحدى الانقطاعات وطلب من رفاقه أن يلحقوه، كانت المسافات بعيدة بين نصير وآخر، لذا لم يلحق به سوى ثلاثة كانوا قريبين منه نسبياً، ركضوا على مساحة جرداء وبلا نظام، مقتفين سواد كتلته المتماهية مع الليل، تبعوه إلى حيث اختفى هيكله تماماً من أمامهم في أحد شقوق الأرض.

اكتشفوا بعد حين أن هذا الشق لا يستمر سوى بضع عشرات من الأمتار، ثم تستوي الأرض ويعودون من جديد للانكشاف أمام الرماة ومن المتراسين المتقابلين، كمنوا هناك لحين خفوت أصوات الرمي، عل الخمسة الآخرين يتبعونهم.

فكر أوميد أنه من الجنون البقاء في هذا الشق الأرضي المحدود والخالي من أية إمكانية للمقاومة، إذ من السهل أن يتحول إلى مقبرة جماعية حال انكشافهم أمام دوريات التمشيط النهاري، لكنه، كان حائراً بين خيارين، أن يختار البساتين الكائنة يساراً والتي يراها غير بعيدة عن مكمنهم، حيث الماء وثمار التفاح

والمشمش وأنواع الخضروات المزروعة بين البساتين وهم الجياع والعطشى، أو يختار سفوح سلسلة (متين) والبقاء هناك دون ماء طيلة النهار.

لم تطل حيرته طويلاً، إذ أشارت عليه غريزة الحياة بالخيار الثاني مواجهة وعورة الجبل وليكن العطش، لم تصب رمايات الليل أياً من المجموعتين، ظل الخمسة الآخرون على انبطاحهم، معانقين رائحة الأرض متشبثين بترابها وكأنهم يريدون أن يحفروا لهم شقاً آخر يغورون فيه بعيداً عن الرصاص المتخاطف فوق رؤوسهم.

لم يميزوا الاتجاه الذي انسحب إليه دليلهم ومن تبعه من رفاقهم، ومع تخافت إطلاق النار قريب الفجر، تحركوا كمن يسير على غير هدى، مرة يتجهون يميناً وأخرى يساراً، مجموعة تسير بلا رأس يقودها، كانوا جميعاً بنفس الدرجة من الجهل بتضاريس المنطقة والدرجة من التعب، الأمر الذي جعل ردود أفعالهم تنتمي للفردية، كل يفكر أو يفعل ما يجده مناسباً لإنقاذ نفسه أولاً، لكنهم ظلوا يسيرون كتلة واحدة، عيونهم وهي تتطلع إلى سلسلة جبل (متين)، تتوسل وتعاتب ذلك الارتفاع الشاهق المعانق للنجوم.

كان الارتفاع الشاهق وضخامة السفوح المتراكبة على بعضها تعطي الانطباع للناظر أنها على مرمى حجر، غير أنها كانت أبعد من أن يدركوها وهم بهذا التعب والعطش، رأوا على ضوء الفجر الطالع ملامح القرى المنتشرة في هذه التضاريس المتموجة، لكنهم يدركون أنها القرى المتحولة إلى كمائن لاصطيادهم.

لم تعد القرى كما كانت في حياتهم السابقة، موئل الراحة والاسترخاء، وجدوا أنفسهم على مقربة من جدول ليس بالكبير، لكنه كذلك ليس بالصغير، بدليل وجود جسر خشبي فوقه، جسر من النوع الذي يعمله الفلاحون للتواصل مع مزارعهم المنتشرة هنا وهناك، لم تزل أحاسيسهم متوفزة من صدمة الرمي المفاجئ وافتراقهم عن الدليل، نخر سوس اليأس والإحباط عميقاً في النفوس، اثنان منهم فقدا حقيبتي الظهر خاصتهما، ولعلهما تخلصا من ثقلها في غمرة التعب، الأمر الذي أضاف عبئاً وخوفاً جديدين، إن لم تعن رماية الليل أن الرامي

كان متأكداً من وجود ما يرمي باتجاهه، يبقى العثور على حقيبتي ظهر دليلاً كافياً لوجود الطرائد هنا، إذن سيكون نهارهم ملغوماً باحتمالات التفتيش في أي وقت منه.

عبروا الجسر الخشبي، شاهدوا إلى اليمين وعلى جرف الجدول أحراشاً وسيقان قصب متطاول على شكل أكمات متفرقة، ساروا بموازاة النهير الصغير صعوداً، السير بلا هدف يجعل من السهل اختيار أي مكان للاستراحة، الماء على يمينهم، والبساتين ممتدة إلى اليسار منتظمة بخطوط أشجارها المتوازية والممتدة على مساحة مستوية، يمشون بلا نظام على حافة الجرف، ثلاثة ابتعدوا صعوداً، واثنان ظلا على مقربة من الجسر الخشبي.

إن كان النصير قد تعرف على الخوف بوجوهه الكثيرة على مدى الرفقة الطويلة، يظل الوجه الأقبح منها، هو وجه التيه في شعاب غريبة ملغومة بالعدو.

تعلم الأنصار أن يهجموا وهم حذرين، ينامون وهم حذرين، يستحمون في الجداول وقرب الينابيع وهم حذرين، على الدوام على حافات الاسترخاء ثمة هوامش يؤثثونها بالحذر، ثمة احتمالات يجعلها النصير في صالح عدوه، لذا هو يعيش في الحذر، لكنه الحذر المسنود بالإقدام والوضوح ما دامت المبادرة بيدهم. أما الآن فلا شيء باليد غير الحذر المسنود بالخوف من المجهول، هم الآن في محنة التيه.

توقف وافي بعد أن شعر بابتعاده عمن كان يسير خلفه، أدار رأسه، رأى أبو فهد قد توقف وكأنه لا يريد الحراك في تلك المساحة المستوية الخالية من التضاريس، خاطبه:

- رفيق استعجل.

أجابه هذا بصوت واهن:

- إحنا نعرف وين رايحين حتى استعجل. !!

لعل محنة هذا الرجل هي الأصعب، إضافة إلى كبر سنه قياساً إلى سن

رفاقه وابتلائه بتبعات نزلات برد جبل (گارا) الليلي، كان أكثرهم جهلاً بتضاريس المنطقة، لعل الأربعة الآخرين سبق لهم أن مروا من هذه التضاريس بصحبة أدلاء في الذهاب أو الإياب إلى الفوج الثالث الكائن خلف سلسلة (متين)، بما يجعل على الأقل ثمة بوصلة اتجاهات في رؤوسهم، أما هو فلا بوصلة من أي نوع تستوطن رأسه، لم يمض على وصوله من مثلث المركز القيادي سوى أسابيع قليلة سبقت الأحداث، في خطوة أُريد منها تنفيذ الوجهة الجديدة، برفد التشكيلات العسكرية بمزيد من الكوادر الحزبية.

شعر وافي بارتباك وغصة وهو المربك أصلاً من إضاعتهم خطى الآخرين ومعهم الدليل، ما جعله يعيد ترتيب سلسلة الخيارات التي كان يداورها مع نفسه، أجابه وهو يحاول طمأنته وطمأنة نفسه أيضاً:

- رفيق لا عليك، في كل الأحوال إذا لم نجد رفاقنا، نگدر نرجع إلى (گارا).

توزعوا أحراش هذا الجدول الصغير ورؤوسهم خالية من أي قرار أو تصميم لما يجب فعله أو ما تحمله الساعات القادمات.

تطاول ساعات الجلوس بين الأحراش والارتواء حد الشبع من الماء خفف التوتر رويداً في أجسادهم وبث الخدر في أعصابهم، لكنه ليس الخدر الذي يصل حد النوم، وعدم سماع الأصوات التي صارت تتوضح أكثر فأكثر.

عند انتصاف النهار سمعوا حركة آليات قريبة من الجسر الذي خلفوه وراءهم على بعد كيلومتر، لكنها خفتت تماماً وكأن الآليات توقفت هناك ولم تواصل سيرها، بعد حين من التوفز وتشغيل مجسات السمع في كل الاتجاهات، التقطت مجساتهم أصوات جنود يتحدثون بالعربية، ثم على حين غرة رأوا الجنود ينتشرون في البستان المجاور، شاهدوهم يتوزعون على أشجار البستان ويقطفون حبات التفاح بدوا لهم مهتمين بفواكه البستان أكثر من اهتمامهم بتفتيشه، اقتربت من مخبئهم خطوات متسارعة، وقف اثنان قريباً من الجرف حيث يختبئ الثلاثة بين سيقان القصب، كانا منهمكين بحديث خلافي، أحدهما كان يقسم والآخر لا يريد تصديقه:

- بشرفي آني سمعت الملازم يگول. رح تبدأ وجبات التسريح من الشهر الجاي.

أجابه الآخر:

- يمعود. شبعنا من هاي الإشاعات.

- لا والله هالمرة صدك... الحرب خلصت. بعد شيردون منا...؟

رد الثاني بتململ:

- إذا الحرب خلصت. ما تكلي ليش اكلان الخرا هذا اللي احنا بيه هسه؟

- يكولون أكو عصاة ...

الزمن لم يعد هو الزمن، تطاولت وحداته وتمددت مع تطاول وتمدد خوف وهواجس المختبئين، لم تعد النهاية بحاجة إلى أكثر من إطلالة صغيرة من هذين الجنديين إلى أسفل الجرف، مؤكد سيشاهدان المختبئين بين سيقان القصب، لم تكن كثافة القصب بالقدر الذي يخفي ثلاثة رجال، غير أن الجنديين كانا منهمكان في شؤون التسريح وأحلام ما بعد التسريح أكثر من اهتمامهما بما تحت أنوفهم.

بعد حين تحرك الجنديان على أصوات زملائهم في البستان حيث الثمار الوفيرة، إنما اثنان غيرهما كذلك وصلا الجرف وتوقفا فوق رؤوس الأنصار المختبئين، أحدهما هو الضابط المسؤول، لأن الآخر كان يرد بين الفينة والأخرى بـ (نعم سيدي).

تمعن وافي في بسطال أحدهما، كان قهوائياً مائلاً للون الحناء، إنه اللون الذي تتميز به أحذية الضباط وضباط الصف عن أحذية الجنود في الجيش، كان حديثهما أخفت من حديث الجنديين على الأخص حديث الضابط:

- البارحة استعجلنا وأرسلنا برقية للواء... اليوم سألونا عن النتائج

- الغبي عريف جواد... يرسل كمينين واحد ما يعرف بمكان الثاني، إلا أرميه شهر سجن، تفضل هسه اللواء يريدون نتائج المعركة. وكأننا دخلنا معركة من صدك.

- سيدي عادي. نقدر نخبرهم بالاشتباه بحركة للمخربين

- أي اشتباه. أي اشتباه. زين الله ستر. كان الجنود يقتلون بعضهم.

ران صمت على الاثنين جعل دقات القلب تتصاعد لدى المختبئين، ظل الضابط يتلفت ويطالع كل الاتجاهات إلا الاتجاه الوحيد الذي كان عليه الالتفات إليه اتجاه أكمة القصب الكائنة أسفل وقفتهم، للآن لم يقرر الثلاثة كيف سيكون رد فعلهم.

هل سيبادرون هم بالرمي؟ أم يبقون على جلستهم حتى يأتي من يمسكهم مسك اليد.

رؤوس الثلاثة مفرغة من التصميم لا شيء فيها غير صوت فوران الدماء في العروق، ولعله ذلك السائل الذي يدعونه بسائل الخوف، كان خوفهم ناهشاً ماسكاً بتلابيبهم معطلاً أجسادهم عن المبادرة.

بدت النهاية قريبة جداً، لا تبعد سوى مترين تفصلهم عن بسطال الضابط الحنائي.

استقر الضابط أخيراً في وقفته، وكأنه اختار الوجهة التي ينظر إليها بدل التلفت يميناً وشمالاً، قرفص على حافة الجدول وصار ينظر إلى الماء وأكمات القصب، صار ينظر الآن تماماً إلى حيث أكمتهم المتخفين بين سيقانها، ومن جلسته أصدر أمراً لتابعه:

- رئيس عرفاء خالد جمّع الجنود، رح ننسحب.

أجاب رئيس العرفاء:

- تؤمر سيدي.

وانسحب، غير أن الضابط ما زال يتملى في أكمة القصب دون أن يبدر عنه أي رد فعل يشير إلى أنه رأى شيئاً، سهت عيونه في تفاصيل المكان سهوة توحي أنه لم يعد هنا، هو الآخر بدا متعباً مشغولاً بهمٍّ من نوعٍ ما.

كتلة جسمه هنا بعيونها المبحلقة في سيقان القصب لكنه مبحر إلى مكان

بعيد، هذا ما توصل إليه وافي وهو يتطلع من مخبئه إلى عيون الضابط، الأمر الذي جعله يجبر جسمه على التماهي تماماً مع سيقان القصب وكأنه ربطة قصب أخرى.

كم مضى من الثواني والدقائق المتطاولة حتى جمع (رئيس عرفاء خالد) جنوده؟

لا أحد يعلم، نهض الضابط من قرفصائه مبتعداً ببسطاله الحنائي وكأنه أفلت أعناقهم التي كان ضاغطاً عليها، لم يبق في البستان غير جنديين كانا يحاولان قطف أكبر قدر من ثمار التفاح، انسحبا بعد حين، امتدت أيادي الثلاثة وبلا اتفاق إلى زمزميات الماء، كرعوا منها جرعات طويلة تاركين الماء يسيل من ثنايا الفم على الرقبة والصدر، عادت أنفاسهم للانتظام من جديد، كما عاد الدم في عروقهم إلى جريانه الصامت.

ظلوا هناك لحين اختفاء قرص الشمس في مغربه، تحركوا بنية العودة إلى جبل (گارا) من جديد، في طريقهم عرفوا أن النصيرين ناجي وجميل اللذين ظلا على مقربة من الجسر، قد تركا سلاحهما في مكانهما وانسحبا لا يدرون إلى أين؟ لا دليل على أنهم أُسرا أو استسلما بدليل بقاء الأسلحة مع صف الرصاص في مكانهما، وبربط الأمر بحادثة فقدان حقائبهما ليلة البارحة تكتمل القصة؛ إنهما ببساطة قررا منذ ليلة البارحة البحث عن حل فردي ينجون به بأنفسهم.

في مثل هذه الظروف لا وقت ولا مزاج للدخول في شبكة الاحتمالات والتخمين، تقاسم الثلاثة البندقيتين والعتاد عبئاً مضافاً إلى عبئهما، مولين وجوههم إلى قمم (گارا) التي تتلألأ احمراراً بما تبقى من ذيول الشمس الغاربة.

(٢٥)
كل شيء يحترق
أرض الكرد بلا ريف

في صبيحة اليوم الثامن، شاهد حراس الساعات الأخيرة ألسنة اللهب تصاعدت من قرية لحقتها أخرى وأخرى، خلال ساعات أُحرقت كل القرى الفارغة الواقعة على مد البصر، لتلحقها البساتين.

صعد القرويون إلى سفوح سجنهم الجبلي يتفرجون على قراهم وبساتينهم وهي تحترق.

مشهد النار الكرنفالي هذا لا علاقة له الآن بأعياد «نوروز-هم» السنوية، لم يفعلها الرجال الأشداء وهم يتسلقون القمم ليشعلوا عليها الشعلة السنوية، ثم يعودوا إلى قراهم تنتظمهم حلقات الدبكة الاحتفالية مع صبايا ونساء يرفلن بحلة العيد القوس قزحية ويتضوع من أجسادهن عطر العيد، العطر الذي خبره الرجال يجد مساربه أولاً إلى الأنوف ليقدح تالياً في رؤوسهم صبابات العشق.

لقد انقلب الطقس النوروزي الذي جاء في غير أوانه، هي قراهم تحترق ومعها بساتين تفاحهم وتينهم ورمانهم ومشمشهم، بساتين الـ (فيقي) التي دخلت على جدول حسابات الحرب.

لا يملكون في سجنهم الجبلي غير المشاهدة، رجال ونساء بوجوه عفّرها سهر ورعب الليالي والنهارات. عفّرتها أدخنة الشواء الإجباري لقطعان ماعزهم السارح في السفوح على غير هدى، عفّرها بعدهم عن الماء.

لم تبك النساء كما الرجال لنثار العمر يتطاير هباباً مع الدخان، لأن الدموع وجدت لها مسارب أخرى بعيدة تغور في الأعماق.

لم يعد (كاوه الحداد) وثورته على (الضحاك) هو المحتفى به الآن، بل هو (علي كيمياوي) يحتفل بإنجازه الفريد، سيخلي الريف الكردي من فلاحيه، سيحول هذه الـ (كوردستان) إلى مدن ومجمعات بلا ريف، لا ريف. لا فلاحون بعد اليوم. أي ريح قذفت إليهم بهذا البدوي القادم من سموم الصحاري والمترع بالخراب ومن أين حصل على شهادة تطهير الجنان. !؟

لم يصبر زووم (حيدر كاميرا) على هذه المشاهد التي ستكمل فلمه الراقد في رأسه، صعد إلى تلة منفرداً وبدأ بالعمل:

((- لقطة من فوق:

كتل الدخان بطيئة في صعودها المتماوج، تتجاذب أطرافها عند التخوم السماوية البعيدة للقرى لتشكل كتلة كبيرة تحجب ضوء الشمس، تصبح الرؤية محدودة، يدخل الكادر بين لحظة وأخرى بشكل غريب غير واضح المعالم يتكرر بأشكال مختلفة وأحجام متباينة، الموسيقى غير منتظمة كما لو كانت أصوات لضفادع أو تدحرج أواني من الألمنيوم أو خطى لبغال أو خنازير، خليط من كل هذا، ينبثق على أنقاضه صوت الشاعر مضخم بنبرة خطابية كأنه يخرج من أعماق الدخان:

ما بين جهنم وقمة هذا الجبل إله واحد،

هزته الريح وتقاذفته في رحم الوادي،

رماه الصبية بالبلوط المتخشب

وطارده الكبار بجذوع أشجار الاسبندار

حتى اختفى بين الصخور واستقر في عين الماء

لتصار كتلة من الإسمنت

توقف تدفق الماء

- لقطة قريبة:

مئات من البشر يتوجهون صوب الجبل تلاحقهم حرائق ودخان أصفر يلف بيوتهم الطينية – حيوانات القرى تهرع تتبع خطاهم كأنها تطلب النجدة، تُظهر الكاميرا براعة الماعز في تسلق الصخور، الكلاب تتوقف عن العواء تداور ألسنتها الخارجة من أبوازها. وهي تتسلق السفح.

- لقطة عامة:

عجلات ومدرعات عسكرية تُسمَع أصواتها وهي تهبط الجبل على الطريق الأسفلتي، مجموعة كلاب تركض أمامها بنشاط، طائرة الهوكرهنتر صارت أكثر وضوحاً وهي تخرج وتدخل بين غيوم الدخان، أصوات الكلاب تتداخل مع أصوات العجلات المسرفنة مع صوت عزف على الزرنة يأتي من بعيد.

- لقطة متوسطة

الرقص وسط الدخان الأصفر يأخذ شكلاً آخر، أجساد الراقصين منحنية تضع قطع قماش على الأنوف. يعلو صوت الزرنة، تترنح الأجساد الراقصة ويتساقط الراقصون على الأرض الواحد تلو الآخر، تتوقف كل الأصوات عدا صوت الزرنة.

- ZOOMIND يسلط على وجه العازف. ينفخ وهو يختنق. ينفخ. ينفخ. ينفخ. يتلاشى الوجه بالكامل داخل الدخان الأصفر.))

أقفل حيدر كاميرا على مشاهده وأعاد أدواته إلى مخزن رأسه المأخوذ بفلم لا يدري هل ينجو بنجاته أم يتلاشى كما تتلاشى الأشياء أمام عينيه كما سيتلاشى هو. قرى. بساتين. حيوانات. بشر. أحلام، كل شيء يترمد ويتلاشى ولا يخلف غير الدخان.

ما زال القرويون يتابعون نثار أعمارهم المتحول إلى دخان، ثمة قرىً يرونها وأخرى متوارية خلف التلال والقمم العالية تنبئهم عنها كتل الدخان المتصاعدة، تيقنوا أن لا عودة لهم بعد الآن، لقد أُقفلت أبواب حصارهم.

في ذلك اليوم دوَّن مدلول المهووس بالتوثيق عدد القرى التي طالها الحرق، كان في البدء يعد كتل الدخان المتصاعد قبل أن تتحول إلى كتلة واحدة، ولما صارت تلك الكتلة الدخانية هي السماء، لجأ إلى ذاكرته التي خزّنت أسماء القرى التي عرفها، توقف عند الرقم اثنين وأربعين.

سحب لفافة دفتره المهترئ وكأنه يسحب ساطوراً من خلف ظهره، ثبّت في رأس الصفحة على اليسار تاريخ اليوم والساعة، ثم دون:

((تم اليوم حرق اثنين وأربعين قرية من قرى البرواري والمزوري الكردية منها والمسيحية، ولا أدري كم عدد القرى المحروقة خلف الجبل التي لا أرى الآن غير سحابة دخانها تلتقي بسحابة دخاننا لتشكل غيمة مترهلة ومترامية الأطراف، على الأرجح ستمطر علينا السماء هذه الليلة رماداً، أو ربما نوى المشمش والرمان المحترق. !!)) ثم دون أسماء القرى بما يملكه لكل قرية من معلومات عن موقعها وعدد ساكنيها ومواردها.

ما زالت عيون الفلاحين الحزينة تمد الطرف بين الحين والآخر من على سفوح سجنهم الجبلي، إلى أعمدة الدخان الخارجة من أطلال قراهم المحترقة، ما زالوا يقلبون مصائرهم بين رماد البيوت التي كانت عامرة والبساتين التي كانت خضراء وغموض القادم من الأيام.

لم تعد العودة إلى القرى على جدول الاحتمالات، لن تعود الأشياء القديمة إلى ما كانت عليه، من الآن عليهم تعود الحنين، لا بصيص في آخر نفق حصارهم غير هواجس اللهفة إلى رشفة ماء ورغيف خبز ولمة العائلة حول صينية العشاء.

ها هو (أيلول) يمر مدلهماً حزيناً وكأنه يواسي حزن هذه الكائنات على الفقدان، يتطلع عبر دخان الحرائق إلى ما ستجلبه الأشهر القادمة من غيوم وأمطار وثلوج، وقسوة لا تغفر لأحد كسله وإهماله إعداد عدة الشتاء من الحطب والمؤونة. لم يعد في زمنهم من متسع لنسج حياة جديدة.

لم يبق أمام العنكبوت المدجج بالأسوار والعجلات المسرفنة، للانقضاض

على المسلحين العالقين في شباكه، غير تنظيف ساحة عملياته من الفلاحين، بعد أن نظفها من القرى.

لا عزاء لهم الآن غير تسقط أخبار أشباههم الناجين، فلاحي القرى القريبة من الحدود، أولئك الذين نجحوا في الفرار من أرضهم، لقد استجلبوا اهتمام العالم بكاميراته التلفزيونية وبصحافييه، ثمة مشاعر بدأت بالتململ هناك، تنقلها لهم موجات الأثير، تعلن عن نفسها على استحياء وبألطف العبارات الدبلوماسية عن قلق من نوع ما بدأ يساور حكومات وشعوب العالم الآخر، العالم الرافل كما يدّعي بحريته وحقوق إنسانه، على مصائر هؤلاء المحاصرين. !!

(ثمة من يفكر بنا)، هذا ما أخذ يستبطن وعي الفلاحين، لقد كررت نشرات الأخبار ذات الخبر المنقول عن وكالةِ (فرانس برس)، والذي نقلته الوكالة بدورها على لسان طبيب تركي من خارج أسوار السجن العنكبوتي:

((.. نقلاً عن طبيب تركي طلب عدم الكشف عن اسمه لأن لديه عائلة قد تتعرض للمتاعب في تركيا. !! قوله إنه كشف على أربعة جرحى من اللاجئين الأكراد أُصيبوا بحروق بالأسلحة الكيمياوية، لقد شاهد حروقاً في الجلد والتهابات حادة في العيون، بغداد من جانبها كررت نفيها لاستخدام مثل هذه الأسلحة.)).

يا لمصير هذه العوائل العالقة بين الأسوار. في كل المرات التي أُذيع فيها هذا الخبر، كان يُردف بخبر آخر نقلاً عن (واع) وكالة أنباء الدولة العراقية، يتحدث عن أعراس من نوع جديد، أسموها (أعراس تسليم الراية).

صياغة الخبر توحي أنه قادم من تضاعيف الزمن الموغل في القدم الذي مر على هذه الأرض، شيء يشبه نفخ الحياة في القطع الأثرية المكدسة في المتحف الوطني.

(نبوخذ نصر) لقد خرج هذا الملك البابلي القديم من عليائه المتخفي ليسلم رايته إلى حفيده (صدام حسين). !! تورية ستُنتج لاحقاً وعلى أيدي

فنانين تعودوا الزحف على البطون في البلاد المستباحة، سيخرج أحدهم بلوحة تحاكي (مسلة حمورابي)، حيث الإله الجالس على عرشه يسلم الملك الواقف أمامه لفافة الشريعة الشهيرة، شريعة القوانين البابلية. !! ما عدا هذه العملية من التسليم والاستلام للراية الأثرية، لا شيء يحدث في البلد سوى عملية صغيرة تكاد لا تُرى وهي تجري بعيداً عن أعين فضوليي العالم، عملية يُراد منها تنظيف الريف الكردي من فلاحيه باستخدام مبيدات من نوع خاص. !! عملية تنظيف روتينية تجري كل بضعة سنين، لا تستحق من العالم الانشغال بها وهو المنشغل بتداعيات ما بعد الحرب الطويلة، واستجابات أسواق البورصة لعمليات إعادة الهيكلة لجريان النفط وأسعاره.

لكن، وعلى ما يبدو أن العالم الغربي كان منشغلاً وهيئة الأمم (المتحدة؟) هي الأخرى منشغلة ببرقيات سرية وعلنية تلح على وقف الإبادة القادمة، ثمة من بدأ يذّكر بجبين الإنسانية المتعرق أصلاً، والذي لن يحتمل المزيد من الإبادات، لقد حدثت الكثير منها على هذه الأرض التي يبدو أنها لم ولن ترتوي من دماء ساكنيها. كفى. كفى.

لا أحد يدري إن كان بفعل تلك البرقيات الأممية أم بفعل جبين الإنسانية الذي تنقّع خجلاً، أم هي لفتة مزاجية من القائد، كثيرة هي بواعث واحتمالات أفعال وأمزجة القائد.

لكن، مهما تكن الأسباب والدوافع، خرج القائد من أعراسه الكثيرة بعد يومين على يوم الحرائق، وأنعم على رعيته المحاصرة بين شعاب الجبال بالعفو.

جاء الإعلان الحكومي الذي تناقلته وكالات الأنباء؛ تحت عنوان (مكرمة جديدة للقائد نصره الله)، بعد البسملة وآيات الحفظ والدعاء بطول عمر القائد قرأ المذيع: (.. بيان عفو عن المتمردين والخارجين عن القانون من الأكراد باستثناء رئيس عصابة الاتحاد الوطني الكردستاني المجرم جلال الطالباني. !!). هكذا جاء النص على ذمة مذيعي موجات الأثير العالمية، وهكذا دونه الصحفي

المحاصر مدلول، وهو يخط تاريخ السادس من أيلول الساعة الرابعة عصراً على صدر صفحته.

كانت ردة الفعل الأولى لهذه الألوف وهم جميعاً من المحسوبين على المتمردين هم وأطفالهم، بحلقة عيون صامتة، لا تفصح عن نفسها إن كانت دهشة أم سخرية. أم ماذا...؟ عيون تصادم بعضها ولا تقول شيئاً، شيء من خرس استمر لساعات ولوح ملامح الوجوه بعلامات استفهام كثيرة تنتقل من وجه لآخر.

هل انتهت المحنة؟ هل سنشرب الماء؟ هل سنأكل؟ هل ننزل؟ إلى أين ننزل؟ لماذا أحرقوا قراناً وعفوا عنا...؟

أسئلة تكورت على نفسها في بدايات الليل وعلى هسيس ألسنة النيران وما تبثه من دفء على فعل وحيد؛ يشبه الجواب: الاستسلام.

قرروا الاستسلام وهم الذين خبروا نتائج استسلاماتهم السابقة بعد فشل كل ثورة من ثورات تمردهم المستمر، اختزلت رؤوسهم المتخمة بتجارب السنين كل الاحتمالات باحتمالين متشابهين لا ثالث لهما، إما الضياع في السجون الكبيرة القادرة على أن تحوي الشعب بأسره، أو الانحشار في مخيمات على هامش المدن، محروسة بالجند وعيون المخبرين، هي كذلك سجون، لا شيء ينتظرهم غير السجن.

إرث بعيد موغل في الزمن توارثوه عن أسلافهم وسيورثونه لأخلافهم من بعدهم، إرث مداورة السجون، ولعل المداورة في ذهن الكثيرين منهم هي لتحقيق الانسجام مع الطبع الإنساني الرافض للملل، وهم قد ملوا الآن حصار العنكبوت.

أما الأنصار، فعلامة الاستفهام الوحيدة التي استوقفتهم، بعد أن تأكدوا أن القرار لا يشمل على أية حال العرب منهم، هي: لماذا استثنى القرار (جلال الطالباني) وهو كوردي كذلك...؟

ألم يكن إلى حد قبل سنتين صديقاً للرئيس صاحب المكرمة؟ ألم تظهرهما كاميرات التلفاز وهما يتحاضنان ويتقافشان بالابتسامات العريضة؟ ألا يكفي أنه أعاد لسيطرة دولة القائد مدينتين بأريافهما (أربيل والسليمانية)؟ ثم ألم يكفي القائد عربون الصداقة الذي قدمه هذا الرجل؛ دماء أكثر من ستين نصيراً شيوعياً نحرتهم قواته وهم غافلون عن أن يغدر بهم مقاتلون يشبهونهم؟

كانوا حتى الأمس القريب يخوضون معهم عمليات مشتركة ضد قوات النظام. ماذا أراد منه الرئيس أكثر من كل ذاك وهو قد عجز عنه؟ لماذا لم تدم تلك الصداقة؟ لماذا انقلب هذا الكردي الملتبس الهوى والنوايا ليغدو دليلاً وعوناً للمتراس الآخر من متراسي الحرب الخارجية. !!؟ الواضح أن لا صحبة تدوم في هذا العالم على الأخص بين السياسيين، وأقبح العداوات تلك التي تأتي بعد صحبة:

- نحن و(مام جلال) خارج بيان السبي. !!

قالها حمدان بتورية تنتمي إلى تلك الأصقاع الموغلة جنوباً في حزن التاريخ، للمفردة وقع أحسه سريعاً هذا الفتى الأسمر القادم من سلالات ممالح الجنوب، سليل ثورات العبيد على الخلافة وولاتها الفاسدين، ومن الآن ستتحول مفردة (سبي) بين الأنصار إلى اسم لمكرمة (القائد)، تداولها الأنصار وكأنها خلاصة تلك المسيرة التي بدأوها بكثير من الحماس وبقليل من التدبر على مدى عقد من السنين.

لم تعد احتمالاتهم مفتوحة الآن، هو احتمال وحيد قد يتقمص وجوهاً كثيرة، لكنه يبقى ذات السبي، لا شيء غير السبي، ستسبى عوائلهم، كما سيتحولون هم أنفسهم إما إلى جثث في عراء الجبل أو إلى لاجئين على دول لها معهم من العداوة أكثر مما لها من الود.

كان الفلاحون المحاصرون مستعدين للتسليم حتى بدون قرار عفو.

العطش والجوع وانسداد الآفاق مع صراخ الأطفال الرضع ومعاناة المسنين،

أسباب كافية لجعل أي وجيه من وجهاء القرى في ظل الفوضى التي عمت الجميع، قادراً على أن يقود خطوتهم اللاحقة، أن يرفع راية الاستسلام ويقود طابور الشعب خلفه.

لكن هذا لم يحدث، إن كان لبقية عناد ما زال يستوطن نفوس هؤلاء الفلاحين الذين تدبغت جلودهم وأرواحهم بالتمرد (الكوردايتي)، أو لمجرد تلكؤ المبادر الأول، كلٌّ كان ينتظر الآخر أن يفعلها بدلاً عنه، من يجترح معجزة الخطوة الأولى، أما الآن ومع هذه الكوة الذي فتحها لهم المحاصِر، لا أحد يستطيع إيقاف صاحب الخطوة الأولى، الأمر الذي دفع كوادر بيشمركة (البارتي) لمباركة خيار التسليم:

- أنقذوا أنفسكم، أنقذوا عوائلكم، لا عليكم بنا.

كذلك هذا ما توصل إليه الأنصار، وإن كانت استجابتهم يكتنفها الغموض والتردد، الرئيس منح عفوه للكرد بالتحديد، لم يمنحه للعرب والتركمان والكلدان والآشوريين واليزيديين والصابئة، وهؤلاء مع الكرد هم سبيكة الأنصار وعوائلهم، لذا جاء قرارهم بعد يومين على القرار، بعد مداخلات وتشابكات ألسنية منها الفصيح ومنها الموغل في لغات تنتمي للدردمة أكثر مما هي للغة.

استعرض أبو منيب في أول اجتماع أعقب قرار العفو:

- لا نية لنا في القتال، لا قدرة لنا على اصطحاب العوائل إلى الحدود، لا أحد يعرف ماذا سيحدث بعد ساعة؟

اقترح أن تجري الاستفادة من هذا العفو ليس للعوائل فقط بل حتى للرفاق الأكراد..!!

سأل أبو حمدة وعلى طريقته حين يكون مستعجلاً ومقتنعاً بما سيقوله، تتداخل مفرداته وتتشابك في تراكيب غير مطروقة:

- زين إذا كان بيان (العفي). أقصد العفو يشمل الجميع. هل نسلِّم جميعاً؟

لقد مزج على طريقته مفردتي (العفو) الرئاسية و(السبي) الحمدانية، ولم يكن واضحاً إن كان هو يقصد هذا أم هي عفويته التي كثيراً ما توقعه بمثل هذه المطبات اللغوية.

انجذب أبو منيب ضاحكاً كغيره إلى الجو الذي أثاره التركيب الجديد، حاول أن يرد وهو غير قادر على لجم ضحكه:

- رفيق أنت فهمتني غلط، أنا قصدت الأنصار الأكراد الملتحقين بنا من غير الشيوعيين.

قاطع (مسعود) وبغضب واضح:

- رفيق هو من يعفو عمن، هل يعفو المجرم عن الشعب، أم الشعب يعفو عن المجرم...؟

تكلم بطريقة توحي وكأن أبو منيب هو صاحب العفو الرئاسي، ليضعه أمام منصة القضاء نازلاً على رأسه بالأدلة والبراهين التي ستثبت أن القرار باطل. باطل. باطل. ثم يخلص إلى استنتاج الدفاع البين:

- لو استجبنا له سنعطيه مشروعية هو يفتقدها أصلاً، هكذا سنؤكد أننا مذنبون، بينما نحن مناضلون ضد نظام غير شرعي أصلاً.

ليجيبه أبو منيب وهو يعود إلى طويته الهادئة في الحديث:

- رفيق كل الذي قلته صحيح، لكن فقط فيما لو كنا نحن أصحاب المبادرة ولدينا القوة، انظر إلى حالنا، انظر إلى حال العوائل، ثم أنا لم أقل علينا أن نستسلم، أنا قصدت الملتحقين بنا من غير الشيوعيين.

لم يزل (مسعود) على هجومه:

- وكيف يثبت هؤلاء للنظام أنهم غير شيوعيين...؟

- سواء أثبتوا أو لم يثبتوا. هم أكراد والعفو يشملهم.

كان لذلك الجدل أن يستمر طويلاً، قبل أن يقطعه سهراب بلكنته الباترة وهو يقذف مفرداته وكأنه يريد التخلص منها:

- رفاق قررنا إنزال عوائلنا مع عوائل المنطقة وكافي نقاش.

لم تبد على بقية المجتمعين رغبة في المواصلة، يعرف سهراب أن لا حيلة ولا وسيلة أمام الجميع، وحتى تلك الأفكار التي كان يتداولها بعض أصحاب العوائل حول التسلل بعوائلهم إلى (سهل الموصل) ومن هناك البحث عمن يخفيهم من الأصدقاء والأقارب، ظلت أفكاراً عاجزة عن تقليب الوجه الآخر من هذه الخطوة فيما لو نجحت.

كيف يا ترى ستخفي عائلة بنسائها وأطفالها في قرية دون أن تدع مجسات السلطة تلتقطها؟ كيف تمنع عنهم فضول القرويين المعروف؟ ومن هذا القادر هناك على تحمل مسؤولية إخفاء من تطاردهم الحكومة؟

قبل انفضاض الاجتماع، علق حاتم وهو واقف يريد الانصراف:

- أقترح أن نترك فكرة التسليم للأنصار أنفسهم، أقصد، لا ندفع أحداً منهم للتسليم.

توقف وأخذ يتطلع إلى عيون الجالسين وكأنه يريد معرفة ردة الفعل، ثم واصل:

- لأننا بهذا كما لو نقول لهم. يا جماعة الخير ترى المشكلة كانت فزعة عشائر بين عشيرة الشيوعيين وعشيرة الحكومة. ولأنكم مو شيوعيين. يعني تفضلوا مع السلامة وكان سعيكم مشكوراً. بينما المشكلة هي مشكلة شعب بكامله مبتلىً بنظام جائر غير شرعي.

اكتفى أبو منيب بمتابعة خطوات حاتم المنسحب من النقاش وهو يحاول النزول بين صخرتين، ثم ظل يحدق بسهوم إلى الأفق المقطوع أمامه بالصخور وجذوع الأشجار.

انفض الاجتماع دون قرار واضح يخص الملتحقين، الواضح أن الجميع غير مقتنعين بقرارة أنفسهم بفكرة دفع الأنصار للتسليم.

نشرات الأخبار الليلية نقلت ردة فعل قيادة (البارتي) من مقرها في الأراضي الإيرانية، أنها تشكك بنوايا الحكومة المبيتة ضد الذين يسلمون أنفسهم، كذلك هي تطالب الحكومة بإطلاق سراح السجناء السياسيين لإثبات حسن نواياها، لم تقل النشرات شيئاً عن رد فعل (اليكتي) أو قيادة الشيوعيين.

(٢٦)
الله يلعن ذيك الليلة

((لقد باءت نبوءاتنا بالفشل هذه المرة أيضاً، راهنّا على الشعب، راهنّا على أسئلة الجنود.

لماذا كانت الحرب؟ ولماذا توقفت؟ وما الذي حصل عليه البلد...؟

قلنا سيحترق النظام بأسئلة الجنود وهم كانوا جل الشعب، مثلما ستحرقه أزمات نهايات الحروب، قلنا وقلنا وكأننا كنا نتحدث عن نظامٍ آخر، عن نظام يرفعه ويسقطه الرأي العام، عن شعبٍ آخر وتناسينا أن لا رأيٍ عام عندنا.

تناسينا أننا لا نملك ما يحرك هذه الكتلة الهلامية التي أسميناها شعب، لا نملك غير إذاعة تبث ساعة في اليوم، وما أن يخرج صوت المذيع حتى تتناهشه محطات التشويش الكثيرة ليصل إلى هذه الكتلة إن وصل، مخرماً مهروساً مقطوع الأنفاس لا يفصح إلا عن محنته. تناسينا حقيقة أن شعبنا مرعوب وطاغيته مهووس بأمجاد دونكيشوتية. تناسينا جموع الشعب وهي تهتف لجلادها ليل نهار بالروح والدم ولا ترجو منه غير العفو عنها، العفو لمجرد إبقائهم على قيد الحياة، يأكلون الدجاج البرازيلي ويصعدون السيارات البرازيلية ويعبون كل أنواع الخمور التي تنسيهم أين تقع البرازيل. !!

راهنّا على مواطن صارت الوشاية خط دفاعه الأخير كي يستمر على قيد الحياة. راهنّا على مواطن اعتاد القمع والإذلال والتملق للأقوى.

قلنا لشركائنا الذين يقاسموننا المتراس. أننا لا نريد استبدال طغيان بآخر، لا نريد لبلدنا أن يُحتَل إيرانياً. لا نجد فرقاً بين الاحتلالين.

هذا يقمع باسم قضية مركزية لا يعلو عليها سوى الكرسي الجالس عليه اسمها القضية الفلسطينية، والإيراني كذلك له قضية مركزية سيذبح ويسلخ باسم قدسيتها أنها قضية الله، سيكتمون أنفاسنا باسم المقدس هذه المرة، قالوا: ماذا تريدون إذن. !؟ قلنا أسئلة الجنود، وها هم الجنود أمام أعيننا لم يلحقوا بعد على بلورة أسئلتهم، هم على عجلة من أمرهم. أو من أمرنا...؟))

أراد مدلول توثيق أحداث اليوم كعادته، لكنه لم يسجل شيئاً، أفلت زمام تداعياته لتأخذه إلى هذه المزاغل المسدودة، ثمة أحداث قد حدثت لا يريد لها الانفلات من قلمه، قيل وكل الأخبار صارت تأتي بعد –قيل-لتتقمص ملامح الإشاعة بوجهيها الخبيث والطيب.

قيل على لسان قرويين وبيشمركة قادمين من منطقة (الزاب)؛ أن مجموعة (عقرة) الشيوعية قد أُبيدت بالكامل بواسطة إنزال للقوات الخاصة على الكهف الذي كانوا يختفون فيه، كذلك لم يعد من مجموعتي آزاد وأوميد سوى ثلاثة أنصار في حال يرثى لها من الإنهاك والإحباط، وما زال مسلسل النزول اليومي للفلاحين وهم يسلمون أمرهم للجنود مستمراً منذ اليوم الثاني من أيام العفو.

أخذت سفوح (گارا) تتنفس الصعداء وهي تلفظ جموع القرويين، نزل الفلاحون وفق نظام القرى والأوجاغات.

فلاحو قرية ينزلون بكامل عدتهم يتقدمهم المختار، أو أفراد أوجاغ موزعين على عدة قرىً يلمّهم كبيرهم وينزل بهم رافعاً رايته البيضاء.

لم يحتج الأمر أكثر من عبور سلسلة (صوصيا) المنخفضة نسبياً ومن ثم السير تحت أنظار سرايا الجنود وعيون الرماة الذين تحملهم الطائرات العمودية وهي تحوّم فوق الرؤوس، عليهم السير حتى مدخل گلي (كاني مازي). عمل الجيش هناك ما يشبه قاعدة ثابتة لقيادة قواته المنتشرة في كل الأنحاء باستثناء سفوح (گارا).

لم يزل اللغط والاحتجاج والتمنع يمور في تجمع عوائل الأنصار، وهؤلاء في حيرة من أمرهم، هم في دواخلهم يصدّقون كل حرف تنطق به نساؤهم عما ينتظرهن هناك، وهن لا يرددن نبوءات بل وقائع حصلت معهن قبل تهجيرهن.

لقد خبرن كل تلاوين السجون، من سجون المقرات الحزبية في قراهن ومدنهن إلى تلك السجون السرية الكائنة بين الأحياء السكنية في مدينة الموصل، والتي لا يدري صاحب الدكان المجاور أن بجواره وكراً أمنياً.

خبرن الإذلال والإهانات. خبرن الجوع والعطش. خبرن التهديد المسلط مثل سيف على رؤوسهن بهتك الأعراض. خبرن أن بيوتهن قد صودرت، مثلما حُرمن من أن يساعدهن أحد وإن كان أب أو أخ.

خبرن الكثير، والأزواج الذين يعرفون كل هذه البلاوي، ما زالوا يحاولون إقناعهن بأن الحال الآن غير الحال الذي كان.

إنه قرار عفو، والعفو يعني عفو، ألا ترين هؤلاء الفلاحين كلهم ينزلون، سوف لن يبقى أحد في الجبل سوانا، عندها ستكون حياتكم بخطر مميت، نحن نستطيع الدفاع عن أنفسنا، أن ننسحبن أن نختفي، أن نجوع ونعطشن أن نُقتل وهذا هو خيارنا، لكن، ما ذنب الأطفال؟ ما ذنبكِ أنت تُقتلين معي؟ ارحميني.

- هم سيقتلوننا هنا وهناك، أشرف لنا أن نُقتل هنا.

هذا ما صارت تكرره جمهرة من النساء أخذت تكبر، بدأته زوجة سهراب، تلقفته منها أم آزاد زوجة كادر التنظيم المحلي المعروف في المنطقة، ثم شيرين لينتشر في اليوم الثالث على قرار العفو كالنار في الهشيم.

سهراب يقود جبهة الرجال لإقناعهم لمزيد من الضغط على النساء، وزوجته نازين تقود جبهة النساء الرافضات.

صار الصراع في اليوم الثالث مكشوفاً بين الزوجين، ليبدو سهراب القائد العسكري المقدام أمام الرجال أعجزهم جميعاً، غير قادر على لجم عناد زوجته المستمر في تحريض النساء على رفض الأمر.

انسحب سهراب من جولة عراك أخرى مع زوجته، وهو يكرر مع نفسه (الله يلعن ذيك الليلة).

هذه اللعنة المتحولة إلى كود سري بين الزوجين، لا أحد يعرف إحداثياتها البعيدة إلا هما، هي لعنة منفتحة على الود والشجار.

يلعنان (ذيك الليلة) إن تشاجرا ويلعنانها إن تلذذا بفصول الحب الحميمية. !!

منذ زواجهما اصطدما بطبعهما المتشابه (عناد يابس)، لكن، هذا العناد كان هو الرباط الذي ربطهما ومنذ تلك الليلة.

إنها حكاية قادمة من كهوف ماضيهما البعيد، حكاية عن سهلٍ فسيح وصبايا ينتشرن كالزهور على الأرض بألوان ملابسهن التي تناغم ألوان السهل المزهر بزهور الربيع.

كن يلعبن أكثر مما يجمعن الخبيز والحميض وأزهار النرجس التي تشكل بساط السهل أيام، وعن صبية عاندت نفسها وصويحباتها، بقدرتها على دخول ذلك الوادي البعيد الممنوع عليهن الوصول إلى حدوده. الأخدود الصخري الغائر في أحشاء السلسلة الجبلية، كن يعرفن أنه الحد الفاصل بين الممنوع والمسموح للبنات، كما كان هو الحد الفاصل بين جبال الأكراد وتمردهم وسهل الحكومة وجبروتها. الكبار يمنعون الصغار من التوغل عميقاً، لكن الصغار لا يفهمون مخاوف الكبار.

ظل الوادي مطلسماً بكهوفه ومغاراته وعيون الماء، يشكل تحدياً لتلك الصبية المشاكسة، عدّلت خِرجها الصغير على ظهرها وتوجهت إلى الگلي، ولما رأتها البنات تواصل السير بتؤدة وبلا خوف، صرن يتصايحن عليها ويهددنها بالبيشمركة الذين سيسرقونها.

لم ترد عليهم واصلت سيرها الثابت باتجاه ذلك الشق الآخذ الآن بالابتعاد والنأي مع خطوها الصغير، بل الجبل كله صار ينأى كلما تقدمت نحوه، وهي التي كانت تراه من قريتها بمتناول اليد وليس العين فقط، لتصل أخيراً إلى باب الگلي، إلى حيث الصخور المتراكبة على بعضها، إلى تلك الجدران الصخرية المتطاولة والموغلة في الارتفاع حتى أنها لا ترى لها نهاية غير رقعة السماء.

بدت لنفسها أنها لا تبحث عن تلك النبتات الصغيرة الخارجة من بين شقوق الصخور والأرض، بل هي تبحث عن شيء آخر لا تعرفه، هاجس ما يدفعها إلى الصعود مع صعود الدرب الضيق الكائن على حافة الجدول الناشف أسفل أرض الگلي.

شعرت بالعطش وتذكرت حالاً ما سمعته من أحاديث الكبار أن ثمة عين ماء على مقربة من مدخل الگلي، لتجد نفسها بعد حين مطوقة بجدران الجبل، حتى لم يعد هناك وجود للگلي نفسه، إذ التواءات وانحناءات الطريق الجبلي لا تجعل الجبل جبلاً واحداً، بل جبال تخرج من نهايات بعضها.

بدا كل ما حولها جبلاً، حتى أنها لم تعد ترى السهل الذي أتت منه ولم تعد قريتها ظاهرة.

أرادت العودة، غير أن أقدامها الصغيرة المفتقدة لبوصلة الاتجاهات أخذتاها أعلى وأبعد إلى وهدة صخرية بدت بلا منافذ، جلست في ظل صخرة وهي تلهث من العطش والتعب، هدأت من وجيب القلب الذي يريد الخروج من صدرها الصغير وهي تحاول استعادة طريق عودتها.

جروح العطش النازل في حنجرتها وفمها وألم القدمين والخدر الذي يجلبه ظل الصخرة ألجأ ذلك الجسد النحيل إلى النوم، نامت، نامت طويلاً، لتفيق على تفاصيل محنتها مع مغامرتها التي أرادتها تحدياً لصويحباتها.

أفاقت في الليل على لسعة البرد في جنبها، كان برداً قاسياً لم يحفل بما ترتديه من ملابس خفيفة، لم يترك لها الظلام رؤية الأشياء من حولها، أخذت مجسات السمع تلتقط أصواتاً غريبة تتناغم مع صافرة الليل الموحشة، أصوات تصل من أغوار بعيدة في عمق الظلام.

صارت تهجس لنفسها بما تختزنه ذاكرة الطفلة من أسماء الحيوانات، ذئاب، دببة، ضباع، الرعب القادم مع الأصوات أنساها البرد، خوف لم تتعرف على ملامحه من قبل وحيرة مغلفة بحندس الليل.

أرادت العودة. لكن كيف...؟ حتى الانحدار بدا لها يأخذ إلى العلو بدل الهبوط، أصوات المواء والعواء والشخير ترافق خطوها المتردد الخائف على جدران الصخور الملساء، وحتى حين لمحت ضوءاً لفانوسٍ بعيد قادم من أقاصي السهل مثل شعلة عود ثقاب، بدا لها بعيداً أبعد من قدرة مخيلتها على استذكار موقعه لأي قرية هو.

لم يتهاون الجبل مع غفلتها وهوجها، كل الأشياء التي فكرت بها، ألجأتها إلى الحل الوحيد الذي بدا لها معقولاً؛ الانتظار، انتظار الفجر والصباح.

لكنها، وبعد حين من الانتظار سمعت أصواتاً قادمة من فوقها ليست لحيوانات، كانوا بشراً يسيرون على الطريق الكائن فوق صخرتها ومع تساقط الحجارة الصغيرة من وقع أقدامهم الثقيلة، عدلت من وضع خرجها على ظهرها وقررت اعتراض طريقهم، غير أن صوتاً صارخاً ألصقها من جديد بصخرتها وجعل جسدها النحيل يخض من الرعب، صاح أحدهم بصوت صارخ مُهّدِد (تو كيا).

نداء درج البيشمركة على استخدامه في الليل لمعرفة من القادم، لم تنبس بشيء، سمعت بعدها قرقعة أسلحة وأصوات أقدام كثيرة تتوزع الصخور المحيطة بها.

هي لم تر بيشمركة في حياتها، وحتى أولئك الذين تعرفهم من قريتها والتحقوا مع البيشمركة لم تعد تراهم بعد صعودهم الجبل، تسمع أنهم يأتون إلى بيوتهم في الليالي ويخرجون عند الفجر، لا خصام بين قريتها والبيشمركة، بل هي تعرف أن القرية وفي مواسم الحصاد تجمع على الدوام كميات كبيرة من الحنطة والشعير لترسلها إلى الجبل أي إلى البيشمركة.

في تلك اللحظات زايلتها كل المخاوف، إلا خوف وحيد هو أن يطلقوا عليها الرصاص، بعد حين لعله طال نطقت من خلف صخرتها. «آزم. مامو. آزم. له خاترى خوديه. نه كوشتا مه» وأخذت تبكي بصوت عال، لعلها كانت محتصرة بالبكاء منذ شعورها بالتيه والندم، سمعت أحدهم يصيح بأصحابه:

«نزلوا سلاحكم، هذا صوت بنت زغيرة»

نزل سهراب إليها، وكان هو أصغر أفراد مفرزته تلك، تعرفوا عليها وعلى قريتها، علموا أنها ابنة خليل حجو، وهذا يعرفونه، وما أن سردت عليهم كامل قصتها حتى صاروا يضحكون بصوتٍ عال، أعطوها ماءً وخبزاً وقالوا لها أنهم متوجهون إلى قرية أخرى غير قريتهم لكنهم سيوصلونها إلى قريتها.

أوصلها اثنان أحدهما كان سهراب، كان في كل مرحلة من الطريق يعطيها الخبز والماء ويهدئ من خوفها، حتى وصولهم إلى بيت أهلها، كان أبوها وأعمامها وشباب القرية متهيئين للخروج بحثاً عنها. اختلطت الأشياء ببعضها، سهراب ورفيقه يضحكان، والأب يهدد ويتوعد لهذه البنت الوقحة بعقاب لن تنساه طيلة حياتها، ومع انكفائها في حضن أمها باكية، كانت تسمع سهراب وهو يتوسل بأبيها إلى حد تهديده:

والله. والله. إذا سمعت أنك معاقبها، راح أزعل وما تعرف شراح أسوي. !!

في كل الأحوال وعلى قدر خوف ورهبة القرية من الحكومة ورجالها كانوا كذلك يرهبون البيشمركة ويحسبون لهم الحساب، هي لم تلحق أن ترى وجه سهراب في الظلام، لذلك ظل صوته فقط هو فارس أحلامها، لقد عشقت صوته المميز بطريقته المستعجلة وهو لا يطيق تراكم المفردات في فمه، يحاول الخلاص منها دفعة واحدة.

وبعد سنين كثيرة في واحدة من الاستراحات بين حرب وأخرى، حصل أن كان هو مدعواً لمناسبة (طواف) قريتها، لتعرف هي من خلال أمها أن هذا هو سهراب وكانت قد غادرت تلك الطفلة التي كانتها، وصارت على مشارف الزواج، بجمال قادر على سحب الرجال من شواربهم، لتسحب صاحب الصوت الحبيب من شاربه مرغماً على الزواج، بعدما حالفهما الحظ بتوافق وضعهما الطبقي حسب تقاليد طائفتهما (قوانين هذه الطائفة الدينية تحرم الزواج المختلط بين طبقات الطائفة نفسها).

(الله يلعن تلك الليلة) يستحضرانها في العراك وكذلك عند الاشتباك الجسدي في لحظات اللذة وكانت ألذ لحظات الحب بينهما هي تلك التي يصلانها بعد عراك وشجار وعناد، لحظات يتناهشان فيها جسديهما ويرتشفان اللذة كما لو أنهما على وشك الموت بعد لحظات.

تقرر لليوم الثالث على التوالي تأجيل إنزال عوائل الأنصار.

(٢٧)
حادث خطف

عند فجر اليوم الرابع على قرار العفو-السبي، فز الأطفال النائمون بين الصخور ملتحفين ببعض الخرق ومفترشين فرشات الورق، على صوت نحيب أم روزا. لقد اختفت من بين يديها البنتان معاً.

قبل أن تنام وعلى عادتها تأكدت من موضع الصبيتين، كانتا قريبتين منها، حاولت تدثيرهما بما حملته معها من خرق وما جلبته من أغصان كثيفة الأوراق.

حين فزت من نومها، لم تنتبه حالاً لموضع الصبيتين، لأنها كانت لم تزل في بوتقة الاحتمالات والخيارات، هل تنجح مقاومة النساء الرافضات التسليم هذا اليوم أيضاً في ثني الرجال عن عزمهم؟ أم ستلاقي مع شبيهاتها ملامح المصير القادم.

لكنها في نومها الثقيل الذي جاء بعد أرق ممل، تذكرت أنها شعرت بشيء ما يحدث بالقرب منها، أصوات هامسة تداخلت مع أصوات كوابيسها لتشكل ما أوهمها أنه كابوس آخر.

غطى اختفاء روزا وحياة على خوف وهواجس النساء الرافضات لمصيرهن القادم، ولسان حال الجميع يردد ذات السؤال الحائر:أهذا وقتكم. !؟

باستثناء شيرين التي حرك الحادث مياهها الراكدة منذ ما قبل الحصار، كان سؤالها مختلفاً:

لماذا لا أفعلها أنا كذلك؟ ما الذي يقيني مع هذا الجمع الغبي المتوجه بأقدامه إلى حيث مسالخ الذل التي تنتظره هناك؟ لماذا لا أختفي أنا أيضاً؟

ألا أقدر أن أضيع في تضاريس هذا الجبل الرحيم كما ضاع مراد واختفت آثاره؟ أليس الموت هنا بإرادتي هو أشرف لي من الموت الذي لا يأتي إلا بعد تجرع كل كؤوس الذل والإهانات والمرارات من رجال أجلاف تنضح عيونهم بشبق الشر والغدر ولا يرون فينا غير أسلاب وسبايا أعدائهم؟ روزا أشجع مني؟ لكن إن كان لروزا من خطفها؟ من هذا الذي أنتظره أنا؟ من هذا الذي سيخطفني وأنا حامل بابن مراد المجنون التائه في شعاب الجبال؟ وجدت يدها تربت على بطنها المنتفخ بشهرها الخامس، وكأنها تريد تطمين الجنين من شرود وهذيان أمه الذي أخذها بعيداً، أبعد مما يمكن أن تخطط لنفسها وله، أن تربي ابنها، ويكون هو رجلها الذي سيعوضها فقدان مراد.

حين باحت روزا بسرها لأختها حياة، قالت لها:

- رح تجين وياي، حسام ينتظرنا.

ظلت الصغيرة تبصبص بعيون الخوف دون أن تقول شيئاً، هي أصغر من أختها بسنتين، أخرستها المفاجأة. كان كل شيء يُعد باتجاه نزولهم واستسلامهم للجيش، كل شيء يُعد باتجاه تصديق تلك الأحلام الصغيرة، أن يعدن إلى قريتهن، إلى بيتهن القديم، النوم في الدفء، الأكل بلا تقتير، شرب الماء حد الارتواء، ثم يحكين حكاياتهن الكثيرة لصويحباتهن في القرية، ستكون الواحدة منهن حكواتي البنات، كنا ورأينا وفعلنا، الصبايا يسمعن أعاجيب وأهوال الجبل، ولما رأت روزا أن الخرس أصاب أختها، أجابت هي بدلاً عنها وبحزم:

- خلص، راح تجين وياي.

هزت الصغيرة هذه المرة رأسها دلالة الموافقة، غير أنها لم تفهم ما الذي حدث؟ وإلى أين هي ذاهبة؟ صحيح في أعماقها كانت تحسد أختها؛ أن هناك من يحبها ولا يريد أن يتخلى عنها رغم كل الذي حصل، لكن لم يخطر ببالها في أي وقت أن تترك أمها، وترافق أختها في مغامرتها.

بعد سويعات على بكاء ونحيب أم روزا، استقر الجميع على الملخص الوحيد للحدث؛ لقد خطف الولد الغبي حسام الغبيتين روزا وحياة. لكن لماذا خطف الأختين معاً. !؟

كان هذا شرط روزا للموافقة على مشروع حسام الباذخ، أنه سيحقق كل أحلامهما ما أن يعبرا الحدود، ما بعد الحدود ستنفتح آفاق العالم أمام هذين العاشقين، سيتدبر بمساعدة نصف عائلته التي تعيش منذ زمن بعيد في أمريكا السفر إلى هناك، مؤكد أنه لن يخبرهم بطائفة أو دين حبيبته أو زوجته، سيتدبر الأمر هناك، سيكون لنا بيت وأولاد ولا نعود إلى هذه الأرض أبداً، هل تسمعينني، أبداً، ليقولوا ما يقولوا، بمرور السنين سيغفرون لنا، أنا متأكد، ثقي بي حبيبتي، سيغفرون، أهلنا ناس طيبون لا يحملون الحقد والكراهية طويلاً.

لم تناقشه في تفاصيل أحلامه التي فرشها أمامها كسجادة زاهية، في ذهنها كل هذا سيأتي بعد الخطوة الأولى، وهي ما زالت محتصرة بالخطوة الأولى، يشغلها مصير أمها وأختها، تعرف أن أمها لن توافق على مشروع الحبيب الباذخ هذا، لكن حياة ستوافق، قالت له:

- ستأتي معنا حياة.

تململ الولد لكنه لم يعارض، كان يريد اللحاق قبل أن يصحو النيام، وصل عند الفجر مختصراً مسافة ثلاثة ليال بليلة ونهارها.

كان جسده الفتي قادراً على تحمل أعباء المسير الجبلي وبلا نوم، غامر ورفيقه منار بالسير حتى في النهار بين كمائن وحراسات الجنود المنتشرين في الطرق التي جاؤوا منها، كانا يسيران مثل ذئبين جبليين يريان الصيادين وهم لا يرونهم، يزوغان ويناوران بين الخطوط والكمائن، ودع رفيقه عند تجمعات الأنصار مودعاً عنده سره الذي قرر الآخر إخفاءه مهما حصل، أن يخبر من يسأله أنه عاد لوحده.

الآن، لم يعد حادث الخطف هو الغريب في الأمر، بل لماذا الأختين معاً...؟ هذا الأمر قلب كل الاحتمالات رأساً على عقب، لم يعد الحادث في أذهان الغالبية يخص نزوة ابتلي بها مراهق ومراهقة في غير أوانها ومكانها، إنما هي عملية إنقاذ قام بها شاب شهم لحبيبته وأختها. هذا ما فكر به بعض الأنصار،

على أية حال، اعتاد العشاق من الطائفة (اليزيدية) أن يفتحوا انسداد الأفق حين يُقفل بوجوههم، بهذه الوسيلة، حل مجرب وممارس بكثرة.

ما أن يصل عاشقان إلى جدار الرفض إياه وما أن يتحققا من صلابته، حتى يبادران إلى عبور ذلك الجدار من فوق وليس من الباب، يخطف العاشق معشوقته ويتواريان في مدينة أخرى أو قرية أخرى، لحين تليين قلوب المعترضين من الأهل وعقد المصالحة والعودة من جديد.

في الغالب يحصل التصالح، وتعود الحياة إلى مجراها السائد لأن الاثنين من ذات الطائفة، أما والحالة الراهنة لهذين العاشقين الصغيرين الجديدين على دروب العشق ومنزلقاته، فالأمر مختلف، هما من دينين وقوميتين مختلفتين، هو مسيحي كلداني، وهي كوردية يزيدية وهذان الدينان لا يتهاونان مع العصاة المتمردين على محرماتهما، القتل أو النبذ كأي مجاذيم هو الحل الوحيد المطروح أمام المتمردين، لا تهاون مع الخارجين عن الطوق.

دينان صغيران يسعيان بقوة متطلبات غريزة البقاء لمقاومة الذوبان في المحيط الكبير المهول من حولهما، دين الأغلبية.

أمام هذين العاشقين لا قرية أو مدينة بل لا كهف سيأويهما، وهما مطاردان ومطلوبان من الدين والعشيرة والعائلة والحكومة. أين سيذهبان؟ هل فكرا في هذا السؤال؟

واضح أن محنة العشق، تحرم الكائن السوي من النظر إلى أبعد من أرنبة الأنف، لأن ما بعد تلك الأرنبة الأنفية لا شيء مرئي غير طريق مبهم ومظلم، قال حسام ما قاله لحبيبته بثقة حسد نفسه عليها، لأنه أول من لا يصدق حرفاً مما نطق به، غير متيقن بعد من قدرته على عبور سلسلة (گارا) مرة أخرى وقد رأى بعينه أن لا مكان ثابت لتواجد الجنود والفرسان، هم في كل مكان، والمكان الذي كان آمناً قبل ساعة لن يبقى كذلك، بما فيها الطرق والمعابر التي سلكها مرتين، وكيف اضطر إلى تبديل الكثير من مراحل الطريق.

غطت تفاصيل الاحتمالات لحادثة العاشقين، على احتمال السبي المتربص بالجميع، لكن الحياة تظل هي الحياة، تدور بعجلة استمرارها وقادرة على فرملة كثير من عادات الغضب القبلي والديني ناهيك عن الغيرة الرجولية لغير قليل من الأنصار اليزيديين.

ظهر لكل فرد خط فاصل بين ما يجب أن يفكر وينشغل به وما يجب أن يركنه في زاوية من زوايا النسيان، مع تدرج ساعات النهار، انسحبت ذيول الحادثة من ألسنة المتقولين هنا وهناك، لتتكور على نفسها في رأس الأم فقط، الأم المتعبة أصلاً.

أذعنت بعد أن هدها تعب الزوغان هنا وهناك على السفوح الوعرة بحثاً عن بناتها، لأن تبتلع محنتها لوحدها، جلست تحت ظل شجيرة صغيرة واضعة كفها أسفل وجهها تجتر ألمها وحيرتها وخوفها على بنتيها، لم تعد تأبه لمواساة هذه أو تلك من النساء المتقاطرات عليها، وجدت الأحاديث المواسية تنسحب وبسرعة من الحديث عن مصيبتها إلى الحديث عن شؤون وشجون حصارهم وانسداد أفق الحلول التي يطرحها الرجال.

لكن، ولأن الأسرار مهما كبرت أو صغرت في هذا العالم المكور على نفسه في مساحة صغيرة، لا يمكن إخفاؤها طويلاً، وصل بعد حين، خبر من فلان عن فلان عن أحد الصيادين، أنه قال: رأيت شاباً وصبيتين من الشيوعيين يصعدان باتجاه تلك المنطقة العاصية في (گارا)، منطقة الكهوف المتداخلة التي تشبه المتاهة عند أعلى قمة من قمم الجبل والتي يطلق عليها القرويون اسم (مغارة الدب).

المنطقة يصعب الوصول إليها، ناهيك عن الاستدلال على أي شيء هناك، إذ لا طريق معلّماً يقود السائر إليها، غير قطوع صخرية قاسية لا تتسلقها غير الوعول الجبلية، الوعول والدببة تتخذ منها مستقراً لحياتها بعيداً عن عيون وبنادق الصيادين المتربصة.

هل نجحوا بالوصول إلى هناك مشاطرين الوحوش مساكنها؟ لم يعد للسؤال من معنىً إلا في رأس الأم، وهي تستبدل ألوان ألمها لوناً بعد آخر،

لتستقر على ألم وحيد هو ألم الخوف على حياة ابنتيها، لم تعد حادثة الخطف بذاتها تعني لها شيئاً، لم يعد تمرد بنتها على عاداتهم وتقاليدهم يعني شيئاً، لم تعد ذيول الفضيحة المتناسلة هنا وهناك تعني لها شيئاً، الخوف على حياة البنتين ظل هو الألم الوحيد المستوطن جسدها، ألم حول جسدها كله إلى حواس بمجسات مفتوحة لاستقبال ما يتداول من أخبار وما يُهمَس به همساً بين الآخرين، كل حديث بين اثنين على مبعدة أو مقربة يجعلها تظن أنه حول ابنتيها، وبين الفينة والأخرى يطل هذا السؤال البشع برأسه يحرك بركة أحزانها:

هل سيقتلهما بعد أن يقضي منهما وطره؟ هل يهجرهما وحيدتين في تلك القطوع النائية؟ هل يعودا مرة أخرى إلى حضن أمهما؟

ما زالتا طفلتين. غشيمتين، آه منكِ يا روزا، كيف واتتك نفسك على هذا الفعل، أسئلة لا تخلف لها غير الشعور المتكالب بالإحباط واليأس والقهر، شعرت أنها وحيدة الآن أكثر من أي وقت مضى، رغم أنها كانت طيلة حياتها وحيدة حتى بحياة زوجها.

لم تتعرف على ذلك الزوج إلا كما تتعرف ذئبة إلى ذئب، ما دامت هناك جبال تسحر الرجال وتبلعهم في شِعابها المطلسمة، لتستبقيهم رهائن في لعبة غامضة حتى إن فلتوا من شباكها ومزاغلها، يكونون قد تلبسوا ملامحها، عزلتها، غموضها، وتلك العادة الذئبية العجيبة، إذ تتحول كل الأشياء عندهم إلى طريدة للقنص. خفة، سرعة، حذر، ثم ينتهي كل شيء. حتى المرأة ينتهون منها كما بدأوا. خفة. سرعة. حذر. ظلت تدفع فواتير تمرد ذلك الزوج كل يوم وكلِ ساعة في السجون وفي القرية وفي البيت، متزوجة لكنها بلا زوج.

حين كانت في قريتها كان الناقمون على الحكومة وأمنها واستخباراتها يخففون عنها الكثير من الألم، على الأقل هم يعاملونها بإكبار وهي زوجة البطل چاويش الرجل الذي دوّخ الحكومة، هكذا يرددون في أحاديثهم البينية، الرجل الذي كانت تسجل باسمه كل المعارك والاقتحامات التي كانت تصل وقائعها

مضخمة إلى القرى والمدن البعيدة عن الجبل. رجل لا يهاب الموت. ذئب الجبل. أسد الدشت. الشيوعي الذي لم يبدل جلده.

كانت تصلها المساعدات والهبات في الليالي دون أن تعرف حتى من هو الذي جلبها؟ وكيف؟

لا تسمع سوى طرقات على الباب صارت تميزها بحكم الاعتياد عن طرقات رجال الحكومة. تفتح الباب لتجد كيساً من الطحين. أو علبة سمن. أو مغلفاً فيه مال.

لا تعرف من يرسلها؟ كانت تلك الحوادث الصغيرة والكبيرة تنسيها غياب الزوج وتزودها ببعض الكبرياء وهي تواجه عيون رجال الحكومة الوقحة، عيون تنضح بالشهوة إلى جسدها أكثر من اهتمامها بما في حورتها من معلومات عن زوجها، كانت تهزمهم بكبريائها وصلابة موقفها، بكلماتها القليلة لكن الحادة مثل شفرة، هو في الجبل، تعرفون مكانه، إذا كنتم رجالاً اقتلوه، أنا لا أعرف عنه شيئاً.

يستبقونها أياماً وأسابيع علها تضعف في نهاية الأمر، وترضخ للعمل معهم ضد زوجها، مسعىً قد نجحوا به مع بعض زوجات وأخوات وإخوان الأنصار، إلا مع هذه المرأة، ظلت مستعصية على وسائلهم، مثلما ظلت خطط الزوج الغامضة وقدرته على الظهور في كل مكان وكل وقت سبباً لردع مسؤولي المنظمة الحزبية الحاكمة في المدينة التي تتبعها القرية، وجعلهم يحسبون حسابهم لردة فعله.

ظل مسؤول المنظمة الحزبية يواصل توسلاته برجال الأمن الذين يعتقلونها، أرجوكم حافظوا على شرف المرأة، الشرف هو الحد الفاصل في هذه المنطقة، لزوجها أنصار ومؤيدين كثر، لا أضمن ماذا سيحدث؟ أرجوكم لا تورطوني، وكانت توسلات ذلك المسؤول الذي هو في الأصل من قريتها قد أنجتها في كل المرات من المصير الذي تعرضت إليه كثيرات من عوائل الأنصار سواء من منطقتها أو غير منطقتها. ها هي الآن وحيدة تواجه محنة خطف ابنتيها، لكن ليس الحكومة وجيوشها من خطفهما، بل من داخل حزب الأب.

خرجت من دهاليز ألمها على صوت أم آزاد، المرأة القوية صاحبة التاريخ المماثل هي الأخرى، زوجة أحد أقدم كوادر الحزب في المنطقة، لم تحس بوصول المرأة وجلوسها عندها:

- أم روزا. شفنا الأصعب، لا تنكسري، ليش آني هسه أعرف وين آزاد.

أرادت تذكيرها أنها هي الأخرى مكلومة باختفاء ابنها الصبي الذي استبقته الاستخبارات في سجونها بعد أن هجّروها هي وأطفالها الصغار، واصلت:

- الموت متربص بنا من كل صوب، من يعرف شراح يصير بعد شوية، لا تنسين حسام نصير وشيوعي راح يحافظ عليهن.

رفعت أم روزا رأسها، لم تقل شيئاً غير أن عيونها كانت تسأل:

هل ما قلتيه صحيح؟

لتجيبها الأخرى:

- إي، آني أثق بالشيوعيين، دشوفي هذولة الشباب، كل واحد منهم عنده أم وأب ما يعرفون عنه شيء من سنين، قومي إكلي لقمة، وكلشي ينحل.

تذكرت أم روزا أنها منذ يومين أنها لم تذق غير الماء، وكسرة خبز صغيرة استبقتها لنفسها بعد أن وزعت أرغفة الخبز على بناتها.

(٢٨)
إعادة إبادة إنسان النياندرتال

بوصول نزار وعواد النصيرين اللذين ألحقا بالمجموعة العقراوية، انقطع دابر اللغط الذي أثاره خبر إبادة المجموعة المكونة من اثني عشر نصيراً بكاملها، ظل الخبر ومنذ البدء متلبساً لبوسِ الإشاعة، والحدود لم تزل غير واضحة بين ما يُشاع وما يحدث فعلاً في حياتهم الجبلية، والفلاح بطبيعة عزلته الجبلية أرض خصبة لتصديق وإعادة إنتاج الأخبار، بل هم أنفسهم وبحكم المعايشة وشحة المصادر الخبرية، درجوا على هذا النوع من إعادة إنتاج الحوادث وأخبارها، لكنهم افترقوا عن الفلاح بالمقدمة التي يقولها أحدهم قبل سرد الخبر:

يا جماعة أكو خبر بس مو أكيد. !! ثم يسرد الخبر. لكن هذا الخبر الـ (مو أكيد) حين يتحرك بين المجاميع المتباعدة بحكم عملها، تنبت له أجنحة تؤكده، ليحلق بها لزمن يطول وأثناء طيرانه ينسى علامة النفي الواضحة (مو أكيد)، لذا هم تعودوا اللاتصديق لكل ما يصلهم لحين التمكن من إعادة تفكيك المعلومة، أو أن يصلوا لمصدرها.

مع الفجر، وصل النصيران، في البدء لم يتعرف عليهما الحارس الذي أوقفهما، فرك عينيه وكأنه غير مصدق، كان يراقب عبر الناظور العسكري تجمعات الجنود والفرسان حول القرى المحروقة في الأسفل وعلى السفوح المقابلة، كل أهدافه بعيدة، أما أن يخرج عليه اثنان مسلحان من أسفل صخرته وهما يتهاديان مثل مخمورين، هذا ما لم يدر بخلده.

تهيأ لإطلاق النار لكنهما لم يكونا يحملان بندقيتيهما بوضعية الرمي، كانت

البنادق معلقة على الأكتاف، كذلك هما لا ينظران إلى شيء غير أقدامهما التي بدت عاجزة عن سحب جسديهما صعوداً، تملى مشيهما غير المتوازن وبصعوبة استرجعت ذاكرته وجهي رفيقيه عواد ونزار، وصله صوت نزار بلكنته الكردية، من الأسفل:

- رفيق عندك ماء...؟

ظل النصيران طيلة النهار لا يملان من شيئين، النوم والماء، بين نوم وآخر وجبة ماء وشاي، جسدان هزيلان، عيون غائرة في محاجر سوداء، نظرات لا تفصح سوى عن ذهول وإحباط كاملين، وجوه خُددت بأخاديد في العادة تكون لشيوخ بلغوا من أعمارهم عتياً، لم يصدق أحد أن سبعة أيام قادرة على تحويل البشر من حال إلى حال، لم يردا على كل الأسئلة المتلهفة، بغير مفردة واحدة:

- بعدين.

ظل الطبيب قريباً منهما، بعد أن عرف أنهما شربا بولهما. !! وقعت الحادثة قرب قريتي (النياندرتال). الاسم ذو وقع خاص لدى الأنصار.

احتفظ الأنصار بهذا الاسم للقريتين (نياندرتال١) و(نياندرتال٢) لأنفسهم، بديلاً عن الاسمين الكرديين للقريتين، إذ قدح الخيال يوماً بأحدهم وهو يراقب نمط حياة سكان ذينك القريتين، ليخرج من المراقبة بتشبيه تلك الحياة بحياة أخرى موغلة في القدم، كانت لسكان هذه الجبال، حياة عثر على آثارها باحثون أثريون في كهوف جبال برادوست تحديداً الكهف المسمى (شانيدار)، الذي دخل مؤلفات المؤرخين والباحثين كموطن للإنسان الأول (النياندرتال).

القريتان لا تشبهان قرى الكرد الأخرى التي دخلت بهذا القدر أو ذاك في نسيج المدنية وأدواتها، معلومات سكانهما وهم قليلون، ولعلهم ينتمون لذات السلف البعيد قبل أن ينشقوا على أنفسهم إلى قريتين، معلومات تذكّر بردود الأفعال المتوقعة للإنسان الأول، فيما لو خرج اليوم وسمع ورأى ما حصل ويحصل في العالم الكائن خارج عزلته.

بشر يعيشون في عزلة كهفية مقفلة، لا طرق تربطهم بالمدينة غير طرق البغال، كثيرون من سكانهما لم يروا سيارة، لكنهم يرددون اسمها المتداول كردياً (ترمبيل) ويتساءلون بدهشة (هل رأيت ترمبيل.؟) سؤال يسأله الصبية والشباب أحياناً ما أن تصلهم مفرزة الأنصار.

الآثار الوحيدة للمدينة في حياتهم هي السكر والشاي حتى أواني الطبخ ما زالت تنتمي للفخار القديم، يعيشون في ظل سفوح صخرية غنية بشجيرات العنب الديمي، لا يزرعون بل يداورون ويجنون ما تمنّ به هذه السفوح من ثمار العنب، وبقية أعشاب الجبل في الصيف إضافة إلى حقول صغيرة نسبياً توفرها بعض المساحات لزراعة الحنطة والشعير، وما أن يأتي الشتاء حتى يلجؤون إلى مهنة الإنسان الأول (الصيد). ما زالوا في منطقة ملتبسة من مراحل تطور الإنسان واقعة بين الصيد والزراعة، الجبل الأجرد الخالي إلا من سوابيط العنب والغني بكهوفه هو كل شيء في حياتهم، وعلى حد قول أحد الأنصار:

هؤلاء لولا أنهم مسلمون كما هو واضح من صلاتهم وقيامهم لاتخذوا من الجبل إلهاً وعبدوه.

ثروتهم التي يبادلون بها السكر والشاي والملابس هي جلود الحيوانات ودبس العنب البري، يحملونه بأوعية جلدية على ظهور البغال بقافلة سنوية يذهب معها نفس الرجال كل سنة ليعودوا محملين بالسكر والشاي والملابس.

القريتان تحصلان على مائهما من نبعين هما أقرب إلى بئرين تلبط في باطنهما الديدان، وشبكات البكتيريا المختلفة مع فضلاتهم التي لا أحد يدري كيف تصل إلى هناك، مما يجعل السؤال كيف ما زالوا على قيد الحياة سؤالاً منطقياً.

هاتان القريتان هما الوحيدتان اللتان يحسب الأنصار ألف حساب قبل التوجه إليهما، حيث يفضّلون التقوت على ما في جعبهم من خبز وشاي على أن يأكلوا مع القطط والأطفال اللائطين بغائطهم أمام العين، لا أحد يصل القريتين المقطوعتين في تضاعيف سلسلة (بيرس) غير الشيوعيين وعلى فترات متباعدة مدفوعين بحمية (العمل بين الجماهير).

كل الطرق المؤدية إلى الزاب لم تكن تمر من هاتين القريتين، لكن ولأن المجموعة العقراوية كانت تبحث عن طرق جديدة توصل إلى هناك، طرق غير مطروقة، وجدوا أنفسهم بضيافة القريتين، وبسبب العزلة التي يعيشها سكان القريتين لم يعرفا بعد بما حصل ويحصل من حولهما، لذا حين وصلت المجموعة كانت القريتان تعيشان حياتهما كما هي بعيداً عن كل الدوشة التي تحيطهم.

ظلت المجموعة بضعة أيام تشارك السكان غذاءهم وشرابهم حتى وجدوا من يرشدهم إلى سفوح يمكن التخفي فيها وهي مشرفة على نهر الزاب من موقع للعبور غير معروف سابقاً، كان هاجسهم العثور على مكان عبور آمن يكون فيه النهر متطامناً هادئاً، وكانوا يبحثون في الأثناء بين الصخور علهم يعثرون على (چوب) وهو الإطار الجواني لعجلات التراكتورات أو السيارات، ليعملوا منه طوفاً لعبور النهر، يعرفون أن المهربين عادة ما يخفون مثل هذه الإطارات المطاطية بين الصخور قرب النهر.

في اليوم الثالث من تواجدهم هناك، نصح هاوار قائد المجموعة سكان القريتين باللجوء إلى الكهوف غير البعيدة تحسباً من عمليات إنزال قد يلجأ إليها الجيش، منهم من صدق الأمر ومنهم من لم يصدق، من هذا الذي سيصل إلى هنا في هذه العزلة المقفلة...؟ المجموعة كانت تلجأ إلى كهفين متقاربين تقضي فيهما النهارات، لكن في اليوم الرابع حدث ما توقعه (هاوار)، دهمتهم الطائرات العمودية بعد أن مهدت لهبوطها بتمشيط مساحة القريتين بالصواريخ أولاً ، ومن ثم بالرمي الحر بالدوشكات المحملة على تلك الطائرات.

ظل الرجال والنساء والأطفال يتراكضون إلى كل الاتجاهات مخلفين وراءهم حرائق بيوتهم، والرماة يتصيدونهم كما لو كانوا في حفلة صيد الغزلان التي اعتادها طيارو الطائرات العمودية ورماتها في فيافي الجزيرة، وكنود سهل الموصل.

لم يسلم من سكان القريتين إلا قلائل صدقوا ما قاله هاوار، ولجأوا إلى الكهوف

وبعض الذين لحقوا على الانسحاب إلى سوابيط العنب على السفح الصخري.

في ذلك اليوم كانت المجموعة منقسمة على نفسها، خمسة كانوا في مهمة استطلاعية قرب سفوح الزاب، والمجموعة الرئيسية كانوا سبعة بقيادة هاوار في أحد الكهوف المشرفة على القريتين، ولأن الرماة شاهدوا المنسحبين إلى الكهوف عبر سوابيط العنب، أصبحت تلك الكهوف هدفاً.

بعد سويعات من تحويم الطائرات وحرق القريتين، حدث إنزال في المساحة الفاصلة بين القريتين، أفرغت طائرتان حمولتهما من الجنود الذين أخذوا، ما أن هبطوا على الأرض، بالرمي باتجاه الكهفين على السفح. استمر التمشيط طيلة ساعات ما بعد الظهيرة، كان بإمكان المجموعة الأنصارية أن تقضي على هؤلاء الجنود الذين باتوا مقطوعين الآن عن كل شيء بعد أن غادرت الطائرات.

لم تكن أعدادهم بالكبيرة، ليسوا أكثر من فصيلين من الجنود، لا يتعدى عددهم الثلاثين جندياً، جميعهم في مرمى البنادق، أكثر من هذا وبعد ساعات من الرمي العشوائي باتجاه السفح دونما رد، همدت نيرانهم وكأنهم تأكدوا أن الطرائد قد همدت كذلك.

استدرجتهم سوابيط العنب المتدرجة من محيط القريتين إلى السفوح الصخرية وباتجاهين متقابلين، منها إلى السفح الذي يكمن فيه الأنصار وأخرى إلى السفوح المقابلة، يتجولون بين شتلات العنب وبنادقهم معلقة على أكتافهم، كأنهم يسيرون في شوارع عامة أو في باحة معسكرهم، بدت سحنات الجنود الجنوبية واضحة، وهم يعلكون مفرداتهم فرحين بمذاق العنب البري.

- شوف هذا العنب. حباته زغار. بس اشكد طيب.

- والله آني حسبالي زعرور. طلع عنب.

كانوا صغاراً، لعلهم من المواليد المسحوبة حديثاً للجندية، فكر هاوار:

سنقتل هؤلاء جميعاً، لكن ماذا بعد؟

سيأتون بغيرهم وغيرهم وغيرهم، الجيش لا يهتم بعدد قتلاه قدر اهتمامه

بنا، لعل هؤلاء الجنود الصغار هم طعم إخراج الطرائد من أوكارها، استقر قراره على تجنب القتال، لا فائدة منه، من المؤكد أنهم سينسحبون قبل قدوم الليل، أوعز للنصير القريب منه كمال، أن يخبر بقية المجموعة المتوزعين وراء الصخور قرب الكهف:

- قل لهم لا أحد يطلق النار.

تنقل هذا مثل وعل بري من صخرة إلى أخرى طالباً من رفاقه أن لا يطلقوا النار، في هذه الأثناء، حدث أمر آخر لم يتوقعه هاوار، لقد نزل القرويون الذين كانوا في الكهف المجاور باتجاه الجنود رافعين أياديهم فوق رؤوسهم، كذلك ظهر المتخفون في سوابيط العنب معلنين استسلامهم.

طابور من الرجال والنساء والأطفال يأخذ بالتضخم كلما نزل إلى الأسفل، عاد الجنود من جديد إلى حذرهم، واستعدادهم القتالي وهم يرافقون الطابور المستسلم إلى تلك المساحة الكائنة بين القريتين، والتي اتخذوا منها ما يشبه معسكراً مؤقتاً بالمستلزمات التي أنزلتها الطائرات.

بعد سويعات وقبيل الغروب وصلت أصوات وهمهمات من فوق الكهف، إنهم الفرسان الزيباريون ينزلون الجبل، هكذا خمّن هاوار من لكنتهم الكردية المميزة.

أصبح الأنصار الآن بين الجنود المنتشرين على كل المساحة في الأسفل والفرسان النازلين من فوق، الجنود عرفوا من القرويين المستسلمين أن الأنصار في هذا الكهف تحديداً، جرى تطويق الكهف من كل الاتجاهات وصاروا ينادون على الأنصار للخروج والاستسلام، وعادت الطائرات من جديد تحوم، ليس طائرة واحدة بل سرب من الطائرات العمودية.

صارت المناداة تصلهم باللغة الكردية هذه المرة من الفرسان المتموضعين فوق الكهف، الأنصار في المصيدة مهروسين بعقم المقاومة وبهواجس الموت القريب المحقق، لم يعد يفصلهم عن الموت سوى بضعة قنابل ترمى إلى داخل كهفهم، تكون كافية لقتلهم إما بشظاياها أو بدخانها. هاوار يداور مع نفسه قرار التسليم، لكنه غير مستقر بعد:

أيسلم للفرسان الزيباريين أم للجنود؟ وفي ذهنه قرار العفو الذي سمعه قبل أيام، صحيح هو لا يصدق وعود الحكومة، لكنه الحصار الخانق لم يترك له سوى أن يمني نفسه بـ (عسى ولعل). وتبقى محنته الآن كمال العربي الوحيد في مجموعته، هذا لن يشمله العفو الرئاسي حتى فيما لو صدق وشمل الكرد، فكر بإمكانية المناورة بالتحدث مع الزيباريين ليمد الوقت حتى الليل، من ثم يبحث عن منفذ للخروج من المصيدة، لكن الرمانة اليدوية التي انفجرت قرب مدخل الكهف أعادته من جديد إلى قرار التسليم.

لم يعد أمامه من خيار سوى المقاومة حتى الموت أو التسليم برجاء العفو، لا يدري لماذا انحصر كل تفكيره في كمال وكأن الموت القادم سيكون لهذا الشاب العربي وليس لهم كلهم، التفت إلى كمال:

- كمال. شتگول...؟

رد هذا، وهو كان يداور ذات السؤال ومنذ بداية المحنة، إنما بانكسار واضح:

- نسلّم.

شعر هاوار بشيء من التخفف وكأنه أزال عن كاهله عبء الذنب الذي سيقترفه بحق كمال، لكن رأسه ظل يردد:

مسكين أنت يا كمال. !!

خرج إلى خارج الكهف وصار ينادي على الفرسان الزيباريين: —

سنسلم أنفسنا لكم وليس للجيش، في ذهنه لعل كورديته ستشفع له لدى هؤلاء، طمأنه صوت كبير هؤلاء بـ (بسمام. لا تخاف. لك الأمان). ثم أرسل من ينادي على الجنود أن لا يطلقوا النار، خرج السبعة يقود استسلامهم هاوار رافعاً خرقة بيضاء وهو يتسلق صخور السفح إلى حيث استقر (الفرسان).

استسلموا لسرايا الفرسان الزيباريين الذين وعلى غير ما توقع هاوار، سلموهم بدورهم إلى الجنود المعسكرين في الفسحة الواقعة بين القريتين، بعد مداولات واتصالات عبر اللاسلكي قام بها الضابط المسؤول، تقرر تنفيذ إعدامهم فوراً.

لم يخبروهم بالحكم الصادر بحقهم للتو، طلبوا منهم الاصطفاف بحذاء صخرة كبيرة وهم مقيدين، ثم اصطف قبالتهم بضعة جنود برشاشاتهم وأطلقوا عليهم النار بمخازن كاملة، سقط السبعة غير بعيدين عن جثث أخرى لسكان قريتي النياندرتال.

أما الخمسة الآخرون، فحوصروا بين سفوح الزاب التي كانت عرضة لتمشيط مستمر من الجنود وبين المعسكر المؤقت الذي عمله الجيش قرب القريتين البائستين، حتى انشقت المجموعة على نفسها، ثلاثة ولوا وجوههم شطر بيرس الأجرد، ونزار وعواد ظلا هناك أياماً يقتاتان على أعشاب الأرض وبلا ماء؛ حتى اضطرا لشرب بولهما.

استمع الأنصار إلى قصة النصيرين بصمت استمر طويلاً حتى بعد إنهائهم لفصلها الأخير، استمعوا وهم مسرنمين بقوة الصدمة، أحد لم ينطق بشيء، لا قول يصلح للقول، لا قول يقول ما تمور به الرؤوس والأفئدة من مشاعر غضب، قهر، حيف، حيرة، رغبة جامحة تريد الانتقام، الثأر، الرد، لكنها الرغبة الملجومة بعقم النهايات، إنها المرة الأولى في تجربتهم يحدث فيها ما حدث، استسلام، رفع راية بيضاء، ثم إعدام ميداني.

ظلت لوقت طويل وجوه الشهداء تمخر عباب الذاكرة بوجع ناغز: هاوار. شيروان. رزكار. جوتيار. ريبوار. شيفان. كمال.

وجوه الأنصار المستمعين كانت وجه غاضب بعيون تقدح شرراً، وجه صافن كمن يداور مصير الكون، وجه متحدٍ، وجه مستسلم.

تتبادل الوجوه مواقعها تعبر من صوب إلى آخر في شاشات الأنصار، لا لوم ولا موافقة على ما فعلوه، كلٌّ كان يداور مع نفسه أسباب ذلك الفعل الذي يحدث للمرة الأولى في حركتهم، أهو العطش، الجوع، أم هو اليأس من المقاومة، اليأس من وصول الحدود، اليأس فيما وراء الحدود. إنها أيام مقفلة النهايات لا بصيص فيما وراء الأبواب.

(٢٩)
لماذا سلم حمدان حبيبته إلى رامي الدوشكا؟

اختفاء الأختين أرجأ نزول عوائل الأنصار، إذ انضمت أم روزا إلى عصبة الزوجات الرافضات النزول ولها ما يبرر عصيانها، كذلك كان غير قليل من القرويين ما زالوا في ملاذاتهم يقلبون حساباتهم على مهل، طالما لم تزل بمعيتهم بعض المؤونة التي حصلوا عليها في الليالي الفائتة، خصوصاً أولئك الذين عليهم ما عليهم من مؤشرات ووقائع اشتراكهم بعمليات البيشمركة.

هم يعرفون أن وكلاء الحكومة في قراهم لم يفوتوا لهم تلك الحوادث، من المؤكد أنها نُقلت وأضيف لها الكثير من الرتوش والهوامش التي تجعل حسابهم حساب الأنصار والبيشمركة، لذا هم ما زالوا متمهلين في حزم أمرهم والنزول، وكان في ذهن كل منهم كوة فرج سيفتحها الغيب في قادم الأيام، غير أن ما حدث اليوم ومنذ الصباح الباكر جعل هؤلاء يقلبون حساباتهم بالاتجاه المضاد، باتجاه عواقب إطالة البقاء واحتمالات الوقوع أسرى هذه المرة، ويظل حساب من يؤُسَر غير حساب من يسلم نفسه طواعية.

هكذا وصلتهم الأخبار مع علمهم أن غير قليل من البيشمركة المسلحين كذلك سلمّوا أنفسهم مع عوائلهم ومع أسلحتهم، حتى وصلت معلومة من الطرف الآخر تقول على كل رجل يسلّم نفسه أن يصطحب معه بندقيته.

منذ صباح هذا اليوم دخل الحصار مرحلة جديدة؛ أخذت أسراب من الطائرات العمودية تحوم فوق رؤوس المحاصرين، وعلى ارتفاعات واطئة تسمح للرامي الجالس على منصة الرمي في باب الطائرة والطريدة على الأرض أن يتبادلا التحية كما يقال.

ليست طائرة واحدة بل طائرات كثيرة، يذهب سرب ليلحقه بعد حين سرب آخر، بدأوا وكأنهم يبحثون عن مكان للنزول، فقط لأن تضاريس المكان لا تسمح بذلك، مشاهد الذعر عادت من جديد تُغلف ردود أفعال هؤلاء الذين حسبوا أن تلك الهدنة ممتدة لحين إطلال تلك الكوة الغيبية من السماء.

لم يزل تحليق الطائرات غير متبوعاً برماية لتمشيط الهدف، اكتفوا بالتحليق والدوران فوق المكان، غير آبهين لردة فعل المسلحين، إذ تكون المسافة بهذا القرب بين الصياد والطريدة، ممكن للمعادلة أن تُقلب كذلك، ممكن للطريدة المسلحة أن تقتنص الصياد ليترك طائرته تطير بلا قيادة لحين ارتطامها بجدار ما، لم يحدث هذا.

ما زال الأنصار والبيشمركة على قرارهم بتجنب القتال. شمل الذعر والتشتت في الأفكار والنوايا الجميع، بما فيهم عوائل الأنصار، إذ لانت عريكة بعض النساء المعاندات، خوفاً على أطفالهن هذه المرة وهن يرين بأم العين ما سيحدث فيما لو حدث تصدٍ من قبل الأنصار والبيشمركة لهذه الطائرات المحلقة فوق الرؤوس، الأمر الذي جعل (سهراب) يتخذ قراره مع نفسه وهذه المرة بحسم لا يقبل الرجعة، سيبدأ بزوجته؛ سيجبرها على الامتثال للمصير الذي شمل حتى الآن ألوف العوائل من الفلاحين الذين استجابوا للقرار.

هو يعرف أن كثيراً من الزوجات يسندن رفضهن برفض زوجته، ردد مع نفسه: خلص، اليوم آخر يوم. !!

الأنصار وعلى عادتهم كانوا قد اتخذوا مواضع بعيدة نسبياً عن تجمع العوائل، مجاميع صغيرة توزعتهم الصخور والملاذات الآمنة، هاجسهم الاختفاء أولاً، والتصدي فيما لو حصل التقدم من أسفل، أحد لم يفكر باحتمال الهجوم عليهم من فوق، هذا الاحتمال تُرك للجبل وهو كفيل بمنع حدوثه.

في كل الأحوال إن تضاريس هذا الشاهق إلى العالي (گارا) لا توفر مثل هذه الإمكانية، لذا كانوا مطمئنين من نتائج جولات الطيران العمودي، في أذهانهم لا يتعدى الأمر أكثر من جولات صيد من الأعالي، أو هو ضغط مضاف على أولئك

الذين لم يستجيبوا بعد لقرار العفو، وملاذاتهم المكينة ستوفر لهم الحماية اللازمة.

كان فؤاد وحمدان يتخذان من باطن صخرة منبعجة على هيئة قوس، كأن أحدهم عمل على تفريغها وجعلها تشكل مع الصخرة المقابلة لها ما يشبه القوقعة البحرية المفتوحة من الأعلى مع بعض الفتحات الجانبية.

الملاذ يصلح متراساً للقتال بما يوفره من فتحات تخفيها أغصان الأشجار حولها، فؤاد ومنذ أيام قد سُحبت منه البندقية وأُعطي مسدساً، لم يعد جسده قادراً على حمل البندقية وعتادها، لقد تطاول مرضه حتى تحول إلى ربو أو هكذا كان تشخيص الطبيب، لا يمل صدره من طرح البلغم الذي يظل عالقاً على الدوام في طيات البلعوم، ولم يكن سعاله المتطاول قادراً على كشط ذلك البلغم، لا تتركه النوبة من نوبات السعال إلا بعد أن تحول وجهه إلى طماطم ممرودة في أعلاها عينا قط زرقاوتان، ناطتان بلمعان مختلط مع الدمع، حتى وجد نفسه يداور معها خياراً لم يلجه في حياته؛ خيار التمني بالخلاص من حياته نفسها التي يراها تتحول إلى عبء لا طاقة له عليه.

كان يسعل وعيونه تتابع حركات الرامي الرابض عند باب الطائرة المفتوح، خطف وجه الرامي لثوان، هي الوقت الذي استغرقه مرور الطائرة على مقربة منهما، كان ذلك الرامي بشاربه الكث يدخن ويضحك من خلف رشاشه ذي السبطانة الطويلة الخارجة من جسد الطائرة لعله مشتبك بحديث مع الطيار، وجه حليق إلا من شارب كثيف يحوط شفتين غليظتين بثلاثة أضلاع كاملة، لقد تكرر مرور هذا الوجه أمامهما، كانت طائرته تكرر دورانها بذات الإحداثيات وكأنها التقطت شيئاً ما بين الصخور والأحراش في الأسفل. فؤاد مطمئن أن هذا الرامي لا يسمع سعاله، إذ صوت محرك الطائرة قادر على إخفاء كل ما سواه من ضجيج، التفت إلى رفيقه حمدان المتكور على نفسه بجسده الهزيل والطويل، وجده هو الآخر يتابع ضحكة وتدخين ذلك الرامي الذي يحوم فوق موضعهم، وعلى ارتفاع منخفض جداً حتى يكاد جسد الطائرة يلامس الصخور التي أمامهم.

طرح (فؤاد) على نفسه سؤالاً هو وفق كل المقاييس سؤال غريب، ولغرابته طرحه على رفيقه الرابض بقربه:

- حمدان. تكدر تحزر نوع الجگارة اللي يدخنها هذا العتوي؟

قصد الرامي ذا الشارب المقوس.

حمدان معتاد على فنتازيا رفيقه وتحليقها البعيد، وهو الآخر كان في ذات المزاج غير المعتاد في هكذا مواقف، مزاج التحشيش كما يسمى بالعراقي (الفصيح). أجابه:

- أظن يدخن (سومر) طويلة.

صمت برهة ثم أردف:

- بس تعرف اشراح يسوي بعد ما ينتهي من عندنا؟

فؤاد واصل تحشيشته أو أمنيته بمعزل عن سؤال حمدان:

- الله. الله. تعرف اشكد مشتهي جكارة (سومر) طويلة؟

حمدان حاول تمد خيالك معي، تخيل ظهرية ببار من بارات الشط البصراوية، زجاجة بيرة لواحدة من ربات الخمر الشهيات؛ (فريدة)، (شهرزاد)، (جوهرة)، (لاكر)، لا يهم أيهن كلهن لذيذات، يضع النادل زجاجة البيرة أمامك على الميز، تنظر إليها تراها محاطة ما زالت بندى الثلاجة التي كانت فيها، حبيبات الندى السائلة بتمهل على جدار الزجاجة أشبهها بحبيبات ماء على وجه فتاة جميلة غسلت وجهها للتو وهي ما زالت بين الصحو والنوم، ندى الزجاجة يتحول أمام عينيك إلى حباحب تشبه اللؤلؤ سائلة، لكنها مستقرة على لؤلؤيتها قادرة أن تبلل أصابعك كلما لمست الزجاجة، تعمّر الكأس الأول على مهل، لا تنس تجعل فوهة الزجاجة وحافة الكأس متعانقتان بوضع مائل، بالطبع أنت تعرف ليش؟ حتى لا يتبدد (الوغف) الأبيض الشهي، تعمر كأساً متوجاً بتاج أبيض، ترتشف رحيق التاج، تنساب رائحته المدوخة عبر أنفك لتملأ كل مساماتك، تنتعش شعاب روحك اللائجة ببرودة مفارقة للهيب الخارج المحروق بشمس

الإله تموز.. تشرب الرشفة الأولى، تتبعها بسحب سيكارة (سومر) الطويلة، هي الأخرى تسحبها على مهل وكأنك لا تريد أن توقظ صويحباتها الغافيات في العلبة السوداء ذات القيثارة السومرية، تخيل ربة الجمال (عشتار) آلهة حب العراقيين القدامى وهي تعزف لك على القيثارة المرسومة على العلبة لحناً موصولاً خارجاً من آهات عشقها لحبيبها (تموز).

تشرب وتدخن. مجلسك قرب الزجاج المعتم المطل على الشط. هل تتذكر زجاج البارات المعتم، عتمة الزجاج تجعلك ترى العالم والعالم لا يراك، أحلى ما في البارات هو هذا الزجاج الأسود. تعرف اشكد كان يسحرني جو البار من الداخل على الأخص في الظهريات، مثل عيون الماء الجبلية، بارد صيفاً دافئ شتاء.

رد (حمدان) بما يشبه نفاذ الصبر:

- لك أنت ليش قاطعتني، وما خليتني أكمل، اشراح يسوي هذا الثور بعد ما ينتهي من قضيتنا.

أجابه فؤاد وهو مندهش أن السعال أمهله لحين إكمال حلمه، مهيئاً نفسه للدخول إلى حلم رفيقه:

- كمّل. كمّل. أبو نفس الدنية. أعرف وين راح تروح. بس هو يبقى عتوي، مو ثور، والفرق بين الاثنين هو الفرق بين السماء والأرض، العتوي يبقى قط أرضي، أما الثور فصورته في السماء إله، كل آلهتنا القديمة كانت بملامح الثيران لها قرون... كمّل... كمّل.

- هسه اعفينا من الآلهة ومن الثيران، شوف بعد ما ينتهي هذا العتوي الثور من هذولة الشحاذين، أقصد حضراتنا، راح ينزل بمطار (الموصل)، راح يصعد سيارته الماليبو، وين؟ للبيت، تعرف ليش سيارته ماليبو؟ لأنه لم يستشهد بعد، الماليبو للضباط الأحياء من القوة الجوية أما الـ (تويوتا كراون) فهي لزوجاتهم بعد أن يستشهدوا.

خرا على السيارات، خلينا بموضوعنا، في البيت ينتظره غزال موصلي،

يدخل الحمام، يغسل جسمه من وعثاء المعارك التي كانت مع حضراتنا، الغزال يسأله: أصب الغدا؟

يجيبها من داخل الدوش بصوته الخشن؛ لچ هذا يا غدا، جهزيلي نفسك، تضحك، تتغنج وتتثنى وهي تعرف أنه يريدها أن ترتدي قميص النوم (الأتك) الأسود الشفاف.

الله يا (فؤاد) اشكد ساحر ومخدر ومدوخ ومدمر الأتك الأسود على جسد غزال أبيض، اشكد ناعم، اشكد مهلك، ترد هي بضحكة تشبه تغريدة بلبل نعسان: خليها بعدين. يرد هو بصوته السخيف: لا. هسه.

يخرج من الدوش إلى غرفة النوم، يجدها مستلقية على ظهرها، يهز رأسه رأس الثور، رأس العتوي، هو لا يريد هذا الوضع، يقلبها على بطنها، تستجيب بذات الغنج والدلال وهي تقول: يمعود أنت ليش مستعجل خليها على الليل.

على هذا الثور ألا يفعل شيئاً الآن، عليه أن يشبع عينه أولاً، يتشرب جسدها بكل حواسه إلا حاسة اللمس، عليه أن يمنع نفسه السخيفة من اللمس، اللمس لا يبدأ إلا بعد حين، ليس اللمس بل التمليس... تعرف الفرق فؤاد بين اللمس والتلميس، أكيد ما تعرف... عليه أن يجلس إلى جوارها على ركبتيه بوضعية الصلاة... يكون الجسد هو القبلة... يزيح الأتك الأسود قليلاً قليلاً من منتصف الفخذين العاجيين حتى عاج الرقبة.

تتكشف أمامه كنوز المعبد، فؤاد جسد المرأة معبد، يبدأ جولة من التمليس الخفيف، يملس الجسد الطيع اللدن من أخمص القدمين حتى رقبة العاج، بالطبع ذهاباً وإياباً، ستعترض رحلته في كل مرة تلتان مصنوعتانَ من عجين خمران، تكور العجين على نفسه وصنع في وسط الجسد البض تلتين ملساوين لا تفصلهما غير ظلال شق مقطوع، على قمة التلة اليمنى منهما شامة أبنوسية، ليست كبيرة، لكنها ليست صغيرة، شامة كأنها رأس زنجي وضعه الصانع لحراسة كنز المعبد، عليه كلما يصل إلى هذا الموضع أن يقّبل التلتين كل تلة قبلة وثالثة على الشامة الأبنوسية.

هل يعرف هذا الثور صلاة الجسد؟ هل يمنع يده الفضولية من التسلل إلى ذلك الكنز؟ هل يعرف كيف يهيّج نفسه أكثر وأكثر حتى خروج البخار من منخريه؟ هل يعرف إن هذه التراويح الطقسية هي التي ستأخذ به إلى جنة الجسد؟

آه يا فؤاد، هل كنت تمارس صلاة التراويح على معابد الإيطاليات حين كنت بينهن... قبل أن يصل بصلاته إلى نهاياتها، عليه أن يسحب الجسد المطواع وهو صغير إلى حضنه، يجعله يملأ حضنه، ظهرها على صدره، يتحولان الآن إلى حيوانين بجسدٍ واحد وأطراف كثيرة.

هو يلاعب رمانتي الصدر بيديه الملتفتين على جسدها، وهي تلاعب بيد واحدة مرة حيوانه الهائج ومرة رمانتيه السفليتين: يلاعب وتلاعب. يلاعب وتلاعب...

قاطعه فؤاد:

- لا يا سفلي. كافي. دمرتني. منين راح أجيب مي أغسل رماناتي السفلية؟

رد حمدان بعد طول تأمل وكأنه يسترجع المشهد من جديد:

- لا أدري كيف يتحمل غزال ثوراً؟

ضحك الاثنان ضحكاً صاخباً، لكنهما كانا قد تبللا تماماً من الأسفل.

لقد صور حمدان ودون وعي منه جسد حبيبته كما خبره هو، تلك الفتاة الموصلية التي شاركته المقعد الدراسي في كلية الآداب (جامعة البصرة) مثلما شاركته تلك الظهريات الصيفية التي كانا يقتنصانها في بيت جده شبه المهجور في أحد بساتين (العشار).

كانت تضع الأثك الأسود الشهي في كيس صغير وتخفيه في طيات حقيبتها، هي الأخرى كان يدوخها جسدها بالأثك الأسود أمام المرآة، كانا يصلان للاتفاق بلغة العين، تسأل عيونه ما أن تلتقي عيونها: موجود؟

ويقصد الأثك الأسود. تجيبه عينها: موجود. هنا... تضرب على حقيبتها.

من هذه اللحظة يبدأ هياج الجسدين، ينوس برأسه نافثاً فيهما أبخرته الحارقة وهما يستعجلان اللحظات والدقائق التي تستغرقها رحلتهما إلى خلوتهما العشارية.

كانت تلك الفتاة جريئة حد تشعره بجبنه. كثيرة هي الأشياء التي كان يخافها هو، وكثيرة هي الأشياء التي لا تخافها بما فيها فقدانها لبكارتها بوقت مبكر من عمرها، لكن ليس بسببه هو، بل بسبب نزوة عارمة ألمَّت بإبن عمها كذلك في ظهرية تموزية.

نزوة كان ثمنها أن يطوبها باسمه لاحقاً مشهراً خطوبتها لحين تخرجها، بدت الصفقة عادلة، في ظروفهما على ابن العم أن يغسل عار العائلة الذي هدرته بفقدانها ذلك الغشاء الخطير، لكنه هو الفاعل وهو كذلك غير القادر على الزواج منها، لأنها لم تعد باكراً وإن كان هو الذي ألغى بكارتها. هو وهي في واحدة من مكابدات البيئة الصحراوية اللاجئة إلى فيافي المدن.

بعد أيام من واقعة فقدان الغشاء، ارتفع حاجز من الخرسانة الصلدة بينهما، كان سببه هو وليست هي، لقد سلمته جسدها بلا ممانعة، إذن هي ستفعلها مع غيره. بهذه التقنية في استقراء البدايات والنهايات ارتكن ابن العم (الشهم) إلى إشهار الخطبة ولا شيء غير الخطبة لحين أن تتدبر هي أمرها، لكن الأمور تدبرته هو بإحدى رصاصات الحرب وجعلتها تتدبر أمورها بحرية وانطلاق جديدين. بلا غشاء. بلا حواجز.

كثير من الحواجز تطايرت أمام تمردها وحبها للحياة، الشيء الوحيد الذي ظلت تأباه ولا تقربه هو السياسة، ظلت للأخير تردد على مسامع حمدان:

- أنا لم أُخلق للسياسة. إذا تريدني. اتبعني. بس بلا سياسة ووجع رأس الله يخليك. !!

خرج (حمدان) من حلمه مندهشاً؛ كيف سمح لنفسه أن يسلم جسد حبيبته لهذا الرامي الذي يحوّم فوق رأسيهما، لم يكن هو الشريك في ذلك

المشهد الذي صوّره خياله المأخوذ بعزلة وحرمان الجبال، كان شريكها الرامي الذي يضحك وهو يدخن خلف رشاشه.

شعر بوقع الهزيمة ينخر في مكان ما من قلبه، إذن لقد هُزِمَ.

حلمه قال له هذا. سلّم حبيبته طائعاً.

هو الآن ليس بوضع الباحث عن انتصار، بل الباحث عن كيف يتدبر أمره مع هزيمته.

(٣٠)
أول أيام السبي

تطاولت ساعات تحليق الطائرات العمودية وهي تمشط سفوح الجبل بنواظير الرماة، ما زال هناك بين طيات السفوح من لم يستجب لقرار العفو بعد، إضافة إلى عوائل الأنصار.

كان الطيارون يؤدون عمل الرعاة، وهم يحودون القطعان الهائجة، يتوزعون الأطراف البعيدة ثم يقتربون رويداً رويداً إلى نقطة ما هي مركز تجميع القطيع الشارد، هكذا بدا الأمر لـ (حيدر كاميرا) وهو يحمل كاميرته الوهمية:

((- لقطة بعيدة:

طائرات في صفحة السماء البعيدة مثل غربان سود تنبثق فجأة من أفق كان صافياً قبل قليل، تقترب الطائرات ويكبر حجمها، مثلما يبدأ الصوت بالتدرج من أوطأ نوتة تشبه أنيناً مكتوماً إلى الهدير.

- لقطة متوسطة:

مئات من البشر يهربون إلى اتجاهات مختلفة. يتسلقون. ينحدرون. نفس الأشخاص المتسلقين يعودون للانحدار من جديد. حركات مشدوهة حائرة بين الصعود والنزول. ينبثق صوت المذياع، وهو يكرر بيان السبي العام بلا توقف. نقار الخشب ينقر بلحاء متيبس. يتلاشى التنقير إلى ترددات جهاز المورس. أوامر عسكرية يتناقلها جهاز المورس بين الطيارين. تلح على لملمة أطراف القطيع الهائج.

- لقطة قريبة:

تُظهِر أحد رماة السمتيات خلف رشاش الدوشكا يده على الزناد. يتابع الرامي حيرة الطرائد بين الصعود والنزول بعدستين شمسيتين تخفيان نصف وجهه.

- لقطة عامة:

يخرج هدير الطائرات من الكادر بتدرج معاكس من الهدير المرعب إلى الأنين البعيد ثم يتلاشى. سكون وسماء زرقاء توشح زرقتها بضعة غيوم شفافة. أنين الناي كأنه ينبثق من هناك من تلك الغيوم البعيدة التي يتحول لونها إلى غامقة، ثم صفراء يأخذ انتشارها شكل حركة الطرائد الأرضية غيمة من هذه الزاوية السماوية تلتحف بأخرى من زاوية أخرى. تلم الغيوم أطرافها البعيدة وتتكاثف حتى تغدو غيمة هائلة تغطي زرقة السماء. يتصاعد أنين الناي ليمتزج مع صوت الشاعر...

إنه الفخ العام لطائر الحجل
لا اتجاهات لتغييرها.
كل الاتجاهات تؤدي إلى القلعة
من يقف الليلة عند مدخل باب القلعة
من ذا يدقق بالقسمات والوجوه
وبالثياب
من ذا يزيل البلغم الغازي
من تجاويف الصدور
أسرعوا. أسرعوا.
يا سيدي إنه العطش.
العطش؟ وفي الجنة؟

- لقطة أخيرة بعيدة:

عند مدخل گلي كاني مازي خلف سلسلة صوصيا. سيارات حمل

كثيرة وجنود ينتشرون كالذباب في المكان. تجري هناك عملية عزل الرجال عن النساء والأطفال. سيارات حمل للرجال ومثلها للنساء والأطفال. تتابع الكاميرا حركة صعود الشاحنات المتمهل على الطريق الأفعواني من الگلي إلى سفوح قلعة كانيكا. تختفي الشاحنات وراء الجبل.))

الأنصار وحدهم في الجبل، طائر الحجل بين الصخور ينوس برأسه مدوراً الاتجاهات، عند المساء تستريح الطائرات ويستريح الطائر من رحلة البحث عن اتجاه، لم تعد صخور وأشجار الجبل بقادرة على إخفاء وحدة الأنصار، لأول مرة يشعر الأنصار بمثل هذه الوحدة وجهاً لوجه مع الجبل.

سهراب يداور برأسه حلماً، أن يطلقوهم، أن يعيدونهم إلى بيوتهم، أن تغفو الزوجة وأطفالها ليلة واحدة بلا خوف من مطلع الفجر القادم، أن ينسى الأطفال جوع وعطش هذه الأيام، أعطاها كل ما كان يملك من نقود، أوصاها على البنتين وعلى (ئاسو)، ووعدها بزيارتهم، وعدها أنه لن يترك البلد، سيظل هنا وإن ذهب الجميع إلى الحدود، كانت وهي تحمل (ئاسو) على كتفها تنحدر على السفح كالمسرنمة، الأطفال وراء أمهاتهم مثل كتاكيت ملونة تلاحق خط انحدار الأم المتعثرة بصخور الجبل.

- لن يؤذونكم. إنه قرار عفو، العفو يعني عفو.

لتجيبه:

- العفو لك ولنا لماذا لا تنزل معنا؟

- أنت تخبلتي. !؟

هو الآخر لم يكن قد تعرف بعد على ملامح ذلك الشيء الذي يمنعه من النزول، لكنه الآن عرفه، تأكد أن لا غفران للشيوعيين وإن سلموا أنفسهم طواعية، قبل الحادثة كان لذلك الشيء ملامح أخرى، يطلسم نفسه برموز وأصوات وأشكال ليست كلها مفهومة له، لكنها منذرة، محذرة.

رجل وحيد يسير في الطرقات مطأطئ الرأس لا يرى الناس من حوله، وكأنه إن لم ير أحداً فإن أحداً لن يراه، لن يرى أفكاره وهواجسه لن يرى جبنه وذله.

تجمعات رجال ونساء قريته تتوزع الزوايا وهي تشير بأصابع مترددة من بعيد، إشارات يسمعها وهي صامتة.

هذا سهراب الجبان، سهراب الخائن، بعد عشر سنين في الجبل وقبلها خمس سنين في الثورة الأولى ها هو يتبع زوجته.

يقولون في السجن اغتصبوا زوجته أمام عينيه... ألم يكن أشرف له لو بقي في الجبل، لو مات هناك...

- لكنهم سيجبرونك على النزول بتعذيبنا أنا والبنات. و... ئاسو.

ذعر من صوت زوجته التي جهرت بما كان يفكر به بصمت، كأنها كانت تتنصت على الأفكار والصور التي كانت تتداوله، وهي تلفظ اسم (ئاسو) تحول بكاؤها الصامت إلى صارخ، صارت تصرخ وهي تضرب مرة على صدرها ومرات على صدره هو، طلب منها التوقف عن الصراخ، لكنه كان مع نفسه يتوسل البكاء، يتوسل بكاءه المحبوس في أعماقه البعيدة، يشعر أنه لو استطاع البكاء، لو أطلق هذا الصوت المحبوس، سيتفرغ جسده من أورام واحتصارات تهرس في رأسه حتى غدا رأسه بؤرة للدوار والتشوش،/دفعها، ظل يدفع بها على المنحدر الصخري الوعر، وعيونه تتوسل أم آزاد القريبة منهما؛ أن تساعده.

استجابت هذه وبغريزة الأمومة انتشلت (ئاسو) من على كتف أمه ونزلت به، لا شيء يسحب الأم إلى التهلكة غير وليدها، أخذت أم آزاد الصغير وكأنها تهرب به، واصلت هبوط السفح، وكانت تلك الحركة هي الحاسمة في إلغاء كل هواجس البقاء في الجبل لأم ئاسو. تبعت شبيهتها وهي تصرخ أن تعيد لها الولد.

فرغ الوادي من كائناته، لم تزل آثارهم تعّلِم الملاذات والمساحات المفتوحة بين الصخور وداخل الجروف الصخرية، مرة أخرى يتركون كل شيء خلفهم، أكياس الطحين والسكر والرز وصناديق الحليب، ملابس النساء الملونة، حفاضات الأطفال، مطّارات وجلكانات الماء.

كل تلك الغنائم التي غنموها في ليلة الغزو على مقرات البيشمركة والشيوعيين هي هنا، هنا كل الأشياء التي يحتاجها الأنصار لتأسيس حياة جديدة، لكن، أفي هذا الملاذ المطوق بأعدائهم، أمع هذه الجحافل المدججة بنوايا الإبادة الشاملة لهم.

هل تعود الأرض إلى محررة وغير محررة؟ هل سيتركون لهم موطئاً لأقدامهم من جديد؟ وهل يعود هؤلاء الفتية ذوي الأجساد الهزيلة والمنخورة بالأمراض وتعب السنين إلى ما كانوا عليه في السنين الأولى من حربهم؟

كتل من الحماس والاندفاع بعيون تلمع ببشائر النصر القادم، لا شيء مؤكد بعد الآن. لا شيء. لا شيء. لقد دفنوا كل ذخيرتهم وأسلحتهم حتى باتوا وكأنهم عزل من السلاح، لا يحمل الواحد منهم غير بندقية وبضعة شواجير، أما المرضى فاكتفوا بالمسدسات، مسدس صغير مع بضعة إطلاقات تكفي واحدة منها للانتحار عند الضرورة التي تبدو أنها قادمة. !!

حمية التخفيف بعد تسليم العوائل وصلت إلى الأوراق والوثائق:

- رفاق لا تتركوا مستمسكاً واحداً يدل على الشخصية، أحرقوا كل شيء، اختصروا كل الأثقال، نحتاج إلى حركة خفيفة.

لا أحد يعرف من أوعز بهذا الأمر، لعله لا أحد، رغم هذا امتثل له الجميع. منهم من صار يبحث عن مخابئ تحت الصخور يودع بها آخر الأشياء الحميمة التي ما زال مستمسكاً بها، وبعضهم ألقمها النار.

لم تزل في جيوب الأنصار وفي طيات حقائبهم الظهرية ثمة أشياء لا يمكن لأحدهم الاستغناء عنها، أشياء ليست ثقيلة.

ما هو ثقل صورة الزوجة والأطفال، صورة الأم، الحبيبة، جوازات سفر لبعضهم مازالوا يحرصون على صيانتها علها تعيدهم إلى حيث كانوا قبل التحاقهم بالجبل، وثائق تخرج جامعية ومدرسية، رسائل ظلت حبيسة الجيوب لسنين طويلة لأن فيها رائحة ولمسة مطبوعة على الكلمات؟

تلك الأشياء كانت محطات استراحة يلوذ بها النصير حين يخنقه الحنين الجارف لمن أحب، إنها حملة جديدة من الاختصارات شملت هذه الأشياء، لقد اختصر أحدهم صورة كانت تجمع زوجته وابنه ذا الأعوام الخمسة حين تركهم في الشام قبل سبعة سنين والتحق بالأنصار.

قبل سنتين وصلته آخر رسالة من زوجته تعلمه أن خزين صبرها قد نفذ، وأنها غسلت يديها تماماً من عودته، وبين السطور قرأ أن المرأة لا تحتاج أباً لإبنها فقط، أباً لا تدري متى تسمع خبر موته، كذلك هي بحاجة إلى زوج. !!

تفَّهم الرجل ما بين وخلف السطور وأرسل لها عبر البريد الحزبي البطيء؛ أنها طالق وأوصاها بإبنه خيراً. سرح ببصره بعيداً عن الصورة إلى الأفق المقطوع بحائط من صخور يميل لونها للأحمر الزنجاري، هناك تيقن أن الشرخ الذي حدث لن تصلحه عودته التي باتت مستحيلة الآن، عاد إلى الصورة بعد رحلة طويلة من التأمل في ذلك الحائط الزنجاري، شق الصورة من المنتصف، رمى النصف الخاص بالزوجة في النار واحتفظ بالطفل الذي كان في أعوامه الخمسة في جيبه الداخلي.

(٣١)
رحلة الهروب إلى أمام

لقد احتفظ مدلول بدفتره مقاوماً توبيخ رفاقه ومحاولات رزوقي الذي ما فتئ يعلن:

- الشيء الوحيد الذي يجب أن يُحرق هو هذا الدفتر، كل أسرارنا موجودة فيه، لو وقع بأيديهم لا يحتاجون معه إلى اعترافات.

يرد الصحفي على رفيقه ذي العروق النافرة من رقبته بهدوئه المعتاد:

- هذا هو الشيء الوحيد الذي يجب أن يبقى.

يلجأ رزوقي إلى التهديد هذه المرة:

- سأحرقه بنفسي حين تنام.

يرد هذا بابتسامة منشرحة:

- على الأقل حذرتني، سوف لن تجده.

تكررت تلك المناكدة بين النصيرين على مدى الأيام الثلاثة التي أعقبت تسليم العوائل. لقد تركوا الوادي الذي كان يضمهم وعوائل المنطقة بعد أن غدا حقلاً مكشوفاً للرماية القادمة سواء من الطائرات أم من المدفعية، لكنهم لم يتركوه دون أن يعلّموه على طريقتهم؛ أطلقوا عليه اسم (گلي السبي). لينضم هذا الوادي إلى قائمة الأسماء التي يعلّمون بها تضاريس الجبل بعيداً عن أسمائها المتداولة بين الفلاحين، شفرة سرية لا يستدل عليها إلا من وضعها.

تركوا (گلي السبي) ليلاً متخذين من السفوح العالية للسلسلة ممرات وطرقاً

لم تكن مطروقة يوماً، وبغريزة غير مفهومة أو غير متفق عليها، وجدوا أنفسهم ينسحبون تدريجياً إلى (مه راني)، إلى حيث بيتهم القديم، كان الأمر يشبه حال مطارد تعب من ألاعيب التخفي والتمويه، يسلّم أمره أخيراً ويعود إلى أكثر الأماكن عرضة للدهم، يعود إلى بيته.

توزعوا هناك الأودية الصغيرة، والطيات الصخرية المشرفة على موقع الإسناد الذي كان يوماً مصداً لغارات الطيران برشاشه الخرافي القائم على ثلاثة قوائم (الدوشكا).

لم يزل الجيش ولسبب مجهول لم يطأ مقرهم (مه راني)، لكنه ليس بعيداً، لقد عسكر الجنود قرب (گلي آفوكي) المعبر الأسهل الذي كانوا يتخذونه قديماً لعبور (گارا) إلى صفحته الثانية (به ري گارا).

لم يزل العسكر على خطتهم (قطع المعابر)، هم الآن على بعد كيلو متر إلى يمينهم، يراقبون تحركاتهم، قادرون على إبادة تلك المجاميع الصغيرة من الجنود المعسكرة هناك. لكن، لا فائدة، وصلوا إلى حدود اللاجدوى لكل ما يمكن أن يقدموا عليه.

على مد البصر يشاهدون القطوع والسلاسل الجبلية مؤثثة بتشكيلات الجنود والفرسان، لا مكان يحمي ظهورهم الآن غير هذا الـ (گارا) الرحيم، هو الضلع الرابع لحصارهم.

على العموم وفر لهم المكان الجديد ملاذات محصنة طبيعياً ضد الطيران وضد التقدمات فيما لو حصلت، يستطيعون المقاومة منها، لكنها المقاومة اليائسة، الأمر يرتبط الآن بكمية الذخيرة التي ما زالت متوفرة عندهم، كذلك يتوفر هذا الملاذ على ميرتين يتحولان وبسهولة من ميرتين في صالحهم إلى ميرتين قاتلتين، باتوا الآن فوق المقر تماماً، بمعنى سهولة حصولهم على الماء من عين (مه راني)، لأن السفوح التي خلفهم وأمامهم تفتقر تماماً لعيون الماء، كذلك ستكون مزرعة أبي خدر في متناول أيديهم، سيجدون هناك كل أنواع الخضروات وقد نضجت تنتظر من يقطفها، سيودعون من خلالها أيام داء اللحم

والخبز والشاي، ستتعافى أجسادهم من الهزال ومضاعفات سوء التغذية.

أبو خدر النصير العجوز لم يترك نوعاً من الخضراوات والبقول لم يزرعه وبكميات تكفي أكثر من قرية، لكن تبقى هذه الميزة الرحيمة ميزة قاتلة حين يسيطر الجيش على المزرعة وعين الماء، وهو الحدث المنتظر بين يوم وآخر والسبب لم يزل مجهولاً؛ ماذا ينتظرون؟ أليس هذا هدفهم بمتناول أيديهم؟ لكن ماذا سيحصل فيما لو فعلوها؟ هل يعودون إلى تلك العين الكائنة في أعلى سفح من سفوح الجبل؟

المكان الذي غدا أكثر انكشافاً بعد نزول الألوف من القرويين ومعهم الأنصار والبيشمركة، لهذه الأسئلة ولغيرها طعم الحنظل ورائحة الجوع والعطش التي كانوا عليها، تظل هذه الرائحة كريهة مقززة، والأفضل تركها للقدر، تحميل القدر مسؤولية تدبر الأيام القادمة، ليحدث الذي سيحدث، طالما ليس باليد من وسائل لتبديل الاتجاهات وتدوير الزوايا.

هرب مدلول بعيداً عن البؤر التي يتردد عليها رزوقي الذي ما فتئ يلح على انتزاع دفتره من بين يديه وإطعامه للنار، هرب وكأنه يحمل ابنه العزيز المهدد بالحرق، ارتكن إلى صخرة بعيدة، أوجد لنفسه موقداً صغيراً من عيدان وأغصان صغيرة أشعل فيها النار ووضع قوطية الشاي على هامشها، تذكر أنه لم يأكل طيلة هذا اليوم محتفظاً بالرغيف شبه الكامل إلى الليل، سيعمل لنفسه كوباً من بودرة الحليب المذاب مع الشاي، وبانتظار تناول وجبته الدسمة، قرر أن يدون أحداث اليوم والأيام الماضية، موصياً نفسه وللمرة الألف أن يوثق، لا أن يتدخل في الأحداث، هدفي التوثيق وليس السرد، هكذا يقول لنفسه لكنه وللمرة الألف يخذل هدفه وينساق إلى ديدن الكاتب المهووس بإغراء السرد: سأكتب تفاصيل اليوم على الأقل:

((هناك خبر شد انتباهنا جميعاً، وكان مدعاة للتندر تارة وللشعور بالكآبة تارة أخرى، الخبر أذاعته المحطات العالمية نقلاً عن إذاعة بغداد: (قالت بغداد أنها ستقاضي صحفاً معادية نشرت تقارير تقول أن العراق شن حرباً كيمياوية

على ثوار أكراد في شمال العراق، وأن خبراء قانونيين يعدون مذكرات لمقاضاة هذه الصحف المعادية التي نشرت تقارير بهذا الشأن)، إنها مأساة فريدة نوعها، إذ لا يطالب القاتل بتوفير الأجواء الملائمة لقتل ضحيته ودون استغاثة، بل هو يطالب ويسعى ألا يستغيث الشهود نيابة عن الضحية، لذا هو سيحاكم هذا المستغيث بالنيابة.

ما زال الأنصار يتسربون مستجيبين لقرار العفو. استجاب للآن أربعة عشر نصيراً، منهم من نزل مع العوائل ومنهم من نزل خلال الثلاثة أيام الماضية، سُمح للجميع بأخذ بنادقهم معهم لئلا يُمَيَزوا هناك عن أقرانهم البيشمركة أو الفلاحين المسلحين، لم يعد الأمر يخص شيوعيين وغير شيوعيين، كل من يريد الاستجابة والنزول لا يُمنع حتى العرب وهم غير المشمولين بالعفو أصلاً، قرار لم يصدره أحد. جاء تحصيل حاصل لانسداد الطرق، وانعدام الحلول والضعف الواضح فيمن يقود الفوج، وتشرذم القياديين وكأنهم يتصيدون أخطاء المسؤول الأول.

نزل أنصار قدماء ومستجدون، أكراد أيزيديون وكلدان وآثوريون، أما العرب فأحد منهم لم ينزل بعد ربما لمعرفتهم الأكيدة أن القتل هو مصيرهم سواء كانوا هنا أو هناك. كذلك لم يستجب عدد من الأنصار الأكراد. وهؤلاء ينتمون إلى صنف من البشر تدير رؤوسهم أشياء كثيرة تبدو غير محسوسة أو غير مفهومة لغيرهم، أشياء تصل من مسارب مختلفة لتصب في مجرى واحد، مجرىً من أفكار وهواجس واستشعارات وأحكام وقناعات فيها المقدس وفيها العشائري وفيها الثقافي.

سبيكة من أشياء صلبة تتقسى مع الأيام ومع ازدياد حدة الضغوط الخارجية التي تمارس عليهم. سبيكة ملمحها الرؤوس العنيدة، ومواصلة ذات الطريق رغم كل شيء، لقناعتهم الراسخة بحقيقة؛ أن الاستسلام يعني أحد أمرين؛ إما الموت، أو الحياة بعار الذل والخنوع، والثاني أقسى من الأول.

ألم يشرب عواد ونزار بولهما ولم يستسلما؟ وإذا كان عواد صابئياً محسوباً كتحصيل حاصل على (العرب؟)، فإن نزاراً كوردي مشمول بالعفو، والآن إن كان

سلوك هذين النصيرين الشيوعيين مفهوماً لي، كيف أفهم سلوك وردة فعل النصير الملتحق بنا سالم وهو غير شيوعي؟ وأكاد أجزم أنه لم يفهم شيئاً مما نرطن به من أفكار ومفاهيم ونظريات وجدليات.

- رفيق ليش ما نزلت مع الرفاق، أنت كوردي ويشملك العفو.

سألتُه بطريقة المداعبة وكأني أمازحه، أجابني بعصبية واضحة:

- رفيق أنت ما تستحي، شلون تطلب مني هذا الطلب، يعني أنت شايفني منهار، لو تتصور نفسك أشجع مني، يعني لو كان القرار يشمل العرب، تسلّم أنت؟

- رفيق آني اعتذر، كنت أمزح معك.

حرت جواباً وأنا الذي كنت أعتقد أني بسؤالي الغبي هذا سأساعده على حسم خياره الذي قد يكون قد حسمه لكنه يتردد ويخجل، شعرت بالخزي من هذا الشاب الصغير الملتحق حديثاً، الذي أتصوره لا يعرف شيئاً عن المبادئ والأفكار الكبيرة التي يحملها الشيوعيون.

لكن حقاً ماذا سيكون موقفي أنا فيما لو كان العفو يشملني؟ هل أستجيب وأقفل خلفي تاريخ عشرين سنة بدأتها وأنا في سن الدراسة المتوسطة؟

لا أدري. لا أدري. أعرف شيئاً وحيداً أن رائحة الموت كريهة... وهو قادم. أعرف أن لدي أشياء عليَّ إنجازها ولم أنجزها بعد، مشاريع روايات كثيرة.

لكل جبل من هذه الجبال روايته. لكل قرية روايتها. لكل نصير روايته.

رواية عن الموت الثلجي لفلاحين وبغالهم وهم يتبادلون عبر الجبال بضائع السلاح والغذاء والملابس. رواية (محمود الأيزيدي) المتمرد الذي دوخ ثلاث أجهزة مخابرات (الأمن العامة والمخابرات العامة والاستخبارات العسكرية). كانوا يتسابقون للظفر به في أوج قوة الدولة وسيطرتها في سبعينيات النكسة الكردية حين كانت قيادة البارتي متشظية في المنافي.

لقد خرج وبضعة شباب ليشكلوا ما أسموه بـ (القيادة المؤقتة) كان يخرج

على مطارديه في أكثر الأماكن حميمية وأمناً لهم.

يخرج عليهم في النادي الذي يكرعون فيه كؤوس البيرة.

يخرج في المطاعم التي يرتادونها يخرج من خلف الركن الذي يقع فيه بناء مؤسستهم، ليُقتل أخيراً على يد خائن من الملتحقين به وهو نائم.

نُسجت حول هذا الـ (محمود) أساطير ما زال يتداولها الفلاحون في جلسات الشتاء الطويلة.

كثيرة هي المشاريع التي لم أنجزها بعد، مشاريع حياتي التي لم أجربها بعد. وجوه عليَّ رؤيتها قبل الموت. روائح عليَّ الارتواء منها، رائحة أمي ووجهها الجنوبي الموشوم بخارطة سوريالية من خطوط الحظ الخضراء، رائحة زهرتي (زهرة) التي تركتها خلفي مثل حقيبة سفر زائدة.

لا أريد أن أموت الآن، أراه موتاً مجانياً هذه المرة لا ينفعنا ولا يضرهم. ماذا سيتغير لو قتلنا الآن كل هؤلاء الجنود الرابضين تحت أمام أعيننا؟

سيأتون بغيرهم، ماذا سيتغير لو قتلوني أو تركوني، لا شيء. لا شيء سيتغير. ستظل الطبيعة تسير بقوانينها سيرها الحثيث، وستظل أشياؤنا تتراتب بمنطقها البعيد عنا، لا شيء. لا شيء، لقد دخلت وادي الهذيان مرة أخرى، لأوقف الكتابة.

منذ إفراغ الجبل من الفلاحين والطائرات العمودية تحوِّم يومياً بطلعات باتت منتظمة، تبدأ منذ طلوع الفجر وتنتهي في المساء عند المغيب، يبحث رماة السمتيات عن شيء متيقنين من وجوده، ولا وجوده معاً بين طيات سفوح وأودية هذه السلسلة الجبلية، أحياناً يأخذون بالرمي العشوائي على الصخور والقطوع، علّهم يستفزون طرائدهم للرد وأحياناً تحلق الطائرات على مستويات منخفضة جداً حد التصور لمن يراقبها أنها ستصطدم لا محال بهذا القطع أو تلك الصخرة الكبيرة.

ما زال الأنصار على قرارهم القديم، بتجنب الاحتكاك مهما كان الاستفزاز،

متشبثين بجروف القطوع الصخرية والكهوف التي تؤمنها تراكيب الصخور، لم يعد يعني القتال في ظروفهم سوى الإبادة الجماعية الكاملة لفلولهم اللائذة، وهي خطة العنكبوت بحرمانها المحاصَر من أية ثغرة للنفاذ.الأسئلة محاصرة داخل نسيج حصارهم العنكبوتي والأجوبة مشوشة بهدير الطائرات.

ما تبقى من بيشمركة البارتي على قلتهم، أعادوا تشكيل أنفسهم. لكنهم اختفوا تماماً من سفوح (گارا)، لم يُعلِموا الأنصار بوجهتهم ولا بخططهم، لعل الاحتمالات معهم أسهل مما هي مع الأنصار.

هم أبناء الجبل جلّهم من الفلاحين القادرين على اكتشاف طرق جديدة مهما انغلق الجبل بوجوههم، على عكس الأنصار الذين اعتادوا السير بقيادة أدلاء، وحين ينعدم وجود الدليل يكون سيرهم كسير الأعمى في أرضٍ غريبة، لم تتعودها مجساته السمعية واللمسية بعد، ثمة تضاريس منيعة في الجبل قادرة على تعطيل حتى بوصلة الاتجاه فيما لو اتخذوها هادياً لمسيرهم.

لم يحصلوا من المجاميع التي أرسلوها إلى ثلاث جهات سوى على أخبار الأسر والفقدان، ومن عاد من تلك المجاميع عاد أكثر إحباطاً ويأساً من تكرار التجربة، لم تعد أمامهم من جهة للتجريب غير جهة الداخل، الهروب إلى أمام.

الداخل بمدنه الكبيرة لكن المسيطر عليها سيطرة أمنية محكمة، الداخل مع محنة البحث اليائس عن بيوت تأويهم، الداخل الذي تنكر لهم فيه أقرب الأقرباء بما فيهم الأب والأخ رعباً من انتقام السلطة، الداخل المحصنة كائناته بلقاحات الخوف والرعب والتشبث بثيمة البقاء على قيد الحياة مهما حصل ويحصل. هل هم قادرون على التعايش معه؟ لكن، هل ثمة بديل آخر؟ سَهراب يداور مع نفسه فكرة تبديل مكان الحصار نفسه، بدل هذه القمم والقطوع القاسية الشحيحة بالماء، لِمَ لا نتوجه كلنا إلى سهل الموصل، هناك حيث (حمبس) الجبل الكلسي الكائن على الحد الفاصل بين جبال الكرد وسهول الموصل.

هو وأنصاره على دراية أكيدة بكهوف وكنود قادرة على إخفاء الجميع، مثلما هو متأكد أن وسائله ستنجح في إعادة الوصل مع ما تبقى من قرى له فيها

بضعة خيوط لم تزل سليمة، أشد ما يقلقه أن يبقى كـ (الأطرش بالزفة). !!

إنهم في خضم زفة رئيس البلاد الذي خرج من حرب الثمان سنوات سالماً، نتيجة لم يتوقعها أشد المتحمسين له، وهم الطرشان اللائذون بجروف السفوح وكهوف الصخور الوعرة، لم يعد لديهم ما يعرفونه أو يمكن أن يعرفونه عن خطط ونوايا المتربصين بهم، لكن، هل سيختلف الأمر هناك؟ هل ستبقى تلك التضاريس الكلسية الكائنة على حافة السهول الممتدة جنوباً صديقة؟ ماذا بخصوص الأنصار الذين سلموا أنفسهم قبل أيام؟

جلّهم من تلك القرى وتلك الكنود، يعرفونها كما يعرفها هو، من يضمن صمودهم، وهم قد استسلموا يحمل الواحد منهم كدساً من اليأس والإحباط؟ من يضمن ألا يدوِّر عدوهم بوصلة ولائهم ...؟ لكنه لا يشعر بالأمان إلا هناك، لقد تشرّب خبايا تلك التضاريس ودروبها السرية مثلما هي تشرّبت سني عمره منذ كان يافعاً يجوبها مع بضعة عنزات بحثاً عن عشب هنا وهناك بين الصخور وحول عيون الماء القليلة.

يعرف ثمة مخابئ لم يُطلع عليها أحداً بعد، لا يعرف بأمرها غير بضعة أنصار ما زالوا معه، في تلك المخابئ تدابير أمان تجعله يشم رائحة الخطر قبل قدومه، فقط هي صغيرة غير قادرة على احتواء كل هذا العدد من الأنصار.

عند المساء تداول نواياه مع أبو آزاد، هذا الرجل الخبير هو الآخر بتلك المخابئ ودروبها السرية. وجده يفكر مثله بذات الحلول المقطوعة بالاحتمالات الغامضة، لكنهما اتفقا على اسمٍ بدا مثل كود سري بحصولهم عليه ستُحَل عقد كثيرة؛ إنه أبو شامل أو (أبو شوارب)، النصير المسؤول عن محطة (سنجار) السرية.

هذا الرجل الذي كل شيء فيه لا يشير إلى ملائمته للعمل السري، طوله الفارع الذي يتعدى المترين مع الخشونة الرجولية الظاهرة على كل تقاطيع جسده مع الشوارب الغليظة التي تقسم وجهه إلى قسمين أعلى وأسفل، كل هذه العلامات تجعل منه علامة فارقة يمكن الاستدلال عليها وبسهولة وإن كان متخفياً بين مليون إنسان. حتى أن السؤال الذي يقول كيف أن هذا الرجل ما زال

على قيد الحياة كل هذه السنين وهو يجوب القرى والمدينة؟

يبدو سؤالاً منطقياً، إذ بإمكان أغبى شرطي أمن سواء كان سرياً أو علنياً أن يستدل عليه وبسهولة، رغم هذا وذاك، أبو شامل ما زال يجيد لعبة التخفي وهو الآن هناك، في مخبأ من مخابئه الكثيرة في جبل سنجار أو ربما في بيته من تلك القرية الكائنة أسفل الجبل، بعد أن أمن جانب مجاوريه وهم في غالبهم عوائل إخوته وأولاد عمه.

حمل الاثنان ما استقرا عليه إلى أبو منيب، وجداه أكثرهم تحمساً للفكرة، كيف لا وهو الوحيد بصفته المسؤول الأول من يملك الخيط الواصل إلى أبي شامل.

لم يستخدم هذا الخيط في الماضي إلا للحالات الطارئة، وهي على كل حال كانت قليلة، إذن، حصولهم على أبي شامل يعني حصولهم على خيار الحدود السورية.

الرجل بحكم موقع قريته القريب من الحدود، يعرف الكثير من طرق ووسائل التهريب عبر الحدود، ناهيك عن صلته الحزبية مع محطة (القامشلي) داخل الأراضي السورية، ومؤكد لديه بعض الحلول للتحايل على العوائق إن كانت طبيعية (نهر دجلة)، أو عسكرية لجهة كثرة نقاط التفتيش على الطرق الواصلة إلى هناك.

اتفق الثلاثة وبعد إعلام منعم بالأمر على تجريب هذه الوسيلة بإرسال مجموعة كبيرة نسبياً إلى الدشت، غير أن اتجاه النوايا كان متعارضاً بين الأربعة.

أبو منيب يريد من الوسيلة الجديدة منفذاً إلى الحدود السورية، وإن كان في سره يعرف أنها سوف لن تنقذ غير أعداد قليلة من الأنصار، بحكم السيطرة الحكومية المحكمة على الطرق، ومنعم يريد أولاً الحصول على ابنته عبر الاستعانة بصلاته الحزبية في النواحي القريبة ومن ثم الحدود السورية، أما سهراب وأبو آزاد فلا يشغلهما في الوقت الحاضر سوى إعادة الوصل مع عائلتيهما الأسيرتين،

مؤكد أنهم سيحصلون على أخبارهم من هناك، أو هكذا كانا يتبادلان إقناع نفسيهما.

طلب أبو منيب من سهراب أن يستعجل بتشكيل المجموعة الأولى، على أن تكون من الأنصار الذين بحوزتهم وثائق حكومية.

عند المساء وبعد انسحاب الطائرات بهديرها المشوش، وعودة مجموعة الاستطلاع اليومية التي تراقب تحركات الجنود وتشكيلات الجيش عند القرى القريبة، تبين أن لا شيء جديد، والجيش لم يبدأ بعد بالتحضير لهجومه المنتظر.

توصل أبو منيب وبمساعدة منعم إلى قرار وجداه مذهلاً. !! تذكرا أن ما زال بحوزتهم جهاز استنساخ وكاميرا وبضعة لفافات من ورق التصوير، إضافة إلى عدد مناسب من نماذج إجازات الجنود المعمول بها في الجيش مع نماذج هوية شخصية للطلبة والموظفين، ما يسهل ليس فقط توصيل الأنصار إلى الحدود، بل وأيضاً تسريب أعداد منهم إلى مدنهم الواقعة كلها جنوباً، هكذا سيعمل على تخفيف العدد وبالتالي النفاذ بمن يتبقى إلى الحدود، هذا ما استقر عليه أبو منيب في تلك الليلة، لذا أرسل بطلب المصور وبضعة أنصار على دراية بشؤون وشجون التزوير، وطلب منهم الإسراع بتصوير أكبر عدد من الأنصار وعمل وثائق لهم بما متوفر تحت اليد.

أيام العطش والجوع والتقلب على صفيح الاحتمالات المسدودة، شحذت لدى الأنصار كافة الحواس بما فيها حاسة الشك بكل خطوة ممكن أن تقدم عليها قيادتهم.

منذ الأيام الأولى لحصارهم، والعلاقة ليست ودية بينهم وبين من يقودهم، الأمر الذي جعل هذه الخطوة التي شاع أمرها بين الأنصار ليست بمنأىً عن التشكيك، بدأها كالعادة رزوقي الذي لم يتعلم بعد كيف يخفي أفكاره:

- رفاق أشم ريحة عفونة. !!

أجابه فؤاد مازحاً من بين سعاله المتواصل:

- أنزع ملابسك تروح الريحة. !!

ضحك (حمدان) بصوت عال مستجلباً غضب رزوقي:

- لك أنتم تبقون طناطلة.

قصد الاثنان معاً، وهذه من مفردات (رزوقي) الأثيرة، إذ يصف كل من لا يعجبه بـ(طنطل)، الغبي طنطل، الجبان طنطل، الخائن طنطل، والطنطل هو أصلا كائن أسطوري لم يره أحد لكن قصصه كثيرة، حاول رزوقي أن يشرح:

- لك اسمعوا، رح يدفعون الرفاق للداخل وكل واحد على مسؤوليته، ينمسك ينقتل يضيع يدبرها ما يدبرها هذا مو شغلهم، المهم عندهم طريق سنجار ومن هناك إلى الحدود السورية.

(هم) في قاموس رزوقي تعني كل القياديين، وتعني شخصاً واحداً لا غير هو أبو منيب، هذه الدلالة أو تلك يصلها السامع من سياق الحديث، كثيرة هي الأشياء التي تتعثر قبل دخولها إلى رأس رزوقي المتخم بتجربة هي من أقسى التجارب التي مر بها الأنصار الشيوعيون.

كان شاهداً على أحداث (بشت ئاشان)، قُتل أمام عينيه أكثر من ستين نصير ونصيرة برصاص من كانوا حلفائهم بالأمس، (بيشمركة جلال الطالباني)، ولكثرة (دردمته) الانتقادية بعد تلك الأحداث، وضعوه مع غيره في السجن بدعوى تحريضه الأنصار ضد قيادة الحزب.

لم يثبط السجن من عزيمته، تحول بعد خروجه من السجن إلى شاهد ومشارك مع أنجح مفارز قاطع أربيل، تلك التي استطاعت اختراق حصار (اليكتي) والجيش معاً وسيطرت على مساحات واسعة من سهل أربيل، بل هي وغيرها من مفارز جعلوا مدينة (أربيل) ونواحيها القريبة والبعيدة تحت سيطرتهم. اخترقوا مدينة (أربيل) طولاً وعرضاً، كانت المدينة في الليل لهم وفي النهار تعود لحراساتها الحكومية القلقة والمخترقة كذلك، حتى شاعت داخل المدينة تلك النكتة التي لا تبتعد كثيراً عن الحقيقة؛ إذ يسأل أحدهم الآخر:

- هاي وين، محد شايفك؟

يجيبه:

- والله شسوي... بالليل بيشمركة وبالنهار جحش. !!!

رغم ذلك وللتخلص من لسان رزوقي الذي لا يوفر أحداً، تقرر نفيه بعيداً عن تلك المفارز وعن مقرات القيادة إلى قاطع (بهدينان)، وكان من حصة فوج (مه راني) بعد أن وزعوا مجموعته المتهمة بالتحريض، على الأفواج والسرايا، لحرمانهم من الاجتماع ثانية.

لكن، تلك التجارب مضافاً إليها اندفاعه وجرأته وتحمله الصعاب، جعلت منه نصيراً لا غنى عنه في المكان الذي يحل به.

له آراء وأحكام صحيح أنه يطلقها بعصبية وانزعاج وكأنه يتشاجر، لكنها تبقى صحيحة، بل ومفيدة، مما جعله مطلوباً في المفارز، الأمر الذي جعل القياديين حائرين بأمرهم معه، هم بحاجته، لكنه مزعج لهم. عندها حسم المسؤول السابق للفوج الجدل الدائر حوله، بإبقائه قريباً من مكتب الفوج بصفة مستشار لكافة الشؤون وهذه صفة غير معلنة وغير متداولة أصلاً في تشكيلات الأنصار.

عرف ذلك المسؤول وبسليقته أن رزوقي قد يصلح لأي شيء باستثناء أن يكون هو المسؤول الأول، لأنه سيقلب المهمة على البطانة ولن يحقق شيئاً، ببساطة سيفقد أعصابه بذات السرعة الصاروخية، لكنه يصلح للمؤازرة، للدعم، لتقديم المشورة، أما القيادة، أن يكون هو الشخص الأول فحذاري. !!

(سهراب) اكتشف بنفسه الموهبة الفريدة لدى هذا النصير، لذا هو يحرص على إبقائه قريباً منه، وحين اقترح أبو منيب زج رزوقي مع المفرزة المتوجهة إلى سهل الموصل، للتخلص من سلوكه العدواني خصوصاً في هذه الأوقات التي تحتاج إلى هدوء أعصاب وتفكير بلا ضغوط جانبية، عارض سهراب الاقتراح ورد بثقة:

- نحتاج رزوقي هنا أكثر من أي مكان آخر.

(٣٢)
لم نقتله. هو قتل نفسه

قيل لفؤاد: إن سعالك المتواصل سيفسد على المجموعة فرص التسلل على مقربة من الجنود، أجابهم بإخراج قنينة من جيبه، لم يزل فيها قليل من الشراب المضاد للسعال، عثر عليها (رزوقي) في غرفة الطبابة وهو ينزل لجلب الماء، رضخ سهراب وأضافه إلى المجموعة المعدة لاستكشاف فرص اللجوء إلى الأمام.

كان فؤاد يفكر في مدينة (ألقوش)، تلك المدينة التي تبدو للناظر إليها ليلاً وكأنها منبثقة من رحم الجبل، في لحظة ولادة متعسرة قذف بها الجبل عند قدميه، وظلت تتمدد من هناك على كامل المساحة السهلية. هذه المدينة سليلة إمبراطوريات العراقيين القدماء هي مسقط رأس أبيه وأمه، هجراها في لحظة فقر شديد إلى أقصى الجنوب إلى (البصرة) مدينة الميناء والعمل، يعرف أن له في هذه المدينة التي لا يعرفها ثمة جذور بعيدة اعتقد أنها ستمد له يد العون، إن كان في تأمين الدواء أو حتى لأخذه إلى بصرته البعيدة. كان يقول لحمدان رفيق بصرته بدروبها المتربة وبساتينها النهرية:

- إن لم يأخذوني إلى البصرة. سيأتون بها. !!

وكان يريد رؤية أمه أو أخواته وإخوانه بعد انقطاع طويل بدأه قبل عشر سنين، حين ولى وجهه شطر إيطاليا بحثاً عن منابع الفن الأولى هناك.

(فؤاد) إذن، القادم إلى الجبل من أجمل مدن العالم، لم تجعله شباك العنكبوت يحلم بتلك المدينة التي كأنها خُلقت للفرح والجمال، لم يعد

حتى بقادر على استرجاع ذكرياته المخملية في مدينة البحر (فلورنسا)، وجوه الصبايا... أجساد النساء... لهاث أيام وليالي المتع الباذخة..: لم ير أمامه الآن غير ستارة سوداء نزلت على حافة الأفق، لم يعد له في هذا الأفق المقطوع سوى (البصرة).

مدينة الصداقات التي خرجت من ملاعب الطفولة والصبا، ولكي يثبت لنفسه عزمه على الرحلة، سحب من خلف ظهره تلك اللفافة الورقية البيضاء التي تشبه سبطانة مدفع هاون، اللفافة التي لم يتخل عنها رغم كل النداءات والنصائح التي كانت توزع هنا وهناك بالتخلص من الأعباء والأثقال، لأنه لم يكن يجد فيها ثقلاً من أي نوع، هي معرضه الأخير الذي كان يحلم بإيصاله إلى أصدقائه هناك في (فلورنسا).

انتحى ظل صخرة بعيدة عن المجاميع مع لفافة معرضه الأخير، سحب معرضه وقرفصه قرب موقد نار عمله على السريع، متلبساً وجه الجلاد المقبل على حفلة تعذيب، بدا قاسياً مع نفسه، كيف لا وهو يطعم النار شيئاً من روحه، أخذ يستعرض اللوحات وكأنه يريد تخزينها في ذاكرته.

«هل هناك من يعرف كيف تأتي اللوحة وأية خطوط لعينة تشكلها، هل يعرفون أن الفنان لا يرسم لوحته مرتين، وإن أقسر نفسه على تقليد وإعادة رسم كل خطوطها، تظل ثمة مساحات وخطوط تتمرد ولا تعيد إنتاج نفسها، لأنها تنتمي إلى شيء بعيد وعميق غير قابل للتكرار».

كان حزن فؤاد لا يشبه حزناً آخر، حزن يولّده شعور أنه سيحرق جزءاً من ذاته وبيده، تحديداً تلك الذات التي تشعره بقيمة وجوده أو سبب وجوده، بعد بضعة لوحات رماها في النار واحدة بعد الأخرى، لم تطاوعه نفسه على تعذيب نفسه كل هذا التعذيب، رمى حزمة المتبقي من المعرض دفعة واحدة، وغادر المكان.

اصطدم بحمدان الذي كان يراقبه ويشاطره في دخلته كل حزنه، هو الآخر شاعر يعرف ماذا يعني فقدان قصيدة لا تدري كيف وصلتها؟ قال وكأنه يواسي شخصاً فقد أعز قريب له:

- البقية في حياتك فؤاد.

توقف قبالته، لم يقل شيئاً، اكتفى بالبحلقة التي لا تدري أهو ينظر إلى وجه حمدان أم إلى شيء آخر بعيد لا يصله بصره.

ظل صامتاً، حزيناً، كئيباً، سحل قدميه وهو يحاول اللحاق على ذيل المفرزة المتوجهة إلى (الدشت).

بدافع العجلة أو الإرباك العام الذي هم فيه، نسي سهراب أن يقول للمجموعة من هو قائدها؟ ومن هو دليلها على عادة الأنصار في تسيير المجاميع؟

لعله أخذ الأمر تحصيل حاصل؛ في المفرزة منعم وهو من سيقود المجموعة، طالما حاتم متنح كل هذا الوقت عن شؤون القيادة والمسؤولية، تنبه أحد الأنصار في أول استراحة للمجموعة على قمة جبل (صوصيا):

- رفاق من هو مسؤولنا؟

بدا الأنصار ينظرون بوجوه بعضهم. ومن ضمنهم حاتم، رد منعم:

- بالطبع المسؤول هو حاتم.

داخل حاتم شعور يشبه الورطة، يعرف أنه نفسياً غير مهيأ للقيادة، يشعر بكدس من الإحباط جاثم على صدره، ساداً دونه مشارف الرؤية، يفتقر للحماس الذي كان عليه قبلاً، لروح التوقع التي كانت تسيّره خلال مسيرته السابقة.

كان لا يخطو خطوة قبل أن يلم بكل تفاصيلها، ويكون على دراية بكل احتمالاتها وبدائلها، وهو الآن مفرغ من كل شيء، لا شيء في رأسه غير حلم يبدو مستحيلاً... أن ينجح بالوصول إلى (بغداد) النقلة الأولى ومن ثم يقصد مدينته (العمارة)، لكنه لم يقرر بعد ماذا سيفعل هناك؟ هل يترك العمل العسكري إلى غير رجعة؟ هل يحصل على سقف يسترخي تحته من كل هذا الدوران العاصف برأسه؟

تذكر وهو يعيد حزام النقود الذي كان يلفه على بطنه إلى أبو منيب؛ أن هذا

لم يقل له شيئاً عن المهمة، فقط داعبه مبتسماً:

- تعرف هذا الحزام اشكد بيه فلوس؟

لم يجب حاتم، مكتفياً بهز رأسه دلالة النفي، واصل:

- فيه أربعين ألف دولار أخضر وعشرين ألف دينار أحمر.

عندها قال (حاتم) بذات الدعابة:

- لعد اشكد كنت طنطل مثل ما يگول رزوقي، كان على بطني بيت وسيارة وعروس. !!

تنبه أن يداً التفت بحنو على رقبته وضغطته إليها، كانت يد فؤاد. نبس له همساً:

- حاتم... أنا لا أثق بغيرك. !!

هز حاتم رأسه صعوداً وهبوطاً، لم يجب، لكنه يعرف قواعد العمل؛ حين يكون هو المسؤول عليه أن يعرف فحوى المهمة على الأقل، وهو الآن يجهل كل شيء باستثناء ما قاله له سهراب:

- الليلة القادمة سأكون أنا على رأس المجموعة الثانية سنلحق بكم على نفس الطريق، منعم يعرف كل شيء.

قَبِلَ (حاتم) المهمة ومنذ تلك الخطوة بدأ بإعادة هيكلة استعداداته النفسية، لاستعادة القدرات التي عليه امتلاكها وهو يقود مجموعة على طرق لم يطرقها ولأهداف يجهلها.

رفع بندقيته علامة انتهاء وقت الاستراحة وتهيأ للحركة، سار في المقدمة يقطر خلفه ثمانية أنصار ونصيرتين.

ساروا في الليلة الأولى بين مجاميع الفرسان والجنود المنتشرين حول وبين القرى، وعلى مداخل الممرات التي كانوا في السابق يستخدمونها للعبور إلى الدشت، يسيرون هذه المرة معتمدين على بوصلة الاتجاه وليس على تلك

العلامات التي كانت تعلّم لهم الطرق، ولأنهم متساوون بجهلهم لمعالم الطرق الجديدة، ولأن حاسة الشك والتثبيط تنشط في العادة عند التعب واليأس، برزت فيما بينهم مشكلة تعدد الرؤوس والرؤى والاقتراحات، كل يقترح من مكانه وبانفعالية تشبه العراك الطريق الطريق الواجب السير عليه.

الجميع يعرفون أن حاتم ليس دليلاً، وإلا ما هذا التسلق كالوعول الجبلية من صخرة إلى أخرى، ما هذا الانحشار على طرق تشبه حد الموسى دونها الهاوية السحيقة للوادي؟

تكاثرت انفعالات الأنصار وتجاذبوا الاتهامات والاتهامات المضادة، حتى طفح الكيل بحاتم معلناً انسحابه من مهمة الدلالة:

- من يجد في نفسه القدرة على الدلالة ليتقدم، بالنسبة لي سأتبعه.

لم يتقدم أحد، بل حلت فسحة من الصمت تشبه فاصلاً بين انفعال وآخر، واصلوا بعده تسلقهم المتعرج منقادين إلى ما يمكن أن يمن به الجبل عليهم من دروب سالكة، التفوا على ممر (ميزة) بتسلق سفحه الوعر، مروا بالرشمالات الصيفية لقرى (نصرة) و(ربتكة)، وجدوا متروكات الفلاحين على حالها لم يمسسها أحد.

لم تزل أباريق الشاي فوق المواقد بشايها وأرغفة الخبز الرقيق قد تيبست وهي في الصواني وصحون اللبن، والبيض المقلي قد تجمد عليه السمن في صحونها، كل شيء يشير إلى هروب لم يكن متوقعاً بهذه الفجاءة.

واضح أن الجيش لم يحرق الرشمالات بعد، لعله اكتفى بحرق القرى، تركوا الرشمال، وقصدوا السطح الفسيح المتموج المسمى (باني نصرة).

كانت بوصلة اتجاههم الجنوب، هدفهم الوصول إلى قرية (حسنكة)، لقد أخبره سهراب بشكل عابر إن أحد بيشمركة البارتي أكد له أن الممر الكائن خلف قرية (حسنكة) لم يزل خارج سيطرة الجيش.

ممر قديم كان يستخدمه المهربون، يأخذ السائر به مباشرة إلى سهل قرية

(ده زي) المسيحية، ومن هناك يكون الطريق واضحاً إلى مدخل (گلي الرمان)، لكن كل هذا يُعتبر معلومات قديمة تحتاج إلى التدقيق على الأرض، قد يكون الجيش أعاد انتشاره مرات ومرات خلال هذه الأيام.

قريب الفجر وقبل الوصول إلى المكان الذي سيستطلعون منه ما تبقى من الطريق، اصطدموا بشيء يتحرك في الأحراش فوقهم تماماً، شيء يشبه ركض أشخاص بين الحشائش والأشجار، انبطحوا جميعاً على الأرض، وأخذوا وضع الرمي على ذلك الاتجاه.

الاحتمال الوحيد الذي دار في رؤوسهم أن هذا كمين للجنود أو للفرسان وهم قد سقطوا فيه الآن، مرت دقائق طويلة من التوتر وتقليب الاحتمالات قبل أن يخرج من بين الأحراش صوت بدا معروفاً لهم، يصيح:

- رفاق لا ترمون، إحنا رفاقكم.

كان ذلك يعقوب، تبعه بعد قليل صلاح، النصيران اللذان اختفيا في بداية الحصار وعدّا منذ ذلك الوقت في عداد المفقودين، ها هما أمامهم، إذن لم يستسلما، هكذا قال حاتم لنفسه.

عرف منهما أن وجهتهما كانت (الدشت)، لكنهما عجزا عن العبور، لم يدخل معهم في كيف، ولماذا هربتما؟

قرر ترك الأمر فيما بعد، يريد اللحاق قبل طلوع الفجر لاستطلاع الممر الذي أشار إليه سهراب، ممر التهريب الواقع في التضاريس الوعرة فوق قرية (حسنكة)، وصلوا إلى فوق القرية من جهة (باني نصرة)، صار الشارع المزفت الآن تحتهم مباشرة، حركة الآليات مستمرة، شاهدوا نيران الجنود منتشرة على كافة التضاريس التي أمامهم، كذلك سواد الليل لم يجعلهم يميزون فتحة ذلك الممر أو المسار إليها، لذا تباطؤوا في البقاء لحين انبلاج الفجر.

عند الفجر شاهدوا حركة تبديل جديدة يقوم بها الجيش، أُحتل بها الممر، وكأن قادة الجيش على علم باختيارهم هذا الممر تحديداً، لقد أغلقوا الممر وبات العبور مستحيلاً دون الاصطدام.

بدا حاتم حائراً لا يدري ماذا يفعل، ورأسه مفرغ من أي هدف، أنجده منعم الذي كان يراقب إلى جانبه عبر الناظور العسكري تحركات العسكر:

- رفيق حاتم العبور مستحيل، الأفضل نرجع ونختفي.

في الواقع لم يكن هناك خيار آخر في ذهن حاتم، باستثناء خيار سيدو كادر التنظيم المحلي القديم والذي كان في رحلة علاج في الخارج... اقترح النزول إلى الأسفل وعبور الشارع إلى حيث حوض أتروش، والبقاء هناك طيلة النهار وفي أول الليل اتخاذ طريق قديم كائن أسفل ربايا (أتروش)... رفض حاتم الاقتراح شاعراً أنهم سيعلقون هناك في أضيق حلقات العنكبوت، عادوا إلى الوراء على ذات الطريق الذي جاؤوا منه، إلى منطقة الرشمالات الصيفية، تزودوا من هناك بالخبز والجبن والسكر والشاي، بل أخذوا معهم قدراً لطبخ الرز، وكان سؤال: أين نختفي خلال النهار؟ هو السؤال الفخ.

اقترح منعم اللجوء إلى القمة العالية التي تشرف على الرشمال، لكنها بدت لحاتم قمة جرداء ملساء خالية من الصخور والأشجار، ستكون هدفاً سهلاً لرماة السمتيات التي سيبدأ عملها بعد قليل، قرر استشارة الاثنين اللذين كانا متخفيين كل هذه المدة في المنطقة، يعقوب وصلاح، سألهما:

- وين كنتم مختفين كل هاي المدة؟

أجاباه:

- في گلي (ميزة).

تذكر أن هذا الوادي الضيق الذي يقع خلفهم الآن، مقطوع تماماً من جهة قرية (ميزة) حيث يعسكر الجيش، لا يوجد إليه طريق بسبب الشلال الهادر الذي ينزل منه ويغذي الجدول الذي يحاذي القرية، إذن هو بمدخل من اتجاه واحد، هو الاتجاه الذي هم فيه الآن، كذلك سفحه غني بالصخور والانبعاجات التي توفر الحماية من الطيران، سيكون هو الملاذ وإن استدعى ساعة من المسير عائدين إلى الخلف.

كان حاتم مقتنعاً في سره بحكمة أو مقولة لا يدري أين سمعها، أو لعله لم يسمعها، إنما ذهنه المشوش والمحاصر أسمعه إياها، تقول؛ إن كنت تنوي الهجوم استشر أشجع من لديك، أما إذا كنت تنوي الاختباء فما عليك إلا بأخوف من لديك، وهو رأى أن هذين النصيرين هما أخوف من عنده، لقد هربا وقررا النجاة بنفسيهما منذ الأيام الأولى لحصارهم، نطق بحزم وبصوت عال كأنه يريد قطع دابر الاقتراحات المتوالية:

- نختفي في گلي ميزة.

بدا منعم متململاً من هذا القرار، وجد فيه تضحية بمسافة من الطريق كانوا قد قطعوها، لكنه رضخ، قطر يعقوب القافلة خلفه إلى حيث مخبئه الأثير طيلة الأيام الماضية، كان الطريق سهلاً بلا التواءات حادة، سار حاتم في المؤخرة خلف فؤاد، وجد أن معاناة هذا النصير أخذت بالتزايد، سعاله لم يتوقف حتى وهو يكرع الشراب من قنينته التي بدت على وشك النضوب، كان متزراً بإزار من الصوف الملون، من ذلك النوع الصيفي، التقطه من متروكات الرشمال، الأمر الذي سيجعله في النهار يمشي مثل علامة فارقة من السهل أن يميزها رماة الطائرات. سأله:

- فؤاد تكدر تترك هذا الشيء؟

أجابه:

- بردان. بردان حاتم. بعدين راح أتخلص منه.

شعر حاتم بألم لما وصل إليه فؤاد، هو من القلائل الذين لا يتصور لحياته طعماً دون وجودهم قريبين منه، وجد علاقته بهذا الرجل قد عبرت حدود الأخوة والرفقة إلى رابطة من نوع جديد تشبه رابطة الشخص مع نفسه، حدبه عليها، شعوره بها، خوفه عليها.

أراد تغيير مجرى الحديث إلى اتجاه بعيد عن الحزن، سأله:

- ليش يا ظالم، ليش حرقتني البارحة.

فهم فؤاد سريعاً ما قصده حاتم:

- قبل ما أحرقك حرقت روحي.

من يسمعهما لن يفهم عن ماذا يتحدثان؟

كانا يتحدثان عن لوحة كانت ضمن المعرض الذي أنجزه فؤاد قبل الحصار ببضعة أشهر وأحرقه ليلة البارحة، كان حاتم من بين المتفرجين على لوحات المعرض داخل الخيمة الكبيرة، مسكه فؤاد من يده وأخذه إلى إحدى اللوحات، وطلب منه التمعن فيها، تمعن هذا حسب الطلب لكنه لم يخرج بشيء، لوحة تشكيلية معمولة بطريقة التجريد العالي، همس له فؤاد:

- دقق زين، أنت هنا.

ووضع إصبعه على موضع في اللوحة.حاتم الذي يجهل أبجدية قراءة اللوحة، لم ير شيئاً ذا ملمح بشري داخل اللوحة، لا يرى غير خطوط وأشكال متداخلة من الصعب فك طلاسمها، حينها لم يسأل فؤاد: لكن أين أنا؟ وجده سؤالاً نافلاً لن يصل إلى إجابة عنه مهما حاول الرسام الشرح.

أما سبب إلحاح فؤاد على وجود حاتم في اللوحة؛ لم يكن أكثر من انفعال داهمه وهو يرسمها، إذ سيطرت على مخيله خلال العمل تفاصيل معاناته حين جُرح في إحدى العمليات.

حصل أن أنقذ حاتم فؤاداً من الموت، كانوا مشتبكين بمعركة داخل إحدى القرى في عمق سهل الموصل مع مفارز الاستخبارات، تم إسكات كل بؤر الرمي إلا بؤرة واحدة استمرت بالرمي، فكر حاتم حينها باستخدام أسطح البيوت والعبور من سطح إلى آخر لحين الوصول إلى تلك البؤرة وإسكاتها.

لا يدري من أين انبثق فؤاد أمامه وهو يريد عبور الحاجز بين سطح وآخر؟ أصلاً لم يكن فؤاد ضمن مجموعته، كان الحاجز الحجري عالياً، لذا بحث داخل فناء السطح عن سلّم ووجده، وضع السلّم وأراد الصعود، غير أن فؤاد سبقه بالصعود، وما إن وصل إلى حافة الحاجز ورفع ساقه للعبور حتى تسمر هناك بوضع يشبه التقاط صورة نادرة لمتسابق وهو يعبر الحاجز.

ساق ثابتة على الدرج والأخرى مرفوعة في الهواء فوق الحاجز، جاءته رصاصة اخترقت فخذه وخرجت من الجهة الأخرى، كان إطلاق النار قريباً، شعر حاتم وهو يتسلق السلّم بثقل جسد (فؤاد) على الدرج، حاول دفعه من عجيزته إلى الأعلى ليساعده على عبور الحاجز، أحس ببلل وهو يمسك فخذه، صرخ عليه:

- فؤاد انزل أنت مجروح.

فؤاد في حينها لم يشعر بالرصاصة وهي تخترق لحمه، بل لم يشعر بألم الجرح إلا بعد أن سمعه من حاتم، عندها تعطل كل شيء فيه وليس فقط ساقه، سحبه حاتم وحمله على ظهره وظل سائراً به من بيت إلى آخر حتى أوصله إلى نقطة الإخلاء خارج القرية.

فؤاد خطط في تلك اللوحة أشياء كثيرة، خليطاً من مشاعر، أحداث، ذكريات، كان يحاول من خلالها الوصول إلى رسم إحساسه لحظة الإصابة.

وفي كل تلك المحاولات كان يرى وجه حاتم أمامه، تيقن حينها أن حاتم قد دخل في اللوحة.

كان الگلي كما وصفه (يعقوب)؛ ضيقاً، ينحدر الجدول فيه بشلالات صغيرة، تتحول قرب نهايته إلى شلال هادر، تحفه قطوع صخرية تشبه الجدران، توجد على مدخله بضعة (كبرات) مبنية من أغصان البلوط، رشمال صغير لعله لرعاة القرى المحيطة.

الناظر إليه من فوق لا يرى فيه غير شق صغير طولي في جسد الجبل ولا يمكن الوصول إليه إلا من الجهة التي جاؤوا منها، الجهة التي لحد وصولهم كانت خالية من أي آثار لتواجد العسكر أو الفرسان، إذن هو مكان آمن، هكذا أقنع حاتم نفسه بصواب قراره.

لكنه كان مخطئاً خطأً فادحاً، عند الظهيرة وبعد أن أكلوا ولأول مرة وجبة رز مطبوخ بالمعجون، أصاب الخدر أجسادهم بإلحاح على أخذ نوم القيلولة، ظل الحارس وحده يقظاً على رأس القطع الصخري الذي يظللهم، فجأة صاح الحارس:

- رفاق، الجيش قادم.

نهض حاتم ومن فوره، تسلق الجدار الكائن خلفه إلى أقرب مكان يتيح له المراقبة، شاهد من خلال الناظور العسكري رتل الجنود على الكتف الآخر لهذا الكلي، كانوا يسيرون نزولاً، المسافة بين الكتفين المتقاربين تسمح بتبادل النيران عبر البنادق الخفيفة، كما شاهد تمترس مجموعة من الجنود قبالتهم مباشرة وهم يحملون أسلحة متوسطة وقناص.

خمَّن أن هدف العسكر سيكون حرق بيوت الرعاة القليلة المعمولة من أغصان الأشجار التي مروا بها عد الفجر والكائنة في مدخل الكلي، ومن المحتمل بعد أن ينتهوا من هذه المهمة سيتوجهون إلى الرشمالات الأكبر الكائنة على سطح الجبل، والتي تزودوا منها هذا الفجر بالمؤونة.

نزل إلى حيث كان، وطلب من رفاقه الصعود إلى أعلى ما يمكن على الكتف الذي هم بمحاذاته، تسلق الأنصار الانحدار الصخري الحاد من أماكن مختلفة، في كل الأحوال لا طريق واضح للصعود، ثمة مقاطع من الطريق صخورها مهشمة إلى نثار من الحصى والأحجار الصغيرة لا تسمح بالسير فوقها إلا بما يشبه الزحف على البطون.

رأى فؤاد يحاول الصعود لكنه لم يفلح، إذ في كل مرة يجد نفس متدحرجاً إلى أسفل، لقد نخر المرض جسده ولم يدع له القوة الكافية للتسلق، نظر إلى المكان الذي كان نائماً به، وجده قد نسي مسدسه وحقيبته الظهرية هناك، كما أنه ما زال يلف جسده بالإزار الملون، صاح عليه من أسفل:

- فؤاد اترك هذا الإزار، وتعال خذ مسدسك.

عاد فؤاد زاحفاً على عجيزته هذه المرة، أعطاه المسدس وأخذ منه الإزار ورماه قرب إحدى الصخور الكائنة على جدول الماء، ثم أشار عليه أن يصعد إلى مكان محدد دلّه عليه، حيث الصخرة التي راقب منها قبل قليل، تابعه وهو يحاول تسلق الانحدار الحاد، ولم يتركه إلا بعد أن تأكد أنه قطع نصف مسافة الصعود.

عاد إلى الوادي باحثاً عن آخرين لم يصعدوا بعد، لم يجد أحداً من الأنصار، أيقن أن الجميع صعدوا، عندها قرر هو الآخر أن يصعد إلى حيث المكان الذي دل فؤاد عليه، وما أن وصل إلى تلك الصخرة قلق، لأنه لم يجد فؤاداً، لكنه، سمع أصوات الأنصار تأتي من بعيد من فوق، نظر إلى الذي يفصله عنهم، وجده شقوقاً عميقة وصخوراً وعرة لا تسمح بالعبور من خلالها إلى حيث أصوات الأنصار، الذين وصلوا إلى هناك عبر طرق أخرى غير طريقه هو.

ارتكن إلى أن (فؤاد) قد صعد حتماً من مكان آخر ووصل إلى حيث رفاقه، ما عليه سوى البقاء في مكانه يراقب حركة الجنود على الكتف المقابل للجبل، بدأت طائرات الهوكر هنتر تحوم، تبعتها بعد حين الطائرات العمودية السمتية وهي تدور دورات متكررة فوق المكان.

مر الوقت بطيئاً استنفذه بتدخين عدد كبير من لفافات التبغ، كان التدخين يهدأ من التوتر الذي يشعر به في كل جسمه، ينظر بين الحين والآخر إلى ساعته أو إلى ساعة فؤاد التي استعارها منه ليضبط وقت الحراسة، رأى الدقائق بطيئة وكأنها تسحل مؤشري الدقائق والساعات سحلاً.

كان الجيش قد اختفى تماماً خلف تضاريس الجبل، غير أن الجنود الذين كمنوا على الكتف الآخر بقناصهم وأسلحتهم المتوسطة ما زالوا هناك، بعد حين سمع حركة الجنود وضجيجهم عند الكبرات القليلة في مدخل الگلي، لحقها تصاعد أعمدة الدخان، تحقق ما توقعه أنهم أحرقوا تلك الكبرات بما فيها. قال لنفسه؛ الخطوة التالية لهم هي كبرات (باني نصرة وريتكة) الكائنة على بعد ساعة من مكانهم هذا على الطريق الذي قدموا منه عند الفجر، إذ لا يمكن لهم في كل الأحوال دخول هذا الكلي المقطوع، لكنهم خالفوا توقعاته ودخلوا.

سمع أصوات الحيوانات البيتية، لقد هاج الدجاج والديوك الرومية بوقوقة باتت قريبة جداً من مكان تواجده، كأنها كانت تهرب من الحرائق ومن محاولات الجنود لاقتناصها إلى الگلي لتتخفى فيه. وهذا ما لم يدر بخاطر حاتم.

تمادى الجنود وهم يطاردون الحيوانات الهاربة والعنيدة متوغلين في عمق

الكلي حتى اصطدموا هناك بآثار الأنصار التي لم تزل دافئة، رأوا موقد النار غير المنطفئ بعد وقدر الرز المطبوخ بالمعجون، رأوا تلك الخرق الملونة والتي في غالبها كانت أقمشة نسائية شفافة، أرادها بعض الأنصار أفرشة وأغطية لسهولة طيها ولفها في الحقائب الظهرية، كل شيء يدل على بشر كانوا هنا قبل لحظات وهم في المكان الآن.

بدا الاصطدام لحاتم أمراً لا مفر منه هذه المرة، وبينما هو يقّلب هذا الاحتمال، ويفكر كيف يصل إلى أنصاره على الطرف الآخر من الشق الصخري، سمع أصواتاً لجنود متداخلة وهي تصرخ:

سلّم نفسك... سلّم نفسك... ثم صوت إطلاقة واحدة، تحديداً من المكان الذي كان فؤاد ينام فيه، صوت ضعيف، إنها لمسدس وليس لبندقية، كل شيء يشير إلى إن أحد الأنصار ما زال داخل الگلي وقد عثروا عليه، لكن من يكون هذا النصير وهو قد تأكد بنفسه من عدم بقاء أي نصير داخل الگلي، حتى هو تأكد من صعود فؤاد قبله، من مكانه لم يتح له رؤية ما يحدث داخل الگلي، كذلك لم يعد يرى الجنود، فقط يسمع أصواتهم.

حاول تبديل مكانه غير أن تحويم الطائرات العمودية سيجعله هدفاً للرماة، شاهد من بعيد من الأعلى قدوم سيدو باتجاهه، بدا هو الآخر عالقاً في مكان غير صالح، فرح وقرر أن ينسق معه خطة يقضون فيها على الجنود الكائنين أسفلهم وتحت رحمتهم.

كان حاتم بحاجة إلى أحدهم ليقوم بتبليغ بقية الأنصار بخطتِه، أخرج رمانة يدوية من حزامه ، وضعها قبالته وظل ينتظر وصول سيدو، فكر أن يبدأ خطته برمي الرمانة إلى أسفل حيث تجمع الجنود، ثم ينزلان عليهم هو وسيدو، وصل هذا لاهثاً، كأنه خمَّن ما فكر به حاتم، وضع يده على الرمانة وهو يتوسل:

- أرجوك رفيق، عندنا رفاق أسرى رأيتهم بعيني، لو فعلناها سنقتل رفاقنا بأيدينا.

- من هم الأسرى؟ كنت آخر من صعد، لم أر أحداً في الگلي.

- أنا رأيت ئارام وصلاح وأم يسرى وسناء يسيرون أمام الجنود رافعين أيديهم.

خفضا أصواتهما، بعد أن سمعا لهاث الجنود يصل من أسفل وهم يتسلقون ذات الجدار الصخري الواقع أسفلهم، كانا جنديين لم يدخلا مجال الرؤية بعد، غير أن حديثهما كان قريباً، واضح أنهما قد توقفا ولم يواصلا الصعود، سأل أحدهم زميله:

- الله اشكد كان حلو هذا الشاب، ليش قتلتوه!؟

أجابه زميله:

- والله خوية إحنا ما قتلناه، كان مخلي المسدس على رأسه، بس صحنا عليه سلّم نفسك... قتل نفسه.

شعر (حاتم) بالدخان يخرج ليس من أنفه بل من كل مساماته. كأن جسده على وشك الانفجار، شعر بأشياء عالقة محتصرة في بلعومه، تشبه حشرجة طعمها مر وتنتقل من البلعوم إلى الصدر، تشبه رغبة عارمة بالبكاء، دوّر رأسه في الأرجاء، وكأنه يبحث عن وسيلة أخرى غير البكاء يتخفف بها من هذا الاحتصار والحشرجة والدخان الخانق، صار ينظر بعيون سيدو، وجد فيها بريق الصدمة مما سمعاه معاً. ما زال الجنديان قريبين منهما، لا تفصلهما سوى بضعة صخور تقع أسفلهما، قرر حاتم مع نفسه أن ينفذ ما فكر به، أن ينفّس احتصاره الدخاني، أن يقتل الجنديين، ذعر سيدو وهو يرى حاتم يمسك الرمانة بيد ويرفع بندقيته باليد الأخرى وكأنه أوشك على النزول وبدء القتال.

لم يكن بوسعه حتى أن يهمس له معبراً عن اعتراضه لقرب الجنديين من مكمنهما، لذا ولمنعه مسك بندقيته من فوهتها وكأنه يريد سحبها منه، فتح حاتم عينيه على سعتهما بسؤال صامت: لماذا تمسك بندقيتي؟ أجابه سيدو بإشارات من وجهه المرعوب أن أمسك نفسك.

ظلا يتواصلان في جدل العيون، هذا يريد الخروج وذاك ماسك بسبطانة البندقية، حتى سمعا صوتاً قادماً من الأسفل، صوت الضابط قائد مجموعة الجنود وهو يطلب من جنوده الصاعدين العودة إلى أسفل. سمعا جلبة نزول الجنديين على نثار السفح المتهشم كأنهما يتدحرجان، عندها فقط تنفس (سيدو) الصعداء وترك بندقية (حاتم) وهو يردد بغضب:

- أنت مجنون، تريد تقتلنا؟

ما زال حاتم مبحلقاً بعيون سيدو، تقمص وجهه خطوطاً وتجاعيداً وإيحاءات لم تكن له.

وجه الجازع، اليائس، الذي لا يستوطن رأسه سوى الانتقام، أما سيدو فقد أدار وجهه إلى مجموعة الجنود الرابضين أمامهم على الكتف الآخر بقناصهم وأسلحتهم المتوسطة الموجهة إليهم مباشرة، وقال:

- شوف. شوف زين. هذولة مسيطرين تماماً على حركتنا، عندهم قناص وبي كي سي.

هز حاتم رأسه مراراً، وكأنه يريد إخراج شيء عالق في داخله، كما قال لنفسه مراراً: إنه فؤاد، لا يفعلها غيره. هو فؤاد. أنا متأكد. إنه فؤاد.

استمر يحرك رأسه صعوداً وهبوطاً في حركة تشبه البنود، ليخرجها من فمه وكأنها هي ذلك الشيء الذي كان يتحشرج في داخله، نطق بها أخيراً بما يشبه الصراخ:

- سيدو، هذا فؤاد.

رد هذا بذات الحركة النودية للرأس أن أعرف. طال انتظارهم انسحاب الجنود، كما طال أمد جولات الطيران وهي تتبادل التحليق بين الهوكر هنتر العالية والطائرات العمودية.

اقترح سيدو الصعود والانحراف يميناً إلى مكان أعلى، حيث يعرف هناك مكان مقبرة قديمة، مردفاً:

- من الآن اترك الدلالة لي.

تبعه حاتم بلا اعتراض، يعرف أنه من أدلاء المنطقة، لكنها المنطقة التي كان يعرفها قبل ذهابه للعلاج، وليست المنطقة الآن، هبط عليهم المساء وهم في تلك المقبرة قرب قمة الجبل، كانت تصلهم من القمة بين الفينة والأخرى أصوات تتحدث بالكردية، اعتقدا أنهم الفرسان، وهذا ما كان يحدث دائماً حين يهجم الجيش يكون الفرسان ماسكين القمم ومنافذ الانسحاب، لكن من ظنوهم (فرساناً)، تبين لهم بعد أيام حين التقوا بباقي المجموعة؛ إنهم مجموعة من (بيشمركة) البارتي متخفين هناك، إذن نحن محاصرون من فوق ومن تحت، هذا ما هجس به حاتم لنفسه، قال سيدو وكأنه يواصل هاجس حاتم:

- الجيش ما راح ينسحب، هذا كمين، يعرفون أننا هنا، علينا الخروج من هذا المكان.

اقترح على حاتم أن يواصلا طريقهما إلى الدشت مع هبوط الظلام، رد هذا باندهاش:

- والرفاق؟

هز سيدو كتفيه مع تهويمة من يديه تقول: لا أدري، هذه مشكلتهم.

- أنا لا أنسحب قبل أن أجد باقي المجموعة وأعيد منهم اثنين إلى (گارا) لتحذير سهراب من الحركة.

- وأين نجدهم؟ ومن يقول إنهم لم يواصلوا الطريق إلى الدشت؟

كان الليل قد أنزل سدوله على الجبل وكثافة الأشجار مع ظلال الصخور تشكل ليلاً على ليل، ظلا يبحثان على السفح صعوداً ونزولاً وهم يواصلان خلافهما أو صدامهما حول المواصلة إلى (الدشت) أو الانسحاب إلى (گارا)، ووجدا أقدامهما تأخذهما آلياً إلى الگلي إلى حيث حدثت واقعة النهار.

تسللا إلى هناك، لكنهما اصطدما بأصوات تأتي من داخل الگلي، أصوات بدت لهما أنها لجنود، لا شيء يدل على أن هؤلاء رفاقهم، كانت ضحكة واضحة

تلك التي سمعاها، من هذا الذي بمقدوره أن يضحك؟ همس سيدو وكأنه يريد تأكيد ما كان يردده طوال الليل:

- قلت لك نواصل للدشت، الجيش ما راح ينسحب بعد أن عرفوا بوجودنا، أكيد باقي المجموعة واصلوا الطريق.

قال حاتم وبعزم هذه المرة بعد أن يأس من العثور على ما تبقى من رفاقه:

- سيدو إذا لم تأت معي، سأذهب لوحدي إلى (گارا)، أعرف أن مجموعة سهراب ستتبع نفس طريقنا. يجب منعهم من الحركة، لا وقت لدينا.

وهذه المرة ومن جديد كانا على خطأ، إذ من ظنوهم جنوداً كانوا رفاقهم، هم من تبقى من المجموعة وكانوا منشغلين بعملية دفن جثة فؤاد، لكن، كانت هناك ضحكة واضحة، لمن كانت تلك الضحكة؟ وهل ثمة من يضحك في الدفن.؟

هذا ما ظل يردده حاتم على نفسه وعلى من التقاهم فيما بعد، الواضح أن صدمة الحدث، وما تركته من آثار أخذت تتحكم بردود أفعالهما، حتى أنها بدت قادرة على أن تشطح بالخيال لتصور البكاء ضحكاً.

أذعن سيدو وتبع حاتم وهو يسحل بخطاه سحلاً، كان لا يريد العودة من جديد إلى (گارا)، حيث لا شيء هناك سوى الانتظار.

(٣٣)
عرس في مغارة الدب

طفلتان وطفل في تضاريس انحدار مجاور للقرية، يلعبان لعبة (بيت العروس)، إحداهما تتقمص دور الزوجة وهي تعد موقداً افتراضياً ستضع عليه قدر الطبيخ، وبينما الموقد يعد لها طبيخها تنقل من مكان إلى آخر صحوناً من الأثير، ترتب فرشة الزوجية وأثاث بيتها الهوائي وتنتظر، لا تملك غير الانتظار، تنتظر زوجها القادم من الحقل.

الطفلة الزوجة لديها الكثير من الفراغ تملؤه تارة بكنس المكان وتارة بتدوير المغزل الخشبي الوهمي، تسمع دقات على الباب، تصيح من؟ يأتيها صوت أختها التي تصغرها بسنتين؛ أنا، ترد عليها: تفضلي.

تعد لها شاياً، إنها ضيفتها، الأختان تتناجيان بهموم الزواج والأولاد المشاكسين، هن لا يمثلن مشاهد تلك اللعبة الطفولية، بل يعشن الدور بامتداداته الناضحة من خيالهن البكر.

بعد حين يأتي الزوج متصنعاً قسوة فلاح أنهكه عمل اليوم الشاق في الحقل المجاور، تسرع الضيفة للخروج، تودعها عند عتبة الباب الوهمي، تطلب منها أن تسلم على زوجها وعلى جارتها، تتعثر الأصغر بلفظ حروف الكلمات الكبيرة.

تعود الزوجة حاملة إبريقاً ووعاءً وهميين لتغسل قدمي زوجها المتعب من شقاء العمل، تنهي غسل القدمين تقوم بتهيئة العشاء.

بعد العشاء وقبل إتمام المشهد إلى نهايته الليلية لفعل ما يعتقد الصغار أن الكبار يفعلونه في الظلام، تدهمهم وفي كل مرة الطفلة الأصغر وهي تعلن ضاحكة انتهاء اللعب: مسكتكم انتهت اللعبة. !!

الطفلتان وقد كبرتا عشرة سنين، الأصغر مفترشة أوراق الجلو الجبلي على جلمود صخري ورأسها في حضن الأكبر متوسدة فخذها، لعلها نامت من الخوف وليس من التعب، لم تحتمل عتمة أصوات الليل الحيوانية المهددة، دببة، خنازير برية، ذئاب، وعول جبلية هي كائنات هذه العزلة الجبلية تشكو المتطفلين على عزلتها، تتبادل أصواتاً كالنحيب تُرجع صداها القطوع والوديان، الحيوانات تريد سكنها المصادر، ديدنها ألا تعتدي لكنها ترد الاعتداء.

الأختان تلوذان بنفسيهما بباطن كهف يشبه طولة كبيرة، أُشعلت النار على مدخله، وكانت النار هي خط الدفاع بوجه الغضب الحيواني المهدد في الخارج.

شيء ما ارتعش في جسد روزا يشبه فرحاً قديماً جاء من شقاوة تلك الأيام الطفلية البعيدة، صارت تضحك وهي تمسد رأس أختها، بدا لها أن حياة ما زالت تمارس دورها القديم في قطع مشهد الزوجية أن لا يذهب إلى نهايته المفترضة في الفراش الهوائي، مسكتكم، انتهت اللعبة. !! وهو حسام الصغير الذي وبدلاً من أن يتمم ذلك المشهد المحذوف من ألعاب الطفولة دخل في نوم لا تدري متى؟ وكيف سينهض منه؟

الفتى لم يذق النوم لأربعة أيام بلياليها كما أخبرها، جلب لعزلته الزوجية طحيناً وسكراً وشاياً وعبوة حليب (نيدو) صغيرة وجلكاناً كبيراً من الماء، جهز هذه الأشياء قبل وبعد عملية الخطف، لقد جهز بيت الزوجية، لم يبق على الزوجة سوى تنفيذ أمر الزوج.

طلب منها أن تعد لهم خبزاً، سألته: لكن أين الصاج الذي أخبز عليه؟ أدار رأسه في المكان ولمح صحناً كبيراً من الفافون كان قد جلبه مع الأشياء، اخبزي على الصحن. !! ضحكت الأختان.

كان الفتى متعباً لم تعد في جسده مقاومة لانطباق جفنيه لا إرادياً، الثلاثة واقفون على باب الكهف، نزع من رقبته الناظور العسكري وتوجه إلى حبيبته وألبسها إياه، ثم انتزع من حزامه مسدساً ووضعه في كفها، بدا المشهد للصغيرة حياة يشبه تماماً عريساً يلبّس عروسه قلادة الزواج ويضع في إصبعها

حلقة الزوجية، التقطت الصغيرة هذا المشهد وهي تطلق ضحكة لم تقدر على كتمانها، تحول ضحكها إلى قهقهة تطاولت.

الاثنان يتابعان ضحك الصغيرة باندهاش. لماذا تضحكين؟

ردت عليهما بعد أن تحول ضحكها إلى نشيج يوحي ببكاء قادم، ضحكت على أحلى نيشان عرس، عندها فقط تنبه العروسان لما فعلا، دخلا هما كذلك في الضحك، وكان الضحك بلسماً متعدد الأغراض ينفع للحزن مثلما ينفع للفرح، قال العريس برجاء:

- روزا... المكان أمين، لكن هذا للاحتياط.

وأشار إلى المسدس، ثم واصل:

- سآخذ لي غفوة زغيرة.

ذهب إلى زاوية كانت معدة لنوم الدب، نظف براز الدب ومخلفاته، وتوسد حقيبته الظهرية ونام، وكانت غفوة قصيرة امتد قصرها إلى أكثر من ٢٥ ساعة متواصلة، قضاها تارة في الشخير وتارات بإطلاق أصوات شجار وتهديد ووعيد مع كائنات كوابيسه.

(روزا) لا تعرف كيف تستخدم أياً من أنواع الأسلحة وليس فقط المسدس، وهذا الشيء الحديدي الثقيل على كفها بدا لها مثل لعبة تعود لغيرها، في البدء رمته إلى جانبها، لكن مع تصاعد غضب الحيوانات الهائجة في ظلام الخارج، صارت تحتفظ به مطبقة عليه بكفيها الاثنتين، في كل مرة توجه فوهته إلى اتجاه من فراغ الكهف الطولاني المتعرج صعوداً وهبوطاً في باطن الجبل وحسب الاتجاه القادم منه الصوت، مع كل صرخة من الخارج يخض جسدها رعباً وتزوغ عيناها بغبش الرؤية ولا تعود لسكينتها إلا مع اختفاء الصوت، حتى أنها في إحدى المرات وجهت فوهة المسدس إلى رأس حبيبها بعد أن خرج شخيره عن الفولتية المحتملة للأصوات، أطلق ما يشبه حشرجة احتصرت في فمه، وبعد أن تبينت من بين خيوط نسيج الخوف أنه هو، ضحكت على نفسها

بصمت، ضحك صاخب يدور في كيانها يريد الانفلات لكنه متواشج مع بكاء بذات الصخب والاندفاع.

ضحكت بقهقهة عالية، ثم بكت بنحيب متواصل استدعت فيه وجه أمها ووجوهاً كثيرة صارت تتخاطف أمام عينيها الزائغتين، كان من بينها وجه أبيها الذي لم تلحق أن تميز ملامحه، مر سريعاً مع زحمة الوجوه واختفى، أبوها الذي رحل إلى الأبد.

تذكرت أن أمها لم تعد في الجبل الآن، لعلها في سجن ما من تلك السجون الكثيرة التي كانوا يوزعونهم عليها في رحلة تبديل السجون قبل تهجيرهم، بكت طويلاً، سقطت دموعها على وجه أختها النائمة باستسلام في حضنها، فتحت هذه عينيها بتثاقل ثم عادت إلى نومها، توهمت أنها سمعت من أختها مرة أخرى: مبروك أختي نيشان العرس. !!

أخذت تمسح بلل الدمع تارة من على وجهها، وتارة من على وجه أختها. ظل حسام في نومه البعيد لم يوقظه لا صوت البكاء ولا أصوات الحيوانات، حاولت إنهاضه مرات عديدة، كان يكلمها وهو نائم، هل هذا هو مشروع هروبهما أن يناما في كهف الدب؟ أين هي الحدود التي أراد إيصالهما إليها؟ أين هي مدن ما خلف الحدود؟ أين هي أمريكا التي رسمها لها على صفحة خيالها بشوارعها الحديثة وبيوتها الأنيقة وضجيجها المدهش؟ لم يعبروا جبل (گارا) بعد، كل ما فعلوه أنهم بدلوا مكان تشردهم إلى الأعلى ليس أكثر.

ظلت الأختان في اليوم الفائت تراقبان نزول أرتال العوائل وهي تستسلم لتجمعات الجنود عند گلي (كاني مازي)، تابعتا عملية الاستسلام بكامل فصولها سواء للعوائل أو للمسلحين، كانتا تريان الرجال والنساء والأطفال كائنات قزمية تنحدر إلى الأسفل.

تابعتا المشهد مرة بالعين المجردة ومرات عبر الناظور العسكري. تابعتا مشاهد الاستسلام حتى النقطة الأخيرة على قمم جبل كانيكا حيث تختفي الشاحنات هناك.

اختفت الشاحنات بعيداً، ليبدأ أثرها فصل البكاء، صارتا تتبادلان البكاء، هي نفسها ما زالت غير مصدقة أنها قدرت على اجتراح مثل هذه النقلة الكبيرة في حياتها.

قديماً كانت تهدد وتتوعد فحسب، كانت تتظاهر بالشجاعة أمام نفسها بقدرتها على فعل أي شيء لمجرد بقائها بقرب حبيبها، لكنها لم تكن على يقين أنها قادرة على ذلك، حدث كل شيء بسرعة لم تكن قادرة على مجاراتها، لم تلحق على المداورة والمراجعة، ما أن رأته حتى طار كل شيء من رأسها وهي التي ظنت أنه ذهب ولم يعد، لكنها رغم كل شيء، فرضت عليه شرطها الوحيد:

تأتي حياة معنا. وهو وافق، لكن لماذا أصّرت على اصطحاب أختها؟ لم تجد لهذا السؤال جواباً بعد، أو هي لا تريد التفكير في هذا الأمر، بدا لها وكأنه من طبيعة الأمور، لا بد لأختها أن تكون بقربها طالما أمها لا تريد ذلك.

هي في وضع الانتظار الآن، تنتظر زوجها ماذا يفعل بعد أن ينهض من نومه أو من موته؟ نائم كالميت.

تتملى ملامح وجهه الجميلة وهو نائم، راغبة بتمسيد خصلات شعره الأشقر غير الممشط لكنها مترددة، تحب أن تردد لنفسها كلمة (زوجي) أكثر من مرة، إنه زوجي، تناقل نظراتها بين الوجهين وجه أختها ووجه حبيبها، مثل أم حنون تحنو على أولادها.

ما زال المسدس الرابض في يدها الصغيرة يخيفها، هو أكبر من كفها بكثير، وهو أثقل من أن تستعمله للقتل، سواء لقتل حيوان أو إنسان يتطفل على عزلتهم الكهفية.

لماذا يستعمل الرجال المسدسات أصلاً؟ لماذا هم يقتلون بعضهم؟ لا شيء واضح في رأسها الصغير غير قصص منقولة عن أبيها على لسان أمها وآخرين، يقولون إنهم لا يحبون القتل لكنهم مجبرون عليه، عدوهم غير متفاهم، لا يرحم يريد سحقهم فقط.

لكن، لماذا؟ ماذا فعلنا؟ ماذا فعل أبوها ورفاقه؟ لماذا لم يكونوا كسائر الرجال الذين ما زالوا في مدنهم وقراهم؟ لماذا التجأوا إلى الجبل؟

تزعم لنفسها أحياناً أنها تعرف أجوبة كل هذه الأسئلة، وتكتشف في كل مرة أنها لم تفهم شيئاً بعد، لكن، هل الحب يحتاج إلى البحث عن أجوبة كذلك؟ لماذا أحبت هذا الفتى تحديداً من بين المئات من الفتية والشباب الذين تراهم كل يوم يأتون ويذهبون من وإلى مقر الفوج؟ لماذا لم تحب شاباً آخر من طائفتها وهم كثر كذلك في المقر؟ لماذا تشعر بتلك الارتعاشة اللذيذة ما أن ترى وجهه من بعيد؟ لماذا يغيب عنها العالم بكل فوضاه لمجرد سماع صوته؟ ولماذا في الأخير يكون زواجهما محرماً؟ ما ذنبها؟ ما ذنبه؟ إن كانا من طائفتين مختلفتين دينياً... لكن هل هذا التحريم هو الشيء الوحيد الذي يبعدهما عن بعض؟ أم أن هناك أشياء أخرى كانت تحسها أحياناً لكن لا تفهمها؟ تسمعها من أمها ولا تفهمها...؟

بدا لها من تجربة اليومين الفائتين أنها صارت تقترب من فهم هذه الأشياء، أشياء تكورت على نفسها في أشكال تتبادل الإيحاء والإيهام، شيء يشبه فضاء هذا الكهف المتعرج وهو في باطن الجبل، شيء يهمس بإذنها: أن حبهما مقطوع لا مستقبل أمامه، إلا إذا كانت هذه العزلة الكهفية مع الحيوانات المتوحشة هي المستقبل، لا مدينة، لا قرية، لا بيت قادر أن يحتويهم، إنهم في عالم غير متسامح مع الأخطاء الصغيرة فما بالك بمثل هذا الخطأ الكبير. !!

بعد عشرة أيام قضوها في كهف الدب، لم يزل الثلاثة على بكارتهم، لم يحدث العرس، الأختان متلازمتان برد فعل غريزي حتى حين تقضي إحداهما حاجتها في الخلاء، الخوف يملأ عينيهما والفتى لا يدري إن كان الخوف منه؟ أم من المكان؟ لا يدري ما يفعله بمشروع العمر الذي أخذ منه ليالياً وأياماً يداوره مع نفسه؟

بدا له الأمر أشبه بحلم جميل مشتهى، ولما تحقق جاء عابساً مكفهراً كأن فيه خداع بصر من نوع ما، منذ اليوم الثالث من تطفلهم على جيرة الحيوانات التي لم تكن راغبة بجيرتهم، تأكد له أن ما فعله كان أكبر بكثير مما يحتمله أو يستطيع مواصلته.

بكاء الصبيتين متواصل بفصول منوعة، حتى صمتهما بدا له بكاءً، وهو قد تهدلت أكتافه من حمل المؤونة والماء عبر تضاريس هي أقسى من القساوة والوعورة، تضاريس لا تحتملها غير الحيوانات المتوحشة التي نفت نفسها بنفسها بعيداً عن شؤون وشجون البشر.

منذ اليوم الثالث تأكد له أن خيار الحدود وما بعد الحدود صار أمراً مستحيلاً، الصبيتان غير قادرتين على قطع الجبال وتسلق القطوع والتسلل بين حشود الجيش والفرسان للوصول إلى هناك.

ماذا سيفعل فيما لو وقعتا أو وقعت إحداهما بأسر الجنود؟

لو قيل له قبل إقدامه على خطف حبيبته وإخفائها في كهف الدب؛ أنك ستفعل الأفاعيل يا حسام فقط للانعتاق من قيدها، لما صدَّق.

لو قيل له من أجل بناء حياة جديدة مثل سائر الناس عليك بالأول يا حسام أن تكون كسائر الناس، لما صدَّق، لكنه الآن مستعد لتصديق هذه وغيرها.

الأيام العشرة التي قضوها في كهف الدب علمَّت ملامح الثلاثة وكأنهم كبروا عشرة سنين مضافة، تقاست ملامحهم مثلما تقاست الحلول التي تداولوها مع أنفسهم للهروب من معضلة الهروب.

في اليوم العاشر، توصلت روزا إلى قرار حاسم؛ أن تتبع خطا أمها، قررت أن تنزل وأختها إلى حيث الجنود منتشرين قرب (كاني مازي)، حياة تحمست للأمر ووافقت سريعاً، أما حسام فبعد أن زجّرها على ما فكرت به:

- غبية. شلون تفكرين هيك.

أخذ يداور مع نفسه بضعة حلول ليس من بينها التسليم والسجن، فكر في أخته التي تسكن مدينة (ألقوش) وفكر في قرية الصبيتين وما تبقى من أقاربهما هناك.

(٣٤)
المتروكون

يحدث في الحروب ألا يكون كل الجنود صالحين لخوضها، ثمة من يتوزعهم العوق بأنواعه أو الخوف المرضي المتحول إلى وسواس يجعل الجندي الضحية يلتقي بملامح موته القادم في كل زاوية من زوايا حياته، وإن هرب إلى أقاصي الأرض، هؤلاء الجنود لا يخوضون الحرب، بل يُتركون على هوامشها البعيدة في المقرات الخلفية، تحت يافطة عسكرية واضحة؛ (فصيل المتروكين).

لا يصلهم من شظايا الحروب سوى أصوات القصف المدفعي، وربما بعض القذائف العمياء التي قد تصيب وقد لا تصيب.

هم في سجلات الجيوش جنود لكنهم غير مسلحين، اسمهم بالحصاد لكن بلا مناجل!! وحصاد الموت يتطلب مناجلاً ناشطة مطواعة، أما الجنود المسلحون بمناجل الموت، فينظرون إلى هؤلاء نظرة تختزن التناقض، هم يزدرونهم باعتبارهم سقط متاع لا أكثر، لكنهم يحسدونهم أيضاً باعتبارهم محظوظين!! أُنعم عليهم بمرتبة من الحظ لا يصلها إلا من حاباه العوق أو الجنون أو الضابط المسؤول وفق تقنيات القرابة، والمحسوب والمنسوب في الجيوش النظامية.

وافي اللائذ بحذاء جدار صخري عال، وجد وهو يستعيد حكاية أولئك المتروكين في المواقع الخلفية لجبهة الحرب التي كان فيها قبل التحاقه بالأنصار؛ إن المشهد البعيد لأولئك الجنود منطبق الآن على الحالة التي هم فيها.

الآن هم كذلك مجموعة متروكة، غادرتهم المجاميع إلى اتجاهات مختلفة، وظلوا هم في ذات المكان. غادرهم القياديون وظلوا بلا قيادة، بلا خطط،

بلا أدلاء، غادرهم كل الأصحاء وظلوا هم المرضى والمتعبين المسلحين إما بمسدسات صغيرة يحتفظ بها كل واحد منهم لنفسه أكثر مما يحتفظ بها لعدوه، أو ببنادق ما عاد لها الألق القديم وهي تلتصق بأضلاع المقاتل جزءاً من كيانه.

هم متروكون كأولئك المتروكين، إنما بفارق وحيد؛ إن متروكي الجيش بعيدين عن شباك الحرب مسافة تنجيهم من شررها، بينما هم الآن لا تفصلهم عن الطرف المهاجم سوى بضعة مئات من الأمتار الجبلية، هم في أضيق حلقة من حلقات الحصار، ولا يُعرف بعد ما الذي يمنع الجيش المهاجم من تحقيق الإبادة المنتظرة.

أهي وعورة الجبل المتحصنين به؟ أم هو نضوب المعلومات لدى قادة الجيش؟ منذ عشرة أيام لم يستسلم أحد من الأنصار، وبالتالي ومنذ عشرة أيام لا معلومات جديدة لدى المحاصِر، أو وربما هو الانتظار، انتظار نضوب المؤن القليلة التي حصلوا عليها ليروا ماذا سيفعلون، وهم يقارعون الجوع والعطش في هذه الغياهب العاصية؟

هم ما زالوا في شباك الهدنة غير المعلنة، الجيش منشغل بإعداد مواقعه الجديدة من ربايا ومقرات على مقربة منهم، وهم منشغلون بانتظارهم عل إحدى المجاميع تكون قد نجحت بالتسلل إلى الحدود، وأعادت من يأخذ بيدهم على ذات الدروب التي اكتشفوها.

كانوا مع كل فجر جديد يعيدون ممارسة طقوس انتظارهم لليوم الموعود. لقد غادرت قيادة الفوج بكاملها في الليلة التالية على خروج مجموعة حاتم، لاستكشاف خيارات سهل (الموصل)، حتى دون أن ينتظروا مزيداً من المعلومات عن حال الطريق الذي سارت عليه مجموعة التي سبقتهم.

شد الثنائي أبو منيب-سهراب العزم على اقتحام هذا الخيار بلا مزيد من التأخير، مصطحبين معهم أغلب الأنصار الأصحاء.

وافي المنعزل بعيداً عن تجمعات الأنصار، لم يعد ملل الانتظار ما يشغله، بقدر ما هو بلاؤه الداخلي مع تلك الحشرة التي طرحت بيوضها تحت جلده، يستذكر ويطابق ويقارن ويخرج باستنتاجات وهو نازل هرشاً عنيفاً في ربلة ساقه الأيمن، لم تعد لنوبات الهرش فواصل زمنية، صار يهرش حتى أدمى اللحم المعضل راسماً خارطة من الخطوط المدماة والبقع الداكنة وبأحجام متفاوتة، خارطة لا شكل لها غير العبث والعشوائية.

لم يعد يحتمل وهو يرى الدماء تخطط ساقه، قام من مجلسه وهو يلعن سلالة تلك الحشرة التي لم تجد مكاناً تفقس فيه بيوضها غير ربلة ساقه، وسلالة ذئاب الجبل التي تتطفل على جلودها تلك الحشرة اللعينة وسلالة حاتم الذي لم يجد كهفاً يأوون له غير ذلك الكهف العائد للذئاب.

أطال الوقوف وهو ينظر إلى صخرة مقابلة غير بعيدة عنه، بدت له شاهقة إلى السماء مثل إله فرعوني تقمص ملامح الجبل.

قصد تلك الصخرة، تسلق شرايينها بحرارة الدماء الضاجة في ساقه حتى وصل إلى قمتها، عودته التجربة أنه كلما حرك ساقه أكثر كلما هدأ من جنون حشرته اللاهية تحت جلدهن وهذا ما حصل عليه، ما إن وصل إلى قمة الصخرة حتى شعر بخدرٍ لذيذ.

التقط أنفاسه وهو يقف على مربع الصخرة الضيق، صار ينظر إلى الأسفل، وجد أن الذي تحته الآن ليست فقط تلك الهيئات القزمية للجنود، وهم منهمكون بتحصين مواقعهم عند (گلي آفوكي) وقمم (صوصيا)، بل العالم كله الآن تحت قدميه.

داخله إحساس بالزهو، لا شيء فوقه غير سماء تتحرك فيها بضعة غيوم كأنها تذكار بقدوم الشتاء، لا يعرف قسوة الشتاء الجبلي سوى المقاتلون الجوالون بلا مأوى، لن يحلموا بمأوى بعد كل هذه الحرائق التي حولت خضرة الأرض إلى سواد.

ماذا سيفعلون لرماد الحرائق، وهو يفترش كل شيء بما فيه أرواحهم اللائبة الباحثة عن خلاصها في لجة اليأس والإحباط القائمين فيها؟

منذ أن عرفوا إنهم قد هُزموا، وهم يتدبرون أمرهم بين شباك العنكبوت المقيم حولهم، حتى تسللت لزوجة نسيجه رويداً رويداً إلى دواخلهم، لم يعد للمتروكين من حلمٍ سوى حلم الانفلات من ربقة الوطن، لم يعد لهم مكان في هذا الوطن المتحول إلى خيوط عنكبوت.

حرائق الصدور يعلو ضجيجها ويخفت مع كل قذيفة مدفعية طائشة، مع كل طلعة طيران عمودي مستطلع، مع كل شجار بين نصيرين على كسرة خبز أو رشفة ماء.

وافي الواقف على مربع الصخرة المتفرعنة ما زال مزهواً إن العالم كله تحت قدميه، ما زال لا يجد هذا العالم الكائن كله أسفل غير عالم منفصل لا يعرفه ولا يريده، إحساس ولد في جسده دوراناً مخيفاً لأشياء كثيرة ليست كلها واضحة المعالم، أشياء تدور حول نفسها بثورات تعصف وتنسحب خلال الشرايين والأوردة لتستقر في مثانته، شعر بامتلاء رهيب في المثانة، أرخى حبل الشروال وأخرج عضوه وبال.

في البدء ضحك وهو يرى رشاش البول يشكل قوساً أصفر اللون نهايته الثانية تختفي بعيداً في تلافيف الأشجار والصخور في عمق الوادي، كأنه كان محتصراً ببرميل من ذلك السائل ذي الرائحة الحريفة. تطاول بوله ومع تطاول البول تحول ضحكه الصامت إلى ضحكٍ صاخب.

صار يضحك بقهقهة تشبه الصراخ، صار يصرخ بوجه العالم الراقد في الأسفل، العالم تحت قدمين أبول على العالم... أبول على الوطن، أبول عليكم كلكم، أبول على خوفكم، أبول على خنوعكم.

تصاعدت وتيرة الغضب في صوته وكأنه يشاجر أحدهم، لكنها همدت مع آخر قطرة بول تطايرت في الفضاء، نفذ بوله ونفذ معه غضبه، ظل يحرك عضوه

المنتصب بوجه العالم، يعتصره وكأنه يتوسله مزيداً من البول على العالم الذي يراه كله تحت قدميه، نفذ خزينه فأعاده شاداً عليه حبل الشروال.

جلس على مربع الصخرة تاركاً ساقيه تتأرجحان أسفلها، لكنه لما استعاد ما قاله قبل قليل شعر بخوف شديد على نفسه، لم يفهم ما الذي حصل له؟ أي شيء هذا الذي انفلت من داخله ولم يفلح بإعادته، أهو الجنون الذي قالوا عنه أنه مقيم في الإنسان مختوماً عليه بسدادة من نوع ما؟ هل رفع سدادته؟ هل انفلت لجامه؟

لم يعد يفهم شيئاً ورأسه مفرغ من أي تصميم، تنبه إلى جلسته على مربع الصخرة الصغير الذي بالكاد يسع جلوسه، شعر بالخوف من السقوط، صور له خوفه أن مجرد هبة ريح كافية لقذفه بعيداً في الهاوية، سأل نفسه: هل حقاً كنت مقبلاً على الانتحار؟

أنزل بندقيته من على كتفه بحركات متأنية ووضعها بجانبه، عليه الآن أن يطفئ خوفه، أخرج كيس تبغه ولف لفافته بأصابع مرتجفة، ومع الدخان الخارج من أنفه شعر ببعض التخفيف.

تلك الأشياء الدائرة في كيانه أخذت بالتراجع، فكر في النزول والاندماج مجدداً مع المجاميع التي قاطعها منذ بضعة أيام باختياره الانزواء بعيداً عنها.

لمح ظلاً بعيداً في ظهيرة الشمس يتسلق طريقهم الذي يستخدمونه للنزول إلى نبع (مه راني)، لم يبد له أنه أحد الأنصار المكلفين بجلب الماء، الوقت ما زال ظهراً، وهم يجلبون الماء في الليل.

إذن من يكون هذا الرجل الذي ينوء بجسده صعوداً وهو مسلح على ما يبدو؟ استخدم الناظور العسكري المعلق في رقبته، ركز النظر حتى عرفه،

إنه نجاتي، يا لهذا الذئب، أية شياطين قذفت به إلينا الآن؟ كيف واتته الجرأة وهو يسير في النهار مسلحاً بين حشود الجيش والفرسان، أسرع نازلاً من صخرته لاستقباله.

لقد اختفى نجاتي من حياتهم الأنصارية بعد أن تحول إلى كادر من كوادر العمل المدني داخل مدينة (الموصل)، لا يرونه إلا في أوقات صعوده الجبل، يظل في الجبل بضعة أيام ثم يعود، مؤكد أنه لا يعلم بملاذهم الجديد، إذن كيف استدل عليهم!!؟

هذا السؤال ظل معلقاً في رؤوس بعض الأنصار ومنهم وافي، لكنهم أهملوه وهم في لهفة استقبال رفيقهم القديم، هذا القادم من (الموصل) المدينة التي اتخذها ابن عم الرئيس الحاصل على صلاحيات الرئيس قاعدة لهجومه الشامل على التمرد والمتمردين.

ماذا بجعبة نجاتي مما يحصل هناك ومما يقال هناك؟ أعنده حلول من نوع ما؟ أليس هو عينهم وأذنهم داخل المدينة؟

يعرفونه منذ كان نصيراً في المفارز الجوالة سريع الحركة، سريع البديهة، سريع التقاط الإشارات المبثوثة هنا وهناك، مثلما هو بارد وبطيء ومتأن، هذا الجمع بين السرعة والتأني لا يملكه كثير من الأنصار، وهو إلى هذا وذاك له دراية بكل الطرق الواصلة إلى المدينة، إذن بإمكانه أن يجد لهم سبلاً وليس سبيلاً واحداً للخروج من شرنقة الحصار.

هذا ما استقر عليه حاتم العائد قبل بضعة أيام، راسماً لنفسه خطة متكاملة يُخّرِج بها أكبر عدد يقدر عليه من المتروكين، يكون نجاتي دليلهم وهدفهم هذه المرة جبل (سنجار) ومن ثم الحدود السورية، هو الآن قائد هذه المجموعة التي تُركت لمصيرها، يحدوه هاجس تصحيح ما حدث له في المرة السابقة، أن ينجح هذه المرة ويمسح الفشل والشعور بالهزيمة الذي تقمصه منذ عودته مع سيدو إلى (گارا).

لقد انسحب بعد أن أضاع أثر مجموعته دون أن يعرف من نجا ومن أُسر أو استسلم منها، باستثناء الشيء الوحيد الذي كان على يقين منه؛ أن الذي انتحر هو فؤاد، وهذا الشيء هو الذي ظل يحفر في قلبه ثقوباً سوداء من الألم، والندم كلما تذكر أنه هو لا غيره من أعاد فؤاد إلى مكمنه عند جدول الماء، بعد

أن كان صاعداً، هو المسؤول عن انتحاره، كان لفؤاد أن يصعد وكان له أن يلحقه بمسدسه، وينزع من على كتفه أزاره عندها يكون فؤاد قد حصل على خيار آخر غير الانتحار، كما استعجل حينها العودة إلى (گارا) من جديد، عله يلحق على سهراب ويمنعه من تنفيذ حركته على ذات الطريق الذي وجده لم يعد صالحاً، لكنه، صُدم بعد أن وجد أن سهراب وكل القيادة قد استعجلوا المغادرة، وأن التفسير الوحيد المعقول لعودته من جديد إلى (گارا)، هو الهزيمة؛ أنه هرب وترك مجموعته، ومنذ ذلك اليوم وهو يعيش انتكاسته.

صحيح هو مع نفسه لم يهرب، أو لم يكن هذا هاجسه، كان يفكر بإنقاذ آخرين سيستخدمون ذات الطريق الذي وجده مقطوعاً بالكمائن، وهو حتى لو عثر على مجموعته فإنه كان سيعيد اثنين منهم إلى (گارا). لكن، هل سيكون هذا التفسير هو التفسير الوحيد لدى الآخرين؟

ظل يجتر حزنه وتأنيبه لنفسه طيلة الوقت، لم يعد يرى في عيون السائلين عما حدث سوى ومضة الإدانة، هذا ما صار يتراءى له منذ أن عرف أنه وصل متأخراً على المجموعة التي أراد إنقاذها من المصير الذي وقع هو فيه.

أضاع مجموعته المنكوبة ولم يلحق على الأخرى، شيئان متعاكسان كان عليه الاختيار بينهما وهو قد فقدهما معاً، لكن، ما زاد الطين بلةً في حزن حاتم هو إصرار سيدو على القول لمن يسأله: نحن فقط من نجيا من المجموعة، والباقون بين قتيل وأسير ومستسلم.

رواية تلح على توسل بطولة لم تكن لهما، ما هذا الذي يهرف به هذا الـ (سيدو)، قال لنفسه وأراد تسفيه ما يرويه رفيقه، لكن هل سيعيد ما فقده؟.

لقد فقد فؤاد، كل شيء يمكن استعادته بطريقة أو بأخرى، لكن كيف يستعيد فؤاد؟ لم يعد يسمع في ظلام عزلته سوى أصوات قادمة من ألسنة فلان وفلان، فلانات كثيرة كان تداور فيما بينها ذات الشيء:

لقد هرب حاتم، فر بجلده باحثاً عن نجاته.

أصوات أخذت تنخر سريعاً في جدار الثقة التي كانت له بنفسه، حتى قرر اعتزال المجاميع والعزلة بنفسه، مكتفياً بمعلومة وحيدة يقدمها لمن يسأله:

- كل الذي أعرفه أن الشهيد الذي انتحر ولم يسّلم نفسه هو فؤاد. كما لم أشاهد أسرى ولا مستسلمين من أنصارنا.

وها هو نجاتي كأن القدر أرسله إليه، وطد عزمه على استعادة نفسه من نفسه، أن ينتشل هذه المجموعة المتروكة، وينفذ بهم إلى تلك الحدود البعيدة.

نجاتي كان جالساً الآن يشرب الماء على مهل، وهو محاط بعدد كبير من الأنصار، الكل يسأل ذات السؤال:

- شلون عرفت مكاننا؟

أجاب وهو يرتشف الماء من قمع الزمزمية بطريقته المتأنية:

- خلوني أجر نفس، مو قطعتوا حتى الهواء عني.

ضحك بعض الأنصار وهم يرون أنفسهم محيطين (نجاتي) مثل فريسة يريد كل منهم افتراسه لنفسه، رد حاتم الذي كان خارج الطوق، وقبل أن يبتعد عن الجمع:

- زين لعد اشبع هوا.

ملابسات رفقة الجبل تجعل للنصير مجسات غير تلك المعروفة، لذا ليس مستغرباً أن يعرف أحدهم ما يفكر به الآخر، بهذه المجسات عرف وافي أن حاتم قد نوى على تنظيم مجموعة معتمداً على ما سيقوله نجاتي، لذا لحقه وعلى مقربة من ملاذه البعيد عن التجمع الملتئم حول نجاتي، دخل معه في هواجسه مباشرة:

- أشعر أننا سنقع في فخ مغفلين.

- ماذا تقصد؟

- نجاتي

- قصدك...؟

- إي نعم.

ظل حاتم صامتاً يداور مع نفسه ما سمعه، تذكر أنه في تلك الأيام التي كان يتهرب بها من مهمة قيادة السرية، سأل مرة أبو منيب أن يضم لسريته نجاتي للاستفادة من معرفته بمدينة (الموصل)، وقتها رد أبو منيب:

- رفيق عندنا شكوك أمنية على سلوك نجاتي، لا تستعجل، ما زلنا غير متأكدين.

حينها رد وكأنه يريد رفع تلك الشكوك عن صديقه:

- لكنه ما زال هناك وأنتم تعتمدون عليه في شؤون البريد وغير البريد.

- اترك هذا الأمر للحزب، كما قلت لك ما زلنا غير متأكدين.

وهذا الأمر غير المتأكدين منه هو الذي جعل حاتماً فيما بعد مع أسبابه الأخرى، معلقاً لم يحسم أمره وللآن، من جهة يجد أن عملهم المقترح داخل المدن هو بأمس الحاجة إلى أمثال نجاتي، ومن جهة أخرى إن اختراقات أجهزة أمن النظام قد وصلت إلى العظم.

إن صح أنهم نجحوا بتجنيد هذا النصير الذي لم يُحسب يوماً أنه من الحواشي الرخوة، فإن هذا كارثة بحد ذاته، لا يوجد شيء من عملهم لا يعرفه نجاتي، كل ما قاموا به وسيقومون به كان وسيكون مرصوداً، لهذا السبب فقد العمل العسكري عنده طعم الحماس والاندفاع الأول، لم يعد يراه سوى عبث وسعي إلى موت مجاني.

سأل وافي:

- وأنت ما الذي يجعلك تشك به؟

أجاب هذا بصوت هامس كأنه يكلم نفسه:

- حدس، مجرد حدس.

هز حاتم رأسه بتعب وحيرة واضحة:

- لا أدري. لا أدري. أفكر آخذ مجموعة إلى الدشت.

رد وافي وكأنه كان ينتظر هذا:

- لكن، لا تعتمد على نجاتي في الطريق.

صار ينظر في عيني وافي طويلاً. ثم قال:

- سنتعاون أنا وأبو حمدة، لكن نجاتي سيكون تحت عيوننا.

صمت طويلاً، ثم أردف يسأل وافي:

- أنت شلون صرت؟

مد وافي ساقه، رأى حاتم من بين نسيج ساق السروال الممزق خطوط الدم المتجمد على ربلة الساق وحوله، سحب نفساً من الهواء بصوت مسموع وهو يتأفف، ثم قال:

- أعتقد أن عملنا كله كان مجازفات غير محسوبة، لن يغير من الأمر لو جازفنا هذه المرة.

من مهارات نجاتي المحببة للأنصار أنه حكواتي من الطراز الممتاز، باستطاعته أن يحول أي شيء مهما كان تافهاً وصغيراً إلى حكاية مدهشة وممتعة.

يحكي لهم الآن عن مفارقات الطريق الذي جاء عليه حتى وصلهم:

أكثر من ساعة وأنا أراقب الجنديين، جالسين على حافة الطريق الذي لا يوجد لي غيره حتى أعبر، سمعت كل قصصهما وعرفت من أي مدينة هما، عرفت عوائلهما وأصدقائهما والجبهات التي حاربا فيها، أشياء كثيرة كان يهذر بها الجنديان على مقربة مني، كانا منشغلين عن كل ما حولهما، لكن المشكلة أنهما على الطريق مباشرة وخلفهما قطع صخري فوقه سلاسل من الجنود على امتداد السلسلة الجبلية ومن الاتجاهين، ليس أمامي غير أن أسلم عليهما وأعبر، وفعلاً سويتها، تسللت ببطء حتى صرت أمامهم مباشرة، السلام عليكم، رفعا رأسيهما مذهولين، أحدهما رد السلام بتلقائية، والثاني ظل مذهولاً، كانت بندقيتي بيدي بوضع الرمي، قلت: آني شيوعي وهذا الجبل

ملظوم بالشيوعيين، إحنا نشوفكم ونكدر نبيدكم كلكم، بس ما سويناها لأنكم إخواننا، إحنا ما نقتل الجنود، إحنا ننتظركم بس شوكت تنسحبون، رد الذي كان مذهولاً من المفاجأة، والله يا أخي إحنا هم ما نعرف، الضابط يقرر، بس أهلاً وسهلاً بيك، آني أخوي شيوعي وياكم، بس ما أعرف وين... قلت لهم بعد أن تأكدت من إبعادهم عن أسلحتهم... أرجوكم بعد ما أروح وصلوا هذا الحكي للضابط، ومشيت دون أن ألتفت، صاح علي هذا اللي أخوه شيوعي انتظر شوية، رجعت، طلعلي قوطية لحم وصمون جيش، طبعاً هم صدقوا إحنا مطوقينهم، وآني كنت متأكد هم ما راح يخبرون الضابط لأنه سيعاقبهم، تركتهم وعبرت، والله يا رفاق هذوله الجنود مساكين، أغلبهم من الجنوب والفرات، خائفين منا مثل ما إحنا هسه خائفين منهم.

عبر بعض الأنصار عن إعجابه وضمر البعض الآخر شكوكاً بهذه الرواية، سأل أحد المشككين:

- نجاتي وين قوطية اللحم وصمون الجيش؟

مد هذا يده سريعاً إلى داخل حقيبته وأخرجها:

- هاي القوطية، وهاي الصمونة، أكلت منها شوية، ياالله اليوم تأكلون لحم.

رد عليه أحدهم بدردمة غاضبة:

- لحم... هم لحم.!!؟ مو اللحم شگ .... من الإسهال

(وافي) وهو يرى صمون الجيش، تحول حدسه إلى يقين؛ إنّ نجاتي مرسل لهم ليس من السماء بل من عدوهم، غمز بعينه لحاتم غير البعيد عنه، رد هذا بتدوير رأسه في الاتجاهات كمن يبحث عن شيء ليس على يقين من وجوده، ردد لنفسه، نجاتي لن يفعلها معنا، حتى وإن نجحوا بتدوير ولائه، لن يغدر بنا!!!

(٣٥)
حرائق مه راني

السؤال الذي ظل يئز في رؤوس الأنصار المتروكين مثل دبور شائه، هو: ما الذي جعل الجيش يتمهل إلى هذا الحد، ولم يحرق قاعدتهم وقرية عوائلهم كما أحرق كل شيء عداهما؟ ما هو السر؟ هل ثمة ما هو خافٍ بعد؟

الأمر الذي جعل هبوطهم إلى القاعدة وصعودهم منها، في واجبات جلب الماء وبعض الخضروات من المزرعة، يشبه ما يفعله صاحب بيت سكن العراء بجوار بيته، لعلمه أن البيت بين لحظة وأخرى سيحترق أو يُدمر فوق رأسه، يغشي بيته في الليل كلص ينتشل سريعاً أشياءه، ثم يولي الأدبار وعيونه تنظر إلى الخلف أكثر مما تنظر إلى الأمام.

القاعدة بحكم الساقطة منذ مدة طويلة، إن كان بعسكرة الجيش على مقربة منها عند المدخلين الواصلين إليها (مدخل آفوكي) و(مدخل آطوش)، أو لقرارهم الذي بات الجيش يعلمه؛ أنهم لن يقاتلوا، لم يعد ثمة ما يدافعون عنه.

اليوم ومنذ الصباح الباكر، تحول دبور السؤال إلى طائرات تهدر وهي تحوِّم فوق الشق الجبلي، بدأ الجنود تقدمهم صوب القاعدة، أرتال منهم قدمت من (گلي آفوكي) وأرتال أخرى هبطت من سلسلة صوصيا المقابلة لهم.

جلس الأنصار في مخابئهم الصخرية الحصينة المشرفة على المشهد، يراقبونه بصمت وبمشاعر يغلب عليها الحزن، الطائرات العمودية المتمهلة في طيرانها تخطف قبالتهم برماتها وطياريها واضحي القسمات والجنود على الأرض يتقدمون خلف الشاحنات والمدرعات التي غرز معظمها في تلك الوحلة

الفاصلة بين قرية العوائل وگلي آفوكي، حيث ثمة انهيار أرضي خلفته سيول (گارا) جعل من المستحيل على الآليات التقدم إلى أمام، تركوا آلياتهم وتقدموا سيراً على الأقدام، لم يكلفوا أنفسهم حتى الرمي العشوائي إلى الأمام أو إلى الأجناب.

لم يعد هناك ما يحذرونه، سار كل شيء ببطء وتمهل واضحين، توزع بضعة جنود يحملون جلكانات النفط على أطرف القرية الملتئمة على بعضها، رشوا البيوت بالنفط، والبيوت بأسلابها وهياكلها المصنوعة من خشب الجبل المتيبس بدخان مواقد الشتاء الثلجي لم تكن بحاجة إلى نفط لاحتراقها، تكفيها شرارة واحدة لتلتهم حرائق بعضها.

احترقت قرية عوائلهم وشهق هبابها إلى السماء، واصل الجنود سيرهم المتمهل إلى مدخل القاعدة، توقفوا في المساحة الوحيدة المستوية من هذه التضاريس المتعجرفة، إنها الساحة التي كانوا يلعبون بها الكرة الطائرة بشبكتها التي ما زالت الريح تأرجحها بين وتدين كانا لشجرتي اسبندار، بعد حين مشطوا أشجار الجوز العملاقة بوابل من نيران الأسلحة الخفيفة، لم ترد عليهم الأشجار.

على الجنود الاحتراس الآن ليس من المقاومة المتنحية بعيداً من اهتمامات الأنصار، بل من وعورة هذا الشق الجبلي الذي لم يترك للسائرين فيه سوى ممر واحد بعرض لا يتجاوز طول مسطرة، يمينه جدار الجبل المتعالي بصخوره الهائلة، ويساره مجرى الجدول المائي الخارج تواً من نبع (مه راني) المثلج والمتحول إلى نهير هادر بسبب شدة الانحدار.

لا طرق توصل إلى الغرف المتراكبة على بعضها، وعلى جانبي النهير البارد، سوى ما يمن به الممر الضيق من تفرعات هي الأخرى ضيقة أوجدتها أقدام الأنصار على مدى السنين الثمانية من عمر هذه القاعدة وهي تجوس الصخور.

على من يريد إحراق الغرف أن يبدأ عمله من آخر غرفة على المدخل الثاني للقاعدة، غرفة التنظيم المحلي التي كان يسكنها أبو منيب، ثم يتدرج بالغرف فرادى حتى يصل إلى (الغرفة المتروكة) في أول الگلي، الحرق العشوائي بلا تدبر

سيتسبب بحصار الحارقين بين الحرائق بسبب ضيق الممر الوحيد السائرين عليه والذي لا يحتمل أرتالهم.

وصلت الأنصار أخبار بطريقة البريد الهامس بين المجاميع المتقاربة؛ أن الجنود وصلوا كذلك إلى موقع الإسناد، وبدا هدفهم الواضح البحث عن مخابئ السلاح التي أودعها الأنصار أسلحتهم الثقيلة قبل الانسحاب.

قيل أن (عيسى الأحمر) الذي أخذ لقبه من احمرار وجهه المتورد حتى في أيام الجوع، كان يتقدم رتل الجنود اللاهثين صعوداً إلى ذلك الموقع المتخفي بين طيات تضاريس هذه السفوح الوعرة، لا أحد يستطيع الاستدلال عليه إلا من عاش فيه، لقد سلّم هذا النصير نفسه مع عدد آخر من الأنصار مع العوائل التي تقاسمتها الشاحنات العسكرية في ذلك اليوم الذي أسموه (يوم السبي).

الجيش يتقدم الآن وهو على معرفة أكيدة بكل شيء، (عيسى الأحمر) من الأنصار القدامى وهو على دراية بتفاصيل العمل الأنصاري بمجاليه المدني والعسكري، يعرف كل مخابئ الأنصار سواء التي هنا أو تلك التي هناك في الدشت.

ظل الأنصار يراقبون مشهد الجنود وهم يخرجون الأسلحة والأعتدة من مخابئها بين القطوع وتحت الصخور، لم يعد للأنصار منذ الآن ما يعولون عليه من مخابئ.

تصاعدت ألسنة اللهب والدخان من قرية العوائل ومن غرف القاعدة، وعلى عادة الدخان يتشكل في البدء من كتل منفردة تتصاعد متمهلة ثم تتقارب وتتجاذب أطراف بعضها حتى تشكل كتلة واحدة مهولة، تكون قادرة على حجب قرص الشمس لفترة قد تطول لحين أن تأخذ بيدها الريح إلى فضاءات أخرى بعيدة.

شم الأنصار روائح ذكرياتهم وأحلامهم التي أودعوها الغرف والزوايا وهي تحترق، أُحرقت الغرف التي كانت عامرة بدفء الرفقة والمصير المشترك.

(مه راني) بيتهم الجماعي، لعلها القاعدة الوحيدة التي ظلت صامدة طيلة ثمانية أعوام، لم يغادروها حتى بعد أنِ حُرثت القمم المشرفة عليها بالقذائف والقنابل حرثاً من قبل الجيش، وهو يستخدم مدافع الـ (١٠٥ ملم) النمساوية ذات القدرة على الرمي كما الرشاش.

بنوا مواضعهم في الثلج، وصل الثلج في ذلك الشتاء إلى نصف قامة الإنسان، دافعوا عنها كمن يدافع عن أرضه وعرضه، انشتلوا في القمم خلف الصخور يقتاتون على خمس حبات تمر وحبتين جوز لكل نصير.

(مه راني) في شعور كل نصير هي أكثر من مكان، هي جنة صغيرة مكتفية بذاتها ولذاتها، كائن حي يتنفس كما يتنفسون ويقاسمهم ما يجلبه تقلب المواسم، شهدت التحاق أنصار ووفاة أنصار واستشهاد أنصار، شهدت احتفالات كانت تتحول فيها سفوحها إلى مدرجات مسارح رومانية.

الآن أحسّوا بمدى ووحشية فجيعة الفلاحين الذين أحرقت بيوتهم التي كانت عامرة بأنفاسهم وأسرارهم الصغيرة والكبيرة... البيوت العامرة بذكريات ولادات الأبناء والبنات... كل شيء ذهب أدراج الهباب الدخاني. فقدوا بساتينهم، حيواناتهم، مؤونتهم، ثرواتهم الصغيرة والكبيرة.

فقدوا كل شيء لذنب وحيد أنهم من الجبل وإليه يعودون، الجبل المتحول في ذهنية من يقودون البلد إلى العدو والخطر الداهم، لا بد من إفراغه، حرقه، نثر رماده في الآفاق، الجبل لن يكون آمناً إلا وهو مفرغاً من الحياة.

بحرق (مه راني) يكون الجيش قد أتى على الفصل الأخير من جدول عمل سياسة الأرض المحروقة، الأرض محروقة بالتمام والكمال، لم يعد ثمة ريف للكرد، الريف الكردي بلا ريف.

انسحب الجنود عصراً إلى مواقعهم في (گلي آفوكي) تحت أنظار الأنصار، وانسحب الأنصار إلى أنفسهم، وهم يجترّون تفاصيل مشاهد الحرق التي أتت على آخر معقل من معاقل صمودهم الجبلي.

لقد أتت على المزرعة التي كانت تزودهم طيلة الأيام الماضية بأنواع خضارها وفاكهتها، لم يعد لهم من ملجأ إن طال البقاء سوى العودة إلى لعنة اللحم التي تسببت بهزال وهوان أجسادهم.

حاتم ونجاتي متنحيان عند إحدى الصخور الكبيرة يراقبان مشهد غروب الشمس في الأفق البعيد، الاتجاه الذي ظلت أبصار المتروكين تشخص إليه كل يوم، بعد أن يأسوا من خيارات الجبل ومجاميع الجبل التي تقاسمت الجهات ولم يعد أحد منهم بعد، عند ذلك الأفق البعيد ثمة حدود أخرى، قصدتها المجاميع كذلك، وها هو نجاتي يعرض ما عنده من تسهيلات وأفكار للوصول إلى هناك، لقد جاء من هناك، غير أن وسواس الشك الذي بدأ ينخر في قلب حاتم لم يترك له كوة ينفذ منها كلما قلب مع نفسه الاحتمالات القادمة فيما لو كان نجاتي حقاً مرسلاً من قبل المتراس الآخر.

لقد عرف هذا النصير منذ زمن بعيد، عرفه مقاتلاً غير هياب وعرفه إنساناً لا غنى عن صحبته في قفر الجبل وانسداد عالمه، له موهبته الخاصة في تأليف وحفظ النكات والقفشات المتفشية في حياتهم، لم يره مرة يشكو أو يتذمر، له قدرة هائلة على التكيف مع كل تقلبات الحياة التي مروا بها.، كان من القلائل الذين يعتمد على مشورتهم واستعدادهم الدائم لتنفيذ المهام مهما كانت الظروف التي تحيطهم، لكن، فيما لو كان حقاً مرسلاً لهم، ألم يكن بوسع عدوهم كذلك الوصول إلى مكانهم كما وصل هو؟ أهناك خطوة أخرى منتظرة؟ هل يستدرجهم إلى فخاخ مضمونة؟

لكن كان بإمكان نجاتي في أي وقت أن يكون دليلهم المضمون للقبض على الأنصار وهم نيام في ليالي الدشت، هل تنقصه معرفة محطاتهم وموائل استراحاتهم التي ينامون فيها حتى دون حراسات في تلك الكهوف الغائرة في الأرض في كنود (ختارة ودوغات)، وفي مغارات (حمبس)؟

كثيرة هي الأشياء التي كان بوسعه أن يفعلها ولم تحدث، إذن ما هو هدفه؟ أو هدف من جندوه!؟

- قبل قدومي استأجرت بيتاً كبيراً في منطقة أمينة من الموصل.

- ما أفكر به ليس البقاء في المدينة، أفكر كيف نصل إلى جبل (سنجار)؟

- أمّنت كذلك سيارة شحن تعمل أصلاً على نقل منتجات القرى القريبة من سنجار، سائقها يعرف طرقاً لا تمر عبر سيطرات الجيش.

- لكن هناك نهر لا نستطيع التحايل عليه وفي مدخله سيطرة محروسة.

- هذا سيكون عمل السائق الذي هو من جماعتنا.

- وهذا ما يقلقني.

قالها حاتم بصوت خفيض كأنه يهمس بها لنفسه، لكنه اتخذ قراره المبني على نجاتي الذي يعرفه وليس على نجاتي الذي يمكن أن يكونه، سيثق به، لم يحاول إعادة تقليب الأمر خوفاً عليه من الشكوك والوساوس، وفي أول الليل أخبر وافي وأبو حمدة ومسعود بالأمر:

- سآخذ مجموعة كبيرة ونذهب إلى الدشت، سيأتي نجاتي معنا.

لم يجد ممانعة من الثلاثة باستثناء هاجس الشك الذي ما زال ينغل في رأس وافي:

- لكن، دع نجاتي وعلى طول المسير في المقدمة.

رد حاتم:

- سأكون أنا خلفه دائماً.

تحمس أبو حمدة ومسعود على أن يكونا ضمن المجموعة، تشكلت المجموعة من خمسة عشر نصير، كان بعضهم لم يزل يعاني من مخلفات لعنة اللحم وبرد ليالي أيلول.

ظل وافي في سفوح كارة مع قرابة الخمسين نصيراً، وكان هو الأعلى رتبة بينهم بصفته آمر فصيل، بدا الأمر للمتروكين وكأن القياديين كلهم الآن قد هربوا تاركين جموع الأنصار المرضى بلا قيادة، وبلا خطة عمل واضحة.

شاع التذمر والتشكي بين الأنصار كالحطب المضاف إلى نار هي في الأصل متأججة، لم ينفع الوعد الذي قطعه حاتم على نفسه وللمتروكين؛ أنه سيرسل من ينتشلهم ما أن يتأكد من سلامة الطريق، وإمكانية الوصول إلى (سنجار).

سار نجاتي في المقدمة وقرروا أن يقطعوا الطريق بليلة واحدة تجنباً لفخاخ الاستراحات بين خطوط الجيش المتراتبة على الطرق والممرات المحتملة لمرورهم. تسللوا على مقربة من تجمعات الجنود المنتشرين على سطح (باني نصرة) وعلى سفوح قرية (حسنكة)، لكن ما أدهشهم أنهم لم يجدوا جنوداً ولا فرساناً على الطرق القديمة المعروفة لهم والواقعة بعد قرية حسنكة باتجاه سلسلة (حمبس)، وكأن الجيش قد أعاد انتشاره وفق خطة جديدة، لهذا وبعد قطعهم مسافات طويلة على طرق وعرة غير مطروقة، قرر حاتم على ضوء المعطيات الجديدة اعتماد طرقهم القديمة طالما أن الجيش قد انسحب منها.

اجتازوا (گلي الرمان) الذي كانوا يتوجسون منه في البدء، ووصلوا أخيراً عند الفجر إلى السلسلة الجبلية الصخرية التي تشكل آخر سلسلة جبال تفصل أرض الكرد عن سهل الموصل الفسيح، لكنه الموشوم ببعض الكنود والتلال التي تشكل وعلى مر الدهر مناطق سكن الكرد (الأيزيديين).

عند أول نبع ماء على مقدم السلسلة الصخرية، كان يستخدمه يوماً رعاة القرى القريبة، التقوا هناك بمجموعة من الأنصار بدو كأنهم بانتظارهم.

التقى حاتم بيعقوب وهو أحد أنصار مجموعته التي أضاعها في محاولته الأولى للعبور، عرف منه أن المجموعة بحثت عنه وعن سيدو كثيراً، مثلما أخبره أنه هو وسيدو كذلك بحثا عنهم، لكنه استعجل العودة إلى (گارا) لمنع سهراب من الحركة، كذلك أخبره إن الشهيد الذي قتل نفسه بنفسه كان فؤاد، كما توقع (حاتم) تماماً وأنهم هبطوا الگلي ليلاً ودفنوه في نفس المكان، وإن اثنين من المجموعة سلما نفسيهما للجيش هما صلاح وأبو لينا دون أن يأسرهما الجنود، إذن صلاح وأبو لينا هما اللذان شاهدهما سيدو كما قال، لكنهما اثنان وليس ثلاثة، وتلك الأصوات التي سمعاها داخل الگلي كانت لرفاقهم وليس للجنود.

أخذ حاتم يلعن نفسه في داخله، وشعر بكدر مضاف لما هو عليه أصلاً منذ الحادثة، وبدا له أن الحدث قد تحول إلى رواية تقال بأوجه وأشكال مختلفة، ما رواه هو للسائلين في (گارا) غير ما رواه سيدو الذي كان معه في ذات الحدث ولذات السائلين، وهو الآن غير ما يرويه يعقوب الذي عثروا عليه في الطريق. يعقوب لا غيره الذي هرب من الأيام الأولى لحصارهم طالباً النجاة بجلده، أحس بغصة وألم في صدره، وفهم أن ما حدث يحتمل كل وجوه السرد.

ما اعتقده شجاعة ونباهة وحرصاً منه على حياة رفاقه الآخرين، سيأخذه الآخرون من مجموعته والذين بحثوا عنه ولم يجدوه، ومؤكد لم يتعرفوا على الأسباب التي دفعته لاستعجال العودة إلى (گارا)، سيأخذونه على محمل الهزيمة والهروب والخوف، وكل المترادفات القبيحة التي يسعى النصير كي لا تلصق به.

شعر بغضب وبحنق على نفسه وعلى سيدو وعلى يعقوب وعلى أبو منيب وعلى سهراب وعلى منعم... وعلى كل ما يحيطه... وقبل أن يتمكن منه هذا الغضب ويسقطه على رأس يعقوب، استعجل الانسحاب من الموقف، طلب من يعقوب أن يوصل نجاتي إلى أبو منيب، وقال لنجاتي:

- طالما أبو منيب موجود، اعرض أفكارك عليه.

ثم استدار ليعقوب:

- بلّغ أبو منيب أننا سنكون عند گلي (باعذرة) مقر سريتنا القديم.

(٣٦)
كوة تُفتَح ولكن.

اتخذ أبو منيب وسهراب وباقي القيادة ومنذ وصولهم إلى هذه السلسلة أحد الكهوف الخاصة بالتنظيم المحلي مقراً لإدارة عملية تسريب الأنصار، سواء جنوباً إلى المدن المختلفة، أو غرباً إلى منطقة (سنجار) عند الحدود السورية.

يتوفر الكهف على عين ماء في داخله، ويعتبر من مخابئ الطوارئ للمجاميع العاملة في سهل الموصل، بدا بصيص من الضوء يتلامض في نفق حصارهم أوجده الثلاثي (فلاح، شيخ لقمان، حاجي).

نجح هؤلاء باستنفار ما تبقى لهم من علاقات محلية، وأمنوا اتصالاً مع محطة سنجار، كذلك أمنوا كميات من الملابس المدنية والأحذية التي سيستخدمها الأنصار في رحلة العبور عبر نقاط التفتيش الكثيرة الكائنة على الطرق بين المدن والنواحي والأقضية، ما جعل أبو منيب يقرر مع نفسه بتنظيم مجموعة يكون هو فيها، لكن ليس قبل أن يتأكد من سلامة الطريق بإرسال اثنين على الأقل تكون بحوزتهم وثائق من التي عملوها لهم في الجبل، للتعرف على مدى التشدد في تفتيش الوثائق، كذلك ليس قبل أن يكسب سهراب إلى جانبه في صراعه القادم مع الكادر المتربص بخطواته، في كل الأحوال أن يعبر الحدود ويترك خلفه أنصاره عالقين ليس بالعمل الذي يمكن الدفاع عنه بسهولة، لذا قرر أن يتداول الأمر مع سهراب أولاً قبل الاجتماع مع الآخرين.

لا أحد من الكادر يستطيع المزاودة على مكانة وسمعة سهراب العسكرية، هكذا فكر:

- رفيق وصلتني معلومات موثوقة... أن وجودنا هنا بات مكشوفاً.

رد سهراب وكان مشغولاً بأمرٍ آخر:

- وأنا وصلتني معلومات تقول إنهم عزلوا عوائل الأنصار عن بقية العوائل التي استجابت للعفو، وحجزوهم في قلعة (دهوك)، كذلك لم يسمحوا لأحد التدخل بشأنهم بما فيهم أمير الطائفة الأيزيدية.

وجد أبو منيب أن الحديث أخذ اتجاهاً مختلفاً لما أراده، قال:

- بس إحنا لازم بأسرع وقت نطلع، وجودنا هنا مكشوف.

بهت (سهراب) وكأنه فوجئ بشيء لم يكن يتوقعه، وهو أصلاً كان مستفزاً من الأخبار التي وصلته بشأن العوائل المحجوزة والتي بات مصيرها من الآن مجهولاً، الأمر الذي جعله طيلة النهار في خصام مع نفسه وبردود أفعال تنتمي للعراك، سأل بغضب:

- وين نطلع؟

- أنا وأنت نعبر إلى (سنجار) ومن هناك نعمل على تأمين عبور بقية المجاميع.

قرر سهراب الاصطدام مع (الحزب) هذه المرة، هكذا ينظر هو وكثير من الأنصار إلى المسؤول الأول أنه هو الحزب، قذف مفرداته المتزاحمة بصوت عال أقرب إلى التوبيخ:

- رفيق هذا ما يصير، أنت المسؤول هنا، يعني شراح يقول عليك الأنصار؟

قالها بطريقته وهو يلوك مفرداته المحتصرة في فمه، ليرد عليه أبو منيب محاولاً تطويق غضبه الذي لم يتوقعه:

- رفيق هدأ نفسك، آني قصدت...

لم يدعه يكمل:

- رفيق عوائلنا ما نعرف شراح يسوون بيهم، وأنت جاي تگلي نطلع ما نطلع، وين أطلع؟

فهم أبو منيب سبب غضب سهراب وانفجاره غير المتوقع بوجهه، قال وهو يحاول طمأنته:

- رفيق بالنسبة للعوائل المؤكد أنهم سيطلقونهم طالما هم استجابوا للعفو... يجوز كم يوم تحقيق وسؤال وجواب وبعدين يطلعونهم، بس لازم نشوف حل للأنصار.

ما زال سهراب مستفزاً:

- وأنت تريد تطلع وتتركهم.

شعر أبو منيب أنه بدل أن يكسب سهراب إلى جانبه في الاجتماع القادم للكادر كسبه خصماً جديداً، غير لهجته إلى نبرة رسمية:

- رفيق ما لازم ننساق لعواطفنا، لازم تعرف أن هذا الطريق يعتمد على توفر الوثائق لدى الأنصار، لأنهم سيعبرون من خلال نقاط تفتيش حكومية، والمشكلة ليس كل الأنصار لديهم وثائق.

- البركة بالحزب.

نغزة جديدة أحسها أبو منيب من هذا الذي اعتقده أسهل الجميع في التعامل معه، وبعد المراجعة مع الذات وجد نفسه أنه قد استعجل، لذا قرر أن يضع الكادر الذي معه أمام مسؤولياتهم، أن يجعلهم يقولون بأنفسهم ما يريد هو قوله، من جانبه قرر مع نفسه قرارين فاصلين:

الأول: ألا يعود إلى جبل (گارا) من جديد.

والثاني: ألا يفوت فرصة الوصول إلى الحدود السورية عبر محطة سنجار، لم تزل بيده خيوط أخرى كانت متروكة للطوارئ، لكن، قبل هذا عليه تخفيف عديد الأنصار الذين معه... كانت المسارات واضحة في رأسه وهو يبسط أمام

المجتمعين واقع الحال والحلول التي يراها، وبنبرة اقتحامية لم يتعودها في الحديث من قبل:

- تعرفون أن طريق الحدود السورية يحتاج إلى أنصار بحوزتهم وثائق تسمح لهم بالعبور عبر نقاط التفتيش، والأنصار الذين معنا هنا ليسوا كلهم لديهم هذه الوثائق.

سكت برهة ثم سأل منعم:

- رفيق منعم... هل أنت وأم يسرى جاهزان للعبور؟

رد هذا بما يشبه الهمس:

- لا.

أبو منيب يعرف الجواب مسبقاً، لأنه ينتظر وصول ابنته من بغداد بصحبة أحد أقاربه الذي أرسله إلى هناك لهذا الغرض، واصل:

- سوف لن نبقي إلا الذين بحوزتهم وثائق من الأنصار.

التفت إلى أبو سعيد وأبو فهد وكانوا جالسين إلى جنبه:

- أنتم يا رفاق... هل جاهزون لتجريب الطريق.

وضع مفردة (تجريب) بقصدية لأنه يعرف مسبقاً أنهما مترددان.

أجاب الاثنان بما لم يفهم منهما إن كانا موافقين أم لا، رد كل منهما بطريقة (أنا مستعد لكن...) ليأتي ما بعد الـ (كان) نافياً ما قبلها، كأنهما يضعان شروطاً مسبقة على حراس السيطرات الحكومية أن يكونوا نياماً أو متساهلين معهما، لأنهما غير مقتنعان بجودة الوثائق التي يحملونها، عندها حسم الأمر:

- سهراب وأبو آزاد وسيدو سيبقون هنا يتابعون قضية العوائل، إذن ليس عندنا من بحوزتهم وثائق الآن غير حاتم وأبو حمدة، لنسألهم عسى أن يوافقا ويفتحان لنا الطريق.

رد منعم:

- لكن، يمكن تدبير نماذج إجازة الجنود للأنصار الذين لا يتوفرون على وثائق، وهي ممكنة خصوصاً بعد أن صارت الوحدات العسكرية تعتمد على نماذج يمكن طباعتها بالآلة الكاتبة، وليس كما في السابق ينتظرون وصول النموذج الرسمي من مطابع وزارة الدفاع.

شعر أبو منيب وكأن منعم يتقصد مناكدته، هذا يعني أن بقاء الأنصار بقربه سيطول وهو الساعي إلى التخفيف، عاد إلى لهجته المتأنية الودية:

- طيب دعونا نجرب طريق العبور باستخدام الوثائق أولاً، وبعدين نشوف الإمكانيات اللي عندنا.

ما أن خرج إلى خارج الكهف حتى طلب من الحارس أن ينادي له يعقوب، وطلب من هذا أن يذهب على وجه السرعة ليأتي بحاتم وأبو حمدة من مكمنهم عند گلي باعذرة، في ذهنه أن خروج أحد الكوادر العسكرية أو أكثر قبله سيسهل عليه أمر تبرير خروجه لاحقاً.

اصطدم حاتم بأمر لم يكن بحسبانه، كان مشغولاً طيلة الوقت بكيفية تحقيق مشروعه الشخصي الذي لم تكن خيوطه واحتمالاته واضحة له تماماً، الوصول إلى مدينته (العمارة)، أما ماذا يفعل هناك؟ وأين يختفي؟ وكيف يعيش...؟ ظلت أسئلة يتداولها دون أن يهتدي إلى أجوبة ولو من باب الاحتمالات، وها هو يحصل الآن على خيار آخر، خيار فيه عقدة واحدة إن تجاوزها ونجا عندها تنتهي كل الأسئلة عن التوالد في رأسه.

الوصول إلى (سنجار) يعني الوصول إلى (سوريا)، يعني نسج حياة جديدة، صحيح لا شيء واضح الآن عن طبيعة وشكل تلك الحياة؛ إنما هي حياة أخرى ستُمنح له بدل هذه التي يجدها قد تهرأت، وهي على وشك الانطفاء في أية لحظة، هبطت المرارة إلى أمعائه وبات على وشك التقيؤ... حموضة لاسعة... وهواجس دوارة... بات يردد لنفسه... المهلة انتهت... الهزيمة تكاملت... لم يعد يعن له خيار الحدود السورية الآن غير شيء واحد؛ أن هزيمة مشروعهم الأنصاري قد اكتملت، أن هزيمته الشخصية قد اكتملت.

فشلت القضية التي ضحى وتخلى لأجلها عن كل شؤون حياته، تحقق للنظام ما يريده، نجح بإفراغ البلد من أية معارضة أو مقاومة، تذكر مقولة كان يرددها نجاتي حين يسأله: كيف الحال هناك؟يقصد مدينة الموصل، يجيبه بلغته المتهكمة:

- وداعتك رفيق... النظام لاعب بالشعب تك گول. !!

تذكر نجاتي. سأل:

- وين نجاتي...؟

كان السؤال مفاجئاً لأبي منيب، لأنهم يتحدثون عن شأنٍ آخر، أجابه على غير عادته بنبرة جزع:

- دزيناه بمهمة، انتهى كلشي. !!

- يعني...؟

رد بتهويمة من يديه وحركة من رأسه أن (انتهى الأمر)، ظل (حاتم) مشوشاً لم يفهم ما أراده من تهويمته... مهمة... انتهى كلشي... يعني شنو... أهذا معقول... هل قتلوه...؟

أراد فك الاشتباك بين تداعياته، سأل:

- رفيق مرة أخبرتني عن شكوك أمنية بخصوص نجاتي، هل ما زالت هذه الشكوك...؟

لم يجبه، لكنه استعجله:

- رفيق عليك أن تستعجل، ما عندكم وقت.

تذكر الآن الأنصار الذين وعدهم:

- لكني وعدت الأنصار في (گارا)، أن أعود إليهم أو أرسل من يجلبهم.

أجابه بسرعة وعلى غير عادته المتأنية:

- رفيق وين تجيبهم... أصلاً إحنا نريد نرجِّع الموجودين هنا، لن يبقى هنا بس اللي عندهم وثائق، لا تشغل بالك. سنجد حلاً للرفاق...

المرارة التي في فمه الآن ليس مصدرها التبغ الرديء الذي يدخنه، مرارة لزجة صارت تتسرب إلى شعاب رأسه معتمة على الأسئلة الكثيرة التي كانت تشغله، تفرغ رأسه من أي تصميم، حتى من حلمه القديم هو الآخر أحس بمرارته ولزوجته... بات كريهاً... لم يعد يحلم بمدينته الآن... ومن طبقات العتمة صار يرى أشباح وجوه وهياكل معتمة... شبح فؤاد يصرخ في رأسه بلازمته: لقد انتهت المهلة يا رفاق.

شبح وافي النحيف الطويل مثل شجرة عرتها العواصف ولم تترك منها غير جذع مدمى...

أشباح الأنصار المتعبين في تضاريس (گارا) القاسية...

تنبه إلى صوت أبي منيب وهو يستحثه للإسراع بالرحيل، ويشير إلى كيس بلاستيك على مقربة منه، أخذ الكيس وفتحه، وجد فيه بنطالاً أسود وقميص أبيض، وحذاءً أسود مع آلة حلاقة من النوع البلاستيكي التي تستعمل لمرة واحدة، كلها جديدة لم تزل ماركاتها وأسعارها معلقة فيها.

قصد مع أبي حمدة كهفاً آخر يقع على مقربة من (قرية دوغات) في عمق سهل الموصل، وصلاه قريب الفجر، التقيا هناك بفلاح الذي عليه توصيلهم والعودة مع السائق، كانت في الكهف عين ماء كبريتية، الأمر الذي لم يساعدهما على تحقيق رغبة دفينة في الاستحمام، رفض ماء الكبريت وبعناد إزالة طبقات الأوساخ المتراكمة على جلودهم التي عمرها بعمر حصارهم، حلقوا لحاهم، وإذ لم تكن هناك مرآة صار كلٌّ مرآة للآخر، ارتدوا ملابسهم المدنية مع الأحذية الضيقة، وتهيأوا لانتظار عودة حاجي مع سائق السيارة التي ستنتظرهم على الشارع الرئيسي.

وجاءت المفاجأة الأولى مع الموعد؛ وصل السائق بمفرده دون حاجي:

سأل حاتم:

- وين حاجي؟

أجاب هذا وهو يبتسم:

- سلَّم نفسه. !!

الذي أرسل لهم السائق على الموعد المتفق عليه، سلّم نفسه، ماذا يعني هذا...؟ انتكس أبو حمدة وقرر النكوص والتخلي تماماً عن خيار العبور والعودة إلى جبل (گارا).

- لم أعد أثق بأحد بعد.

أوقفه حاتم:

- انتظر شوية.

تدخل السائق، وكان شاباً صغيراً لم تشمله الخدمة العسكرية بعد:

- حاجي عندي في البيت، جلبت له أبوه وأمه بناءً على طلبه، وهم أقنعوه بالدموع والوعود بالتسليم، لكن لا تخافوا منه لأنه ما زال في بيتي.

سأل حاتم:

- جاوبني بالضبط... سلّم نفسه لو بعده؟

-لا، لكن سيسلم نفسه غداً.

انقلب إلى أبي حمدة وسحبه من كمه إلى مكان بعيد عن السائق وفلاح:

- صحيح حاجي يعرف كل شيء وصحيح من الممكن ألا يصمد ويفشي بما يعرفه عنا، لكني مقتنع أنه لن يفعلها هذه الليلة، لذا علينا الاستعجال.

سأل أبو حمدة:

- زين والسائق؟

رد حاتم:

- أعرف هذا الشاب معرفة تجعلني أثق به.

حاتم نفسه لم يعد يعرف بواعث هذه القناعات القاطعة بنزاهة هذا وذاك، لقد تعرف على السائق من خلال حاجي، كانت أخباره طيبة على الدوام، قدم لهم مساعدات كثيرة وجازف بنفسه أكثر من مرة... لعله ينطلق من ثقته بحاجي

الذي خبره طيلة سنين الرفقة... ولعلها الحالة النفسية غير السوية التي وجد نفسه في دوامتها منذ استشهاد فؤاد وزادها لقاؤه بأبي منيب قتامة، التحق فلاح بالاثنين المتجادلين بعيداً عن السائق وكأنه عرف عمن يتحدثان، قال دون مقدمات:

- آني أثق بهذا الشاب، أعرف عائلته من زمان.

قصد السائق الذي ما زال يبتسم كلما تمعن في هيئاتهم التي بدت غريبة عليه، لا تنتمي لأي موديل متعارف عليه داخل المدينة، خمّن هو الآخر أنهم يتحدثون عنه، لذا اقترب منهم وتحولت ابتساماته الخفيفة إلى ضحك صريح الآن، قال من بين ضحكه:

- يعني على الأقل كنتم تغسلون رقابكم، أو بلا هذا الزي الموحد.

نظر أحدهم إلى الآخر وكأنهم الآن يكتشفون ما وصل إليه مظهرهم الخارجي؛ كانت لحاهم غير محلوقة تماماً، لم تزل تعلِّم خدودهم بقع شعر متفشية هنا وهناك، كذلك ولأن القمصان كانت بيضاء جديدة ونظيفة، أظهرت وبسهولة ما تحتها من أوساخ وكأن كل منهم يرتدي تحت القميص (بلوزة) بلون السخام وذات رقبة طويلة، كمّا كان يرتدون بنفس البنطال الأسود والقميص الأبيض ونفس الحذاء الأسود، كما قال السائق: زي موحد.

شاركوا السائق الضحك على أنفسهم هذه المرة، رد حاتم:

- وهو وين الماء؟

وافق أبو حمدة على مضض، وكأن التلقائية التي تعامل بها معهم السائق قد كشفت له عالمه الداخلي الذي يوحي بالثقة أو هي ثقة رفيقيه حاتم وفلاح به.

تحرك الثلاثة يحدوهم هاجس موحد مثل ثيابهم، الهاجس الذي يسبق في العادة اقتحام موقع عسكري كلٌّ من المهاجمين يتمنى أن يكون حراسه نياماً.

في كل الأحوال الفشل والنجاح في حالتهم تتحكم بهما أشياء بعيدة عن تخطيطهم أو إرادتهم، رافقوا السائق الذي لم يقل عنهم هوساً بالمغامرة،

بملابسهم الجديدة التي لم يعتادوها بعد، وبالأحذية التي ستأكل منهم لاحقاً طبقات من جلد القدمين، وبأحاسيس خوف لابد بين طبقات الكلام الذي تبادلوه مع السائق ومع أنفسهم، وكان نوع من مفردات صوتية أشبه بمهدئات يتناولها أحدهم كلما ضغط عليه من الداخل؛ ذلك الخوف اللابد من الكيلومترات القادمة من الطريق، نجوا من فخاخ ثلاث سيطرات كانت على الطريق قبل دخول المدينة لم يستوقفونهم، وما أن وصلوا المدينة وشموا روائحها وشاهدوا حياتها لأول مرة بعد سنين طويلة في عراء بدائي؛ هم والجبل وحيوانات الجبل، سال منهم اللعاب على روائح المطاعم التي بدت تهب عليهم.

السائق وكأنه شعر بما ينتابهم من رغائب، قرر أن يحقق لهم هذه الرغبة في تناول الكباب في مطعم كبير من مطاعم مدينة الموصل، وافقوا على الفكرة كذلك منساقين لأريحية وثقة السائق بنفسه، كان المطعم مزدحماً بالجنود الملسوعين بهاجس الإجازة والعودة إلى بيوتهم الواقعة كلها جنوباً، ولعلهم نفس الجنود الذين كانوا يحاصرونهم في الجبل.

لم تجذب هيئاتهم الغريبة انتباه أحد ربما بسبب زحمة المطعم، باستثناء النادل الذي دقق قليلاً في هيئاتهم، قبل أن يذهب عائداً بطلبيتهم من الكباب الذي فغمت رائحته أنوفهم واستوطنت أجسادهم قبل الدخول إلى المطعم، أبو حمدة يتطلع بدهشة في عدد الجنود في المطعم، لمحه حاتم وسأله ساخراً:

- أبو حمدة...هذول الجنود اللي كنا معولين على أسئلتهم اللي تسقط النظام.أجابه أبو حمدة:

- ليش هو النظام خلاهم يتنفسون... حتى يسألون...؟

نجوا من فخ المطعم رغم ارتياب النادل بهيئاتهم وتجاوزوا عدداً آخر من السيطرات العسكرية على طريق سنجار، لم يوقفهم أحد، لكنهم وقعوا في السيطرة الأخيرة المنصوبة على مفرق طريقين أحدهما يؤدي إلى (سنجار)

المدينة، والثاني يذهب إلى المجمعات الحدودية المسكونة من قبل الطائفة الأيزيدية والتي كانت هي وجهتهم.

كان الجندي الشاب المسلح بمسدس رابض على خصره والملحوق بجندي آخر يضع الرشاشة على كتفه، مرتاباً بهم وهو يعيد عليهم ذات الأسئلة، وهم يعيدون ذات الأجوبة التي تفسر وجود ثلاثة غرباء في هذا المكان النائي من البلد.

أحدهم مهندس أبو حمدة هكذا تقول وثيقته المزورة، وطالبان مزوران تقول وثائقهما أنهما من طلبة جامعة الموصل، والثلاثة لا يعرف أحدهما الآخر، وسائق شاب ادعى أنه يعمل على (باب الله) في كراج الموصل، وصعد هؤلاء الأفندية معه.

كان الوقت منتصف الليل، والجندي مشتت بين نعاسه الذي أوقظه وصول السيارة، وفعلين عليه إنجاز أحدهما فوراً، إنزالهم من السيارة وحجزهم في نقطة السيطرة لحين وصول سيارة تنقلهم إلى مقر وحدته العسكرية، أو مصادرة هوياتهم والطلب منهم أن يعودوا في الغد لأخذها منه عندها سيكون معه عنصر استخبارات يتحقق منهم ومن نواياهم، بعد طول مداولة بين الخيارين ارتكن الجندي إلى الخيار الثاني. لكنه لم يتوان عن تهديدهم:

- ترى الحدود ملزومة. !!

قالها بطريقة مواربة تفيد أنه عرف كل شيء لكن مع هذا هو يطلقهم، كثيرة هي الأشياء غير المعقولة التي لم تجد في رؤوسهم فسحة للتحليل والاستنتاج، لكنهم وبعد وصولهم إلى بيت أبي شامل، الذي يقع في وسط إحدى المجمعات الحدودية، تأكدوا إن خيار الحدود السورية عبر هذا الطريق قد احترق.

(٣٧)
مكابدات الوعل العاشق

جيرة الحيوانات البرية تستجلب للبشر إضافة إلى الحذر والتربص لإيقاع الجار بجاره نوعاً من المؤاخاة كذلك، ها هو حسام الصغير وبعد أن حسم ملكيته لمغارة الدب معتمداً تقنية النار التي يتركها مشتعلة طيلة الوقت في باب المغارة، يجد نفسه متلبساً بشعور جديد لم يتخيل أنه سيألفه؛ شعور أن يضع نفسه مكان الآخر، ومن ثم مراقبة نفسه وسلوكه من على ذلك البعد.

كانوا في البدء أربعة دببة؛ كبير وثلاثة صغار، هوّموا طيلة الأيام الماضية بجوار المغارة إنها بيتهم الشتوي، حتى تلاقت عينا كبير الدببة ولعله الأم، بعيني حسام وجهاً لوجه وكانت المسافة قريبة، حسام مصوباً بندقيته، والآخر مصوباً عينيه الغاضبتين.

لدقائق متطاولة بطيئة تسحل بنفسها سحلاً، ظلت المسافة بين الطرفين محروثة بالترقب وانتظار ما يفعله أحدهما، لم يطلق حسام النار، والآخر لم يجتز حد الصخرة الواقف عليها، كانت عملية تفاوض خيضت بأقدم لغة عرفها الكائن الحي، بين المالك والغازي.

بعد حين تمخضت تلك العملية التفاوضية الصامتة، عن انسحاب الأم ملحوقة بصغارها، أركن حسام بندقيته على الصخرة التي كان يتخذها متراساً، وسحب له نفساً عميقاً مستبدلاً كتلة الهواء الفاسد التي حاصرها الخوف في صدره بهواء نظيف، شعر أنه حصل على بضعة أيام مستقطعة، عقد استئجار محدود عليه ألا يتجاوز حدوده، عليه أن يفهم كذلك أن لصبر الحيوان حدوداً.

عند المساء وبينما كان مستأمناً بعزلته يراقب بناظوره العسكري حيرة أشباهه الموزعين أسفل السفح، وما يفعله الجنود وهم يحرقون بيوت قرية العوائل وغرف قاعدة (مه راني)، سمع من جديد عربدة وصراخ الدببة.

كان الثلاثة الصغار فقط دون أمهم يتقافزون على مقربة من صخرته، لعل حداثة سنهم لم تمنحهم بعد سجية الحذر من البشر، أو أنهم استأمنوا بنود اتفاق الكبار، ظلوا يلاعبون بعضهم بمرح لاهين عما يحدث حولهم من أهوال الحرق الذي طال بيوت البشر.

سدد من جديد فوهة بندقيته إلى حيث الصغار ورأسه يردد: ماذا حدث؟ لم يمض على اتفاقنا سوى ساعات؟ وبعد أن تأكد أن رصاصته ذاهبة لا محال إلى رأس ذلك المشاكس بين الدببة الثلاثة والذي كان أكثرهم جرأة بالاقتراب من صخرته، عدل عن نية القتل وقرر الانتظار.

مرة أخرى يدخل طلاسم لغة العيون، كانت عينا الصغير مرحتين هذه المرة، وخاليتين من الغضب والتوعد الذي كان في عيني الأم عند الصباح، مسك حجراً صغيراً ورماه على مقربة منه لإخافته، لم يخف هذا، بل تقدم أكثر باتجاهه وهو يلوي رأسه بين الحين والآخر إلى حيث أخويه، حتى لم يعد يفصله عن متراس حسام سوى بضعة أمتار، عينا الصغير لا تشيعان الخصومة بل الاستبشار، كأنه ينتظر شيئاً من هذا الكائن البشري المسلح بآلة الموت.

فهم حسام حاجة الدب الصغير بحث بعينيه حتى اصطدم بقشور البطيخ الذي جلبه معه في طريقه وهو يمر على مزرعة المقر، تناول قشراً طويلاً ورماه إلى الصغير، بثت عيناه إشعاعات جديدة، أكل الصغير القشر، رمى قشراً آخر إلى أخويه، فاقتربا كذلك وأكلا.

تأكد حسام أن الحصار شامل، حتى الحيوانات جائعة، ومنذ ذلك المساء صار يشارك الصغار الثلاثة ما حصل عليه من مزرعة المقر قبل حرقها ومن غزواته على المؤونة المتخفية في تضاريس الجبل، والتي كانت لعوائل المنطقة قبل استسلامها، تزدرد الدببة الثلاثة ما يرميه لها عن بعد، ولا تقترب من باب

المغارة المحروسة بالنار، بهذا يكون كمن استبدل رحيل الصبيتين بثلاثة دببة.

انحدار السفح الشديد وصخوره الملساء هو الذي يمنح الحصانة لهذا الوكر الحيواني، هو وحيد الآن في المغارة يتجاذبه ذات الفعلين المتعاكسين وبذات الحمية داخل-خارج، أن يرحل عبر الدروب التي خبرها وحيداً إلى الحدود وهناك يدخل في نسيان كل ما له علاقة بالداخل، أو يواصل انتظار ما تفصح عنه الأيام القادمة ليعود إلى مواصلة مشروعه العشقي الذي قطعه.

لقد أوصل الصبيتين إلى أخته الساكنة في مدينة (ألقوش)، سلمهما هناك وكأنه يسلمها لقية عثر عليها في الجبل:

- تحافظين عليهما لحين عودتي.

غير أن أخته التي كانت على ما يبدو عليمة بوعود من يساكنون حيوانات الجبل، لا يفون دائماً بوعودهم، مثلما هي عليمة بشؤون وشجون بيتها المرصود منذ زمن بعيد من قبل عيون الحكومة المتفشية في المدينة، قررت أن تفي بوعدها بطريقتها، بعد أن علمت من الفتاتين أن لهما أقارب في مدينة الموصل، طلبت من زوجها القيام بمهمة الاستطلاع والتفاوض هناك، مرت أيام حتى تأكدا من استعداد أولئك الأقارب والوعد الذي قطعه صاحب البيت:

- على جثتي من يريد الوصول لهن، بنات (جاويش) نضعهن في أعيننا.

بعد خمسة أيام على وحدته الكهفية المزروعة بغشيان الدببة الصغار مرتين في اليوم ليحصلوا على تموينهم، مل الانتظار، وفي لحظة فالتة تمرد على انتظاره وقرر الإقدام على فعلٍ جديد، توصل إليه معتمداً ذات التقنية الجديدة التي تعلمها في عزلته؛ أن يضع نفسه مكان الآخر.

قرر أن يكفر عن ذنبه الذي يشعر أن رفاقه المنتشرين هناك بين الصخور إلى الأسفل يتداولونه كذنب عظيم، مثلما شعر أن حيرة أولئك المتروكين بلا حول ولا قوة هي الذنب العظيم، قرر أن ينقذهم؛ أن يأخذ بيدهم إلى حيث الحدود التي عرف مزاغلها ومن ثم العودة ليواصل انتظاره هنا.

(الكفخة) التي هي ضربة كف على الرقبة، ليست في عِرفهم من جنس العراك، بل هي أقرب إلى المزاح، إنما الثقيل، نوع جديد من مزاح يتماشى مع سجية العنف التي هم فيها، ضربة كف من الخلف تضع المضروب في خيارين إما ردها، أو الهروب من صاحبها، يتحكم في الفعلين ماذا فعل المضروب؟ وكانت هذه وسيلة يلجأ إليها بعضهم لتفريغ الغضب والاحتصار الذي يمور في دواخلهم، إن بفعل العزلة أو لأسباب كثيرة لا يعدمونها في حياة الجبال وانسداد الدروب، يظل العنف تعبيراً ملائماً لكثير من المشاعر، بهذا المزاح العنيف استقبل حمدان ووافي حسام الصغير، وكانا أول اثنين وصل عندهما.

- السلام عليكم...

رفع الاثنان رأسيهما وكأنهما يستقبلان كائناً هبط عليهما من السماء، لم يتعرفا على هذا الكائن البدائي الذي كان قبل عشرة أيام اسمه بينهم حسومي الصغير، الفتى الصغير المحبوب من الجميع... أمامهم الآن رجل بشوارب ولحية شعثاء، وبملابس معلمة ببقايا براز حيوانات، وبعيون محمرة ووجه متسخ بطبقات كثيفة، احتاجا إلى برهة من التمعن والتذكر، لينطقا معاً وبلا اتفاق:

- حسووووميي. !!!؟

ضحك وأراد الجلوس قربهما، لكن حمدان نتره بصوت قوي:

- قف مكانك.

ثم استدار إلى وافي:

- شتگول...؟

رد هذا:

- والله وصل بوقته.

طلب حمدان من حسام:

- خليك واكف ودير وجهك للجبل.

ضحك هذا ولعله توقع ما ينتظره لكنه امتثل للأمر، وما هي إلا لحظة حتى وصلته (كفخة) شديدة على علبائه، ألحقها وافي بكفخة أخرى وهكذا صارا يتناوبان عليه، وهو حتى لم يحم نفسه، ظل يصرخ ويهدد فقط لكنه ظل واقفاً فاتحاً علباءه للضاربين، كأنه كان بحاجة لهذا العقاب، ولما شعر بالاكتفاء نجح في الانفلات منهما وهرب، لحقه وافي هبط المنحدر إلى حيث حيدر كاميرا وعواد ورزوقي، لاحقه صياح وافي وهو يركض خلفه، ينادي الآخرين:

- رفاق كل واحد يأخذ حقه من هذا الزنديق.

وعلى غير توقع؛ صرخ رزوقي من مكانه:

- رفاق كافي سخافات، هسه وقت مزاح، تعال حسومي، أنت الله جابك.

الغريب أن الشعور الوحيد الذي امتلأ به كيان حسومي بعد كل هذا الضرب هو الراحة، لم يزعل من رفاقه بل على العكس كان ممتناً لهم وكأنهم فرغوا من داخله كدساً كبيراً من الشعور بالذنب كان يثقله. أحس بهدوء وارتخاء لم يذقهما منذ الفجر الذي أقدم فيه على عملية الخطف، كان ينتظر نوعاً من عقاب إن لم يفعله أحدهم سيفعله هو بنفسه، وها هو قد حصل عليه.

رزوقي الواصل تواً من الدشت، والمحمّل بأخبار ليست كلها سارّة، وجد في وصول حسام الصغير دفعة مضافة، لتحقيق مشروعه للنفاذ بكل المتروكين إلى الحدود التركية، إذ بعد أيام من انقطاع أخبار الثلاثي فلاح، حاتم، أبو حمدة، وصلت رسالة شفوية من أبي شامل مسؤول محطة سنجار، تفيد أن الثلاثة بخير، فقط صودرت وثائقهم في آخر سيطرة عند مدخل مدينة (سنجار)، وبالتالي من الصعب على فلاح العودة من جديد إلى الجبل، الثلاثة الآن في جبل سنجار، وهو يعمل على تأمين صلة مع محطة سوريا لتوصيلهم إلى هناك، قال سهراب بعد سماع هذا الخبر:

- الطريق احترق.

أما أبو منيب فلم يكن بهذا التشاؤم، لكنه فقط كان مستعجلاً على إعادة الأنصار إلى (گارا)، وهذا الخبر سيجعل حتى الذين عندهم وثائق يحسبون حساباً مختلفاً لرحلة الحدود السورية، قال وهو يخاطب سهراب:

- لا تستعجل.

رد هذا بانفعاله المعهود:

- ماكو أمامنا الآن غير نهر دجلة، تكدر تشتري زوارق؟

- إذا كان على الشراء، عندنا ما نشتري به أسطول زوارق، بس نحتاج ركائز حزبية نشطة وموثوقة.

قصد حزامي النقود التي كان أحدها بعهدته، وثانية بعهدة أبي فهد، لكن، خلال الأيام التي قضاها على مشارف (الدشت)، تيقن أن عموم التنظيمات والركائز المتبقية لهم في الدشت وفي مدينة الموصل، كلها خاملة وضعيفة وغير قادرة على تحقيق مشروع بهذه الخطورة، الأمر الذي كان يدفعه دفعاً لتحقيق مشروعه الخاص، والذي لا يتعدى استنفار ما عنده من علاقات حزبية كانت موضوعة تحت بند (طوارئ)، وإنفاذ من يمكن إنفاذه إلى الحدود السورية، وهذا الاحتمال سيكون مقتصراً على عدد قليل هو على رأسهم. لذا أعاد من جديد الطلب من سهراب أن يعيد باقي الأنصار إلى (گارا)، رغم أن سهراب الآن لم يكن بحاجة إلى من يستحثه على إعادة الأنصار، لقد قفل على قناعة تقول باستحالة العبور إلى الحدود السورية سواء بوثائق أو بدونها، خصوصاً بعد اكتشاف هوية الثلاثة الذين صودرت وثائقهم من قبل أجهزة الاستخبارات، إذن ووفق قناعته الجديدة، لا مفر من إعادة الجميع إلى الجبل.

بعد أيام استخدم أبو منيب علاقات الطوارئ ونجح بالعبور ووصل إلى سوريا ليلحقه منعم وزوجته وأبو سعيد فيما بعد، بعد هذا التطور المفاجئ، استعجل سهراب بإعادة الأنصار إلى الجبل على أن يبقى هو يتسقط أخبار العوائل مع عدد من أصحاب العوائل ومنهم سيدو، خصوصاً والقلق بدأ

بالتزايد على مصير تلك العوائل بنسائها وأطفالها، بدا مصيرها غامضاً بعد أن نقلوهم من قلعة دهوك، ولا أحد يعرف شيئاً عن الجهة التي نقلوهم إليها، التقى برزوقي وبمسعود، وطلب منهم سحب القوة المتبقية إلى (گارا) ومن هناك بذل محاولات للوصول إلى الحدود التركية.

قرر رزوقي حال وصوله تقسيم المتروكين على ثلاث مجاميع، على رأس كل مجموعة دليل.

اختار منار الذي رافق حسام في عودته إلى (گارا) على رأس إحداها وكانت قدرة هذا على الدلالة أضعف بكثير من حسام، أما حسام وقد وصل فسيكون هو على رأس المجموعة الأولى، والمجموعتين الأخريتين ستكونان بعهدة اثنين من الأنصار الواصلين تواً من الحدود التركية، أرسلهما آزاد ئاميدي لاصطحاب المحاصرين في (گارا)، وكانوا يحملون أخباراً جيدة حول انفتاح بعض الطرق والمعابر باتجاه الحدود، قرر أن تسير المجاميع متتالية تفصل بينهم فواصل زمنية.

ظلت الأخبار التي حملها رزوقي محبطة وتنخر في نفوس المتروكين حتى وهم يتوجهون إلى الحدود، وهذا حتى بدون تلك الأخبار مستفز من أشياء كثيرة ويسيّره حدس قديم لا يريد حتى أن يبحث له عن شواهد وأدلة، حدس يجعل كل ما يحصل الآن كأنه قد رآه سابقاً مجسداً أمام عينيه، وهو لم يفعل سوى انتظار حصوله، لذا وما أن يسأله أحدهم حتى يصدمه بمعلومة تشبه اللطمة على الوجه، إذ يبادره بذات الجواب:

- رفيق السمكة من رأسها خايسة.

سأله وافي:

- شنو أخبار نجاتي؟

- اختفى.

سأل هذا مرة أخرى:

- يعني شنو؟

- يعني اختفى.

في الواقع مصير نجاتي ظل وإلى وقت طويل معلقاً بين احتمالين: أنه قد قُتل بيد الأنصار في اليوم الذي وصل إلى كهف قيادة الفوج... أو هو قُتل بيد الاستخبارات داخل الموصل، في كل الأحوال هو لم يعد موجوداً.

- ليش ما رجع أبو منيب؟

- هرب.

- شنو؟

يفتح كفه ويرفعه إلى الأعلى، وكأنه يطلق سراح شيء كان محتجزاً في كفه، ثم يقول بذات الزفرة المنخرية:

- هرب. يعني هرب.

- ليش ما رجع سهراب؟

- يدور على عائلته.

- شنو الأخبار رزوقي؟

سألته وضحة، وربما لأنها امرأة أراد تلطيف إجابته بشيء من رزانة محاولاً طمأنتها:

- رفيقة الجيش بدأ ينسحب شوية شوية إلى القرى والمواقع القديمة، والممرات كلها تقريباً مفتوحة الآن، رح نوصل الحدود بسهولة.

الأنصار ورغم امتعاض كثيرين منهم من وسائل (رزوقي) في التعبير عن نفسه وأفكاره، لكنهم يحبونه ويثقون به، وهم يجدونه الآن قادراً على توصيلهم إلى الحدود، رغم أنه هو نفسه غير واثق من مثل هذه الإمكانية التي وضعها (سهراب) برقبته:

- أنت ومسعود تقودان ما تبقى من الأنصار وتتوجهون للحدود ومن هناك

إلى (خواكورك)، تترك أمر التسليم للأتراك، أو الانسحاب إلى (خواكورك) لقرار الأنصار، لكن المهم توصل هذه الرسالة إلى سكرتير الحزب.

أعطاه لفافة ورق صغيرة ملفوفة بالشريط اللاصق الشفاف المعتمد في مراسلاتهم، وبحدسه الذي يعتقد أنه لم يخنه يوماً، قال:

- رفيق سهراب أنت تريد تخبر الحزب أن أبو منيب هرب، بس الحزب ما رح يصدقك...!!

ضحك سهراب، كان مضمون الرسالة يدور حول هذا الأمر بالضبط، لكنها كانت مشفوعة كذلك باقتراح موجه إلى قيادة الحزب؛ يفيد أنه سيبقى في الدشت، ويحاول أن يبدأ من جديد على وتيرة المحاولات الأولى قبل ثمان سنين، حين صعد وعدد قليل من الحزبيين إلى الجبل وبدون أسلحة، وفي نهاية الرسالة يطلب الدعم والمراسلة.

في الواقع لم يبق لسهراب ما يخسره بعد فقدان كل عائلته سوى إعادة الكرة من جديد، قفزة واسعة باتجاه الخلف، ثمان سنين للوراء.

رزوقي هو الآخر وعلى عكس أغلب رفاقه كان يشعر بحماس واندفاع الأيام الأولى لحربهم، هو الآخر أسقط من زمنه ثمان سنين، ويفكر بالعودة من جديد إلى الجبل العاري بلا قرى وبلا فلاحين، لكنه كذلك سيكون بلا جواسيس ومندسين يتخفون بين الفلاحين أو بين الأنصار... وأكيد من سيقود المحاولة الجديدة غير هذه القيادة التي فشلت وانتهى أمرها... سيكونون هم والجبل وبنادقهم، كانت عيناه طيلة الطريق مصوبتين إلى حزام النقود الذي تمنطق به أبو فهد الذي عاد معهم، رأس (رزوقي) يردد:

بهذا الحزام نستطيع على الأقل البداية من جديد. !!!!

ملاحظة:

((حتى وقت كتابة هذه الشهادة، ورغم الحفريات الكثيرة التي نبشت في خارطة الدفن الجماعي بعد احتلال البلد في نيسان ٢٠٠٣، وسقوط النظام إلا أن أحداً لم يعثر بعد على رفات تلك العوائل، ما زالت رفاتهم مجهولة. !!!!))



كريم كطافة مواليد العرق عام ١٩٦١ بدأ الكتابة في أنواع أدبية عديدة، رواية، قصة قصيرة، نقد أدبي، سيناريو، يوميات..

أعماله المنشورة:

رواية ليالي ابن زوال، عن دار الشؤون الثقافية في بغداد ٢٠٠٧. ثم رواية حمار وثلاث جمهوريات عن دار الجمل ٢٠٠٨.

مجموعة قصصية بعنوان الرجل والقِدر.

كتاب ديمقراطية بدمها - يوميات بغدادية.

إضافة إلى الكثير من النصوص والمقالات الموزعة بين النقد الأدبي والعمود الصحفي منشورة في جرائد ومجلات عراقية وعربية ومواقع الكترونية مختلفة.

يقيم في هولندا ويعمل رساماً (في مجال الرسم الهندسي)

هناك خيط يتمدد في جسد النص مثل النسغ عن قصة حب نشأت في الزمن الخطأ والمكان الخطأ لتستمر مع الخطأ.. لكنه لأول مرة الخطأ الذي ينجي مراهقتين من الموت المحتم.. وهناك قصة الفنان الذي ظل يدور مع المحاصرين وهو يحمل معرضه الشخصي على ظهره.. لينتهي مصيره برصاصة مسدس يضعها هو في رأسه بعد أن حوصر في كمين خلال محاولة من محاولات النفاذ من شرنقة الحصار..

مجاميع من الشبان والشابات اتخذوا من الجبال مثابة لتمردهم. بدءوا قلائل في غياهب بعيدة ومعزولة لكنهم تكاثروا وغدا نشاطهم محسوساً، الأمر الذي استوجب تشغيل ماكنة الردع الشرقي. لتبدأ حكاية الابتزاز المهلك بسبي ذوي هؤلاء المتمردين، خطف أبناءهم، بناتهم، أخواتهم، أمهاتهم، زوجاتهم آباءهم. حكاية حياة رغم القسوة التي دمغت فصولها كانت تنوس بقصص حب نسجت خيوطها مع خيوط العنكبوت.. زوجات وأمهات وأخوات وآباء وجدوا أنفسهم محاصرين في خضم قتال لا جبهة له.. ليدفعوا حياتهم ثمناً لخيار لم يكن خيارهم الشخصي. اكتنفتهم غياهب لم تزل مجهولة في مكان ما من خارطة الدفن الجماعي العراقية.

وصفهم الإعلام الحكومي المسيطر على منافذ النشر الداخلي منها والخارجي بأوصاف تنتمي للشتيمة والاتهام (عصاة)، (مخربين)، (عملاء)... إلخ وأحياناً كانت تصفهم بعض الوكالات العالمية من باب الحياد أنهم (ثوار) على نظام صدام حسين. ماذا حصل لأولئك الثوار بعد توقف الحرب العراقية – الايرانية يوم ١٩٨٨/٨/٨. هذا هو موضوع الرواية.


ISBN 978-91-87373-51-0
9 789187 373510
دار نون للنشر